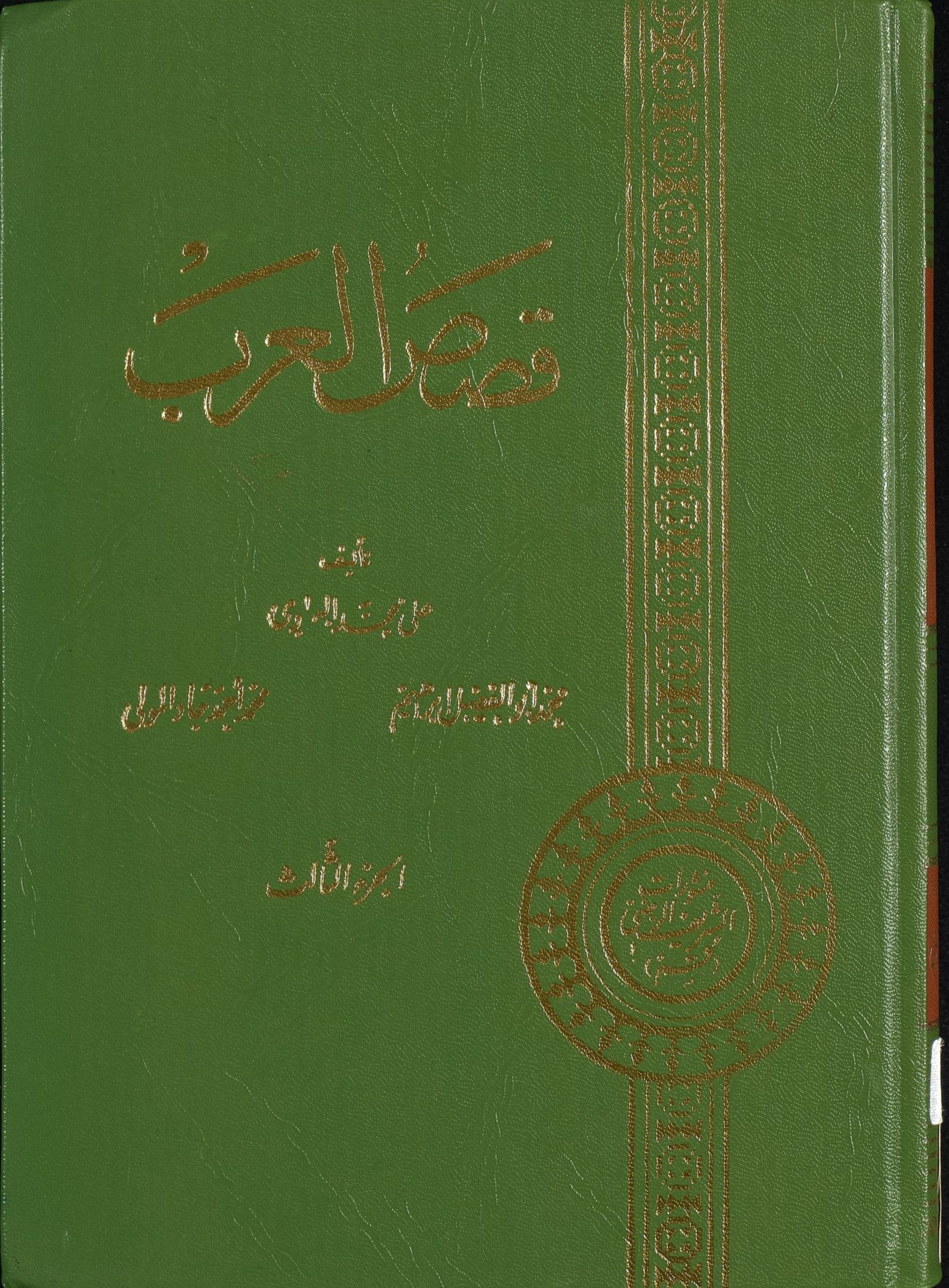

قصص العرب
تأليف
علي محمد البجاوي
محمد أبو الفضل إبراهيم
محمد أحمد جاد المولى
الجزء الثالث

قصص العرب

تأليف

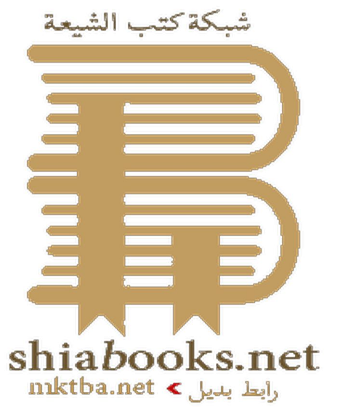
محمد أحمد جاد المولى   على محمد البجاوى   محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث

الطبعة الرابعة

[فيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق]

١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م



دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

الكتاب	قصص العرب
المؤلف	محمّد أحمد على أحمد محمّد أبوالفضل ابراهيم
الناشر	منشورات الرضى ـ قم
القطع	وزيرى
المطبعة	مطبعة أمير ـ قم
المطبوع	۱۰۰۰ نسخة
الطبعة	الخامسة
سنة الطبع	۱۳۶۴هـ٠ ش
عدد الأجزاء	أربعة
غدد الصفحات	۱۸۶۷ صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

تُعدّ القصّة أقدَر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق ، وتصوير العادات ، ورسم خلَجَات النفوس ؛ كما أنها - إذا شَرُفَ غرضُها ، ونبُل مقصدُها ، وكرمت غايتها - تهذِّبُ الطباع ، وتُرَقِّقُ القلوب ، وتدفع الناس إلى المُثل العليا : من الإيمان والواجب ، والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار .

وقد كانت القصةُ - ولا تزال - ذاتَ الشأن الأسمى فى آداب الأمم قديمها وحديثها ؛ فقد وردت فى التوراة ، وجاءت فى الإنجيل ، وزخرتْ بها آيُ الذكر الحكيم . ثم هى فى شعر الإغريق ، ومخلّفاتِ الرومان ، وآثار المصريين القدماء .

والعرب من الأمم التى أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل ، وأُثر عنها فيض من ذلك الأدب الرفيع ؛ بَيْدَ أن بعضاً من الباحثين المحدَثين قد جحدوا نصيبهم من هذا الفن ، وهضموهم حقّهم فى ذلك الباب ، ووصموهم بالخيال العقيم ، وعابوا عليهم الفكر القريب ؛ ولكن المنصفين منهم قد هالَهُمْ هذا الجحود ، ولم يرقْهُم ذلك النكران ، فاعترفوا للعرب بالقصص التى ترجموها عن الفرس والهنود ، وتزيّدوا عليها فى القاهرة وبغداد ، وتحدّثوا للناس عن قصص عنترة وذات الهمة ، وجلَوْا عليهم ألف ليلة وأخبار ابن ذى يزن .

وهذه القصص ، وإن كانت قد نجحت نجاحًا تامًّا فى تصوير العصور التى وضعت

فيها ، وَرَسَمَتْ لنا البيئة التى نبتت منها ، كثير منها تافه الغرض ، مُبْهَم القصد ، ردئ اللغة والأسلوب . وفى قَصْرِ قصص العرب عليها جحد للآداب العربية فضلها ، وإنكار عليها مفاخرها . . . وإلا فإن هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التى انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء ؛ وما مَنَع الناس أن يَرِدُوا شريعتها ، أو يجنوا أطايبها إلا مامُنِيَت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، ورديء الطبع ، وتحريف الناسخين

وكتابُنا هـذا جَمَعْنا فيه هذه القصص : ما انتبذ منها وما شرد ، وألَّفنا ماتنافر وافترق ، وجعلناه أقساماً ، وقسمناه أبواباً ؛ جمعنا كل قصة إلى مثلها ، وضممنا كل طُرْفة إلى شبْهها ؛ ليجتمع إلى غرض القصة ــ من تهذيب الطباع وترقيق النفوس ــ عرض شامل لحياة العرب : مدنيتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكرٌ لعوائدهم وشمائلهم ، وما طُبِعوا عليه من كريم الغرائز ، وحدّة الذكاء ، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة ، وما أُثِرَ عنهم من أخبار صوّروا بها حبَّهم العفيف وغزَلَهم الرقيق وعشقهم الشريف ، ولم يخلُ كتابنا مما كان لهم من محاورات ومساجلات ومطايبات ومُناقلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك وطُرَف القضاة والوُلاة ، وأخبار الأيام والحروب ، وغير هذا مما سيعرض مفصَّلاً فى أبواب الكتاب .

ولم نقف فى اختيار القصة على تعريف خاص ، أو حدٍّ مرسوم ، ففيما اخترناه ماذكروه من طريف الأخبار وشائق الأحداث ، وما وضعوه مصوّرين به المجالس والأشخاص ، وما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان ، وما تخيّلوه من أخبار الشياطين والجان ؛ إذ كان الغرض تثقيف الأذهان بذكر الطرائف ،وانشراح الصدور بعرض

اللطائف مع كشف نواحى التاريخ ، وإظهار مفاخر العرب .

ولعلّ القارئ يروقه ماتدسّى فيها من شريف الخصال فيحتذيها ، أو تعجبه كرائم العادات فيطبع نفسه عليها ، إلى مافى هذا من بعث فصيح الألفاظ ، وإحياء رائع الأساليب . ولعله يكون فيها مبادئ صالحة وأسس قويمة لمن يريد أن ينشىء قصصاً طويلة على أساس ، أو يقيم روايات على بناء .

وكان من همنا أن نحرصَ على اختيار القصص كما وضعُوها ، إلا ما كان من زيادة اقتضاها اختلاف الروايات ، أو تغيير لكلمات لا تألَفُها الآداب ، أو حذف عبارات لا غَنَاء فيها .

ولقد بذلنا من الجهد فى ضبط الألفاظ ، وكشف النقاب عن المعانى ، وتراجم الأشخاص ، وذكر المراجع مانرجو أن يكون به جَنَى الكتاب قريباً ومنهله عذبًا، ووِرْدُه سائغًا ، وطريقه سهلًا معبّداً .

ونسأل الله أن ينفع به على ماصدقنا فى النية ورجونا م؟

ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ هـ
مايو سنة ١٩٣٩ م

المؤلفون

مقدمة الطبعة الرابعة

هـذا كتابنا « قصص العرب » نقدمه إلى أدباء العربية فى طبعته الرابعة ، بعد أن نفدت طبعته الثالثة ، وازداد الأدباء إقبالا على اقتنائه وتقديرا له .

وكنا قد تلقينا رسائل من بعض أفاضل الأدباء يرغبون إلينا فيهـا أن نذلل الطريق إلى قراءة الكتاب؛ فنكثر من ضبط الكلمات ، ونزيد من شرح المفردات، فعملنا على تحقيق رغبتهم ، و بذلنا غاية الجهد فى تحريره وتحقيقه . وزدنا فى شرح كلماته وضبط أعلامه .

ونرجو أن يكون ذلك كفاء لمـا تلقينا من رسائل الأدباء ، ولما تفضلت به صحف الشرق العربى من إشادة .

ونسأل الله أن يزيد به النفع بقدر مابذلنا من جهد ، ورجونا من خير .

ربيع الأول سنة ١٣٨٢
سبتمبر سـنة ١٩٦٢

المؤلفون

البَابُ الأولُ

في القصص التي تعرب عما كان يقع بين العامة والملوك ، والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم ، من كل ذي صلة بالحكم والحكام ، مما يتناول حِيَلهم في المنازعات والخصومات ، ويوضح طرائقهم في رفع الظلامات ، ورجع الحقوق ، وما يجرى هذا المجرى.

١ — متى تعبَّدتم الناس ؟*

قال أنَس: بينما أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب[١] قاعد إذ جاءه رجلٌ من أهل مصر ، فقال: ياأميرَ المؤمنين ؛ هذا مقام العائذ بك . فقال عمر : لقد عُذتَ بمُجيب؛ فما شأنك ؟ قال : سابقْتُ على فرسي ابناً لعمرو بن العاص ـ وهو يومئذ أميرٌ على مصر ـ فجعل يُقَنِّعُنِي[٢] بسوطه ويقول : أنا ابنُ الأكرمين ! فبلَغ ذلك عمرًا أباه ، فخشِيَ أن آتِيَك ، فحبسني في السجن ، فانفلتُّ منه ، وأتيتك .

فكتب عمرُ بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقِمْ حتى يأتيكَ . فقدِم عمرو ، فشهدَ الحاج . فلما قضى عُمَر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنُه إلى جانبه ، قام المصري ، فرمى إليه عمر بالدِّرَّة[٣] .

قال أنَس: ولقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم يَنْزِع[٤] حتى أحببناأن يَنزِع من كثرة ماضَرَبه ، وعمر يقول : اضرِب ابنَ الأكرمين ! ثم قال للمصري: قد استوفيتُ واشتفيتُ . قال عمر : ضَعْها على صَلَعة[٥] عَمْرو ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ قد ضربتُ الذي ضربني . فقال عمر : أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكونَ أنت الذي تَنْزع . ثم قال : ياعمرو ؛ متى تعبَّدتُم الناسَ وقد وَلَدتْهُم أمهاتُهُمْ أحراراً !

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ٥٩

(١) ثاني الخلفاء الراشدين ، المضروب بعدله المثل ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، وبويع بالخلافة سنة إحدى عشرة ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي سنة ٢٣ هـ (٢) قنعه بالسوط : غشاه به (٣) الدرة : السوط . (٤) يكف وينتهي (٥) يريد موضع الصلع من الرأس

٢ — أَحَبُّ الولاة إلى عمر بن الخطاب*

قال الربيع بن زياد الحارثى : كنتُ عاملا لأبى موسى الأشعرى على البَحْرَين، فكتب إليه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يأمُره بالقدوم عليه هو وعُمَّالُه ،وأن يَسْتَخْلِفُوا[1] جميعاً .

فلما قَدِمْنا أتيتُ يَرْفَأ[2] ؛ فقلت : يايَرْفَأُ ؛ مسترشدٌ وابنُ سبيل ؛ أىّ الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عُمَّالَهُ ؟ فأومأ إلىّ بالخشونة . فاتخذتُ خُفَّيْنِ مُطَارَقَين[3] ، ولبِستُ جُبَّةَ صوف ، ولُثْتُ[4] عمامتى على رأسى .

فدخلنا على عمر فصفَّنا بين يديه ، فصعّدَ فينا وصوَّبَ ، فلم تأخذ عينهُ أحداً غيرى ؛ فدعانى فقال :مَنْ أنت؟ قلت: الرَّبيع بن زياد الحارثىّ ، فقال : ماتتولّى؟ قلتُ : البحرين . قال : كم ترتزق ؟ قلت : ألفاً . قال : كثير ! فما تصنعُ به ؟ قلت : أتقوَّت منه شيئاً ، وأعودُ به على أقاربَ لى ؟ فما فَضَل عنهم فعلى فقراء المسلمين . قال : فلا بأس ! ارْجع إلى موضعك .

فرجعْتُ إلى موضعى من الصف ؛ فصعَّد فينا وصوَّب ، فلم تقع عينهُ إلاعلىّ ؛ فدعانى وقال : كم سِنُّك؟ قلت : خمسٌ وأربعون سنة . قال : الآن حين استَحْكَمْتَ ! ثم دعا بالطعام وأصحابى حديثٌ عهدُهم بلَيِّن العيش ، وقد تجوَّعتُ له، فأُتِىَ بخُبزٍ وأكْسارٍ[5] بعير ، فجعل أصحابى يعافُون ذلك ، وجعلت آكل

* الكامل للمبرد : ١ ــ ٨٩

(١) يجعلوا بدلهم خلفاء عنهم . (٢) مولى عمر بن الخطاب . (٣) طارق نعلين : أطبق نعلا على نعل فخرزهما . (٤) لثتها على رأسى : أدرت بعضها على بعض على غير استواء .
(٥) أكسار بعير : الكسر : العظم ينفصل بما عليه من اللحم .

فأُجيد ، ثم جعلتُ أنظر إليه يلحظُنى من بينهم ، ثم سبقتْ منى كلمةٌ تمنّيتُ أنى سُخْتُ فى الأرض ؛ إذ قلت : ياأمير المؤمنين ؛ إن الناسَ يحتاجون إلى صَلَاحِك ، فلو عَمَدتَ إلى طعامٍ أَلْيَنَ من هذا ! فزجرنى .

ثم قال : كيف قلت؟ قلتِ : أقول ياأمير المؤمنين : تنظر إلى قُوتِك من الطحين فيُخبَز لك قبل إرادتك إياه بيومٍ ، ويطبخ لك اللحم كذلك ، فتُؤْتَى بالخبز ليِّناً واللحم غريضاً[1] ، فسكن من غَرْبه[2] ، وقال : أههنا غُرْتَ[3] ! قلت : نعم ! فقال : ياربيع ؛ إنا لو نشاء مَلَأْنا هذه الرِّحابَ من صَلَائِقَ[4] وسَبَائك[5] وصِنَاب[6] ، ولكنى رأيت الله عزّ وجلّ نعى على قوم شهواتهم ، فقال : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ .

ثم أمر أبا موسى الأشعرى بإقرارى وأن يُسْتَبْدَل بأصحابى .

---

(١) الغريض : الطرى . (٢) سكن من غربه : أى هدأ من غضبه . (٣) أههنا غرت : أى ذهبت . (٤) صلائق : ما عمل بالنار طبخاً وشياً . (٥) سبائك : يريد ما يسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه ، وكانت العرب تسمى الرقاق السبائك . (٦) الصناب : الخردل المعمول بالزبيب ويؤتدم به .

٣ — عُمَر يتفقَّدُ رِعيَّتَه*

خرج أميرُ المؤمنينِ عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه فى ليلةٍ ، يطوف و يتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بَيْتاً من الشَّعر مَضْروباً ، لم يكن قد رآه بالأمس . فدَنَا منه ؛ فسمع فيه أنينَ امرأة ، ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه وقال له : مَنِ الرَّجُل ؟ فقال : رجلٌ من البادية ، قدمتُ إلى أمير المؤمنين ، لأُصِيبَ من فَضْله ، قال : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة مَخَّضَت[1] ! قال : فهل عندها أحَدٌ ؟ قال : لا .

فانطلق عمر فجاء إلى منزله ، فقال لامرأته – أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : هل لك فى أَجْر قد ساقَه الله إليك ؟ قالت : وما هو ! قال : امرأةٌ مَخَّضَتْ ليس عندها أحد ! قالت : إن شئت ! قال : فَخُذِى معك مايصلح للمرأة من الخِرَق والدُّهن ، وائْتنى بقِدْر وشَحْم وحبُوب . فجاءته به ، فحمل القدر ، ومشَتْ خلفه ، حتى أَتى البيت ، فقال لها : ادخُلى إلى المرأة .

ثم قال للرجل : أَوقِدْ لى ناراً ، ففعل ، فوضع القدر بما فيها ، وجعل عمرُ ينفخُ النارَ ويُضْرِمها ، والدخانُ يخرج من خِلَال لحيته ، حتى أَنْضَجَهَا ، وولدتِ المرأة ، فقالت أم كلَثوم : بَشِّرْ صاحبَك ياأمير المؤمنين بغلام . فلما سمعها الرجلُ تقول : ياأمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : ياخَجْلَتاه منك يا أمير المؤمنين ! أهكذا

* المستطرف : ٢ – ٩٣

(١) مخضت : أتاها المخاض ، وهو ما تشعر به المرأة قبيل الوضع .

تفعلُ بنفسك ! قال : يا أخَا العرب ، من وُلِّى شيئاً من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على صغير أمورهم وكبيرها ، فإنّه عنها مسئول ، ومتى غفَل عنها خَسِر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر ، وأخذ القِدْر ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتْها أم كلثوم ، وأطعمت المرأة ، فلما استقرّت وسكنت طلعت أم كلثوم ، فقال عمر رضى الله عنه للرجل : قمْ إلى بيتك وَكُلْ ما بَقِىَ فى البُرْمَةَ[1] ، وفى غَدٍ ائت إلينا .

فلما أصبح جاءه فجهَّزه بما أغناه به .

---

(١) البرمة : القدر .

٤ — عُمَر بن الخطاب يحاسِب نفسه*

قال الأحنف بن قَيْس : قدمْنا على عُمَر بن الخطاب بفتحٍ عظيمٍ نبشِّرهُ به ، فقال : أين نزلتُم ؟ قلنا : فى مكان كذا !

فقام معنا حتى انتهينا إلى مُناخ[١] رِكَابنا ، وقد أضْعفها الكلال ، وجَهَدها[٢] السير ؛ فقال : هلا اتَّقيتم الله فى رِكابِكم هذه ! أما علمتم أنَّ لها عليكم حقًّا ؟ هَلَّا أرحتُموها فأكَلَتْ من نبات الأرض !

فقلنا : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنا قَدِمْنا بفَتْحٍ عظيم ، فأحْبَبْنَا التسرّع إليك وإلى المسلمين بما يَسُرُّهم . فانصرفَ راجعاً ، ونحن معه .

فأتى رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فلاناً ظلمنى فأعْدِنى عليه[٣] . فرفع فى السماء درّتَه[٤] ، وضرب بها رأسه ، وقال : تَدَعُون عمر ، حتى إذا شُغِل فى أمورِ المسلمين أتيتموه وقلتم : أَعْدِنى أعْدِنى ! فانصرف الرجلُ يتذمّر ، فقال عمر : علىّ بالرجل ! فجِيء به فألْقَى إليه المِخْفَقَة[٥] ، فقال : اقْتَصّ . قال : بل أَدَعُه لله ولك . قال : ليس كذلك ، بل تدعُه إما لله وإرادةِ ماعنده ، وإما تَدَعه لى ! قال : أَدَعُه لله . قال : انصرف .

ثم جاء حتى دخلَ منزله ، ونحنُ معه ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جلس ، فقال لنفسه : يابنَ الخطاب ، كنتَ وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزّك الله ، ثم حملك على رقابِ الناس ، فجاء رجلٌ يَستعْدِيك

---

* ابن أبى الحديد : ٣ ـ ٩٧

(١) المناخ هنا : مبرك الإبل ، والركاب : الإبل . (٢) جهد دابته : أجهدها . (٤) أعدى فلاناً عليه : نصره وأعانه وقواه (٤) الدرة : السوط . (٥) المخفقة : الدرة أو سوط من خشب .

على مَنْ ظَلَمه فضربته ؛ ماذا تقول لربك غداً ؟ فجعل يعاتِبُ نفسه معاتبةً ، فظننت أنه من خير أَهْلِ الأرضِ !

٥ — جئتُك من عند أزهد الناس *

استعمل عمرُ رضى الله عنه على حِمْص رجلا يقال له عُمَيْر بنُ سعد [١] ؛ فلما مضتِ السَّنَةُ كتب إليه : أن اقْدَم علينا ؛ فلم يشعر عُمَر إلا وقد قَدِم عُمَيْر ماشياً حافياً ، عُكَّازَتُه [٢] بيده ، وإدَاوَتُه [٣] ومِزْوَدُه وقصْعَتُه على ظهره . فلما نظر إليه عمر قال له : يا عميرُ ؛ أجَبْتَنَا أم البلادُ بلادُ سوء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما نهاك اللهُ أن تجهر بالسوء وتَنْأَى عن سوء الظن ؛ وقد جئتُ إليك بالدنيا أجرُّها بقِرَابها ! فقال له : وما معك من الدنيا ؟

قال : عُكَّازةٌ أتوَكَّأُ عليها ، وأدفعُ بها عدوًّا إن لقيتُه ؛ ومِزْوَدٌ أحملُ فيه طعامى ، وإدَاوَةٌ أحمل فيها ماء لشربى وطَهُورى ، وقَصْعَةٌ أتوضأ فيها ، وأغسل فيها رأسى ، وآكل فيها طعامى ؛ فو الله يا أمير المؤمنين ؛ ما الدنيا بعدُ إلا تَبَعٌ لما معى .

فقام عمر رضى الله عنه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه ؛ فبكى بكاء شديداً ، ثم قال : اللهم أَلحِقْنى بصاحبىّ ؛ غيرَ مُفْتَضَح ولا مُبَدِّل .

---

* المستطرف : ١ — ١١٠

(١) شهد فتوح الشام ، واستعمله عمر على حمص ، وكان عمر يقول فيه : وودت لو أن لى رجالا مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين . (٢) العكازة : عصاً فى أسفلها زج يتوكأ عليها الرجل . والإداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء .

ثم عاد إلى مجلسِه ، فقال : ما صنعتَ فى عملك يا عُمَير ؟ فقال : أخذتُ الإبل من أهل الإبل ، والجِزْيةَ من أهل الذِّمة عن يَدٍ[١] وهم صاغرون ، ثم قسَمْتُها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ؛ فو اللهِ يا أميرَ المؤمنين لو بقى عندى منها شىء لأتيتُك به .

فقال عمر : عُدْ إلى عملك ياعمير ، فقال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردَّنى إلى أهلى . فأذِنَ له فأتى أهلَه .

فبعث عمر رجلا ، يقال له حبيب ، بمائةِ دينار ، وقال : اختبرْ لى عميراً ، وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حالَه : هل هو فى سعة أو ضيق ؟ فإن كان فى ضيق فادفعْ إليه الدنانير .

فأتاه حبيب ، فنزل به ثلاثاً ، فلم يرَ له عيشاً إلا الشعير والزَّيت ؛ فلما مضت ثلاثةُ أيام ، قال عمير : ياحبيب ؛ إن رأيتَ أن تتحوَّل إلى جيراننا فلعلهم يكونون أوسعَ عيشاً منّا ؛ فإننا والله لو كان عندنا غيرُ هذا لآثرناك به .

فدفع إليه الدنانير ، وقال : قد بعث بها أميرُ المؤمنين إليك ، فدعا بفَرْوٍ خَلَق لامرأته ؛ فجعل يصرُّ منها الخمسة الدنانير والستة والسبعة ، ويبعثُ بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها .

فقدم حبيب على عمر وقال : جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهدِ الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير . فأمر له عمر بوَسْقين[٢] من طعام وثوبين . فقال : يا أمير المؤمنين ، أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوَسْقان فلا حاجة لى بهما ؛ عند أهلى صاعٌ من برّ هو كافيهم حتى أرجعَ إليهم .

---

(١) عن يد : عن قهر وذل ، وعن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم . (٢) الوسق: ستون صاعاً ، أو حمل البعير .

٦ ـ تأديبُ عمر بن الخطاب لعمّاله *

كان عمرُ بن الخطاب جالسا فى المسجد فمرّ به رجل فقال : ويلٌ لك ياعمر من النار ! فقال : قرّبوه إلىّ . فدنا منه ، فقال : لِمَ قلتَ ما قلت ؟ قال : تستعملُ عُمَّالَك وتشترط عليهم ، ثم لا تنظر : هل وَفَوْا لك بِشَرْطٍ أم لا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر اشترطتَ عليه فتركَ ما أمرته به ، وارتكب ما نهيته عنه ؛ ثم شرح له كثيرا من أمره .

فأرسل عمر رجلين من الأنصار ، فقال لهما : انتهيا إليه فاسْألا عنه ، فإن كان كذَب عليه فأعلمانى ، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تُمَلِّكاه من أمره شيئا ، حتى تَأْتيا به .

فذهبا فسألا عنه ، فوجداه قد صدق ؛ فجاءا إلى بابه ، فاستأذنا عليه ، فقال صاحبه : إنه ليس عليه اليوم إذْنٌ . قالا : لَيخرجَنَّ إلينا أو لنحرِقنَّ عليه بابه ، وجاء أحدُهما بشُعْلَةٍ من نار .

فدخل الآذنُ فأخبره ؛ فخرج إليهما ، فقالا : إنا رسولا عمر إليك لتأتيه ، قال : إن لى حاجة ، تمهلاننى إلى أن أتزود . قالا : إنه عزَم علينا ألا نُمْهلك .

فاحتملاه وأتيا به عمرَ ، فلما أتاه سلم عليه فلم يعرفه ، وقال له : من أنت ؟ وكان رجلا أسمر ، فلما أصاب من رِيف[1] مصر ابيضَّ وسمن ـ فقال : أنا عاملك على

* ابن أبى الحديد : ٣ ـ ٩٨

(١) الريف هنا : أرض فيها زرع وخصب .

مصر ، أنا فلان . قال : وَيْحَك ! ركبتَ ما نُهيت عنه ، وتركتَ ما أُمِرتَ به ، والله لأعاقبنك عقوبةً أُبلِغ إليك فيها .

آتونِي بكساء من صوف وعصا وثلثمائةِ شاة من غَنَمِ الصدقة ؛ ثم قال له : البس هذه الدُّرَّاعة[1] ؛ فقد رأيتُ أباك ، وهذه خير من دُرَّاعته ، وخُذْ هذه العصا فهى خير من عصا أبيك ، واذهب بهذه الشِّيَاه فارْعَها فى مكان كذا — وذلك فى يوم صائف[2] — ولا تمنع السَّابِلَة[3] من ألبانها شيئا إلا آل عمر ، فإنى لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئا .

فلما ذهب ردّه ، وقال : أفهمتَ ما قلتُ ؟ فضرب بنفسه الأرض ، وقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ لاأستطيعَ هذا ، فإن شئت فاضربْ عنقى . قال : فإن رددْتُك فأى رجل تكون ؟ قال : والله لا يبلغك بعدها إلا ماتحبّ . فردّه فكان نعمَ الرجل !

(١) الدراعة : جبة مشقوقة من المقدم . (٢) يوم صائف : شديد الحر . (٣) السابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم .

٧ — أَخْطَأْتَ فى ثلاث *

خرج عمر بن الخطاب فى ليلة مظلمة، يَعُسُّ[١] بنفسه؛ فرأى فى بعض البيوت ضَوْء سِرَاج، وسمع حديثاً؛ فوقف على الباب يتجَسَّس؛ فرأى عبداً أسود قُدَّامه إناء فيه مِزْر[٢]، وهو يشرب، ومعه جماعة؛ فهمّ بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت؛ فتسوَّر السطح، ونزل إليهم، ومعه الدِّرَّة[٣].

فلما رأَوْه قاموا وفتحوا الباب، وانهزموا؛ فأمسك بالأسود؛ فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أخطأتُ وإنى تائب؛ فاقْبَل توبتى. فقال: أريد أن أَضْرِبَك على خطيئتك! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن كنتُ قد أخطأتُ فى واحدة، فأنتَ أخطأتَ فى ثلاث، فإن الله تعالى يقول: «ولا تجسَّسُوا»، وأنت تجسَّسْت، ويقول: «وأْتُوا البيوت من أبوابها»، وأنت أتيتَ من السطح، ويقولُ: «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تَسْتَأْنِسُوا[٤] وتسلِّمُوا على أهلها»، وأنتَ دخلتَ وما سلَّمت؛ فهب هذه لتلك؛ وأنا تائب إلى الله تعالى، على ألا أعود! فاستتابه[٥] واستحسن كلامه.

---

* المستطرف: ٢ — ٩٤

(١) يعس: يطوف بالليل. (٢) المزر: ضرب من الأشربة. (٣) السوط الذى يضرب به. (٤) تستأذنوا (٥) استتابه: سأله أن يتوب.

٨ — تنصَّرَتِ الأَشراف من عارِ لَطْمَةٍ *

رُوى أن جَبَلَة[١] بن الأيهم بن أبى شَمِرٍ الغَسَّانى لما أراد أن يُسلم ، كتب إلى عمر بنِ الخطاب من الشام يُعْلِمه بذلك ويستأْذنه فى القدوم عليه ، فَسُرَّ بذلك عمر والمسلمون ، فكتب إليه : أنِ اقدم ولك مالنا وعليك ما علينا . .

فخرج جَبَلة فى خمسمائة فارسٍ من عَكّ وجَفْنة ؛ فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوَشْى المنسوج بالذهب والفِضّة ، ولبس يومئذ جبلةُ تاجَه وفيه قرطُ مارية — وهى جَدَّته — ودخل المدينة فلم يبق بها أحدٌ إلا خرج ينظرُ إليه حتى النساء والصِّبْيَان ؛ فلما انتهى إلى عمر رحَّب به وأدنى مجلسه ! ثم أرادَ الحج ، فخرج معه جَبَلة .

فبينا هو يطوف بالبيت إذ وَطِئَ على إزارِه رجلٌ من بنى فَزارة فحلّه ، فالتفت إليه جَبَلة مُغضباً ، فلطَمَه فهشَمَ أنفه ، فاستعدى عليه الفَزَارى عمرَ بنَ الخطاب ؛ فبعث إليه فقال : مادعاك ياجَبَلة إلى أن لَطَمْت أخاك هذا الفَزارى فهشَمت أنفَه ! فقال : إنه وَطِئَ إزارى فحلّه ؛ ولولا حُرْمةُ البيت لضربتُ الذى فيه عيناه[٢] . فقال له عمر : أمّا أنتَ فقد أقررت ؛ فإما أن ترضيه ، وإلا أُقِدْتُه منك . قال . أتُقِيده منى وأنا ملك وهو سُوقَة ! !

* الخزانة : ٤ — ٢٩٨ ، الأغانى : ١٤ — ٤ ، العقد : ٢ — ٥٦ ، طبعة لجنة التأليف .

(١) جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة فى بادية الشام ، عاش زمناً فى العصر الجاهلى ، ولما ظهر الإسلام أسلم فى أيام عمر ، ثم ارتد وعاد إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية حيث أقام عند هرقل إلى أن توفى سنة ٢٠ هـ . (٢) يريد رأسه .

قال عمر : ياجَبَلة ؛ إنه قد جمعك وإياه الإسلام ، فما تَفْضُله بشيء إلا بالتقوى والعافية ، قال جبلة : والله لقد رجوتُ أن أكونَ فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية . قال عمر : دَعْ عنك هذا ، فإنك إن لم تُرْضِ الرجل أقَدْتُه منك ، قال جبلة : إذن أتنصّر . قال : إن تنصرتَ ضربتُ عنقك . واجتمع قومُ جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة . فقال جبلة : أخِّرنى إلى غدٍ ياأمير المؤمنين . قال : ذلِكَ لك .

ولما كان جُنْح الليل خرج جبلةُ وأصحابه من مكة ، وسار حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر ، وأقام عنده ؛ وأعْظَمَ هرقلُ قدومَ جبلة ، وسُرَّ بذلك ، وأقطعه الأموال والأرَضين والرِّباع [١] ، وجعله من محدِّثيه وسُمّاره .

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولا [٢] إلى هِرَقْل يدعوه إلى الإسلام ، وأجابه إلى المصالحة على غيرِ الإسلام ، أراد أن يكتبَ جوابَ عمر ، وقال للرسول : ألقيتَ ابنَ عمك هذا الذى ببلدنا ــ يعنى جبلة ــ الذى أتانا راغباً فى ديننا ؟ قال : مالقيتُه ، قال : الْقَه ، ثم ائتنى أعطك جواب كتابك .

وذهب الرسول إلى باب جبلة،فإذا عليه من القَهَارمة والحجّاب والبَهْجَة وكثرة الجمع مثلُ ماعلى باب هِرَقْل . قال الرسول : فلم أزل أتلطّف فى الإذن حتى أُذِن لى ، فدخلت عليه ، فرأيت رجلا أَصْهَب [٣] اللحية ذا سِبَال [٤] ، وكان عهدى به أسمر أسودَ اللحية والرأس ، فنظرت إليه فأنكرتُه ، فإذا هو قد أتى بسُحالَةِ [٥] الذهب ، فذرَّها فى لحيته حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير [٦] ، قوائمه أربعة أُسُود من ذهب .

---

(١) الرباع جمع ربع : الدار . (٢) هو جثامة بن مساحق الكنانى . (٣) الصهبة : حمرة يعلوها سواد . (٤) السبال : جمع سبلة وهى ما على الشارب من الشعر . (٥) السحالة : ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا بردا . (٦) القوارير : شجر تعمل منه الرحال والموائد والقوارير من الزجاج أيضاً .

فلما عرفني رفعني معــه في السرير ، ورحّب بي ، ولامني على تركي النزولَ عنده ، ثم جعل يسائلني عن المسلمين ، فذكرتُ خيراً وقلت : قد أُضعفوا[١] أضعافاً على ماتعرف ؛ فقال : كيف تركتَ عمرَ بن الخطاب ؟ قلت : بخير ، فرأيت الغمّ قد تبيّن فيه ، لما ذكرتُ له من سلامة عمر . ثم انحدرتُ عن السرير ، فقال : لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها ؟ قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا . قال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبَك من الدَّنَس ولا تبالِ علام قعدْتَ . فلما سمعتُه يقول : صلى الله عليه وسلم طَمِعتُ فيه ، فقلت له : ويحك ! ياجبلة ، ألا تُسلم وقد عرفتَ الإسلام وفضْلَه . قال : أبَعْدَ ما كان مني ؟ قلت : نعم : قد فعل رجُلٌ من فَزارة أكثرَ مما فعلت : ارتدَّ عن الإسلام ، وضرب وجوهَ المسلمين بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام ، وقُبِل ذلك منه ، وخلَّفته بالمدينة مسلماً . قال : ذَرْني مِنْ هذا ، إن كنتَ تضمن لى أن يزوّجني عمر ابنته ، ويولّيني الإمرة بعده رجعتُ إلى الإسلام . قال : ضمنت لك التزويج ، ولم أضمن لك الإمرة . قال : لا .

فأومَأ إلى خادم بين يديه ، فذهب مسرعاً ، فإذا خَدَم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعامُ ، فوضِعت ونُصبت موائدُ الذهب وصِحَاف الفضة ، وقال لى : كُلْ فقبضت يدى ، وقلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن نَقِّ قلبك وكُلْ فيما أحببت . وأكل فى الذهب والفضة ، وأكلت فى الخَلِيج[٢] .

---

(١) أضعف الشيء : زيد على أصله فيجعل مثلين أو أكثر . (٢) الخليج : الجفنة .

فلما رُفع الطعام جيء بِطِسَاس[١] الفضة وأباريق الذهب ، وأومأ إلى خادم بين يديه ، فمرّ مسرعاً ، فسمعت حِسًّا ، فالتفتُّ ، فإذا خدَمٌ معهن الكراسى مرصَّعة بالجوهر ، فوُضِعَت عشرة عن يمينه ، وعشرةٌ عن يَساره ، ثم سمعت حِسًّا ، فإذا عشر جوار قد أقبلن مَطْمُوماتِ[٢] الشعر متكسراتٍ فى الحَلْى ، عليهن ثياب الدِّيباج ، فلم أرَ وجوهاً قط أحسنَ منهن ، فأقعدهن على الكراسى عن يمينه ، ثم سمعت حساً فإذا عشر جوارٍ أخرى فأجلسهن على الكراسى عن يساره ، ثم سمعت حسًّا ، فإذا جارية ٌكأنها الشمس حسناً وعلى رأسها تاجٌ ، وعلى ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه ، وفى يدها اليمنى جَامَةٌ[٣] فيها مسك وعَنْبر ، وفى يدها اليسرى جَامَة فيها ماء ورد ، فأومأتْ إلى الطائر ، فوقع فى جَامَةِ ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأت إليه فطار حتى نزل على صليب فى تاج جبلة ، فلم يزل يُرَفرف حتى نفض ما فى ريشة عليه؛ وضحك جبلةُ من شدة السرور ، حتى بدتْ أنيابه ، ثم التفت إلى الجوارى التى عن يمينه ، فقال : بالله أَطْرِبْننى . فاندفعن يتغَنَّين يخفقن بعيدانهن ويقُلْن[٤] :

لله درُّ عِصَابةٍ نادَمْتُهم ... يوماً بجلّقَ[٥] فى الزمانِ الأوّلِ
يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البريصَ عليهمُ ... بَرَدَى يُصَفّق بالرحيق السَّلْسَلِ[٦]
أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ ... قبرِ ابن مارية الكريم المُفْضِلِ
يُغشَوْن حتى ماتَهِرُّ كلابهم[٧] ... لا يَسألون عن السواد المقبل

---

(١) الطساس : جمع الطس ، وهو الطست . (٢) طمت شعرها : عقصته وهو مطموم ، والعقص : أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ، ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها.
(٣) إناء من فضة . (٤) الشعر لحسان بن ثابت . (٥) جلق : دمشق .
(٦) البريص: نهر بدمشق . وبردى : نهر بدمشق أيضاً . وتصفيق الشراب :مزجه، الرحيق: الخمر . سلسل : لين (٧) تهر كلابهم : هرير الكلب : صوته دون النباح .

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحْسابهمُ　　　شمُّ الأنوف مِنَ الطِّراز الأوّل

فضحك حتى بدت نَوَاجِذُه، ثم قال : أتدرى مَنْ قائل هذا ؟ قلت : لا ، قال : قائلُه حسانُ بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يساره ، فقال : بالله أبكيننا . فانْدَفَعْنَ يتغنين ، وهنّ يخفقن بعيدانهن .

فبكى حتى جعلت الدموعُ تسيل على خدّيه ، ثم قال : أتدرى مَن قائل هذا الذى تغنّين به ؟ قلت : لا أدرى ، قال : حسان بن ثابت ، ثم أنشأ يقول :

تنصرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمَةٍ　　　وما كان : فيها ـ لو صبرتُ لهاضَرَرْ

تكنّفَنِى منها لَجاجٌ ونَخْوَةٌ　　　وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ

فيااليت أُمِّى لم تلدنى وليتنى　　　رجَعتُ إلى الأمر الذى قال لى عُمَرْ

وياليتنى أرْعَى المَخَاض[1] بِقَفْرَةٍ　　　وكنتُ أسيراً فى ربيعة أو مُضَرْ

وياليتَ لى بالشام أدنَى معيشةٍ　　　أجالسُ قَوْمِى ذاهبَ السمع والبصَرْ

ثم سألنى عن حسان : أحىٌّ هو ؟ قلت : نعم ، تركتهُ حيًا . فأمر لى بكسوة ومال ، ونُوق مُوقرة بُرا ، ثم قال لى : إن وجدتَه حيًّا فادفع إليه الهديَّة ، وأقْرِئه سلامى ، وإنْ وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله ، وانحر الجمالَ على قبره .

فلما قدمتُ على عمر وأخبرتُه خبر جَبَلة ، وما دعوته إليه من الإسلام ، والشّرْط الذى شَرطه ، وأنى ضَمنت له التزويج ، ولم أضمن له الإمرة قال : هلاَّ ضمنت له الإمرة ؟ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل ! ثم ذكرتُ له الهديَّةَ التى أهداها إلى حسان بن ثابت . فبعث إليه ، وقد كُفَّ

---

(١) المخاض ، نوق مخاض : حوامل .

بصره فأُتِى به ، وقائدٌ يقوده . فلما دخل قال : يا أمير مؤمنين ؛ إنى لأَجِد رياح آل جَفْنَةَ عندك . قال : نعم ؛ هذا رجل أقبل من عند جبلة ، قال : هات يابنَ أخى ؛ إنه كريم من كرامٍ مَدحتُهم فى الجاهلية ، فحلف أنْ لا يَلْقَى أحدا يعرفنى إلا أهدى إلىّ معه شيئاً : فدفعتُ إليه الهدية : المال ، والثياب ، وأخبرته بما كان أمر به فى الإبل إن وُجد ميتاً . فقال : وددت أنى كنتُ ميتاً فنُحِرَت على قبرى ؛ وانصرف يقول :

إنّ ابن جَفْنة من بقيّة مَعْشَرٍ ... لم يَغْـــذُهم آباؤهم باللّوم
لم يَنْسنى بالشام إذ هو ربُّه ... مَلِـكاً ولا مُتَنَصِّراً بالرُّوم
يُعْطِى الجزيلَ ولا يراه عنده ... إلا كبعض عَطيَّةِ المـــذموم

فقال له رجل كان فى مجلس عمر : أتذكرُ ملوكا كَفَرَة أبادهم الله وأفناهم ؟ قال : ممن الرجل ؟ قال : مُزَنىّ . قال . والله لولا سوابقُ قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوّقتُكَ طوْقَ الحمامة .

قال : ثم جهزنى عُمَرَ إلى قيصر ، وأمرنى أن أضمن لجبلة ما اشترط به ، فلما قَدِمت القسطنطينية وجدتُ الناس منصرفين من جنازته ، فعلمت أن الشقاء غَلَب عليه فى أمّ الكتاب .

٩ — بَصِيرة العباس *

كان بين العباس (١) بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب مُباعدة ، فلقى ابنُ عباس عليًّا ، فقال: إن كان لكَ فى النظر إلى عمك حاجةٌ فأْتِه، وما أُراك تلقاه بعدها لها . فقال علىٌّ : تَقَدَّمْنى واستأذِنْ . فتقدم ابنُ عباس واستأذن لِعَلِيّ ، فأُذن له ودخل ، فاعتنق كلٌّ واحد منهما صاحبه ، وأقبـل علىٌّ على يد العباس ورِجْله يقبلهما ، ويقول : ياعمّ ؛ ارْضَ عنى — رضى الله عنك — قال : قد رضيت عنك . ثم قال : يابن أخى ؛ قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبلْ ، ورأيت فى عاقبتها ما كرهتَ ، وهأنذا أشيرُ عليك برأيٍ رابع ، فإن قبلتَه وإلا نالك ما نالك مما كان قبله . قال : وما ذاك يا عمّ ؟ قال : أشرتُ عليك فى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ تسأله . فإن كان الأمرُ فينا أعطاناه ، وإن كان فى غيرنا أوْصى بنا ، فقلتَ : أخشى إن مَنَعناه لا يعطيناه أحد ، فمضتْ تلك !

فلما قبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نُبَايِعكَ ، وقلتُ : ابسط يديك أبايْعك ويبايْعك هذا الشيخ ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحدٌ من بنى عبد مناف ، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قُرشِى ، وإذا بايعَتْك قريش لم يختلف عليك أحدٌ من العرب . فقلتَ : لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم شُغلٌ ، وهـذا الأمر

* ابن أبى الحديد : ١ — ١٣١

(١) كان من أكابر قريش فى الجاهلية والإسلام ، كان سديد الرأى ، واسع العقل ، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة ، توفى سنة ٣٢ هـ .

لا يُخشى عليه ، فلم نلبثْ أن سمعنا التكبير من سقيفة بنى ساعِدَة[1] ، فقلت ياعم : ما هذا ؟ قلتُ : ما دَعَوْناك إليه ! فأبيتَ وقلتَ : سبحان الله ! أو يكون هذا ؟ قلتُ : نعم ، قلتَ : أفلا يُرَدّ ؟ قلتُ لك : وهل رُدَّ مثل هذا قط .

ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر ، فقلتُ : لا تُدْخِل نفسك فى الشورى ؛ فإنك إن اعتزلتهم قَدَّموك ، وإن ساويتَهم تقدَّموك ، فدخلت معهم ، فكان ما رأيت .

ثم أنا الآن أُشيرُ عليك برأى رابع ، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله : إنى أرى أنّ هذا الرجل — يعنى عثمان — قد أُخِذ فى أمورِ الله ؛ وكأنى بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحرَ فى بيته كما يُنْحَر الجمل ، والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة لزمك الناسُ به ، فإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئاً إلا من بعد شرٍّ لا خير معه .

قال ابنُ عباس : فلما كان يوم الجمل عرضتُ لعلىّ ، وقد قُتِل طلحة ؛ وقد أكثر أهلُ الكوفة فى سَبّه وغَمْصِه[2] . فقال علىّ : أما والله لئن قالوا ذلك لقد كان كما قال :

فتى كان يُدْنيه الغِنَى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويُبْعِدهُ الفقرُ

ثم قال : لكأن عمى ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، والله ما نلتُ من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرٍّ لا خيرَ معه !

---

(١) السقيفة : هى المكان المظلل ، واسمها الصفة ، وسقيفة بنى ساعدة هى التى بويع فيها لأبى بكر بعد حوار طويل بين المهاجرين والأنصار .

(٢) غمصه : احتقره ، وعابه ، وتهاون بحقه .

١٠ — أَثَرُ المعروف *

وفد أهلُ الكوفة على معاوية فى دمشق حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده ، وفى أهل الكوفة هانئُ بن عُروة المُرادى[1] ، وكان سيداً فى قومه ، فقال يوماً فى مسجد دمشق ، والناسُ حوله : العجبُ لمعاوية يريد أن يَقْسِرَنا[2] على بَيْعَة يزيد ، وحالُه حالُه ، وما ذاك والله بكائن .

وكان يجلس فى القوم غلامٌ من قريشْ ، فتحمَّل[3] الكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعتَ هانئاً يقولُها ؟ قال : نعم ! قال : فاخرج فأْتِ حَلْقَتَه ، فإذا خفَّ الناسُ عنه ، فقل له : أيها الشيخ ، قد وصلَتْ كلمتُك إلى معاوية ، ولست فى زمن أبى بكر وعُمَر ، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام ، فإنهم بنو أمية ، وقد عرفتَ جُرْأتَهم وإقْدَامهم ، ولم يَدْعُنى إلى هـذا القول لك إلا النصيحةُ والإشفاق عليك . ثم انظر ما يقول ، فأْتِنى به .

فأقبل الفتى إلى مجلس هانئ ، فلما خفَّ مَنْ عنده دنا منه ، فقص عليه الكلام ، وأخرجه مُخْرَج النصيحة له ، فقال هانئ : والله يا بن أخى ما بلغتْ نصيحتُك كلَّ ما أسمع ، وإن الكلام لَكلامُ معاوية أعرفه . فقال الفتى : وما أنا ومعاوية ؟ والله ما يعرفنى . قال : فما عليك ! إذا لقيته فقل له : يقول لك هانئٌ : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يا بن أخى راشداً .

* ابن أبى الحديد : ٤ — ٣٢٧

(١) هانئ بن عروة المرادى : أحد سادات قريش وأشرافهم ، قتله عبد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ
(٢) يكرهنا عليها (٣) تحمل : بمعنى حمل

فقام الفتى فدخل على معاوية ، فأعلمه ، فقال : نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجكم ، وهانئ فيهم ، فعرض عليه كتابَه فيه ذكرُ حوائجه . فقال : يا هانئ ؛ ما أراك صنعت شيئاً ؛ زِدْ . فقام هانئ فلم يَدَع حاجة عرضت له إلا ذكرَها . ثم عرض الكتاب عليه ، فقال : أراك قصَّرْت فيما طلبت . زِدْ ، فقام هانئ ، فلم يدع حاجة لقومه ، ولا لأهل مصره إلا ذكرَها ، ثم عرض عليه الكتاب ، فقال : ما صنعتَ شيئاً ، زِدْ ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ حاجة بقيت ! قال : ما هى ؟ قال : أن أتولى أخْذَ البيعة ليزيد ابنِ أمير المؤمنين بالعراقِ ! قال : افعلْ ، فما زلتَ لمثل ذلك أهلاً .

فلما قدم هانئ العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبة وهو والى العراق يومئذ .

١١ — فى البيعة ليزيد بن معاوية *

كتب معاويةُ إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ؛ فوفد مِنْ كل مِصْرٍ قوم ، ثم جلس فى أصحابه وأَذِنَ للوُفود فدخلوا ، وقد تقدّم إلى أصحابه أن يقولوا فى يزيد (١)

فكان أول من تكلم الضحاكُ بنُ قيس فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لابدّ للناس من والٍ بعدك ، والأنفس يُغْدى عليها ويُرَاح ، وإن الله قال : « كل يوم هو فى شأنٍ » ، ولا تَدْرى ما يختلف به العَصْران (٢) ، ويزيدُ ابن أمير المؤمنين ، فى حُسْنِ مَعْدِنه ، وقَصْد سيرَته (٣) من أفضلنا حِلْماً ، وأحكمنا علماً ، فولِّه عَهْدك ، واجعلْه لنا عَلَماً بَعْدك ؛ فإنّا قد بَلَوْنا الجماعةَ والأُلْفة فوجدناها أحْقَن للدماء ، وآمَن للسُّبل ، وخيراً فى العاقبة والآجلة .

ثم تكلّم عَمرو بن سعيد فقال : أيها الناس ؛ إن يزيد أملٌ تأمُلُونه ، وأجلٌ تأمَنُونه (٤) ، طويلُ الباع ، رَحْبُ الذِّراع ، إذا صِرْتُمْ إلى عدله وَسِعَكم ، وإن طلبتم رِفْدَه أغناكم ، جَذَع (٥) قارح ؛ سُوبِق فسَبَق ، ومُوجِدَ فمَجَد ، وقُورع

* ذيل الأمالى : ١٧٥ ، العقد الفريد ٤ : ـ ٣٦٩ طبعة لجنة التأليف .

(١) هو يزيد بن معاوية ، وكنيته أبو خالد ، كان أحور العينين ، بوجهه آثار جدرى ، حسن اللحية خفيفها ، ولى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٦٠ ، ومات سنة ٦٤ هـ (٢) العصران : الليل والنهار .

(٣) استقامتها (٤) يشير إلى ما ينتظر من طول مدة ولايته ، فقد ولى حدثا (٥) قال فى اللسان : قال ابن الأعرابى : إذا استتم الفرس سنتين ودخل فى الثالثة فهو جذع . وقرح الفرس يقرح إذا انتهت أسنانه ، والمراد أن يزيد فتى قوى .

فقَرِع، خَلَفٌ من أمير المؤمنين ولا خَلَف منه . فقال : اجلس أبا أميّة ؛ فلقد أوسَعت وأحسنت .

ثم قام يزيد بنُ المقفّع فقال : أميرُ المؤمنين هـذا ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ فمَنْ أبَى فهذا ـ وأشار إلى سيفه ـ فقال معاوية : اجلس ؛ فإنك سيِّدُ الخطباء .

ثم تـكلم الأحْنف بن قيس [1] ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أنت أعْلَم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسرِّه وعلانيته ، ومَدْخله ومَخْرجه ؛ فإن كنتَ تعلمه لله رضا ولهـذه الأمة فلا تُشاوِر الناسَ ، وإن كنت تعـلم منه غيرَ ذلك فلا تزوِّدْه الدنيـا وأنت تذهب إلى الآخرة . ثم بايع الناسُ ليزيد .

ولما استقام الأمر لمعاوية بالشام والعراق ببيعة يزيد كتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة : أن ادعُ أهل المدينة إلى بَيْعَة يزيد؛ فإنّ أهل الشام والعراق قد بايعوا . فقرأ كتابه وقال : « إن أميرَ المؤمنين قد كَبِرَتْ سِنُّه ، وَدَقَّ عَظْمُه ، وقد خاف أن يأتيَه أمر الله تعالى ، فيَدَع الناس كالغنم لا راعى لها ، فأحَبَّ أن يُعْلِمَ عَلَماً ، ويقيم إماماً » . فقالوا : وفَّق اللهُ أميرَ المؤمنين وسَدَّده ، ليفعلْ .

فـكتب بذلك إلى معاوية ، فـكتب إليـه : أن سَمِّ يزيد . فقرأ الـكتاب عليهم وَسَمّى يزيد ، وقال : سُنَّةُ أبى بكر الهادية المهدية ؛ فقال له عبدُ الرحمن بنُ أبى بكر : كذبت ! إن أبا بكر ترك الأهلَ والعشيرة ، وبايع لرجل من بنى عدىّ رضى دينَه وأمانتَه ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كذبتَ والله يامروان ، وكذب معاوية معك ! لا يكون ذلك . لا تُحْدِثوا علينا سنّةَ الرُّوم ، كلمـا مات هِرَقل قام مكانه هِرَقل .

(١) لقبه الضحاك ، والأحنف اسمه .

فقال مروان : أيها الناس ؛ إن هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : « والذى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ! أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » . فقال عبد الرحمن : يابن الزَّرْقاء ؛ أفينا تتأوّل القرآن !

وتكلم الحسينُ بن علىّ وعبدُ الله بن الزُّبَيْر وعبد الله بن عُمَر، وأنكروا بَيْعة يزيد ، وتفرّق الناس . فكتب مَرْوَان إلى معاوية بذلك .

ولما علم معاويةُ خرج إلى المدينة فى ألف ، وحينما قَرُبَ مِنْهَا تلقّاه الناس ، فلما نظر إلى الحسين قال : مرحباً بسيِّد شباب المسلمين ، قَرِّبُوا دابّةً لأبى عبد الله . وقال لعبد الرحمن بن أبى بكر : مرحبا بشيخ قريش وسيِّدها وابن الصدِّيق . وقال لابن عمر : مَرحباً بصاحب رسول الله وابن الفارُوق ، وقال لابن الزُّبير : مرحَباً بابن حَوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمّته ، ودعا لهم بدَوابّ فحملهم عليها ، وخرج حتى أتى مكّة ، فقضى حَجَّه .

ولما أراد الشُّخُوص أمر بأثقاله[1] فقدِّمتْ ، وأمر بالمنبر فقُرِّب من الكعبة، وأرْسل إلى الحسين وعبدالرحمن بن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير . فاجتمعوا، وقالوا لابن الزبير : اكْفِنا كلامَه ، فقال : عَلَى ألا تخالفونى ؟ قالوا : لك ذلك .

ثم أتوْا معاوية ، فرحَّب بهم وقال لهم : قد علِمْتُمْ نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصِلَتِي أَرْحَامَكمْ ، ويزيدُ أخوكم وابنُ عمكم ، وإنما أردتُ أن أقدِّمَه باسْمِ الخلافة ، وتكونوا أنتم تأْمرُون وتنهون ؛ فسكتوا .

وتكلم ابنُ الزبير فقال : نخيِّركَ بين إحدى ثلاث : أيها أخذتَ فهى لك

---

(١) الثقل : المتاع ، جمعه أثقال .

رغبة ، وفيها خيار : إن شئت فاصْنع فينا ما صنعَه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قَبضه الله ولم يستَخلِفْ ، فَدعْ هذا الأمر حتى يختارَ الناسُ لأنفسهم . وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عَهِد إلى رجل من قاصِيةِ قريش وترك مِنْ ولده ومن رهطه الأدْنين مَنْ كان لها أهلا . وإن شئت فما صنع عمر ، صيّرها إلى ستّة نفرٍ من قريش ، يختارون رجلاً منهم ، وترك ولدَه وأهلَ بيته وفيهم مَنْ لَوْ وَلِيها لكان لها أهلا .

قال مُعاوية : هل غيرُ هذا ؟ قال : لا . ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابنُ الزُّبير ! فقال معاوية : إنى أتقدَّم إليكم وقد أعذر من أنذر ! إنى قائل مقالةً ، فأقسم بالله لئن رَدَّ علىَّ رجلٌ منكم كلمةً فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يُضْرَب رأسُه ! وأمر أن يقومَ على رأس كلِّ رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يَرُدُّ بها عليه قوله قتلاه .

وخرج وأخرجهم معه حتى رقى المنبر ، وحَفَّ به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عَوارٍ [1] ، قالوا : إن حُسَيناً وابنَ أبى بكر وابن عمر وابنَ الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرَّهْط سادةُ المسلمين وخيارُهم ، لا نُبْرم أمرا دونهم ، ولا نقضى إلا على مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهمُ سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلَّموا وأطاعوا .

فقال أهلُ الشام : وما يَعظُم من أمر هؤلاء ؟ ائذن لنا فنضربَ أعناقهم ، لا نرضى حتى يُبايعوا عِلانية . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر وأحْلَى دماءهم عندهم ! أنصتوا ، فلا أسمع هذه المقالة من أحد . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا . ثم قُرِّبت رواحله ، فركب .

---

(١) العوار هنا : العيب .

فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتُم لا نبايع ، فلما دُعيتم وأرضيتُمْ بايعتُمْ .
قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى ، فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ! قالوا : خفنا القتل ، وكاد بنا وكاد بكم .

١٢ ـ ذو الوجْهَين لا يكونُ عند الله وجيهاً*

لما نصب معاوية يزيد لولاية العهد أَقْعَدَه فى قُبَّة حمراء ، فجعل الناسُ يسلمون على معاوية ، ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تُوَلِّ هـذا أمور المسلمين لأضَعْتَها ! والأَحْنَف [1] جالس .

فقال له معاوية : ما بالُك لا تقول يا أبا بَحْر ؟ فقال : أخاف الله إن كذبتُ ، وأخافكم إن صدقت ؛ فقال : جزاك الله عن الطاعة خيراً ! وأمر له بألوف !

فلما خرج الأحنف لقيه الرجلُ بالباب ، فقال : يا أبا بَحْر ؛ إنى لأعلم أن شرّ مَنْ خلق اللهُ هذا وابنه ، ولكنهم قد استَوْثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ؛ فلسنا نطمعُ فى استخراجها إلا بما سمعت !

فقال له الأحنف : يا هذا ؛ أمسِك ، فإن ذا الوجهين خليقٌ ألاّ يكون عند الله وجيهاً .

---

* الكامل للمبرد : ١ ـ ٣٠

(١) اسمه الضحاك بن قيس ، والأحنف لقبه ، سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين ، يضرب به المثل فى الحلم ، وله فى هذا الباب نوادر مشهورة ، توفى سنة ٦٧ هـ .

١٣ — الحجاج وأهل العراق *

لما بلغ أميرَ المؤمنين عبدَ الملك بن مروان اضطرابُ أهلِ العراق ، جمع أهلَ بيته وأولى النَّجْدَةِ من جنده ، وقال : أيُّها الناس ، إن العراق كَدُر ماؤها ، وكَثُر غَوْغَاؤُها ، واملَوْلَح عَذْبُها ، وعَظُم خَطْبُها ، وظهر ضِرَامُها[(١)] وعَسُر إخمادُ نيرانها؛ فهل من مُمَهِّدٍ لهم بسيفٍ قاطع ، وذهنٍ جامع ، وقلب ذكيّ ، وأنفٍ حَمِيّ ، فيُخْمِدَ نيرانَها ، ويَرْدَعَ غِيلانها ، ويُنْصِف مظلومها ، ويداوِيَ الجرحَ حتى يندَمل ، فتصفو البلاد ، ويأمن العباد ؟

فسكت القوم ، ولم يتكلم أحد . فقام الحجاج [(٢)] ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا للعراق . قال : ومَنْ أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا الحجاج بن يوسف . قال : ومِنْ أين ؟ قال : من ثقيف . قال : اجلسْ ، لا أمَّ لك ! فلست هناك !

ثم قال : مالى أرى الرءوسَ مُطْرِقةً ، والألْسُن معتقلة ! فلم يجبْه أحد .

فقام إليه الحجاج ، وقال : أنا مُجَدِّل [(٣)] الفُسَّاق ، مطفئُ نارِ النِّفَاق ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا قاضمُ[(٤)] الظَّلَمة ، الحجاج بن يوسف ، معدنُ العفو والعقوبة ، وآفةُ الكفر والريبة . قال : إليكَ عَنِّى وذاك ! فاسْتَ هناك !

ثم قال : مَنْ للعراق ؟ فسكت القوم ، وقام الحجاج ، وقال : أنا للعراق . فقال : إذن أظنُّك صاحبَها والظافرَ بغنائمها ؛ وإن لكل شيء — يابن يوسف — آيةً وعلامة.

---

* المستطرف : ١ — ٥١ ، الكامل : ١ — ٢٢٣ ، رغبة الآمل : ٤ — ٧٥

(١) ضرمت النار : اشتعلت (٢) الحجاج بن يوسف الثقفى ، نشأ بالطائف واتصل بعبد الملك ابن مروان ولم يزل يرقى إلى أن ولى العراق والمشرق ، وطار ذكره وعظم سلطانه ، وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ (٣) جدله : صرعه (٤) القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

فما آيتُك؟ وما علامتُك؟ قال : العقوبة والعفوُ والاقتدار والبسط و الازْوِرَار[١] ، والإدناء والإبعاد ، والجفاء والبِرّ ، والتأهُّبُ والحَزْم ، وخوضُ غَمرات الحروب بجَنَانٍ غير هَيُوب ، فمن جَادَلنى قطعْتُه ،ومن نازَعنى قَصَمتُه ، ومن خالفنى نَزَعتُه، ومن دنامنى أكْرَمتُه ، ومن طلب الأَمَان أعطيتُه ، ومن سارع إلى الطاعة بجَّلْتُه، فهذه آيتي وعلامتي ؛ وما عليك ياأميرَ المؤمنين أن تَبلُوَنى ، فإن كنتُ للأعناق قطّاعا ، وللأموال جمّاعاً ، وللأرواح نزّاعاً ، ولك فى الأشيـاء نفّاعا ، وإلا فليستَبْدِل بى أميرُ المؤمنين ، فإن الناس كثيرٌ ، ولـكنْ مَنْ يقومُ بهذا الأمر قليل .

فقال عبد الملك : أنتَ لها ، فما الذى تحتاجُ إليه ؟ قال : قليلٌ من الْجُندِ والمـال .

فدعا عبدُ الملك صاحبَ جنده ، وقال له : هَيِّئْ له من الجند شهوته ، وألزِمْهُم طاعته ، وحذّرهم مخالفتَه . ثم دعا الخازن ، فأمره بمثل ذلك .

فخرج الحجاج قاصدا العراق ، فبينما الناس فى المسجـد الجـامع بالـكوفةِ ، إذْ أتاهم آتٍ ، فقال : هذا الحجاج ؛ قدم أميراً على العراق ، فتطاولت الأعْنَاقُ نحوه ، وهو يمشى ، وعليه عمامة قد غَطَّى بها أكثر وجهه، متقلِّداًسيْفَهُ، مُتَنَكِّباً[٢] قَوْساً ، حتى صعد المنبر ، فلم يتـكلم كلمةً واحدة ، ولا نطقَ بحرْفٍ ، حتى غَصَّ[٣] المسجدُ بأهْله ، وأهلُ الـكوفة يومئذ ذو حالٍ حسنة ، وهيئةٍ جميلة؛ فـكان الواحدُ منهم يدخلُ المسجد ومعـه العشرون والثلاثون من أهلِ بيتهِ ومواليه وأتْبَاعه ، عليهم الخزُّ والدِّيبَاج .

---

(١) ازور عن الشىء : عدل عنه وانحرف . (٢) تنكب القوس : ألقاه على منكبه .
(٣) غص بأهله : ضاق .

فقال الناسُ بعضهم لبعض : قبّح اللهُ بنى أمية حيثُ تستعمل مثل هـذا على العراق ! حتى قال عمير بن ضابئ البُرْجمى . ألا أحْصِبُهُ[1] لـكم ؟ فقـالوا : أمْهِلْ حتى نَنْظُر ، فلما رأى عيونَ الناسِ شاخصةً إليه ، حسَر اللثام عن فِيـه ونهض فقال :

أنا ابنُ جَلا[2] وطلّاع الثنـايا[3] ... متى أضعِ العِمـامَةَ[4] تعرِفُونى

ثم قال : يأهلَ الـكوفة ؛ إنى لأرى رُءوساً قد أينَعت[5] ، وحَانَ قِطافُها ، و إنى لصاحبها ، وكأنى أنظرُ إلى الدماء بين العمائمِ واللحَى ؛ ثم قال :

هذا أوانُ الحرْبِ فاشْتَدّى زِيمْ[6] ... قـد لَفَّهـا الليـلُ بِسوّاقٍ حُطَمْ[7]

لستُ براعِى إبـلٍ ولا غَنَمْ ... ولا بجـزّارٍ على ظَهْرِ وَضَمْ[8]

إنى والله يأهل العراقَ ، ما يُقعقَعُ لى بالشِّنَان[9] ، ولا يُغمَزُ جانبى كتَغمازِ التِّين ، ولقد فُرِرت عن ذَكاء[10] ، وفُتِّشْتُ عن تجربةٍ ، وإن أميرَ المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كِنانَته بين يديه ، فعجَمَ[11] عِيدانها ، فوجدنى أمرَّها عودا ، وأصلَبها مَكْسِراً ، فرماكم بى ؛ لأنكم طالما أوْضَعْتم[12] فى الفِتَن ، واضْطَجعتم فى مراقِدِ

---

(١) حصبه : رماه بالحصى . (٢) أى أنا الظاهر الذى لا يخفى وكل أحد يعرفنى ، وجلا اسم رجل سمى بالفعل الماضى ، وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع فى الغارات من ثنية الجبل .
(٣) الثنايا : جمع ثنية ، والثنية : الطريق فى الجبل ، وقد أراد أنه جلد . (٤) العمامة تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم . (٥) أينعت : أدركت ونضجت . (٦) زيم : اسم ناقة أو فرس وهو يخاطبها يأمرها بالعدو ، وحرف النداء محذوف . (٧) هو العنيف برعاية الإبل فى السوق والإيراد والإصدار ويلقى بعضها على بعض ، ضربه مثلا لوالى السوء . (٨) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم . (٩) الشنان : واحدها شن . وهو الجلد اليابس ، فإذا قعقع به نفرت الإبل منه ، فضرب ذلك مثلا لنفسه . (١٠) ذكاء : تمام السن ، والذكاء على ضربين : أحدهما تمام السن ، والآخر حدة القلب (١١) اختبرها لينظر أيها أصلب .
(١٢) الإيضاع : ضرب من السير .

الضلال، والله لأحزِمنّكم حَزْمَ السَّلَمَةِ[١]، ولأضربنّكم ضَرْبَ غرائِبِ[٢] الإبل؛ فإنكم لكأهل قَرْيةٍ كانت آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يأتيها رِزْقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ، فكفرَتْ بأنعُمِ الله فأذاقها الله لِباسَ الجوعِ والخوْفِ بما كانوا يَصْنَعُونَ .

وإنى والله ما أقول إلا وَفَيْتُ ، ولا أَهُمُّ إلا أمضَيْتُ ، ولا أَخْلُقُ[٣] إلا فَرَيْتُ[٤]، وإنّ أميرَ المؤمنين أمرنى بإعطائِكُمْ أعْطِياتِكُمْ ، وأن أُوَجِّهَكم لمحاربةِ عدوِّكم مع المهلب بن أبى صُفْرَةَ ، و إنى أقسم بالله لا أَجِدُ رجلاً تخلّفَ بعدأخْذِ عطائه إلا ضربتُ عنقه .

ياغلام ؛ اقرأ عليهم كتابَ أميرِ المؤمنين ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدِ الله عبدِ الملكِ أميرِ المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم . فلم يقل أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج : اكفُفْ ياغلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أَسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين فلم تَرُدُّوا عليه شيئاً ! هذا أدبُ ابن نِهْيَة[٥] !أما والله لأُؤَدِّبَنَّكُمْ غيرَ هذا الأدب ، أو لتستقيمُنّ !

اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين . فلما بلغ إلى قوله : سلامٌ عليكم ، لم يبق فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

ثم نزل فوضع للناس أعْطِياتِهم ، فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخٌ يرْعَش كِبرًا ؛ فقال : أيها الأمير ، إنى من الضعفِ على ماترى ، ولى ابنٌ هو أقوى على الأسفار ، فتَقْبَلُهُ بدلا منى ؟ فقال له الحجاج : نفعل أيها الشيخ .

---

(١) السلمة : شجرة شاكة ، يعسر خرط ورقها ، فيشد بعضها إلى بعض ، ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها . (٢) ضرب غرائب الإبل : هو مثل ضربه يهدد به رعيته ، وذلك أن الإبل إذا دخلت بينها غريبة وهى ترد الماء ضربها راعيها ضرباً مؤلماً حتى تخرج . (٣) أخلق : أقدر. (٤) فراه : شقه صالحاً أوفاسداً. (٥) ابن نهية : رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج.

فلما وَلّى قال له قائل[١] : أتدرى مَنْ هذا أيها الأمير ؟ قال : لا ، قال : هذا عمير بن ضابئ البُرْجمى الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أفعَلْ وكِدْتُ وَلَيْتَنِي تركتُ على عثمان تبكى حلائلُهْ

ودخل هـذا الشيخ على عثمان مقتولا فوَطِئ بطنَه ، فكَسَرَ ضِلَعَيْنِ من أضلاعه ! فقال : ردّوه . فلما رُدَّ قال له الحجاج : أيّها الشيخُ هلاَّ بعثتَ إلى أمير المؤمنين عثمان بدلاً يومَ الدّار[٢] ؟ إنّ فى قَتْلِك أيها الشيخ لَصَلاحاً للمسلمين ياحَرَسى[٣] اضربْ عنقه .

---

(١) هو عنبسة بن العاص الأموى (٢) هو اليوم الذى قتل فيه عثمان .

(٣) الحرسى : واحد من حرس السلطان .

١٤ — نَصيحَة*

رَحَل الحجاج إلى عبدِ الملك بن مروَان ومعه إبراهيمُ بن محمد بن طلحة ، فلما قدم على عبدِ الملك سلّم عليه بالخلافة ، وقال : قدمتُ عليك ياأمير المؤمنين برَجُل الحجاز فى الشَّرف والأبوّة ، وكمال المروءة والأدب ، وحسنِ المذهب والطاعة، والنصيحة مع القرابة ، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فافعلْ به يا أميرَ المؤمنين ما يستحقُّه مثلُه فى أبوّتِه وشرفه .

فقال عبد الملك : يا أبا محمد ؛ قد أذْكَرْتنا حقًّا واجِباً ، ائذنوا لإبراهيم !

فلما دخل وسلَّم بالخلافة أمره بالجلوس فى صَدْرِ المجلس ، وقال له : إن أبا محمد ذكّرنا مالم نَزَلْ نعرفُه منك من الأُبوّة والشرف ، فلا تَدَعْ حاجةً فى خاصّةِ أمرك وعامّته إلا سألتَها .

فقال إبراهيم : أما الحوائجُ التى نبتغى بها الزُّلْفَى ، ونرجو بها الثواب ، فما كان خالصاً لِلهِ ولنبيِّه .

ولكنْ لك ياأمير المؤمنين عندى نصيحةٌ ، لا أجدُ بُدًّا من ذكرى إياها !

قال : أهى دون أبى محمد ؟ قال: نعم ، قال : قم ياحجّاج .

فنهض الحجاجُ خجِلاً لا يُبْصِر أين يضع رِجْلَه .

ثم قال له عبد الملك : قل يابْنَ طلحة . قال : تالله يا أمير المؤمنين ، إنك عَمَدت إلى الحجاج ، فى ظلْمِه وتعدِّيه على الحق ، وإصغائه إلى الباطل ، فولّيتَه

* المستطرف : ١ ـ ٢٢٦

الحَرَمين، وفيهما مَنْ فيهما من أصحابِ رسول الله ، وأبناء المهاجرين والأنصار ، يَسومُهم[١] الخسفَ ، ويَطَؤُهم بطَغَامٍ[٢] أهل الشام ، ومن لا رَأْىَ له فى إقامةِ الحق ، ولا إزاحةِ الباطل .

فأطرق عبدُ الملك ساعةً ، ثم رفع رأسه ، وقال : كذبتَ ياطلحة ، ظن فيك الحجاجُ غيرَ ماهو فيك ! قُمْ فربما ظُنَّ الخيرُ بغير أهله !

قال ابنُ طلحة : فقمتُ وأنا ما أُبْصِر طريقاً ، وأتبعنى حَرَسِيًّا[٣]، وقال له : اشدُدْ يدك به . فما زلتُ جالساً حتى دعا الحجاج .

فما زالا يتناجيان طويلاً ، حتى ساء ظنى ، ولا أشكُّ أنه فى أمرى ، ثم دعا بى ، فلقيَنى الحجاجُ فى الصَّحْن[٤] خارجاً ، فقبّل بين عينىّ ، وقال : أحسنَ اللهُ جزاءك ! فقلت فى نفسى : إنه يَهْزأ بى . ودخلتُ على عبد الملك ، فأجْلسنى مجلسى الأول ، ثم قال : يابنَ طلحة ، هل اطّلعَ على نصيحتِك أحد ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولا أَرَدْتُ إلا اللهَ ورسولَه والمسلمين ، وأميرُ المؤمنين يَعْلَمُ ذلك.

فقال عبد الملك : قد عزلتُ الحجاج عن الحرمين، لما كرهتَه فيه ، وأعلمتُه أنك استقللتَ ذلك عليه ، وسألْتَنِى له ولايةً كبيرة ، وقد ولّيتُه العراقين، وقرّرْتُ له أن ذلك بسؤالك ، ليلزمَه من حقك مالا بدَّ له من القيام به ، فاخْرُجْ معه غيرَ ذامٍّ لصُحْبَتِه .

---

(١) يسومهم : يوليهم إياه ويريدهم عليه (٢) الطغام : أوغاد الناس (٣) الحرسى : واحد حرس السلطان (٤) صحن الدار : وسطها .

١٥ — من حِيَل الحجاج *

دخل عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف على الوليد بن عبد الملك ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إن عندى نصيحةً ، فإذا خلا لك عقلُك ، واجتمع فهمُك فسلْنى عنها ؛ قال : مايمنعك منها الآن ؟ قال : أنتَ أعلم أنه إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم .

فمكث أياماً ثم قال : ياغلامُ ؛ مَنْ بالباب ؟ فقال له : ناسٌ وفيهم عمرُ بن عبد العزيز ، فقال : أَدْخِلْهُ ، فدخل عليه فقال : نصيحتَكَ ياأبا حفص ، فقال عمر : إنه ليس بعد الشِّرْك إثمٌ أعظمُ عند الله من الدم وإن عمَّالَك يقتلون ، ويكتبون : إن ذنبَ المقتول كذا وكذا ، وأنتَ المسئول عنه والمأخوذُ به ، فاكتب إليهم : ألا يَقْتُل أحدٌ منهم أحداً حتى يكتب إليكَ بذَنْبِهِ ، ثم يُشهد عليه ، ثم تأمر بأمْرِك على أمرٍ قد وضح لك . قال : بارك الله فيك ياأبا حفص :

فكتب إلى الأمصار فلم يَحْرَج [1] من ذلك إلا الحجاج ، فإنه أَمَضَّه [2] ، وشقَّ عليه وأقلقَه ، وظن أنه لم يُكتب به إلى أحدٍ غيره ، فبحث عن ذلك فقال : من أين دُهينا ؟ ومَنْ أشار على أمير المؤمنين بهذا ؟ فأُخْبِرَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز هو الذى فعل ذلك ، فقال : هيهات ! إن كان عمر فلا نقضَ لأمره .

ثم إن الحجاجَ أرسل إلى أعرابى حَرُورِىّ [3] جافٍ من بكر بن وائل ، ثم قال له : ماتقول فى معاوية ؟ فنالَ منه . قال له : ماتقول فى يزيد ؟ فسبّه . قال :

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٣٩.

(١) حرج : ضاق (٢) أمضه : آلمه وأوجعه (٣) الحرورية : فرقة من الخوارج ؛ ينسبون إلى حروراء ، موضع بظاهر الكوفة ، كان به أول اجتماعهم .

فما تقول فى عبد الملك ؟ فظلَّه [١] . قال : فما تقول فى الوليد ؟ فقال : أَجْوَرُهم حين وَلاَّك ، وهو يعلم عَدَاءك [٢] وظُلْمَكَ . فسكت عنه الحجاج ، وافترصها [٣] منه .

ثم بعث إلى الوليد وكتب إليه : أنا أحوَط لدينى وأرعى لما استرْعيتَنى ، وأحفظُ له من أن أقتُلَ أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنتُ أقتلُ على هذا الرأى ، فشأنك و إياه .

فدخل الحرُورِىّ على الوليد ، وعنده أشرافُ أهل الشام وعُمَرُ فيهم ، فقال له الوليد : ماتقول فىّ ؟ قال : ظالم جائر جبّار ! قال : ماتقول فى عبد الملك ؟ قال : جبّار عَاتٍ ، قال : فما تقول فى معاوية ؟ قال : ظالم .

قال الوليد لابن الريّان : اضرب عنقه ، فضرب عنقَه ، ثم قام فدخل منزله ، وخرج الناسُ من عنده ، فقال : ياغلام : اردد علىّ عمر ، فردّه عليه فقال : ياأبا حفص : ماتقول فى هذا ؟ أَصَبْنَا فيه أم أخطأنا ؟ فقال عمر : ما أصبتَ بقتله ، ولَغَيْرُ ذلك كان أرشد وأصْوَب ، كنتَ تسجُنه حتى يراجعَ اللهَ عز وجل ، أوتدركه منيتهُ . فقال : شَتَمَنِي وشتم عبد الملك ، وهو حَرُورِى ؛ أفتستحلُّ ذلك ؟ قال : لعمرى ما أستحلُّه ؛ لو كنتَ سجنتَه ـ إن بَدا لك ـ أو عفوت عنه كان أرشد! فقام الوليد مغضبًا ، فقال ابنُ الريان لعمر : يغفرُ الله لك ياأبا حفص ، لقد راددتَ أمير المؤمنين حتى ظننتُ أنه سيأمرنى بضرب عنقك ! فقال عمر : ولو أمرك كنتَ تفعل ؟ قال : إى لعمرى !

---

(١) ظلمه : نسب إليه الظلم (٢) العداء : تجاوز الحد فى الظلم (٣) افترصها : انتهزها .

١٦ — لا أَحْمَدُ إلا الله *

أُتى الحجاجُ بقوم ممن خرجوا عليه ، فأمر بهم فضُربت أعناقُهم ، وأقيمتْ صلاةُ المغرب وقد بقى من القوم واحد ، فقال لِقُتَيْبة بنِ مسلم : انصرف به معك حتى تَغْدُو به علىَّ .

قال قُتيبة : فخرجتُ والرجلُ معى ، فلما كنَّا ببعض الطريق قال لى : هل لك فى خير ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : إنى والله ماخرجتُ على المسلمين ، ولا استَحلَلت قِتَالَهم ؛ ولكن ابتُلِيتُ بما ترى ، وعندى ودائع وأموال ، فهل لك أن تُخَلِّىَ سبيلى ، وتأذنَ لى حتى آتىَ أهلى ، وأرُدَّ على كل ذى حقٍّ حقَّه ، وأُوصى ؛ ولك علىَّ أن أرجعَ حتى أضعَ يدى فى يدك ؟ فعجبتُ له ، وتضاحكتُ لقوله ، ومَضَيْنا هُنَيهة ، ثم أعادَ علىَّ القول ، وقال : إنى أعاهدُك الله ، لك علىَّ أن أعودَ إليك . فما ملكتُ نفسى حتى قلت له : اذهبْ !

فلما توارى شَخْصُه أُسْقِط فى يدى ، فقلت : ماذا صنعتُ بنفسى ؟ وأتيتُ أهلى مهموماً مغموماً ؛ فسألونى عن شأنى فأخبرتهم ، فقالوا : لقد اجترأتَ على الحجاج .

فبتْنا بأطولِ ليلة ، فلما كان عند أَذَان الفجر إذا الباب يُطْرَق ، فخرجتُ فإذا أنا بالرجل ، فقلت : أَرجعْتَ ؟ قال : سبحان الله ! جعلتُ لك عهدَ الله علىَّ ،

* غرر الخصائص : ٢٠ .

أفأخونُك ولا أرجع ! فقلت : أما والله إن استطعتُ لأنفعنَّك . وانطلقتُ به حتى أجلسْتُه على باب الحجاج ، ودخلت !

فلما رآنى قال : ياقُتَيبة ؛ أين أسيرُك ؟ قلت : أصلح الله الأمير ـ بالباب ، وقد اتفَّق لى معه قصةٌ عجيبة ، قال : ماهى ؟ فحدثتُه الحديث ، فأَذن له فدخل ، ثم قال : ياقتيبةُ ، أتحبُّ أن أهبَه لك ؟ قلت : نعم ! قال : هو لك ! فانصرفْ به معك .

فلما خرجتُ به قلت له : خذ أىَّ طريقٍ شئتَ ، فرفع طرْفه إلى السماء وقال : لك الحمدُ يارب ، وما كلّمنى بكلمة ، ولا قال لى أحسنتَ ولا أسأتَ ! فقلت فى نفسى : مجنون والله ! فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءنى ، وقال لى : جزاك الله خيراً ، أما والله ماذهبَ عنى ماصنعت ، ولكن كرهتُ أن أُشرِك مع حَمْد الله حمدَ أحد!

١٧ — لا أسألكم عليه أجراً*

قال عثمان بن عطاء الخراسانيّ : انطلقت مع أبي نُريد هشام بن عبد الملك ، فلما قَرُبْنا إذا بشيخ على حمارٍ أسود عليه قميص دَنِس ، وجُبّة دنِسة ، وقلنسوة لاطِئةٌ (١) دنسة ، وركاباه من خشب ؛ فضحكت منه ، وقلت لأبي : من هذا الأعرابي ! قال : اسكت ! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عَطَاء بن أبي رباح (٢) .

فلما قرب منا نزل أبي عن بَغْلته ، ونزل هو عن حماره ، فاعتنقا وتساءلا ، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام ؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما .

فلما خرج أبي قلتُ له : حدِّثني ما كان منكما . قال : لما قيل لهشام : إن عَطَاء بن أبي رباح بالباب أَذِن له ؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه .

فلما رآه هشام قال : مرحباً مرحباً ! ههنا ، ههنا ، ولا زال يقولُ له :ههنا ههنا ، حتى أجْلَسه معه على سريره ، ومسَّ بركبته ركبته ـ وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا . فقال له : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقَسِّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم . قال : يا غلام : اكْتُب لأهلِ مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لِسَنَة .

---

* غرر الخصائص : ١١٧

(١) لاطئة : لازقة . (٢) تابعي من أجلاء الفقهاء ، ولد باليمن ونشأ بمكة ، فكان مفتي أهلها ، ومحدثهم ، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ .

ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب ، وقادةُ الإسلام ، تردُّ فيهم فضولَ صدقاتهم . قال : نعم ! يا غلام اكتب بأن تُردَّ فيهم فضول صدقاتهم . هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أميرَ المؤمنين؛ أهلُ الثغور يَرُدّون من ورائكم،ويقاتلون عدوّكم ، تُجْرِى لهم أرزاقًا تدرّها عليهم ؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور . قال : نعم ، يا غلام ؛ اكتب بحمل أرزاقهم إليهم . هل من حاجة غيرها ياأبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهل ذمتكم لا يُكلَّفُون مالا يطيقون ؛ فإن ما تَجْبونه منهم معونةٌ لكم على عدوكم . قال : نعم ، يا غلام ؛ اكتب لأهل الذمة بألا يكلَّفوا مالا يطيقون ! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، اتّق الله فى نفسك ؛ فإنك خُلِقْتَ وحدك ، وتموت وحدك ، وتُحْشَر وحدك ، وتحاسَبُ وحدك ، ولا والله ما معك ممن ترى أحدٌ !

فأكبَّ هشام يَنْكُت[1] فى الأرض ، وهو يبكى ؛ فقام عطاء .

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدرى ما فيه ؛ فقال : إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا . فقال : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فوالله ما شرب عنده قَطْرَة ماء .

(١) النكت : قرعك الأرض بعود أو بإصبع ، وهو فعل المفكر المهموم .

١٨ — خليفة بين يدى قاض*

قال العُتْبى : إنى لقاعد عند قاضى هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وصاحب حَرَس هشام(١) ، حتى قعدا بين يديه ؛ فقال الحرسىّ(٢) : إن أمير المؤمنين جَرّانى فى خصومة بينه و بين إبراهيم !

فقالْ القاضى : شاهِدَيك على الجِرَاية (٣) !

قال : أتُرانى قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل ! وليس بينى و بينه إلا هذه السُّتْرة (٤) !

قال : لا ، ولكنه لا يثبت الحقُّ لك ، ولا عليك ، إلا ببيّنة .

فقام الحَرَسِى فدخل إلى هشام فأخبره ؛ فلم نلبث أن قَعْقَعت الأبواب ، وخرج الحرسىّ ، فقال : هذا أمير المؤمنين !

فقام القاضى فأشار إليه هشام فقعد ، وبسط له مُصَلى ، فقعد عليه هو و إبراهيم ، وكنا حيثُ نسمع بعض كلامهما ، ويخفى علينا بعضُه !

فتكلما ، وأحضرا البينة ، فقضى القاضى على هشام ؛ فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق (٥) ؛ فقال : الحمد لله الذى أبان للناس ظُلْمَك !

---

* العقد : ٤ ـ ٤٤٧ ، (طبعة لجنة التأليف) .

(١) هشام بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية ، ولد فى دمشق وبويع له فيها وتوفى سنة ١٢٥

(٢) الحرسى : واحد حرس السلطان . (٣) الجراية : الوكالة . (٤) السترة : ما يستر به.

(٥) الخرق : الحمق .

فقال هشام : لقـد هممتُ أن أضرب عنقك ضربةً ينتثر منها لَحْمُك عن عَظْمك . قال : أما والله لئن فعلتَ لفعلتَه بشيخ كبير السن ، قريب القرابة ، واجب الحق !

فقال هشام : اسْتَرها علىّ يا إبراهيم ! قال : لا ستَرَ الله علىّ ذنبى يوم القيامة إن سترتُها !

قال : فإنى مُعْطِيك عليها مائة ألف ! قال إبراهيم : فسترتها عليه طولَ حياتِه ثمناً لِمَا أخذتُ منه ، وأذَعْتُها بعد مماته ، تزييناً له !

١٩ — العَهْد لعمر بن عبدالعزيز*

كان لسليمانَ بن عبد الملك ابنٌ يقال له أيوبُ بن سليمان ، فعقَد له ولايةَ العهدِ من بعده ؛ ثم إن أيوبَ توُفّى قبل سليمان ، ولم يبقَ لسليمان إلا ولدٌ صغير .

فلما حضرته الوفاةُ أراد أن يستخلفَ ، فحضره عمرُ بنُ عبد العزيز ورجاء ابن حَيْوة ، فقال لرجاء : اعرض علىّ ولدى فى القُمُص والأَرْدِية ، فعرضهم عليه ، فإذا هم صغار لا يحتملون مالبسوا من القُمُص والأردية - يسحبونها سحباً . فنظر إليهم وقال : يارجاء ؛

إن بَنِىّ صِبْيَةٌ صِغَارُ أَفْلحَ مَنْ كان له كِبارُ

فقال له عمر بن عبد العزيز : ياأميرَ المؤمنين ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى[1] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

ثم قال : يارجاء ، اعرض علىّ بَنِىّ فى السيوف ، فقلَّدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه ، فإذا هم صِغار لا يحملونها ، يجرُّونها جرًّا ؛ فنظر إليهم وقال :

إن بَنِىّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ أَفْلحَ مَنْ كانَ لَهُ رِبْعِيُّونْ[2]

فقال له عمر بن عبد العزيز : يقول الله تبارك وتعالى : « قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربه فصلّى » .

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٢٩

(١) تزكى : تطهر من الشرك والمعاصى . (٢) يقال : أصاف الرجل ، إذا ولد له على كبر سنه وولده صيفيون . وأربع الرجل : إذا ولد له فى فتاء سنه ، وولده ربعيون .

فلما لم يرَ في ولده ما يريدُ حدَّثَ نفسه بولايةِ عمر بن عبد العزيز[1] ؛ لِمَا كان يعرف من حَالِه ؛ فشاور رَجاء فيمن يعْقِد له ، فأشار عليه بعمر ، وسدّد له رأيه فيه ، فوافق ذلك سليمان ، وقال : لأعقدنَّ عقداً لا يكون للشيطان فيه نَصيب .

فلما اشتدَّ به وجَعُه عَهِد عَهداً لم يُطلِعْ عليه أحداً إلا رجاء بن حَيْوَةَ الكِنْديّ ، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر .

فدخل سعيدُ بن خالد مع عُمَر بن عبد العزيز وبعضِ أهل بيته يعودون سليمان ؛ فرأَوْا به الموت ، فمشى عمر وسعيد بن خالد ورجاء بن حَيْوَة ، ثم تخلّف عمر كأنه يعالج نَعْلَيْه ، حتى أدركه رَجاء ، فقال له : يارجاء ، إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيَعْهَد ، وأنا أُناشدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلا صَدَدْتَه عنى ، وإن لم يذكرنى ألاَّ تذكرنى له فى شىء من ذلك . فقال رجاء لعمر : لقد ذهب ظنُّك مذهباً ما كنتُ أَحْسَبك تذهبه ، أتظنُّ بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم ! وقد كان سليمان فَرَغ من ذلك ولكنه أراد إخفاءه عن عمر !

فلما احْتُضِر[2] سليمان ، واشتدَّ ما به أمر بالبيعة لمن كان فى كتابه ممن عهد إليه ، فبايع الناس ولا يعلمون مَنْ فى كتابه .

ثم قضى الله على سليمان بالموت ، فلما مات كتم موتَه رجاء بن حَيْوَة ، ثم خرج إلى الناس فقال : إن أمير المؤمنين يأمرُكم بتجديد البيعةِ لمن كان عهدَ إليه ، وقد أصبح بحمد الله صالحاً . فقالوا : أوصِلْنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه ، ونُنَفِّذَ أمره ؛ فدخل وأمر به فأسند بالوسائد وأقام عنده خادماً ، وأمر بالناس فأُدخلوا عليه ،

---

(١) هو الخليفة الصالح العادل ، ولد بالمدينة ونشأ بها ، وبويع له بالخلافة سنة ٩٩ هـ وأخباره فى عدله وحسن سياسته كثيرة توفى سنة ١٠١ هـ (٢) احتضر : حضره الموت .

فيقفون عند الباب فيسلّمون من بعيد ، وهم يرَوْن شخصه ، فيردّ الخادم عنه ردّ المريض وهم ينظرون إليه .

ثم قال : يأمرُكم أميرُ المؤمنين أن تُبايعوا لمن عهد إليه ، وتسمعوا له وتُطيعوا ، فخرجوا إلى المسجد والناسُ مجتمعون : وجوهُ بنى مرْوان وبنى أمية ، وأشرافُ الناس ، فبايعوا ، حتى إذا رضى رَجاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر ؛ فخرج يلتمسُه فى المسجد حتى رآه قاصياً ، فوقف عليه ، وقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته ! قمْ إلى المنبر ، فقال : أنشدك الله يارَجاء ، فقال رجاء : أناشدك الله أن يضطربَ بالناس حَبْل ، فقد لقى سليمانُ ربّه ، وقضى الله عليه بالموت .

فقام عمر حتى جلس على المنبر ، فنعى للناس سليمان ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر .

فلما قرأ ذِكْرَ عمر جثَا هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال : هاه[1] ! فسَلّ رجلٌ من أهل الشام سَيْفَه ، وقال : تقول لأمرٍ قد قضاه أمير المؤمنين هاه ؟ فلما قرأ : « ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر » قال هشام : سمعنا وأطعْنا . فسمع الناس وأطاعوا ، وقاموا فبايعوا لِعُمَر .

---

(١) هاه : وعيد .

٢٠ — عُمَر بن عبد العزيز يحمل الناس على الحق*

لما دُفِنَ سليمان ، وقام عمر بن عبد العزيز قرِّبَتْ إليه مراكب ، فقال : ماهذه ؟ فقالوا : مراكب لم تُرْكَب قط يركبُها الخليفة أوَّلَ مايلي . فتركها وخرج يلتمسُ بَغْلَتَه ، وقال : يامُزاحِم ؛ ضُمَّ هذه إلى بيتِ مالِ المسلمين .

ونُصِبت له سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحدٌ قط ، كانت تُضرب للخليفة أولَ مايلي ، فقال : ماهذه ؟ فقالوا : سُرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط ، يجلس فيها الخليفةُ أولَ مايَلِي . قال : يامُزاحم ، ضُمَّ هذه إلى أموال المسلمين . ثم ركب بَغْلَته ، وانصرف إلى الفُرُش والوطَاء(١) الذى لم يجلس عليه أحد قط والذى يفرش للخليفة أول مايكون ، فجعل يَدْفَعُ ذلك برجله حتى يُفْضى إلى الحصير . ثم قال : يامزاحم ، ضُمَّ هذا لِأَمْوَال المسلمين .

وبات عِيالُ سليمان يُفرِغون الأدهان والطيب ، من هذه القارورة إلى تلك القارورة ، ويلبسون مالم يُلْبَس من الثياب حتى تتكسَّر ـ وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب ، أو مسَّ من الطيب كان لولده ، وما لم يُلْبَس من الثياب ومالم يُمَس من الطيب فهو للخليفة بعده .

فلما أصبح عمر قال له أهلُ سليمان : هذا لك وهذا لنا . قال . وما هذا؟ وما هذا ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومسَّ من الطِّيب وهو لولده ، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده ، وهو لك .

(*) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٣٥ .

(١) الوطاء : ضد الغطاء .

قال عمر : ماهـذا لى ، ولا لسليمان ، ولا لـكم ، ولـكن يامزاحمُ ؛ ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين .

فتآمر الوزراء فيما بينهم، فقالوا : أما المراكبُ والسرادقات والُحجَر والشُّوَار[1] والوِطَاء فليس فيه رَجَاء بعـد أن كان منه فيـه ماقد علمتُم ، و بقيت خَصلة وهى الجوارى ، نعرِضهن فعسى أن يكون ماتريدون فيهن ؛ فإن كان و إلا فلا طمع لكم عنده . فأُتى بالجوارى فعُرِضْن عليه كأمثال الدُّمَى ؛ فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدةً واحدةً : مَنْ أنتِ ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعثَ بك ؟ فتخبره الجاريةُ بأصلها، ولمن كانت ، وكيف أُخذت ، فيأمر بردِّهن إلى أهلهن و يُحمَلْن إلى بلادهن ، حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيِسوا منه ، وعلموا أنه سيحملُ الناسَ على الحق .

واحتجب عَنِ الناس ثلاثا ، لا يدخلُ عليه أحد ، ووجوهُ بنى مَرْوان و بنى أمية ، وأشرافُ الجنود والعرب ، والقوادُ ببابه ، ينظرون مايخرجُ عليهم به . فجلس للناس بعد ثلاث ، وحملهم على شريعةٍ من الحق فعرفوها ؛ فردَّ المظالم ، وأحيا الـكتاب والسُّنَّةَ ، وسار بالعـدل ، ورفض الدنيا ، وزهد فيها ، وتجرّد لإحياء أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قُبِض[2] .

---

(١) الشوار : اللباس والزينة ومتاع البيت . (٢) مات .

٢١ — لا تَلومُوا إلا انفسكم *

اجتمعتْ بنو أمية، فكلَّموا رجلاً أن يكلم عمر بن عبد العزيز فى صلةِ أرحامِهم والعطفِ عليهم، وكان قد أمرَ لهم بعشرة آلاف دينار فلم تَقَعْ منهم.

فدخل عليه الرجلُ، فكلَّمَه وأعْلَمه بمقالتهم، فقـ : أجل ! الله لقد قسمتُها فيهم، وقد ندِمتُ عليها أ... كون مَنَعْتُهم إياها، وقسمتُها فكانت تكفِى أربعة آلاف بيت من المسلمين.

...ج إليهم الرجلُ وأعلمهم بمقالته، وقال: لا تلوموا إلَّا أنفسكم يامعشر بنى أمية؛ عَمَدتم إلى صاحبكم فزوّجتموه بنت ابن عُمَر [1]، فجاءتكم بعمرَ ملفوفاً فى ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٥٠

(١) عمر بن الخطاب.

٢٢ — ذَكَّرْتنى الطَّعْنَ وكنتُ ناسيا *

لما وَلِيَ عمرُ بن عبدالعزيز الخلافة ردَّ المظالمَ والقطائع. وكان سليمانُ بن عبدالملك قد أمر لعَنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار ، فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم ، فلم يبقَ إلا قَبْضُها ، فتُوُفِّيَ سليمان قبل أن يقبضَها .

وكان عنبسة صديقاً لعمرَ بن عبد العزيز ؛ فغدا يريدُ كلامَ عمر فيما أمر له به سليمان ؛ فوجد بنى امية حضوراً بباب عمر ، يريدون الإذْنَ له ليكلِّموه فى أمورهم ، فلما رأوا عَنْبَسَة قالوا : ننظر مايصنعُ به قبل أن نكلِّمَه ، وقالوا له : أَعْلِمِ أميرَ المؤمنين مكانَنَا ، وأَعلمنا ما يَصْنَعُ بك فى أمورك .

فدخل عَنْبَسة على عمر ، فقال له : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن أميرَ المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار ، حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبقَ إلا قَبْضها ، فَتُوُفِّيَ على ذلك ، وأميرُ المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظمُ مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان .

قال له عمر : كم ذلك ؟ قال: عشرون ألف دينار . قال عمر : عشرون ألف دينار تُغْنى أربعةَ آلاف بيتٍ من المسلمين وأدفعها إلى رجل واحد ! والله ما لى إلى ذلك من سبيل .

قال عَنبَسة: فرمَيْتُ بالكتاب الذى فيه الصَّك. فقال لى عمر : لا عليك أن يكونَ معك ، فلعله أن يأتيَك مَنْ هو أجْرأ على هذا المال منى فيأمرَ لك بها .

قال عَنبسة : فأخذته تبرُّكاً برأيه . وقلت له : يا أمير المؤمنين ؛ فما بال جَبَل

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٥٨ .

الورس ؟ ـ وكان جبل الورس قطيعةً لعمر بن عبد العزيز ـ فقال عمر : ذكَّرْتَني الطَّعنَ وكنت ناسيا ! يا غلام : هاتِ ذلك القَفَص ، فأُتى بقفص من جريد فيه قَطائع بنى عبد العزيز ، فقال : يا غلام ؛ اقرأ علىّ ، فكلما قرأ قطيعة قال : شُقَّها، حتى لم يبقَ فى القفص شىء إلّا شقّه .

قال عَنْبَسة : فخرجتُ إلى بنى أُميّة ، وهم وقوفٌ بالباب ، فأعلمتُهم ما كان من ذلك ، فقالوا : ليس بعد هذا شىء ، ارجع إليه فاسْأَله أن يأذنَ لنا أن نلحق بالبُلْدَان .

فرجعت إليه فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن قومك بالباب يسألونك أن تُجْرِى عليهم ما كان مَنْ قَبْلَك يُجرِى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لى ، وما إلى ذلك من سبيل . قلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ فيسألونك أن تَأْذنَ لهم يضربون فى البُلْدَان .

قال : ماشاءوا ، ذلك لهم ، وقد أذنت لهم. قلت : وأنا أيضاً ؟ قال : وأنت أيضا قد أَذِنتُ لك ، ولكنى أرى لك أن تقيمَ فإنك رجلٌ كثير النَّقْد ، وأنا أبيعُ تركةَ سليمان ، فعلّك أن تشترىَ منها ما يكون لك فى ربحه عِوَضٌ مما فاتك .

فأقمت تبرّكا برأيه ، فابتعت من تركةِ سليمان بمائة ألف ، فخرجتُ بها إلى العراق فبعتُها بمائتى ألف وحبست الصكّ .

فلما تُوفِّىَ عمر وولّى يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لى ما كان فيه .

٢٣ — الوَلَدُ سِرُّ أبيه *

كان بيدِ عُمَر بن عبدالعزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُه المعروفة بالسَّهلة ، وكانت باليمامة . وكانت لها غَلَّةٌ عظيمة كثيرة ، عَيْشُه وعيشُ أهله منها .

فلما وَلِيَ الخلافة قال لمُزَاحم مولاه : إنى عزمتُ أن أردَّ السَّهلة إلى بيتِ مال المسلمين . فقال مُزاحم : أتدرى كم وَلَدُك ؟ إنهم كذا وكذا ! .

فذَرَفتْ عيناه ، فجعل يمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى ، و يقول : أَكِلُهم إلى الله ، أَكِلُهم إلى الله .

فمضى مُزَاحم ، فدخل على عبد الملك ابنه ، فقال له : ألا تَعْلَمُ ما قد عزم عليه أبوك ، إنه يريدُ أن يردَّ السَّهْلَة . قال : فما قلتَ له ؟ قال : ذكرتُ له ولدَه ؛ فجعل يَسْتَدْمع ويمسح الدَّمعة بإصبعه الوسطى ، ويقول : أَكِلُهم إلى الله .

فقال عبد الملك : بئسَ وزيرُ الدين أنت ! ثم وثَبَ وانطلق إلى أبيه ، فقال للآذن : استأذن لى عليه . فقال : إنه قد وضع رأسه الساعةَ للقائلة[1] . فقال : استأذنْ لى عليه . فقال : أما ترحمونَه ؟ ليس له من الليل والنهار إلا هذه الساعة . قال : استأذِنْ لى عليه ، لَا أُمَّ لك !

فسمع عمر كلامهما ، فقال : ائذن لعبد الملك ، فدخل فقال : عَلَامَ عزمتَ ؟

---

* ابن أبى الحديد : ٤ ـ ١٤٧

(١) القائلة : نصف النهار ، والنوم فى الظهيرة .

قال : أردّ السّهلة ! قال : فلا تؤخرّ ذلك . قم الآن ، فجعل عمر يرفعُ يديه ، ويقول : الحمد لله الذى جعلَ ى من ذرّيتى من يُعيننى على أمر دينى . نعم ، يابنىّ ؛ أصلِّى الظهر ، ثم أصعد المنبر ، فأر ّ ا علانية على رءوس الناس .

قال : ومَن لك أن تعيشَ إلى الظهر ، ثم مَن لك أن تَسْلَمَ نيتُك إلى الظهر إن عشتَ !

فقام عمر ، فصعد المنبر وخطب الناس ، وردّ السّهْلَة .

٢٤ ـ أوارثٌ أنتَ بنى أمية*

قال أحمد بن موسى : ما رأيت رجلاً أثبتَ جناناً من رجل رُفع فيه عندَ المنصور(1) ، وقالوا : إنَّ عنده ودائعَ وأموالاً وسلاحاً لبنى أميـة . فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره ، فأُحْضِرَ بين يديه .

فقال له المنصور : قد رُفِع إلينا أنّ عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبنى أمية ، فأَخرِجْ لنا ما عندك ، واحمل جميعَ ذلك إلى بيت المال . فقال الرجل : يا أميرَ المؤمنين ؛ أنت وارثُ بنى أميَّة ؟ قال : لا . قال: فوصيٌّ أنت ؟ قال : لا . قال : فلِمَ تسألُ عن ذلك ؛ فأطْرَقَ المنصور ساعة وقال : إنَّ بنى أميَّة ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين ، وأنا آخُذها فأردها إلى بيت المال للمسلمين . قال الرجل : يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إقامةِ بيّنةٍ يقبلها الحاكم على أنّ المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدىّ ، وأنه هو الذى اغتصبوه من الناس ؛ وأميرُ المؤمنين يعلمُ أن بنى أمية كانت معهم أموالٌ لأنفسهم غـيرُ الأموال التى اغتصبوها على ما يزعمُ أمير المؤمنين .

فسكت المنصورُ ساعة ثم قال : يا ربيع ؛ صدق الرجل ما يجب لنا عليه شىء ، ثم قال للرجل : ألك حاجة ؟ قال : نعم . قال : ما هى ؟ قال : أن تجمعَ بينى و بين

---

* المختار من نوادر الأخبار .

(1) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد ، ثانى خلفاء بنى العباس وأعظمهم شدة وبأساً ويقظة وثباتا توفى سنة ١٥٨ هـ .

مَنْ سعى بى إليك ؛ فو الله يا أمير المؤمنين ما لبنى أمَيَّةَ عندى ودائع ولا مالٌ ولا سلاح ؛ ولما حضرتُ بين يدى أمير المؤمنين ، وعلمتُ ما هو عليه من العدل والإنصاف ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، أيقنتُ أن هذا الكلام الذى صدر منى هو أنْجَحُ وأصلحُ لما سألنى عنه وأقربُ إلى الخلاص .

فقال المنصور للربيع : اجمعْ بينه و بين الرجل الذى اتهمه . ولما جىء بالرجل عرفه ، وقال : هذا غلامى أخذ لى خمسمائة دينار وهرب ، ولى عليه كتاب بها ، ثمّ استنطق المنصور الغلام ، فأقرّ أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره مولاه ، وأَبَقَ[1] به ، وسعى بمولاه ليجرىَ عليه أمرُ الله ، ويَسْلَمَ هو من الوقوع فى يده . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد وهبتها له لأجلك ؛ وأدفعُ له خمسمائة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين .

فاستحسن المنصور فِعْلَه ، وكان فى كل وقتٍ يقول : يا ربيع ؛ ما رأيتُ مَنْ حاجّنى مثله .

(١) أبق العبد : استخفى وذهب .

٢٥ — حذَر عيسى بن موسى*

لما خرج أبو جعفر المنصور يريدُ الحجّ بالناس، قال لعيسى بن موسى[١]: أنت تعلم أن الخلافةَ صائرةٌ إليك، وأريد أن أسلِّم لك عمى وعمَّك عبدَ الله بن على؛ فخذه واُقْتُله: وإياك أن تجبنَ فى أمره.

ثم مضى المنصورُ إلى الحج، وكتب إليه من الطريق يستحثّه على ذلك، فكتب إليه: قد أنفَذْتُ أمرَ أمير المؤمنين! فلم يشكّ أبو جعفر أنه قتَلَه.

ودعا عيسى بنُ موسى كاتبَه يونس؛ فقال له: إن المنصورَ دفع إلىّ عمّه، وأمرنى بقتله. فقال له: إنه يريدُ أن يقتلَك به؛ فقد أمرك بذلك سرًّا، ويدّعى عليك به علانِيَة. والرأىُ أن تستره فى منزلك، ولا تُطْلِع عليه أحداً؛ فإن طلبه منك علانِيَة، دفَعته إليه، ولا تدفعه إليه سرًّا أبداً! ففعل ذلك.

وقدم المنصور؛ فدسّ على عمومته مَنْ يحركهم أن يسألوه أن يهبَ لهم أخاهم عبد الله؛ ففعلوا ذلك، واستشفعوا له. فقال: نعم، علىّ بعيسى بن موسى، فأتاه.

فقال: يا عيسى؛ كنتُ قد دفعتُ إليك عمى وعمّك عبد الله قبل خروجى إلى الحج، وأمرتُك أن يكونَ فى منزلك مكرّماً! قال: قد فعلتُ ذلك. قال: قد كلَّمنى فيه عمومتك؛ فرأيتُ الصفح عَنه، فأْتنى به.

(*) المستطرف: ١ ـ ٦٥

(١) هو عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، ولد ونشأ بالحميمة من أرض الشام، وكان من فحول أهله وشجعانهم وذوى النجدة والبأس فيهم.

قال : ياأمير المؤمنين ؛ ألم تأمرنى بقتله ؛ قال : لا ، بل أمرتك بحبسه عندك .

ثم قال المنصور لعمومته : إن هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم ، وادّعى أنى أمرته بذلك ! وقد كذب ! قالوا : دعه لنا نقتله . قال : شأنكم .

فأخرجوه إلى صحن الدار ، واجتمع الناس ، واشتهر الأمر ؛ فقام أحدهم ، وشهر [1] سيفه ، وتقدم إلى عيسى ليضربه ؛ فقال عيسى : لاتعجلوا ؛ فإن عمّى حىّ ، ردّونى إلى أمير المؤمنين ، فردّوه إليه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنما أردتَ بقتله قتلى ، هذا عمك حىّ ، إن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته . قال : ائتنا به ، فأتى به ، فجعله فى بيت ، فسقط عليه ، فمات .

وركب المنصور بعد موته ، وفى خدمته ابنٌ لعمه ، وكان يحادثه ، فقال له : هل تعرفُ ثلاثة فى أول أسمائهم عين قُتِلوا ؟ قال : لا أعرفُ إلا ما تقولُ العامة يا أمير المؤمنين : إن عليًّا قتل عثمان ، وكذبوا والله ، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير ، وسقط البيتُ على عمّ أمير المؤمنين .

فضحك المنصور ، وقال : إذا سقط البيتُ على عمى ، فما ذنبى ؟ قلت : ما قلت لك ذنبٌ يا أمير المؤمنين !

---

(١) شهر سيفه : انتضاه فرفعه .

٢٦ — يَقظَة المنصور*

قال عُقْبَة الأزْدى : دخلتُ مع الجند على المنصور ، فارتابنى [(١)] ، فلما خرج الجندُ أَدْنَانى ، وقال لى : من أنت ؟ فقلت : رجلٌ من الأزد ، وأنا من جند أمير المؤمنين ، قدمت الآن مع عمرو بن حَفْص .

فقال : إنى لأَرَى لك هيبةً ، وفيك نَجَابةً ، وإنى أريدُك لأمر ، وأنا به مَعْنِيٌّ ، فإن كفَيْتَنِيه رَفَعْتُك . فقلت : إنى لأرجو أن أصدقَ ظنَّ أمير المؤمنين فىَّ . فقال : أخْفِ نفسك ، واحْضر فى يوم كذا .

فغِبتُ عنه إلى ذلك اليوم وحضرتُ ، فلم يترك عنده أحداً ، ثم قال لى : اعلم أن بنى عمنا هؤلاء قد أبَوا إلا كيدَ ملكنا واغتياله ، ولهم شِيعةٌ بخُرَاسان بقرية كذا ، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وأَلْطَاف [(٢)] بلادهم ، فخذ معك عَيْناً [(٣)] من عندى ، وألطافاً وكتباً ، واذهب حتى تأتى عبدَالله بن الحسن ، فاقْدَم عليه متخشعاً ، واذكر له أن الكتبَ على ألسنةِ أهلِ تلك القرية ، والألطافَ من عندهم إليه . فإذا رآك فإنه سيردُّك ويقول : لا أعرفُ هؤلاء القوم ، فاصبر عليه وعاوِدْه ، واكْشِف باطنَ أمرِه .

فأخذتُ كتبَه والعينَ والألطاف ، وتوجّهتُ إلى جهة الحجاز ، حتى قَدِمتُ على عبد الله بن الحسن ، فلقيتُه بالكتُب ، فأنكَرَها ونَهرَنى ، وقال : ما أعرفُ

---

* المستطرف : ٢ — ٩٤

(١) ارتبت فلاناً : اتهمته (٢) اللطفة : الهدية (٣) العين : المال ، وما ضرب من الدنانير .

هؤلاء القوم . فلم أنصرفْ ، وعاودتُه القول ، وذكرتُ له اسمَ القرية وأسماء أولئك القوم ، وأن معى ألطافاً وعَيْناً .

فأَنِس بى ، وأخذ الكُتُب ، وما كان معى ، فتركتُه ذلك اليوم ، ثم سألتُه الجواب ، فقال : أمّا كتابٌ فلا أكتب إلى أحدٍ ، ولكن أنت كتابى إليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرهم أن ابنىّ : محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقتَ كذا وكذا .

فخرجتُ من عنده ؛ وسرتُ حتى قدِمتُ على المنصور ، فأخبرتُه بذلك ، فقال لى : إنى أريدُ الحج ، فإذا صرتُ بمكان كذا وكذا ، وتلقّانى بنو الحسن ، وفيهم عبد الله ، فإنى أعظِّمه وأكرِمُه ، وأرفعُه وأُحْضر الطعام ، فإذا فرغ من أكله ، ونظرتُ إليه ، فامثُلْ بين يدىّ ، وقِفْ قدّامه ، فإنه سيصرف وجهه عنك ، فدُرْ حتى تقفَ من ورائه ، واغمز ظهره بإبهامك حتى يملأَ عينيه منك ، ثم انصرفْ عنه ، وإياكَ أن يراكَ وهو يأكل .

ثم خرج المنصور يريدُ الحج ، حتى إذا قارب البلاد ، تلقّاه بنو الحسن ، فأجلس عبدَ الله إلى جانبه ، فحادثَه ثم طلب الطعام للغَدَاء ، فأكلوا منه ، فلما فرغوا أمر برفعِه فرُفع ، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن ، وقال : يا أبا محمد ، قد علمتَ أن مما أعطيتنى من العهود والمواثيق أنك لا تريدُنى بسوء ، ولا تكيدُ لى سلطاناً .

قال : فأنا على ذلك يا أميرَ المؤمنين .

ثم لحظنِي المنصور بعَيْنه فقمتُ حتى وقفتُ بين يدى عبد الله بن الحسن ، فأعرضَ عنى ، فدُرْت من خلفه ، وغمزت ظَهْره بإبهامى ، فرفع رأسه ، وملأ عينيه منى ،

ثم وثَبَ حتى جَثا بين يدى المنصور ، وقال : أَقِلنى ياأميرَ المؤمنين أَقَالَكَ اللهُ !
فقال المنصور : لا أقالَنى الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبسه ، وجعل يتطلَّب ولديه محمداً
وإبراهيم، ويستعلم أخبارهما .

٢٧ ـ المنصور فى ساحة القضاء*

قال نمَيْر المدنىّ : قَدِم علينا أميرُ المؤمنين المنصورُ المدينة ، ومحمد بن عمران
الطلحىّ يتولّى القضاء بها وأنا كاتبه ، فخضر جماعةٌ من الجَمَّالَةِ (١)، واستعدَوْه على
أمير المؤمنين المنصور فى شىء ذكَرُوه ، فأمرنى أن أَكْتُبَ إلى المنصور بالحضُور
معهم أو إنصافِهم . فقلت له : أعفنى من ذلك فإنه يعرفُ خَطِّى . فقال : اكتب .
فكتبتُ وختمتُ . فقال : والله ما يَمْضِى به غيرُك ، فمضيتُ به إلى الربيع حاجبِه،
وجعلتُ أعتذرُ إليه ، فقال : لا بأسَ عليك ! ودخل بالكتاب على المنصور .

ثم خرج الرَّبيع، فقال للناس ـ وقد حضر وجوهُ أهل المدينة والأشرافُ وغيرهم:
إنّ أميرَ المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : إنى دُعِيتُ إلى مجلس الحكم ،
فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ، ولا تبدءونى بالسلام .

ثم خرج وبين يديه المسيَّب (٢) والربيع وأنا خَلْفه ، وهو فى إزار ورِدَاء ،
فسلَّم على الناس ، فما قام إليه أحد ، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبى صلى الله عليه وسلم،
فسلَّم عليه ، ثم التفتَ ، فلما رآه ابن عمران القاضى أطلق رداءه عن عاتقه ، ثم

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٧٠

(١) الجمالة أصحاب الجمال (٢) هو المسيب بن زهير ، كان على شرط المنصور والمهدى ببغداد
وولاه المهدى خراسان ، ولم تطل فيها مدته ، وتوفى ببغداد سنة ١٧٥ هـ.

احتَبى به ، ودعا بالخصوم وهم الجمَّالة ، ثم دعا بالمنصور ، فادّعى عليه القوم ، وقضى لهم عليه ، ثم انصرف .

فلما دخل المنصور الدارَ قال للربيع : اذهب ، فإذا قام القاضي من مَجْلِسه فادْعه . فلما دعاه ودخل على المنصور سلم عليه ، فردّ عليه السلام . وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نبيِّك وعن حَسَبِك ، وعن خليفتك ، أحسنَ الجزاء، قد أمرتُ لك بعشرة آلاف ، صِلةً لك فاقبضها .

فكانت عامّةُ أموال محمد بن عمران من تلك الصلة .

٢٨ - نَبْني كما كانت أَوائلنا تبنى*

كان المنصور معجبًا بمحادثةِ محمد بن جعفر ، ولعظم قَدْره يفزَع الناسُ إليه فى الشفاعات ، فثقُل ذلك على المنصور ، فحجبه مدّة ، ثم لم يصبر عنه ، فأمر الربيعَ حاجبه أن يكلِّمَه فى ذلك ، فكلمه وقال : أَعْفِ أميرَ المؤمنين ، ولا تُثْقِل عليه فى الشفاعات ، فقبل ذلك منه .

فلما توجَّه إلى الباب اعترضه قومٌ من قريش ، معهم رِقَاع[1] ، فسألوه إيصالها إلى المنصور ، فقصّ عليهم القصةَ ، فأبَوْا إلا أن يأخذَها ، فقال: اقذفوها فى كُمِّى.

ثم دخَل عليه ، وهو مشرفٌ على مدينة السَّلَامِ ، وما حولها من البساتين ، فقال له : أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك فيما آتاك ، وهنّأك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك ! فما بَنَتِ العربُ فى دولة الإسلام ، ولا العَجَمُ فى سالفِ الأيام أحْصَنَ ولا أحسنَ من مدينتك ، ولكن كرَّهَتْها فى عينى خَصْلَةٌ ! قال: وما هى ؟ قال: ليس لى ضَيْعَة ، فتبسَّم ، وقال : قد حسَّنْتُها فى عينك بثلاث ضياع قد أَقْطَعْتُكَها ! فقال : لله دَرُّك يا أمير المؤمنين ! إنك شريف الموارد ، كريم المصادر؛ جعل الله تعالى باقىَ عمرك أكثرَ من ماضيه ، ثم أقام معه يومه ذلك .

فلما نهض ليقومَ بدتِ الرِّقَاع من كُمِّه ، فجعل يردّها ويقول : ارجِعْنَ خائبات خاسرات .

---

* المجانى : ٣ - ١٩٥

(١) الرقاع : جمع رقعة : ما يكتب فيها .

فضحك المنصور ، وقال : بحقّي عليك إلّا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرّقاع ؛ فأعلمه ، فقال : ما أتيتَ يابن مُعَلِّم الخير الا كريماً ، وتمثّل بقول عبد الله بن معاوية :

لسنا وإن أحسابُنا كرُمت يوماً على الأحساب نتّكل

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل مافعلوا

ثم تصفّح الرقاع ، وقضى حوائجَ أصحابها جميعا .

٢٩ — هَمَذَانى بين يدى المنصور *

بينما كان المنصورُ جالساً فى مجلسه المبنىِّ على أعالى باب [(١)] خُراسان ، من مدينته التى بناها ، وأضافها إلى اسمه ، مُشْرِفاً على دِجْلَة جاءه سَهْمٌ عائِر [(٢)] سقط بين يديه ، فذُعِرَ منه ذُعْراً شديداً ، ثم أخذه فجعل يقلّبه ؛ فإذا مكتوب عليه بين الرِّيشتين :

أتطمَعُ فى الحياةِ إلى التَّنادى [(٣)] وتحسَبُ أنّ مالك مِنْ نَفَاد
ستُسْأَل عن ذنوبك والخَطَايا وتُسْأَل بعد ذاكَ عن العِبَاد

ثم قرأ عنْدَ الرِّيشة الأولى :

أحسنْتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوء ما يأتى به القدَرُ
وسالَمَتْكَ اللَّيالى فاغْتَرَرْتَ بها وعند صَفْوِ الليالى يَحْدُث الكَدَرُ

ثم قرأ عند الرِّيشَة الأخرى :

هى المقادِيرُ تجْرِى فى أعِنَّتها فاصْبر فليس لها صَبْرٌ على حَالِ
يوماً تُرِيك خَسِيسَ القومِ ترفعُه إلى السماء ويوماً تخفضُ العالى

وإذا على جانب السهم مكتوب : « هَمَذَان منها رجل مظلوم فى حَبْسك » !

---

* المسعودى : ٢ — ٢٣٢

(١) كان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة فى الأعلى من طاقه المعقود مجلساً يشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه ، وكانت أربعة أبواب : فأولها باب خراسان أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة ، ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة (٢) السهم العائر : الذى لا يدرى من رماه
(٣) يوم التنادى : يوم القيامة .

فبعث من فوره بعدَّةٍ من خاصَّته ، ففتّشوا الحُبُوسَ[1] ؛ فوجدوا شيخاً فى بَنيّة من الحبس ، مُوثقاً بالحديد ، متوجِّهاً نحو القبلة ، يردّدُ قوله تعالى : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ؛ فسألوه عن بلده ، فقال . هَمَذَان .

فَحُمِل ووُضع بين يدى المنصور فسأَلَهُ عن حاله ، فأَخبره أنه رجلٌ من أبناء مدينة هَمَذان ، ومن أرباب نِعَمِها ، ثم قال له : إن وَالِيَك علينا دخل بلدنا ، ولِى ضيعةٌ تساوى ألف ألف ، فأَراد أَخْذَها منى ، فامتنعتُ ، فكبَّلنى بالحديد ، وحملنى وكتب إليك : إنى عاصٍ ؛ فطُرِحْت فى هذا المكان .

فقال : مُنْذُ كم ؟ قال : منذ أربعة أعوام . فأَمَر بِفَكِّ الحديد عنه ، والإحسان إليه ، وأَنْزَله أحسنَ منزل .

ثم رُدَّ إليه ، وقال له : ياشيخ ؛ قد رَدَدْنا عليك ضَيْعَتَكَ بخَرَاجِها ماعشتَ وعِشْنا ، وأما مدينتُك هَمَذَان ، فقد ولّيناك عليها ، وأما الوالى فقد حكمناك فيه ، وجعلنا أمره إليك؛ فجزاه خيراً ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أميرالمؤمنين ؛ أما الضَّيْعَةُ فقد قَبِلْتُها ، وأما الولاية فلا أصلُح لها ، وأما واليك فقد عَفَوْتُ عنه .

فأَمر له المنصورُ بمالٍ جزيل ، وبرٍّ واسع ، وحمله إلى بلده مكرّماً ، بعد أن صرفَ الوالى وعاقبَه على ما جنى من انحرافه عنَ سُنَّةِ العدل والحق ، وسأَل الشيخَ مكاتبتَه فى أخبار بلده ، وإعلامه بما يكون من وُلاته ، ثم أنشأَ المنصور يقول :

من يصحب الدهرَ لا يأْمن تَصَرُّفَه ... يوماً ، وللدهر إحْلَاءٌ وإمرار
لكل شىء ، وإن دامت سلامته ... إذا انتهى فله لا بدَّ إقصار

---

(١) الحبوس : جمع حبس .

٣٠ — أمير في مجلس القضاء*

أتت امرأةٌ يوماً شَرِيكَ[1] بن عبد الله قاضي الكوفة، وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا باللهِ ثم بالقاضي! قال: مَنْ ظلمك؟ قالت: الأمير مُوسى بن عيسى عمُّ أمير المؤمنين؛ كان لي بُسْتَان على شاطىء الفرات، فيه نخلٌ ورِثْتُه عن أبي، وقاسمْتُ إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطاً، وجعلتُ فيه رجلاً فارسيًّا يحفظُ النَّخْل ويقوم به، فاشترى الأمير موسى بنُ عيسى مِن جميع إخوتي، وساوَمَنِي ورغَّبني، فلم أبِعْه؛ فلما كانت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام، فاقتلعوا الحائط؛ فأصبحتُ لا أعرف من نَخْلِي شيئاً، واختلط بنَخْلِ إخوتي.

فقال: ياغلام! أحضر طِينَةً[2]، فأحضرها فختمها، وقال: امضِ بها إلى بابه حتى يحضرَ معك؛ فأخذها الحاجب، ودخل على موسى، فقال: قد أعْدى[3] القاضي عليك، وهذا خَتْمُه؛ فقال: ادعُ لي صاحب الشرطة فدعا به، فقال: امضِ إلى شريك، وقل: ياسبحان الله! ما رأيتُ أعْجَبَ من أمرك! امرأة ادّعت دَعْوى لم تصح أعْدَيتها عليَّ! قال صاحبُ الشرطة: إن رأى الأميرُ أن يُعفيني من ذلك! فقال: امضِ، وَيْلَك! فخرج، وقال لغلمانه: اذهبوا واحملوا لي إلى حَبْس القاضي بِسَاطا وفراشاً، وما تدعُو الحاجة إليه، ثم مضى إلى شَرِيك،

---

* العقد الفريد للملك السعيد: ١٧٢

(١) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، عالم فقيه، اشتهر بقوة ذكائه، وسرعة بديهته، ولي قضاء الكوفة سنة ١٥٣ هـ، وكان مثالا للعدل والنزاهة في قضائه، توفي سنة ١٧٧ هـ (٢) الطينة: القطعة من الطين (٣) أعدى عليه: أعان.

فلما وقف بين يديه أدّى إليه ما قاله موسى ؛ فقال لغلام المجلس : خذ بيده فضَعْه فى الحبس . فقال صاحب الشرطة : والله قد علمتُ أنك تحبسنى ، فقدمتُ ماأحتاج إليه فى الحبس .

وبلغ موسى بن عيسى الخبر ؛ فوجَّه الحاجبَ إليه ، وقال له : رسولٌ أدّى رسالة أىُّ شىء عليه ! فقال شريك : اذهبوا به إلى رفيقه فى الحَبْس ، فحُبس .

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شَرِيك ، وقال لهم : أَبْلِغُوه السلام ، وأعلموه أنه استخفَّ بى . وأنى لستُ كالعامَّة ؛ فمضوا إليه وهو جالس فى مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضى كلامهم ، قال لهم : مالى أراكم جئتمونى فى جمع من الناس ، فكلمتمونى ؟ مَنْ هاهنا من فِتْيَان الحى ؟ فأجابه جماعة من الفتيان فقال : ليأخذْ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس ، ما أنتم إلا فِتْنةٌ وجزاؤكم الحبس . قالوا له : أجادٌّ أنت ؟ قال : نعمْ ، حتى لا تعودوا لرسالةِ ظالم . فحبسهم .

فركب موسى بن عيسى فى الليلة إلى باب السجن ، وفتح الباب ، وأخرجهم كلهم ، فلمَّا كان من الغد ، وجلس شريك للقضاء جاءه السَجان ، فأخبره ، فدعا بالقِمْطر [1] فختمه ، ووجَّه به إلى منزله ، وقال لغلامه : الْحَقْ بثَقَلى [2] إلى بغداد ، والله ما طَلبنا هذا الأمر منهم ، ولكن أكرهونا عليه ، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزَازَ إذ تقلدْناه لهم ، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد ، وبلغ الخبرُ إلى موسى بن عيسى ، فركب فى موكبه ، فلحقه ، وجعل يناشده الله ، ويقول : يا أبا عبد الله ؛

---

(١) القمطر : وعاء الكتب (٢) الثقل : المتاع .

تثبّت ، انظر إخوانى ، أتحبسهم ! قال نعم ، لأنهم مشوا لك فى أمرٍ لم يَجُزْ لهم المشى فيه ، ولستُ ببارح أو يُردّوا جميعاً ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهدى ، فاستعفيتُه مما قلدَنى ..

فأمر موسى بردّهم جميعاً إلى الحَبْس ، وهو واقفٌ مكانه حتى جاء السجّان ، فقال : قد رَجَعُوا جميعاً إلى الحبس ، فقال لأعوانه : خذوا بلِجَام دابته بين يدى إلى مجلس الحكم ، فمرّوا به بين يديه حتى أُدخِلَ المسجد وجلس فى مَجْلس القضاء ، فجاءت المرأة المتظلمة ؛ فقال : هذا خَصْمُكِ قد حضر ، فقال موسى وهو مع المرأة بين يديه :قبل كلّ أمرٍ أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك : أما الآن فنعم ! أَخْرِجوهم من الحبس ، فقال : ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة ؟ قال : صدَقَتْ ، قال : تَردُّ ما أخذتَ منها ، وتبنى حائطها سريعاً كما كان . قال : أفعل ذلك ، قال لها : أَبَقِيَ لكِ عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك ، وجزاك خيراً . قال : قومى ، فقامت من مجلسه .

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأَجْلَسَه فى مجلسه ؛ وقال : السلام عليك أيها الأمير ، أتأمرُ بشىء؟ فقال : بأىّ شىء آمر ؟ وضحك ، فقال له شريك: أيها الأمير ، ذاك الفعل حقُّ الشرع ، وهــذا القول الآن حق الأدب ؛ فقام الأمير وانصرف إلى مجلسه .

٣١ — قاضٍ يطلب إقالته من القضاء*

نُقل أن عاقبةَ بنَ يزيد القاضى كان يَلِي القضاء ببغداد للمهدىّ ؛ فجاء فى بعض الأيام وقتَ الظهر للمهدىّ ، وهو خالٍ ، فاستأذَنَ عليه ، فلما دخل استأذنه فيمَنْ يُسَلِّمَ إليه القِمَطْر (١) الذى فيه قضايا مجلس الحكم ، واستعفاه من القضاء ، وطلب منه أن يُقيلَه من ولايته .

فظن المهدى أن بعضَ الأولياء قد عارضه فى حُكمه ، فقال له فى ذلك : إنه إن كان قد عارضك أحد نُنْكِر عليه . فقال القاضى : لم يكن شيء من ذلك . قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ تقدّم لى خَصْمان منذُ شهر فى قضية مُشْكِلة ، وكلٌّ يدّعى بينةً وشهوداً ، ويُدْلى بحُجج تحتاج إلى تأمُّل وتلبُّث، فرَددت الخصوم رجاء أن يَصْطَلِحَوا وأن يظهرَ الفصل بينهما ،فسمع أحدُهما أنى أحبُّ الرُّطَب ، فعمد — فى وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب — فجمع رُطباً لا يتهيّأ الآن جمعُ مِثْلِه لأمير المؤمنين ، وما رأيت أحسنَ منه ، ورشا بوّابى بدراهم على أن يُدْخِل الطَّبَق علىّ .

فلما أدخله علىّ أنكرتُ ذلك ، وطردت بوّابى ، وأمرتُ بردّ الطبق ، فردّ عليه .

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٧٠

(١) ما تصان فيه الكتب .

فلما كان اليوم تقدَّم الخصمان إلىَّ فما تَساويا فى عينى ولا قلبى ؛ فهـذا يا أمير المؤمنين ولم[1] أقبل ، فكيف يكون حالى لو قَبِلت ، ولا آمن أن تقعَ علىَّ حيلةٌ فى دينى ، وقد فسد الناس ؛ فأَقِلْنِى يا أمير المؤمنين ، أقالك الله ، وأعفنى ،عفا الله عنك .

٣٢ — أبو دُلَامة وابن أبى ليلى القاضى*

شهد أبو دُلامة لجارةٍ له عند ابن أبى ليلى[2] القاضى على أتانٍ نازعها فيها رجل، فلما فرغ من الشهادةَ ، قال لابن أبى ليلى : اسْمَعْ ما قلتُ قبل أن آتِيَك ، ثم اقْضِ بما شئت . قال : هاتِ ، فأنشده :

إنِ الناسُ غَطَّوْنِى تَغَطَّيْتُ عنهمُ ... وإن بَحَثُوا عنى ففيهم مَبَاحِثُ

وإن حَفَروا بئرى حفرتُ بِئَارَهُمْ ... لِيُعْلَمَ يوماً كيف تلك النَّبَائِثُ[3]

فأقبل القاضى على المرأة وقال : أتَبيعِينَنى الأتان ؟ قالت : نعم . قال : بكم ؟ قالت : بمائة درهم ! قال : ادفعوها إليها ، ففعلوا .

وأقبل على الرجل ، فقـال : قد وهبتُها لك . وقال لأبى دلامة : قد أمضيتُ شهادتك ، ولم أَبْحَثْ عنك ، وابتعتُ ممن شهدتَ له ، ووهبت مِلكى لمن رأيتُ . أرضيتَ ؟ قال : نعم ، وانصرف .

---

* معاهد التنصيص : ١ — ٢١١ ، الأغانى : ١٠ — ٢٣٨ .

(١) جملة حالية ، والمعنى : فهذا ما حصل عندى ، مع أنى لم أقبل منه الهدية .

(٢) ابن أبى ليلى هو محمد بن عبد الرحمن قاضى الكوفة . (٣) النبائث : ما يستخرج من تراب البئر إذا حفرت .

٣٣ — صاحب شرطة المهدى مع الهادى*

قال عبدُ الله بن مالك : كنت أتولّى الشرطة للخليفة المهدى ، وكان يبعث إلىّ فى نُدماء ولده الهادى أن أضربَهم وأحبسَهم ، صيانةً للهادى عنهم ، فيبعث إلىّ الهادى يسألُنى الرفْقَ بهم ، والتخفيف فى أمرهم ، فلا ألتفتُ إلى ذلك ، وأمْضى لما يأمرُ به المهدى . فلما ولى الهادى الخلافة أيقنتُ بالتّلف، فبعث إلىّ يوماً، فحضرت ودخلتُ عليه متكفِّناً مُتحَنِّطاً ، وإذا هو جالسٌ على كرسى والنِّطْعُ والسيفُ بين يديه ، فسلمتُ عليه ، فقال : لا سَلَّمَ الله عليك ، تذكر يوماً بعثتُ إليك فى أمر الحرّانى لمَّا أمر أمير المؤمنين بضرْبه ، فلم تُجِبنى ؟ وفى فلان وفلان — وجعل يعدِّدُ ندماءه .

قلتُ : نعم ، ياأمير المؤمنين؛ أفتأذنُ لى أن أتكلم؟ قال: نعم . قلت: أَنْشَدْتُكَ الله ! أيسرُّك أنك وليتنى ما ولّانى أبوك وأمرتنى بأمر؛ فبعث إلىّ بعضُ ولدك بأمرٍ يخالفُ أمرك فاتبعتُ أمرَه ، وعَصيت أمرك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنتُ لأبيك .

فاستدْناني فقبّلتُ يده ، فأمر بخلَع أُفيضت علىّ ، وخرجتُ من عنده ، وصرتُ إلى منزلى مفكراً فى أمره وأمرى ، وقلت فى نفسى: قد يحدِّث القومَ بالأمر الذى عصيته فيه ، وهم ندماؤه ووزراؤه وكتابه ، فكأنى بهم قد أزالوه عن رأيه فىّ وحملوه فى أمرى على ما كنت أتخوفه .

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٢٤ ، عصر المأمون : ١ — ١٠٧ .

قال : فإنى لجالس وبين يدىّ خُبْزٌ مَشْطُورٌ بكامَخ(١) ، وأنا أسخّنُه وأُطعِمُه الصِّبْية ، وإذا ضجَّةٌ عظيمة ، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتُلِعت وزُلزلت من شدة وَقْعِ حوافر الخيل والدواب ، وكَثْرةِ الضوضاء ، فقلت : هاه ! والله قد جاء الأمر ، وإذا البابُ قد فُتِح ، وإذا الخدمُ قد دخلوا ، وأميرُ المؤمنين الهادى فى وسطهم .

فلما رأيته وثبتُ من مجلسى مبادراً ، فقبّلتُ يده ورجلَه . فقال لى : ياعبد الله ؛ إنى فكرتُ فى أمرك بعد انصرافك ، فقلت : يَسْبق إلى قلبك أنى إذا جلستُ وحولى أعداؤك الذين أسأتَ إليهم أزالوا ما حَسُنَ من رأيى فيك ، فأقلقك ذلك وأوحشك ، ومنعك القرار ، فصرتُ إلى منزلك لأؤانسك ، وأعلمك أن الوَحشة قد زالتْ عن قلبى ، فهات فأَطْعِمْنى مما كنتَ تأكل ، وافعلْ فيه ما كنتَ تفعل ، حتى تعلم أن الوَحْشة قد زالت ، وقد تحرَّمتُ(٢) بطعامك ، وأَنِستُ بمنزلك ، ليزُولَ خوفُكَ ووحشتك .

فأدْنَيت منه ذلك الرُّقَاق والسُّكُرُّجة(٣) التى فيها الكامَخ ، فأكل ؛ ثم قال : هاتوا ما أحضرتموه لعبد الله من مجلسى . فأُدْخِلَتْ بغالٌ كثيرة مُوقَرَةٌ(٤) دراهم وأطعمة ، وقال : هذه لك فاستَعِنْ بها ، وهذه البغال أيضاً ، وقد ولَّيتك ما كان أبى قد ولاك . ثم انصرف ، وصِرتُ بعد ذلك أعد من صَنائِعِه .

---

(١) الكامخ : نوع من الأدم (٢) تحرم منه بحرمة : تمنع وتحمى (٣) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم ، وهى فارسية ، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها .
(٤) أوقر دابته : حملها :

٣٤ ــ لا أَفْلَح قاض لا يقيم الحق*

كان عبيد بن ظبيان[1] قاضى الرشيد بالرَّقَّة ــ وكان الرشيد إذ ذاك بهـا ــ فجاء رجلٌ إلى القاضى ، فاستعداه[2] على عيسى بن جعفر ، فـكتب إليه القاضى ابن ظبيان : « أما بعد ، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمَّ نعمته ، فقد أتانى رجل فذكر أنه فلان ابن فلان ، وأن له على الأمير ــ أبقاه الله تعالى ــ خمسمائة ألف درهم ، فإن رأى الأمـير أن يحضر مجلس الحـكم ، أو يوكّل وكيلاً يناظر خَصْمَه ، أو يرضيه. فعل » .

ودفع الـكتابَ إلى رجل ، فأتى بابَ ابن جعفر ، فدفع الـكتاب إلى خادمِه. فأوْصَله إليه ، فقال له : قل له : كُلَ هذا الـكتاب .

فرجع الرجل إلى القاضى ؛ فأخبره ، فـكتب إليه : « أبقاك الله وأمْتَع[3] بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان ، وذكر أنّ له عليك حقًّا ، فسِرْ معه إلى مجلس الحـكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى » .

ووجَّه الـكتابَ مع عَوْنين[4] من أعوانه ، فحضرا باب عيسى بن جعفر ، ودفعا الـكتاب إليه فغضب ، ورمى به . فانطلقا ، فأخبراه فـكتب إليه : « حفظك الله وأمْتَعَ بك ، لا بدّ أن تصير أنت أو وكيلُك إلى مجلس الحـكم ، فإن أبيت أنهيتُ أمرك إلى أمير المؤمنين ــ إن شاء الله » .

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٧٤

(١) قاضى الرقة (٢) استعديت القاضى على الظالم : طلبت منـه النصرة (٣) أبقاك الله ليستمتع بك (٤) العون : الظهير .

ثم وجّه الكتابَ مع رجلين من أصحابه ، فقعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع ؛ فقاما إليه ، ودفعا إليه كتابَ القاضى ، فلم يقرأه ، ورمى به ، فعادَا فأَبلغاه ذلك ، فختم قِمَطْره [1] ، وأغلق بابَه ، وقعد فى بيته .

فبلغ الخبرُ إلى الرشيد فدعاه ، وسأله عن أمره ، فأخبره الخبر ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أعفِنى من هذه الولاية ، فوالله لا أفلَحَ قاضٍ لا يُقيم الحقَّ على القوىّ والضعيف ، فقال له الرشيد : مَنْ يمنَعُك من إقامةِ الحق ؟ فقال : عيسى بن جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: مرْ إلى دار عيسى بن جعفر ، واختِم أبوابَه كلها ، لا يخرج منها أحدٌ ، ولا يدخل إليها أحد ، حتى يخرجَ إلى الرجلِ من حقِّه ، أو يسيرَ معه إلى مجلسِ الحكْم .

فأَرسل إبراهيم إلى دارِ ابنِ جعفر بخمسمائة فارس ، وأغلق الأبواب كلّها، فتوهَّم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأىٌ فى قتله ، ولم يعرف الخبر ، فجعل يكلّم الأعوانَ من خَلْف الباب . وارتفع الصُّرَاخ فى منزله ، وضجّ النساء .

ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم : ادعُ لى أبا إسحاق لأُكَلِّمه ، فأعلموه ، فجاء حتى وقفَ على الباب ، فقال له عيسى : وَيْحَك ! ما حالُنا ؟ فأخبره خبر القاضى ابن ظبيان ، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأُحضرت ، وأمر أن تُدْفَع إلى الرجل . فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره . فقال : إذا قبض الرجلُ ماله ، فافتح أبوابه ، وعرِّفه أنّ ما رأيتَه من سيرتك مع القاضى ؛ فإياك ومعارضته .

---

(١) القمطر : ما يصان فيه الكتب .

٣٥ — الغادِرُ مَخْذول *

قال عَمْرو بن حَفْص مولى الأمين : دخلت على محمد الأمين فى جوف الليل ، وكنتُ من خاصَّتِه ، أصِلُ إليه حيث لا يصل إليه أحد من مواليه وحشمه ، فوجدته والشمعُ بين يديه ، وهو يُفكِّرُ ، فسلّمتُ عليه فلم يردّ علىّ ، فعلمت أنه فى تدبير بعضِ أمُوره ، فلم أزلْ واقفاً على رأسه ، حتى مضى أكثرُ الليل . ثم رفع رأسَه إلىّ فقال : أحْضِر لى خزيمة بن خازم [1] ، فمضيتُ إليه فأحضرتُه ، فلم يزل فى مُناظرته حتى انقضى الليل؛فسمعتُ خزيمة وهو يقول : أنْشُدُك اللهَ ياأمير المؤمنين ألاَّ تكون أول الخلفاء نكَثَ عهده ، ونَقَض ميثاقه،واستخفَّ بيمينه ، وردَّ رَأْىَ الخليفة قبله . فقال : اسكت ؛ لله أبوكَ ! فعبد الله بن خازم [2] كان أفضلَ منك رأيًا وأكملَ نظراً حيث يجتمع فَحْلَان فى هَجْمة [3] .

ثم جمع وُجُوهَ القواد ، فكان يعرضُ عليهم واحداً واحداً ما اعتزمه فيَأْبَونَه، وربما ساعده قوم ، حتى بلغ إلى خُزيمة بن خازم ، فشاوره فى ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لم ينصحْك مَنْ كَذَبك ، ولم يغشك من صَدَقَك ، لا تجرِّئْ القوّاد على الخلْع فيخلعوك ، ولا تحمِلهم على نَكْث العهد فينكثوا عهدك و بيعتك؛ فإن الغادر مخذول والناكثَ مَفْلول .

---

* عصر المأمون : ١ ـ ٢٠٤

(١) وال من أكابر القواد فى عصر الرشيد والأمين والمأمون ، توفى سنة ٢٠٣ هـ

(٢) عبد الله بن خازم : كان من أشجع النـاس ، له فتوح وغزوات ، وولى إمرة خراسان لبنى أمية ، توفى سنة ٧٢ هـ (٣) الهجمة من الإبل : ما بين السبعين إلى المائة .

٣٦ — رجل يُقاضِى المأمون *

دخل رجلٌ على المأمون [١] ، وفي يده رقعةٌ فيها مَظْلِمةٌ [٢] من أميرِ المؤمنين، فقال : أمظلِمةٌ منى ! فقال الرجل : أفأُخاطبُ ياأمير المؤمنين سواك !

قال : وماهى ظُلامتك ؟ قال : إن سعيداً وكيلَك اشترى منى جواهر بثلاثين ألف دينار . قال : فإذا اشترى سعيدٌ منك الجواهر تشكو الظُّلَامة منى ! قال : نعم ، إذ كانت الوَكَالةُ قد صحّتْ منك . قال : لعل سعيداً قد اشترى منك الجوهر، وحَمَل إليك المال ، أو اشتراه لنفسه ؛ وعليه فلا يَلزمنى لك حقٌ ، ولا أعرفُ لك ظُلَامة. فقال له : إن فى وصيّةِ عُمر بن الخطاب لقُضَاتكم : « البيِّنةُ على من ادّعى، واليمينُ على من أنكر » .

قال المأمون : إنك قد عَدِمْتَ البيِّنة ؛ فما يجبُ لك إلا حَلْفَةٌ ، ولَئِن حَلَفْتُها لأَنا صادِقٌ ؛ إذ كنتُ لا أعرفُ لك حقًّا يلزمنى . قال : إذن أدْعوكَ إلى القاضى الذى نصبتَه لرعيَّتِك . قال : نعم ! يا غلام ، علىَّ بيحيى بن أكْثم [٣] ، فإذا هو قد مثَل بين يدَيْه ، فقال له المأمون : اقْضِ بيننا ، قال : فى حُكمٍ وقضيَّة ؟ قال : نعم ، قال : إنك لم تجعلْ ذلك مجلسَ قضاء . قال : قد فعلت .

---

* عصر المأمون : ١ ــ ٣٤٦

(١) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد من أعاظم خلفاء بنى العباس وعلمائهم وحكمائهم ، كان كريم الخلق عظيم الحلم محباً للعلم مؤثراً للحكمة ، توفى سنة ٢١٨ هـ (٢) المظلمة : ما تطلبه عند الظالم ، وكذلك الظلامة . (٣) يحيي بن أكثم : قاض رفيع القدر ، عالى الشهرة ، من نبلاء الفقهاء ، يتصل نسبه بأكثم بن صيفى حكيم العرب ، ولاه المأمون قضاء البصرة وهو شاب ، ثم قلده القضاء ببغداد . توفى سنة ٢٤٢ هـ .

قال : فإنى أبدأ بالعامّة أولًا ليَصْلُحَ المجلسُ للقضاء . قال : افعلْ .

ففتح الباب وقعد فى ناحيةٍ ، وأذِن للعامة ، ثم دُعِى بالرجل المتظلِّم ، فقال له يحيى : ما تقول ؟ قال : أقول : عليك أن تدعوَ بخَصْمى أميرِ المؤمنين المأمونِ . فنادى المنادى ؛ فإذا المأمون قد خرج ، ومعه غلام يحمل مُصَلّى ، حتى وقف على يحيى وهو جالس ؛ فقال له : اجلس ؛ فطرح المصلّى ليقعدَ عليها ؛ فقال له يحيى : يا أميرَ المؤمنين ؛ لا تَأْخُذْ على خَصْمك شَرفَ المجلس ، فطرح له مصلى ثم نظر فى دَعْوى الرجل ، وطالبَ المأمونَ باليمين لحلفَ ، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه ، فقام على رجليه ؛ فقال له المأمون : ما أقامك ؟ فقال : إنى كنتُ فى حقِّ الله عزّ وجلّ حتى أخذتُه منك ، وليس الآن من حقى أن أَتَصَدَّر [1] عليك .

ثم أمر المأمونُ أن يُحضَر ما ادعى الرجل من المال ، وقال له : خذه إليك ، والله ما كنتُ أحلفُ على فَجْرَة [2] ؛ ثم أسمح لك بالمال فأُفْسِد دينى ودنياى ، والله يعلم مادفعتُ إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية ، لعلها ترى أَنِّى تناولتُك من وَجْهِ القُدْرة ، وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أَسْمَحُ لك باليمين وبالمال .

---

(١) أتصدر : أتقدم . (٢) حلف على فجرة : إذا ركب أمراً قبيحاً من يمين كاذبة أو كذب.

٣٧ — لا يخلو أحدٌ من شَجَن[1]*

دخل طاهر بن الحسين[2] على المأمون ذات يوم فى حاجة ، وكان المأمون — فيما قيل — فى مجلس شراب ، فأمر برِطْلَين من النبيذ ، ثم بكى المأمون ، واغرَوْرَقَت عيناه ، فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين ؛ لِمَ تبكى لا أبْكَى الله عَيْنك ! فوالله ، لقد دانت لك البلاد ، وأَذْعَن[3] لك العباد ، وصرتَ إلى المحبة فى كل أمرك .
فقال : أبكى لأمرٍ ذكرُه ذلٌّ ، وسَتْرُه حزن ، ولن يخلوَ أحدٌ من شَجَن ، فتكلّمْ بحاجة إن كانت لك .

فما زال طاهر بعد ذلك يتّخذ الوسائل إلى معرفةِ السبَب ، حتى وُفِّقَ بالمال إلى إغراء ساقى المأمون أن يتعرف كُنْه ذلك السبب .

فلما تغدّى المأمون ذات يوم قال لساقيه : ياحسين ؛ اسْقِنى ، قال : لا والله لا أسقيكَ أو تقولَ : لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر ؟ قال : ياحسين ؛ وكيف عُنيتَ بهذا حتى سألتَنى عنه ؟ قال : لِغَمّى بذلك . قال : هو أمرٌ إن خرج من رأسك قَتَلْتُك ، قال: ياسيدى ؛ ومتى أخرجتُ لك سِرًّا ! قال : إنى ذكرت محمداً أخى ، وما ناله من الذلة ، فخنقتنى العَبْرَة فاسترحت إلى الإفاضة ؛ ولن يفوتَ طاهراً منى مايكره

فأخبر حسين الساقى طاهرًا بذلك فركب طاهرٌ إلى أحمد بن أبى خالد — وهو وزير

---

* عصر المأمون : ١ — ٢٧٠

(١) الشجن : الهم والحزن . (٢) كان طاهر بن الحسين قائداً من قواد المأمون ، وهو الذى تولى قتل الأمين ونصب رأسه سنة ١٩٨ هـ . (٣) أى خضعوا لك .

المأمون — فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن المعروفَ عندى ليس بضائع، فغيِّبنى عن عين المأمون . فقال : سأفعل ؛ فبكّر علىّ غداً .

وركب ابنُ أبى خالد إلى المأمون ، فلما دخل عليه قال له : مانمتُ الليلة ، فقال له : ولِمَ وَيحَكَ ! قال : لأنك وليتَ غسانَ خراسان ، وهو ومَنْ معه أُكْلة رأس[1] ، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيَصْطلمه[2] .

قال : لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه . فمَنْ ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين . قال : ويلك يا أحمد ! قال : أنا الضامن له . قال له فأنْفِذْه[3] .

فدعا بطاهر من ساعته ، وجعله حاكما على خراسان .

---

(١) يريد أن عددهم قليل ، يشبعهم رأس واحد . (٢) اصطلمه : استأصله .
(٣) المراد : أرسله ، ونفذ رأيك .

٣٨ — كيف يعتذرُ إنسانٌ من كلام تكلّم به! *

حدَّث أحمد بن أبي خالد الأحول أنه سمع المأمونَ يوماً — وعنده عليّ بن هشام ، وأخواه — ذكر عَمْرَو بن مسعدة(١)، وقال : أيحسَبُ عَمْرو أنى لا أعرف أخبارَه ، وما يُجْبَى إليه ، وما يعاملُ به الناس ! بلى والله ، ونهض وانصرفنا .

فقصدتُ عَمْراً من ساعتى ، فخبَّرتُه بما جرى ، وأُنسيتُ أن أستحلّه من حكايته عنّى ، فراح عمرو إلى المأمون ، فظنّ المأمونُ أنه لم يحضُرْ إلا لأمرٍ مهمّ ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذِن له .

فلما دخل عليه وضع سَيْفَه بين يديه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أنا عائذٌ بالله من سُخْطِه ، ثم عائذ بك من سُخْطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقلُّ من أن يشكوَنى أميرُ المؤمنين إلى أحد ، أو يُسِرَّ عليّ ضِغْناً يبعثُه بعضُ الكلام على إظهار ما يظهر منه .

فقال : وما ذاك ؟ فخبَّره عمرو بما بلَغَه ، ولكنه لم يُسَمِّ له مُخْبِرَه . فقال المأمونُ: لم يكن الأمرُ كما بلَغك ، وإنما كانت جملةٌ من تفصيلٍ كنتُ عَلَى أن أُخبرك به ، وإنما أخرج منى ماخرج معنًى تجارَيْناه ، وليس عندى إلا ماتحبُّ ، فليُفْرِخ رَوْعُك(٢) ، وليَحْسُنْ ظنُّك . فأعدت الكلام ، فما زال يسكِّنُ منى ، ويطيّب من

* عصر المأمون : ١ — ٣٤٢

(١) وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء توفى سنة ٢١٧ هـ (٢) ليفرخ روعك : ليذهب رعبك وفزعك ، فإن الأمر ليس على ما تحاذر . قال الأزهرى : كل من لقيته من اللغويين يقول : أفرخ روعه — بفتح الراء من روعه — إلا ما أخبرنى به المنذرى أنه كان يقال : إنما هو أفرخ روعه — بضم الراء .

نفسى ، حتى ذَهب بعضُ ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضمَّنى إلى نفسه ، وقبَّلت يده ، فأهوَى ليعانقَنى ؛ فشكرته ، وتبيّنتُ فى وجهه الحياءَ والخجل مما تأدَّى إلىّ .

قال أحمد : فلما غدوتُ على المأمون ، قال لى : يا أحمد ؛ أما لمجلسى حُرْمَةٌ ! فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ؛ وهل الحُرَم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترْضَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأيةُ معاملةٍ يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلامٌ لا أعرفه ؛ قال : بلى ، أما سمعتَ ما كُنَّا فيه أمس من ذكرِ عمرو !

ذهب بعضُ من حضر من بنى هاشم فخبّره به ، فراح إلىّ عمرو مُظْهِراً منه ما وجب عليه أن يُظهِره ، فدفعتُ منه ما أمكن دَفْعُه ، وجعلتُ أعتذرُ إليه منه بعذرٍ قد تبيّن فىّ الخجلُ منه ، وكيف يكونُ اعتذارُ إنسان من كلام قد تكلم به ! ألَا يتبيَّن فى عينيه وشفتيه ووجهه ! ولقد أعطيتُه ما كان يقنع منى بأقلّ منه ، وما حَدَانى عليه[1] إلا ما دخَلَنى من الخسَاسة ، وما كان قد نَطَق به اللسانُ من غير روِيّة ولا احتمال مكروه به .

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أنا أخبرتُ عمرًا به ، لا أحدٌ من ولد هاشم ؛ فقال : أنت ! قلت : أنا ، فقال : ما حمَلَت على ما فعلتَ ؟ فقلت : الشكرُ لك والنصحُ والمحبة لأن تتمّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك ؛ أنا أعلمُ أن أميرَ المؤمنين يُحِبُّ أن يَصلُح له الأعداء والبُعَدَاء ، فكيف الأولياء والأقرباء ! ولا سيما مثل عمرو فى دُنُوّه من الخدْمة وموقِعه من العمل ، ومكانِه من رأىِ أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه !

سمعتُ أمير المؤمنين أنكَر منه شيئاً فخبّرته به ليُصْلِحَه ، ويقوّمَ من نفسه أَوَدَها لسيّده ومولاه ، ويتلافى ما فرَط منه ، ولا يفسده مثله ؟ وإنما يكون مافعلتُ

---

(١) ما حدانى : ما بعثنى وحملنى .

عَيْباً ، لو أَشَعْتُ سرّا فيه قدحٌ[1] فى السلطان ، أو نقضُ تدبيرٍ قد استتبّ ، فأمّا مثلُ هذا فما حسبتهُ يبلغ أن يكون ذنبًا علىّ .

فنظر إلىّ مليًّا ، ثم قال : كيف قلتَ ؟ فأعدتُ عليه: ثم قال : أعِدْ ، فأعدتُ، فقال : أحسنتَ والله يا أحمد ، لَما خبّرتنى به أحبُّ إلىّ من ألف ألف ، وألف ألف، وألف ألف .

وعقد خِنَصره و بِنْصَرَه والوُسطى ، ثم قال : أما ألف ألف فلنَفْيِك عنى سوء الظنّ ـ وأطْلَق وُسْطَاه ـ وأما ألف ألف فلِصِدْقك إيّاى عن نَفْسك ـ وأطلق البنصر ـ وأما ألف ألف فلِحُسْن جوابك ـ وأطلق الخِنْصَر ـ وأَمَرَ لى بمال .

(١) قدح : عيب .

٣٩ — غَرْسُ يَدِى وإلفُ أَدَبِى *

قال رجل من إخْوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إنَّ عبدَ الله بن طاهر (١) يميل إلى ولد أبى طالب ، وكذا كان أبوه قبله ؛ فدفع المأمونُ ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول .

فدسّ المأمون إلى عبد الله بن طاهر رجلًا . ثم قال له : امْضِ فى هيئة القُرّاء والنّساك إلى مصر ، فادْعُ جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ، واذكُرْ مناقبَه وعلمَه وفضائلَه ، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعضِ بطانة عبد الله بنِ طاهر ، ثم ائْتِه فادعُه ورَغِّبْه فى استجابته له ، وابحثْ عن دَفِينِ نِيَّتِه بحثًا شافيًا ، وائْتني بما تسْمَعُ منه .

ففعل الرجلُ ما قال له وأمره به ، حتى إذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام قعد يومًا بباب عبد الله بن طاهر ، ودفع رُقْعَةَ إلى الحاجب ليوصلها إليه ، فأَذن له ، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينَه و بين الأرض غيره ، وقد مدّ رجليه وخُفَّاه فيهما ، فقال له : قد فهمتُ ما فى رُقْعتك من جملة كلامك ، فهاتِ ما عندك .

قال : ولى أمانُك وذمةُ الله معك ؟ قال : لك ذلك .

فأظهر له ما أراد ، ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائله وعلْمِه وزُهْده ، فقال له عبد الله : أتُنْصِفُنى ؟ قال : نعم ، قال : هل يجب شكر الله على العباده ؟ قال : نعم،

* عصر المأمون : ١ — ٣٣٧ .

(١) عبد الله بن طاهر : من أشهر الولاة فى العصر العباسى ، ولاه المأمون خراسان ، كان عالى الهمة شهماً نبيلا توفى سنة ٢٣٠ ﻫ .

قال : فهل يجب شكرُ بعضِهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضل ؟ قال : نعم .

قال : فتجئُ إليّ وأنا فى هذه الحال التى ترى : لى خاتم فى المشرق وفى المغرب ، وفيما بينهما أمرى مُطَاع وقولى مقبول ، ثم ما التفتُّ يمينى ولا شمالى وورائى وقدامى إلا رأيتُ نعمةً لرجل أنْعَمَهَا علىّ ، ومنّةً طوّق بها رقبتى ، ويداً لائحةً بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرماً ، فتدعونى إلى الكُفْرِ بهذه النعمة وهذا الإحسان ! وتقول : اغْدِر بمن كان أوّلاً لهذا وآخراً ! واسْعَ فى سفك دَمِه ! تراك لو دعوتنى إلى الجنة عياناً من حيث أعلم ، أكان الله يُحِبُّ أن أغْدِر به وأَكْفُرَ بإحسانه ومنّته ، وأنكُثَ بَيْعته !

فسكت الرجل ، فقال له عبد الملك : أما إنه قد بلغنى أمرُك ، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ؛ فإن السلطانَ الأعظم إن بلغه أمرُك — وما آمن ذلك عليك — كنتَ الجانىَ على نفسك ونفسِ غيرك .

فلما يئس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر ، فاستبشر وقال : ذلك غرسُ يدى وإلفُ أدبى .

٤٠ — غَسّان بن عبّاد وعليّ بن عيسى *

كان بين غسان بن عباد وعلى بن عيسى عداوةٌ عظيمة ، وكان عليّ بن عيسى ضامناً [١] أعمالَ الخراجِ والضِّياع ببلده ؛ فبقيت عليه بقيّة مبلغها أربعون ألف دينار ، فألحّ المأمون عليه بطَلَبِها ، إلى أن قال لعلى بن صالح الحاجب : أَمْهِلْهُ ثلاثة أيام ؛ فإن أحضَر المالَ وإلا فاضْرِبه بالسياطِ حتى يؤدّىَ المال أو يتلف .

فانصرف على بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه ، وهو لا يدرى وجهاً يتّجِه إليه ، فقال له كاتبه : لو عرّجت على غسان بن عُباد وعرّفْتَه خبرك لرجوت أن يعينك على أمرك ، فقال له : عَلَى ما بينى وبينه من العداوة ! قال : نعم ، فإن الرجلَ أَرْيَحِيٌّ كريم .

فدخل على غَسَّان ، فقام إليه وتلقاه بالجميل ، وأوفاه حقه من الخدمة ، ثم قال له : الحالُ الذى بينى وبينك كما علمت ، ولكن دخولُك إلى دارى له حرمةٌ توجب بلوغ ما رجوته منى ، فإن كانت لك حاجةٌ فاذْكُرها .

فقصّ عليه القصّة ؛ فقال أرجو أن يكفيكه الله تعالى ، ولم يزد على ذلك شيئاً .

فنهض على بن عيسى ، وخرج آيساً نادِماً على قَصْدِ غسَّان ، وقال لكاتبه : ما أَفَدْتَنى بالدخول على غسَّان غيرَ تعجيل الشماتةِ والهوان .

فلم يصل على بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتبُ غسان ومعه البغالُ عليها المال ، فتقدّم وسلمه .

* ثمرات الأوراق : ٢ — ٣٠ .

(١) ضمن الشيء : كفله .

وبكّر إلى دار أمير المؤمنين ، فوجد غسان قد سبقَه إليها ، ودخل على المأمون وقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لعليّ بن عيسى بحضرتك حرمةً وخدمةً وسالفَ أصل ، ولقد لحقه من الخسران فى ضمانه ما تعارَفَه الناس ؛ وقد توعَّدته بضَرْبِ السياط بما أطار عقله وأذهب لُبَّه ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجيزنى على حُسْنِ كرمه ببعض ما عليه ؛ فهى صنيعة يجددها علىّ تحْرُسُ ما تَقَدَّمها من إحسانه ؛ ولم يزل يتلطف إلى أن حطَّ عنه النصف ، واقتصر على عشرين ألف دينار .

فقال غسان : على أن يجدِّدَ عليه أميرُ المؤمنين الضمان ، ويشرِّفَهُ بخِلْعَةٍ تقوِّى نفسه ، وترْهِف عزمه ، ويعرف بها مكان الرِّضا عنه . فأجابه المأمون إلى ذلك .

قال : فيأذن أميرُ المؤمنين أن أحملَ الدواةَ إلى حضرته ليوقّع بما رآه من هذا الإنعام ! قال : افعل ، فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين ، فوقّع بذلك . وخرج على ابن عيسى بالخِلْعَةِ ، والتوقيعُ بيده .

فلما حضر على بنَ عيسى إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار ، وأرسلها إلى غسان ، وشكر له جميلَ فعله معه . فقال غسان لكاتبه : والله ما شفعتُ عند أمير المؤمنين إلا لتُوَفَّر عليه وينتفعَ بها ؛ فامض بها إليه ، فلما ردَّها كاتبه إلى على ابن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان ، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر .

٤١ ـ فِطْنَة*

كان المعتضد[1] يوماً جالساً فى بيت يُبْنَى له ، وهو يشاهد الصُّنَّاع ، فرأى فى جملتهم عبداً أسودَ مُنْكَر الخلق ، شديدَ المَرَح ، يصعد على السلاليم مِرْقاتين[2] مِرْقاتين ، ويحمل ضعف ما يحمل غيره . فأنكر أمرَه ، وأحضره ، وسأله عن سبب ذلك ، فَلَجْلَجَ[3] . فقال لوزيره : قد خمَّنْتُ[4] فى هذا تخميناً ما أحسبه باطلا ، إما أنْ يكونَ معهُ دنانيرُ قد ظَفِر بها من غَيْرِ وجهها ، أَو يكون لِصًّا يتستَّر بالعمل . ثم قال : علىَّ بالأسود ، فأحضره وضربه ، وحلف إن لم يصدقه ليَضْرِبَنَّ عنقه . فقال الأسود : ولى الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إلا ما كان من حدّ ؛ فظنّ أنه قد أمَّنه .

فقال : كنتُ أعمل فى أَتُون الآجُرّ منذ سنين ، فأنا منذ شهور جالس إذ مرّ بى رجل فى وسطه كيس ؛ فتبعتُه وهو لا يعرف مكانى ، فحلّ الهِمْيَان[5] ، وأخرج منه ديناراً ، فتأملتُه فإذا كلُّه دنانير ، فكتّفتُه ، وسددْتُ فاه ، وأخذت الهِمْيَان ، وحملته على كتفى ، وطرحته فى التَّنور ، وطيّنْتُ عليه . فلمّا كان بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها فى دجلة ، والدنانير معى تقوى قلبى .

فأرسل المعتضد من أحضر الدنانير ، وإذا على الكيس : « لفلان ابن فلان » فنادى فى المدينة ، فحضرت امرأته ، وقالت : هذا زوجى ، وقد ترك طفلا صغيراً ، خرج فى وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار ، فغاب إلى الآن ، فسلم الدنانير اليها ، وضرب عنق الأسود ، وأمر أن يوضع فى الأَتُون .

---

* نهاية الأرب : ٣ ـ ١٥٠

(١) بويع المعتضد للخلافة سنة ٢٧٧ وتوفى سنة ٢٨٠ هـ . (٢) السلاليم : جمع سلم ، والمرقاة : الدرجة . (٣) اللجلجة . التردد . (٤) التخمين : القول بالحدس والظن . (٥) الهميان : وعاء للدراهم .

٤٢ — لا تتَّبِع الهوَى*

قال عبد الرحيم بن القاضى إسماعيل بن إسحاق : كان فى حِجْرِ أبى يتيم فبلغ، وله أمٌّ ، وأختهـا فى دار الخليفة المعتضد بالله ، فقالت أمُّ اليتيم لأختها : كلِّمى أمير المؤمنين حتى يرفعَ إسمـاعيلُ القاضى الحجْرَ عن وَلدي . فـكلَّمته ، فدعا المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيرَه ، وقال له : قُلْ لإسماعيل القاضى يفكُّ الحجرَ عن فلان . فقال القاضى : حتى أسألَ عنه ، وقام فسأل عنه ، فلم يُخْبَرعنه برُشْد ، فتركه .

ومضت على ذلك أيام ، فرجعت والدة الصبيّ إلى أُخْتها ، وسألتها أن تعاودَ أميرَ المؤمنين ، وكان المعتضد لا يُعاوَدُ لخشونته ، فعاودته فقال : ألستُ قد أمرت! فقالت : لم يُرْفَع عنــه الحجْرُ بعد ، فدعا وزيره عبيد الله ثانياً ، وقال : أمرتُك أن تأمر إسماعيل القاضى بأن يرْفع الحجْر عن فلان ! فقال : قد كنت قلت له ذلك ، فقال : حتى أسأل عنه . فقال : قل له يرفع الحجر عنه . فدعاه الوزير ثانياً ، وقال له: أميرُ المؤمنين يأمرُكَ أن ترفعَ الحجْر عن فلان .

فأطرق القاضى ساعةً ، ثم استدعى دَوَاة ورقة ، وكتب شيئاً وخَتَمه ،فاستعظم الوزيرُ أن يَختِمَ عنه كتاباً ، ولم يقلْ له شيئاً لمحلّ إسماعيل من الوَرَع والعلم ، ثم دفع ذلك للوزير ، وقال له : توصِّل هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابُه .

فأخذه الوزير ودخل على المعتضد ، وقال : زَعَم أنّ هذا جوابُ أمير المؤمنين! ففتح المعتضد الـكتاب ، وقرأه وألقاه ، وقال : لا تعاوِدْه فى هذا . فأخذ عبيد الله

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٧٨ .

الوزير الكتاب، وإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ » .

٤٣ — هشام بن عبدالرحمن الداخل وأَحَد صنائعه *

كان هشام[١] بن عبد الرحمن الداخل قاعداً لراحته فى عُلِّيَّة[٢] على النهر فى حياة والده ، فنظر إلى رجل كنانىّ من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان[٣] ، قد أقبل يُوضِعُ[٤] السير فى الهاجرة ؛ فأَنكر ذلك ، وقدَّر شرًّا وقع به من قِبلِ أخيه سليمان ـ وكان والياً على جَيَّان ـ فأمر بإدخاله عليه ، فقال : مَهْيَم[٥] يا كنانى ! فلأمرٍ مّا قدمت ! وما أحسبك إلا مزعَجاً لشىء دَهَمَك .

فقال : نعم ياسيدى ، قَتَلَ رجلٌ من قومى رجلا خطأً ، فقصدنى أخوك بالاعتداء ؛ إذ عرف مكانى منك .

فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر ، وقطع قِلاَدةً كانت فى نحرها ، وقال له : دونك هذا العقد يا كنانىّ ، وشراؤه على ثلاث آلاف دينار، فلا تُخْدَعَنَّ عنه ، و بِعْه وأدِّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تُمَكِّنِ الرجل من اهتضامك[٦] .

---

* نفح الطيب : ١ ـ ١٥٧

(١) ولد هشام سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وكان من أشرف الناس نفساً ، وأكرمهم طبعاً ، وأكملهم مروءة ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ، ولا زلة فى أيام صباه ، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز . (٢) العلية : بالضم والكسر : الغرفة . (٣) جيان : بلد بالأندلس . (٤) أوضع : أسرع . (٥) مهيم : كلمة استفهام : أى ما حالك وما شأنك أو ما وراءك ؟ (٦) هضم فلاناً واهتضمه : ظلمه وغصبه .

فقال : يا سيّدى ؛ لم آتِكَ مُسْتَجْدِيًا ، ولا لضيق المال عما حُمِّلته ، ولكنى قُصِدْتُ بظلم صُرَاح أحببت أن يظهر علىّ عِزُّ نصرك ؛ وأثَرُ ذَبِّكَ وامتعاضك فأتَمَاجَدُ[1] بذلك عند من يحسدنى على الانتماء إليك .

فقال هشام : فما وجْهُ ذلك ؟ فقال : أن تكتبَ إلى أخيك فى الإمساك عنى والقيام بذمَّتك لى . فقال : أَمْسِك العِقْد ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه فى وقت أنكره ، فانزعج ، وقال : ما أتى بأبى الوليد فى هذا الوقت إلا أمر مُقْلِق ، ائذنوا له .

فلما دخل سلّم عليه ، ومَثَلَ قائمًا بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام ، فقال : أصلح الله سيدى الأميرَ ! وكيف جلوسى بهمّ وذلّ مُزْعِج ! وحَقّ لمن قام مقامى ألاّ يجلس إلا مطمئنا ، ولن يُقْعِدَنى إلا طيبُ نفسى بإسعاف الأمير لحاجتى ، وإلا رجعتُ على عَقِبى . فقال له : حاشَ لك من انقلابك خائبًا ، فاقعد مُجاباً مشَفَّعا ؛ فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدَثُ المُقْلِق ؟ فأعلمه ؛ فأمر بحَمْلِ الدية عنه ، وعن عشيرته من بيت المال ؛ فسُرّ هشام وأطنب فى الشكر ، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان فى ترك التعرّض لهذا الكنانىّ .

ولما دخل الكنانىّ لوداع هشام قال له : ياسيدى ، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية، وبلغتُ غايةَ النصر ، وقد أغنى الله عن العِقْد المبذول ، فتعيده إلى صاحبته ؛ فأبى ذلك وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

---

(١) تماجد : تفاخر ، وأظهر المجد .

٤٤ — قاضٍ لا يقبل شهادةَ خليفة*

وكّل سَعِيدُ بن عبد الرحمن الداخل عند ابنِ بشير القاضى وكيلا يُخَاصِمُ عنه لشىء اضطر إليه ، وكانت بيده وثيقةٌ فيها شهادات شهود قد ماتوا ، ولم يكن فيهما من الأحياء إلا الأمير الحكم وشاهدٌ آخر ، فشهد لسعيد ذلك الشاهدُ وضُرِبت على وكيله الآجال فى شاهد ثان ، وجدّ به الخصام ، فدخل سعيد بالكتاب على الحكم، وأراه شهادته فى الوثيقة ـ وقد كان كتبها قبل الخلافة فى حياة أبيه ـ وعرّفه حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفًا من بُطْلان حقه .

وكان الحكَم يعظِّم سعيداً عمَّه ويلتزم مبرّته ، فقال له : يا عم ؛ إنا لسنا من أهل الشهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تَجْهَلُه ، ونخشى أن توقفنا مع القاضى مَوْقِف مَخْزَاةٍ كنّا نَفْديه بملكنا ، فصِرْ فى خِصامِك حيث صيّرك الحق إليه ، وعلينا رَدُّ ما انْتَقَصَكَ .

فأَبى عليه وقال : سبحان الله ! وما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك ،وأنت وليتَه ، وهو حسنةٌ من حسناتك ؟ وقد لزمَك أن تشهدَ لى بما علمتَه، ولا تكتمنى ما أخذ الله عليك .

فقال : بلى ؛ إن ذلك مِنْ حقك كما تقول ، ولكنك تُدْخِل علينا به داخلة ، فإن أعفيتَنا منه فهو أحبُّ إلينا ، وإن اضطررتنا لم يمكنّا عقوقُك .

فعزم عليه عزمَ مَنْ لم يشك أن قد ظفر بحاجته ، فأَرسل الحكم عند ذلك إلى

---

* نفح الطيب ١ : ٣٩١ .

فقيهين من فقهاء زمانه ، وخطَّ شهادتَه بيده فى قِرْطَاس، وختم عليها بخاتمه ، ودفعها إلى الفقيهين ، وقال لهما : هذه شهادتى بخَطِّى ، فأدِّيَاها إلى القاضى .

فأتياه بها إلى مجلسه وقتَ قُعودِه للسماع من الشهود ، فأدَّيَاها إليه ؛ فقال لهما : قد سمعتُ منكما ، فقوماً راشدَيْن فى حفظ الله !

وجاء وكيل سَعِيد ، وتقدم إليه مُدِلًّا واثِقاً ، وقال له أيّها القاضى ؛ قد شهدَ عندكَ الأميرُ — أصلحه الله تعالى — فما تقول ؟ فأخذ كتابَ الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادةٌ لا تُقْبَلُ عندى ، فجِئْنى بشاهد عَدْل .

فدهش الوكيل ، ومضى إلى سَعِيد فأعلمه ، فركب من فَوْرِه إلى الحَكَم ، وقال : ذهب سُلْطَاننا ، وأُزيل بهاؤنا ؛ أوَ يجترئُ هذا القاضى على ردّ شهادتك ، والله — سبحانه — قد استخلفك على عباده ، وجعل الأمر فى دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما يجب أن تَحْمِلَه عليه . وجعل يُغْرِيه بالقاضى ويحرِّضُه على الإيقاع به .

فقال له الحَكَم : وهل شككتُ أنا فى هذا يا عمّ ! القاضى رجل صالح ، لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، فعلَ ما يجبُ عليه ويلزمه ؛ وسدّ دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسنَ الله جزاءه .

فغضب سعيد وقال : هذا حسبى منك ! فقال له : نعم قد قضيتُ الذى كان لكَ علىّ ، ولستُ — والله — أعارِضُ القاضى فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبْض يدٍ مِثله .

البَابُ الثّانِى

فى القصص التى تصَوِّر احتفـاظهم بأنسابهم ، واعتزازهم بقبائلهم ، وتمجيدهم للأسلاف ، وتعديدهم ما تركوا من مآثر ، وما أدّى إليـه ذلك من مفاخرات ومنافرات .

٤٥ — خاطَرْتُ على حَسَبِي وحَسَبِك *

خرج الحكَم بن أبي العاصي ومعه عِطْرٌ يريد الحِيرَة . كان بالحِيرَة ، سوقٌ يجتمع إليها الناس كلَّ سنة ـ فمرَّ في طريقه بحاتم بن عبد الله الطائيّ (١) ؛ فسأله الجوار في أرض طيّئ حتى يصيرَ إلى الحيرة، فأجاره . ثم أمر حاتم بجَزور فنحرت وطبخت ، ثم دعاهم إلى الطعام فأكلوا ، ولما فرغوا من الطعام طَيَّبَهم الحكَمُ من طيبه .

وكان النعمان بن المنذر قد جعل لبني لَأمٍ رُبْعَ الطريق طُعمة لهم ؛ لأنَّ بنت سعد بن حارثة بن لأم كانت عنده .

ومرَّ سعد بن حارثة بحاتم ومعه قومُه من بني لأم ، فوضع حاتمٌ سُفْرَتَهُ وقال: اطعَمُوا حيّاكم الله ! فقالوا : مَنْ هؤلاء الذين معك ياحاتم ؟ قال : هؤلاء جيراني ، قال له سعد : فأنت تُجِير علينا في بلادنا ! قال له : أنا ابن عمّكم وأحقّ من لم تَخفُروا ذِمَّته . فقالوا : لستَ هناك ! وأرادوا أن يَفضحوه ، ووثبوا إليه ، وتناول سَعْدٌ حاتماً ، فأهوى له حاتم بالسيف ، فأطار أَرْنَبَةَ أنفه ،ووقع الشر حتى تحاجزوا، ثم قالتْ بَنُوا لأم لحاتم : بيننا وبينك سوق الحيرة فنما جِدُك(٢) ؛ ثم وضعوا تِسْعة أفراس رَهْناً ، ووضع حاتِمٌ فرسه رهناً عند رجل من كلب ، وخرجوا حتى انتهوا إلى الحيرة .

---

* الأغاني : ١٦ ـ ٩٥

(١) حاتم الطائي : فارس شاعر ، جواد ، يضرب المثل بجوده ، توفي نحو سنة ٤٥ ق . هـ

(٢) يقال : ماجده مجاداً : عارضه بالمجد فمجده ؛ أي غلبه .

وسمع بذلك إياسُ بن قَبِيصةَ الطائىّ ؛ فخاف أن يُعينهم النعمانُ بن المنذر ويقوِّيهم بماله وسُلْطانه للصِّهْرِ الذى بينهم وبينه؛ فجمع رَهْطَه من بنى حيّة ،وقال: يابنى حيّة ؛ إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضَحوا ابنَ عمكم فى مُماجَدَته ؛ فقال رجل منهم : عندى مائةُ ناقة سوداء ، ومائة ناقة حمراء أَدْماء [1] ؛ وقام آخر فقال: عندى عشرة حصن ؛ على كل حِصَان منها فارس مُدَجَّج [2] لا يُرَى منه إلا عيناه . وقال حسَّان بن جَبَلة الخير : قد علمتم أن أبى قد مات وترك خيراً كثيراً ، فعلىّ كلُّ خمر ولحم أو طعام ما أقاموا فى سوق الحِيرة ؛ ثم قام إياس فقال : علىّ مثلُ جميع ما أعطيتم كلِّكم - وحاتمٌ لا يعلم بشىء مما فعلوا .

وذهب حاتم إلى ابن عمه وَهْم بن عمرو - وكان مصارمًا له لا يكلِّمُه - فقالت له امرأته : أىْ وَهْم ، هذا والله أبو سفّانة - حاتم - قد طَلَع ، فقال : مالنا ولحاتم ! أَثْبِتِى النظر ، فقالت : هاهو . قال : ويحك ! هو لا يكلِّمُنى ، فما جاء به إلىّ ؟ ثم نزل حتى سلّم عليه ، فردّ سلامه وحيّاه ، ثم قال له : ماجاء بك ياحاتم ؟ قال : خاطرتُ على حَسَبِك وحسبى ، قال : فى الرَّحْب والسَّعة ، هذا مالى وعِدَّتُه تِسْعمائة بعير ، فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيبَ ما تريد [3] .

ثم إن إياس بن قبيصةَ قال لقومه : احملونى إلى الملك - وكان به نِقْرِس [4] - فَحُمِلَ حتى أُدْخِلَ عليه ، فقال: أَنْعِمْ صباحاً ، أبيتَ اللعن! فقال النعمان : وحيّاك

---

(١) الأدمة فى الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً ، والأنثى : أدماء (٢) المدجج : الذى لبس سلاحه . (٣) وفى وهم يقول حاتم :

ألا أبلغا وهم بن عمرو رسالة ... فإنك أنت المرء بالخير أجدر
رأيتك أدنى الناس منا قرابة ... وغيرك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... بموت فكن ياوهم ذو يتأخر

وذو بمعنى الذى فى لغة طيء .

(٤) النقرس : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

إليك . فقال إياس : أتمدُّ أختانك [١] بالمال والخيل ، وجعلتَ بنى ثُعَل فى قعر الكنانة ! أظنّ أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جُوَين [٢] ولم يشعروا أن بنى حيّة بالبلد ! فإنْ شئتَ والله ناجزناك [٣] حتى يسفحَ الوادى دماً ، فليحضروا مجادهم [٤] غداً بمجمع العرب .

فعرف النعمان الغضبَ فى وجهه وكلامه ، فقال له : يا أحلمنا ، لا تغضبْ فإنى سأكفيك . وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه ، وقال : انظرُوا ابنَ عمكم حاتماً فأرضوه ، فوالله ما أنا بالذى أعطيكم مالى تبذّرونه ، وما أطيق بنى حيّة .

فخرج بنو لأم إلى حاتم وقالوا له: اعرض عن هذا المِجَاد ندع أرْشَ [٥] أنفِ ابنِ عمّنا . قال : لا والله لا أفعل حتى تتركوا أفراسكم ويُغلَب مجادكم .

فتركوا أرشَ أنفِ صاحبهم وأفراسهم وقالوا : قبّحها الله وأبعدها ! فعمد إليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس .

---

(١) أختان : جمع ختن ، وهو الصهر (٢) كانت بنو لام فضحت عامر بن جوين فى مماجدة .
(٣) المناجزة : المقاتلة (٤) ماجده مجاداً : عارضه بالمجد (٥) الأرش : الدية .

٤٦ — لا تجعلنْ هوازنا كَمَذْحِجِ*

اجتمع يزيدُ بن عبد المدان وعامر بن الطُّفَيْل بمَوْسم عُكَاظ ، وقدم أميَّة [١] ابن الأسكر الكنانيّ ، وتبعته ابنةٌ له من أجمل أهل زمانها ؛ فخطبها يزيد وعامر فقالت أمّ كلاب امرأة أمية : مَنْ هذان الرجلان؟ فقال : هذا يزيد بن عبد المدان ، وهذا عامر بن الطفيل ، فقالت : أعرفُ بني الدّيَّان [٢] ، ولا أعرف عامراً . فقال: هل سمعتِ بمُلاعب الأسنة [٣] ؟ فقالت : نعم ، قال : فهذا ابنُ أخيه .

وأقبل يزيد يفاخر خَصْمه ، فقال : ياأميّة ، إنّ ابنَ الدّيان صاحب الكتيبة ورئيس مذحِج ، ومَنْ كان يصوب أصابعه فتنطُفُ [٤] دماً ، ويَدْلُك راحتيه فتُخْرِجان ذهباً .

فقال أميّة : بَخٍ بَخٍ ! مَرْعًى ولا كالسَّعْدَان [٥] !

فقال يزيد : ياعامر ؛ هل تعلم شاعراً من قومي سار بِمِدحَةٍ إلى رجل من قومك ؟ قال : اللهم لا !

قال : فهل تعلمُ أنّ شعراءَ قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ، قال : اللهم نعم !

---

* الأغاني : ١٠ ـ ١٣٨

(١) هو أمية بن حرثان بن الأسكر ، ينتهى نسبه إلى نزار ، وكان شاعراً فارساً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة .

(٢) بنو الديان : قبيلة يزيد . (٣) ملاعب الأسنة : عامر بن مالك ، فارس قيس ، وأحد أبطال العرب فى الجاهلية توفى نحو سنة ١٠ هـ . (٤) تنطف : تسيل . (٥) ذهبت مثلا ، والسعدان نبت من أفضل مراعيهم .

قال : فهل لكم نَجْمُ يمان أو بُرْدُ يمانٍ أو سَيْفُ يمان أو رُكن يمان ؟ قال: لا،
قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا ؟ قال : نعم .
فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت :

أميّ يابن الأسكر بن مُدْلجِ ⁽¹⁾ لا تجعلنْ هوازنا كمَذْحِجِ
إنك إنْ تلهج بأمرٍ تَلْجُجِ ما النَّبْعُ ⁽²⁾ فى مَغرسه كالعوْسَجِ
ولا الصريح المَحْض كالممزج

فزوّج أمية يزيد بن عبد المدان ابنَته ، ثم لجّ التَّهاجى بين الرجلين .

---

(١) بنو مدلج : قبيلة من كنانة (٢) النبع شجر تتخذ منه القسى ، ومن أغصانه السهام والعوسج : شجر من شجر الشوك .

٤٧ — يتنازعان الزعامة *

لما أسَنّ أبو برَاء عامر بن مالك ، تنازع فى الرياسة عامرُ بن الطفيل [١] ، وعَلْقَمَةُ [٢] بن عُلَاثَة .

فقال علقمة : كانت : لجدِّى الأَحْوَص وإنما صارت لعمّك بسببه ، وقد قعد عمُّك عنها ، وأنا أسترجعُها ، فأنا أولى بها منك ؛ فشَرِىَ [٣] الشرُّ بينهما ، وسارا إلى المنافرة .

فقال علقمةُ : إن شئتَ نافرتُك ، فقال عامر : قد شئتُ ، والله إنّى لأَكْرَمُ منك حَسَباً ، وأثبتُ منك نَسَباً ، وأطولُ منك قصَباً [٤] .

فقال علقمة : والله لأنا خيرٌ منك ليلا ونهاراً . فقال عامر : والله لأنا أَنْحَرُ منك للّقاح [٥] ، وخيرٌ منك فى الصباح ، وأَطْعَمُ منك فى السّنة الشِّياح [٦] .

فقال علقمة : أنا خيرٌ منك أثراً ، وأحدُّ منك بصراً ، وأعزّ منك نَفَراً ، وأشرف منك ذِكْراً .

---

* الأغانى : ١٥ ـ ٥٠ ، مهذب الأغانى : ٢ : ٦٨ ، نهاية الأرب : ٣ ـ ٢٧٢ ، بلوغ الأرب : ١ : ٢٨٦

وهذه القصة اختلفت رواياتها اختلافاً كثيراً فجعلنا الروايات يكمل بعضها بعضاً .

(١) من بنى عامر بن صعصعة ، فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم ، ولد ونشأ بنجد ، كريماً شجاعاً ، وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم ، فمات فى طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ (٢) علقمة بن علاثة : كان فى الجاهلية من أشراف قومه ، أسلم ، وارتد فى أيام أبى بكر فانصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام ، توفى نحو سنة ٢٠ هـ (٣) شرى : استطار (٤) يريد طول القامة ، والقصب أيضاً ثياب تتخذ من كتان رقاق ناعمة ، وهو كناية عن الرفاهية والنعمة ورغد العيش (٥) اللقاح : الإبل (٦) الشياح : القحط .

فقال عامر : ليس لبنى الأَحْوَص فضلٌ على بنى مالك فى العدد ، وبصرى ناقصٌ ، وبصرُكَ صحيح ، ولكنى أنافِرك ؛ وإنى أسْمَى منك سُمَة (١) ، وأطولُ منكِ قمّة ، وأحسنُ منكَ لِمّةً (٢) ، وأجْعَدُ منك جُمّة (٣) ، وأسرعُ منك رَحمة ، وأبعدُ منك هِمّةً .

فقال علقمة : أنت رجلٌ جسيمٌ ، وأنا رجلٌ قَضِيف (٤) ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ، ولكنى أنافِرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤكَ أعمامى ، ولم أكنْ لِأُنافرَكَ بهم ، ولكنى أنافرُك ؛ أنا خيرٌ منك عِقبًا ، وأطعم منك جَدْبًا .

فقال عَلْقمة : قد علمتُ أن لك عَقِبا ، وقد أطعمت طيّبا ، ولكنى أنافرك ؛ إنى خيرٌ منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أمُّ عامر — وكانت تَسْمَعُ كلامهما ، فقالت : ياعامر ، نافِرْه أيكما أولى بالخيرات .

قال عامر : والله إنى لَأَرْكَبُ منك فى الْحُمَاة ، وأَقْتَلُ منك للكُمَاة (٥) ، وخيرٌ منك للمولى والمولاة .

فقال له علقمة : والله إنى لَبَرٌّ وإنك لفاجر ، وإنى لَوَلُودٌ وإنك لعاقرٌ (٦) ، وإنى لعفٌّ وإنك لعاهِر ، وإنى لوَفىّ وإنك لغادر ، ففيم تُفَاخرنى ياعامر ؟

فقال عامر : والله إنى لأَنْزَلُ منك للقَفْرَة (٧) ، وأنحرُ منك للبَكْرَة (٨) ، وأطعمَ منكَ للهَبْرَة (٩) ، وأطعنُ منك للثُّغْرَة .

---

(١) السمة : القرابة (٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن (٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس (٤) قضيف : نحيف (٥) الكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع (٦) رجل عاقر : لم يولد له ولد (٧) القفرة : الخلاء من الأرض (٨) البكرة : الفتية من الإبل (٩) الهبرة : القطعة المجتمعة من اللحم .

فقال علقمة : والله إنك لـكليلُ البصر ، نِـكدُ النظر .

فقال بنو خالدبن جعفر ـ وكانوا يداً مع بنى الأحْوَص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيقَ عامراً ؛ ولكن قل له أُنافِرُك بخيرنا وأقرِبنا إلى الخيرات .

فقال له علقمة هذا القول ؛ فقال عامر : عَيْرٌ وتَيْس[1] وتَيْسٌ وعَنز . نعم، على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعطاها الحكم أيُّنا نفَرَ عليه صاحبُه أخرجَها ؛ ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رَهْنا من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو ، فسُمِّى الضَّمِين .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد ، وخرج عامرٌ فيمن معه من بنى مالك ، وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يَقُل بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنتما كرُكبَتَي البعير الأَدْرم[2] . قالا: فأيُّنا اليمين ؟ قال : كِلاكما يمين ؛ وأبَى أن يقضيَ بينهما .

فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ، فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكمُ إلى قريش ، فأتيا عُيَيْنَة بن حِصْن بن حذيفة ، فأبى أن يقولَ بينهماشيئاً ، فأتيَا غَيْلاَن بن سَلَمَة الثقَفِيّ ، فردهما إلى حَرْمَلَةَ بن الأشعر المرى ، فأبى أن يقول شيئاً .

ثم تَدَاعَيا إلى هَرِم بن قُطْنَة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمئة من الإبل : مائة يطعمها مَنْ تَبِعَه ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تُعقَرُ إذا

---

(١) العير : الحمار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك كالعير والتيس، أو على الأقل كالتيس والعنز ، إذ التيس أقوى على النطاح من العنز (٢) درم العظم : واراه اللحم حتى لم يبن له حجم .

حكَمَ ؛ فأبى هرم بن قُطْنة أن يحكم بينهما مخافة الشَّرِّ ، وأبيا أن يرتحلا ، فقال هرم: لعمرى لأحكمنّ بينكما ، ثم لأفصلنّ ، فأعطيانى موثقاً أطمئنّ إليه أن ترضيا بما أقول ، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوماً . فانصرفا حتى إذا بلغ الأجَلُ خرجا إليه ، وأقام القومُ عنده أياماً .

فخلا هرم بعلقمة ، وقال له : أترجو أن ينفِّرَك[1] رجلٌ من العرب على عامرٍ فارسِ مضر ؛ أندى الناس كفاً وأشجعهم لقاءً ، لَسِنَانُ رُمْحِ عامرٍ أذْكَرُ فى العرب من الأحوص ، وعمُّه مُلاعبُ الأسنة .

فقال له علقمة : أنشدك الله والرَّحِمَ ألّا تُنَفِّر علىَّ عامراً ! اجْزُزْ ناصيتى ، واحتكم فى مالى ، وإن كنتَ لا بد أن تفعل فسوِّ بينى وبينه . فقال ، انصرف ، فسوف أرى رأيى ؛ فخرج وهو لا يشكُّ أنه سيفضِّلُ عليه عامراً .

ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخَر ؟ أنت تناوئه ! أعلى ابن عوف بن الأحوص ؛ أعفِّ بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة ، وأحلمهم وأسودهم ؟ وأنت أعورُ عاقر مشئوم ! أما كان لك رأىٌ يزَعُكَ[2] عن هذا ! أكنتَ تظن أن أحداً من العرب يُنَفِّرُكَ عليه ؟ فقال عامر : نَشدتك الله والرَّحم ألّا تفضل علىّ علقمة ! فوالله إن فعلتَ لا أُفلِح بعدها أبداً ، هذه ناصيتى فاجْزُزْها ، واحتكم فى مالى ، فإن كنتَ لا بدَّ فاعلا فسوِّ بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيى ، فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفِّره عليه .

ثم إن هرماً أرسل إلى بنيه وبنى أبيه : إنى قائلٌ غداً بين هدين الرجلين مقالة ، فإذا فعلتُ فليطرد بعضكم عشر جزائر[3] فلينحرها عن علقمة ، ويطرد

---

(١) نفره عليه : قضى له عليه بالغلبة (٢) يزعك : يردك (٣) جزائر : جمع جزور

بعضكم عشر جزائر لينحرها عن عامر ، وفرّقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة .

فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هَرِم ، وقال : يابنى جعفر ، قد تحا كمتما عندى ، وأنتما كرُكْبتى البعير الأدْرَم ، تقعان إلى الأرض معاً ، وليس فيكما أحدٌ إلا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكِلاَ كما سيِّدٌ كريم .

وعمَدَ بنو هرِم و بنو أخيه إلى تلك الجزُر فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرّقوا الناس ، ولم يُفَضِّل هَرِم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل ـ وهما ابنا عم ـ فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرًّا .

فارتحلوا عن هَرِم لما أعياهم نحو عكاظ ، فلقيهم الأعشى منحدراً من اليمن ـ وكان لما أرادها قال لعلقمة : اعقد لى حَبْلا[1] ، فقال : أعقد لك من بنى عامر ! قال : لا يُغْنى عنى . قال : فمن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا بزائدك . فأتى عامرَ بن الطفيل ، فأجاره من أهل السماء والأرض ، فقيل له كيف تُجيره من أهل السماء ؟ قال : إن مات وَدَيْتُه[2] ـ فقال الأعشى لعامر : أَظْهِرْ أنكما حكَّمْتمانى ، ففعل ؛ فقام الأعشى ؛ فرفع عَقِيرته[3] فى الناس فقال :

حَكَّمْتُمُوهُ فقضَى بينكُمْ ... أبْلَجُ مِثْلُ القَمَرِ الزاهر
لا يأخذ الرِّشوةَ فى حُكْمِه ... ولا يبالى خُسُرَ الخاسِرِ
عَلقمَ لا ؛ لستَ إلى عامر النَّاقضَ الأوتارِ والواتِرِ
واللابسِ الخيل بخيلٍ إذا ... ثارَ عَجاجُ الكَبَّةِ[4] الثائرِ
إن تَسُد الحوصُ فلم تعدُهم ... وعامرٌ سادَ بنى عامِرِ
ساد وألْفَى رَهْطَهُ سادةً ... وكابراً سادُوكَ عن كابِرِ

(١) يريد جواره . (٢) دفعت ديته (٣) عقيرته : صوته (٤) الكبة : الدفعة فى القتال والحملة فى الحرب .

وشدَّ القومُ فى أعراضُ الإبل المائة فعقروها ، وقالوا : نُفِّرَ عامر وذهبت بها الغَوْغَاء ، وجَهِدَ علقمة أن يردَّها فلم يقدر على ذلك ، فجعل يتهدَّد الأعشى فقال :

أتانى وعيدُ الحُوص من آل عامرٍ فيا عبد عمرٍو لو نَهَيْتَ الأحَاوِصا !

فما ذنبُنا إن جاشَ بحرُ ابن عمكم وبحرك ساجٍ[1] لا يوارى الدَّعامِصاَ[2]

كلا أبويكم كان فَرْعَىْ دِعامةَ ولكنهم زادوا وأصبحتَ ناقصاً

تبيتون فى المَشْتَى مِلاءً بطونكم وجاراتُكم غَرْثَى[3] يَبِتْنَ خمائصا[4]

يُرَاقِبنَ من جوع خِلاَلَ مَخَافةٍ نجوم العِشاء العاتمات الغَوامصا[5]

رمى بك فى أخرامُ تركك النَّدَى وفضَّلَ أقواماً عليك مراهِصا[6]

فعضَّ حديدَ الأرض إن كنت ساخطاً بفيكَ وأحْجَارَ الكُلاب الرَّوَاهِصا[7]

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه فى العار .

---

(١) سجى : سكن (٢) الدعموص : دويبة أو دودة سوداء تكون فى الغدران إذا قل ماؤها

(٣) غرث : جاع (٤) الخمائص : جمع خميصة ، ضا ... البطن : أى من شدة الجوع .

(٥) الغميصاء : إحدى الشعريين ، قال فى القاموس : من أحاديثهم : إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت ، ويقال لها الغموص أيضاً (٦) راهص غريمه : راصده ؛ قال فى القاموس : والمراهص لم يسمع بواحدها (٧) الكلاب : موضع ، والرواهص من الحجارة التى تنكب الدواب ، والصخور الثابتة .

٤٨ — أَنْتَ لهُ *

قَدِمَ رَهْطٌ من بنى جَعْفَر على النعمان بن المنذر ، عليهم عامر بن مالك ملاعبُ الأسنّة ، وفيهم لبيد[١] بن ربيعة ، وهو يومئذ غلامٌ له ذُؤابة ، فضرب النعمان قُبَّةً وأجرى عليهم النُّزُل[٢] ، فجعلوا يَغْدُون إلى النعمان ويَرُوحون ويتركون لبيداً فى رحالهم ، يحفظُ أمتعتهم ويغدوا بإبلهم فيرعاها ، فإذا أَمْسى المساء انصرفَ بها .

وكان الربيعُ بن زياد العبسى يُنادمُ النعمان ويصادِقُه ، ويتقدم على من سواه ، فكان إذا خلا بالنعمان طعن فى بنى جعفر وذكر معايبهم لعداوةٍ قديمةٍ كانت بين عَبْس وبنى جعفر ، وفعل ذلك مراراً حتى أثرَ فى نفس النعمان ، فنزع القبة عنهم ، وقطع النُّزُولَ .

ودخلوا عليه يوماً ، فرأوا منـــه جَفَاء ؛ فخرجوا من عنده غِضاباً ، وهمُّوا بالانصراف .

وبينما هم يتذاكرون أمْرَ الربيـع سمعهم لبيد فقال لهم : مالـكم تتناجَوْن ! فكتموه ، وقالوا له : إليك عنَّا . قال : أخبرونى ، فلعلّ لـكم عندى فَرَجًا ، فزَجَرُوه ؟ فقال : لا والله لا أحفظ لـكم متاعًا ، ولا أَسْرَحُ[٣] لـكم بعـيرا أو تخبرونى .

فقالوا له إن خالَكَ الربيع ـ وكانت أمُّ لبيد عبسية ، وكانت يتيمة فى حِجْرِ

* الخزانة : ٤ ـ ١٧١ ، مجمع الأمثال : ٢ ـ ٤٢ ، الأغانى : ١٤ ـ ١٩٢ ، ١٦ ـ ٢٢ ، اللسان ـ مادة سمل .

(١) لبيد بن ربيعة : أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهليــة ، أدرك الإسلام ، وعاش عمراً طويلا ، وتوفى سنة ٤١ هـ (٢) النزل : الطعام (٣) سرح الماشية وسرحت بنفسها .

الربيع ـ قد غَلَبَنا على المَلِك ، وصدَّ عنَّا وجْهه ! فقال لهم : هل تقدورن أن تجمعوا بيني وبينه غـداً حين يَقْعُدُ الملك ، فأَرْجُزَ به رَجَزاً مُمِضًّا مُؤْلِمًا ، لا يلتفت إليه النعمانُ بعده أبدا ؟ قالوا له : وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : إنا نَبْلُوكَ بِشَتْمِ هذه البَقْلة ـ وقُدَّامهم بَقْلةٌ دقيقة القضبان [1] ، قليلة الورق ، لا صقةٌ فروعها بالأرض تُدْعى التَّرِبة [2] .

فاقتلعهامن الأرض ، وأخذها بيده ، وقال : هذهالتربة التي لا تُذْكِى [3] ناراً ، ولا تُؤْهِلُ داراً ، ولا تسُرُّ جاراً ، عودُها ضئيل ، وفرعها كليل [4] ، وخيرها قليل بَلَدُها شاسع ونَبْتُهَا خاشع [5] ، وآكِلها جائع ، والمقيمُ عليها ضائع ؛ أقصَرُ البقولِ فَرْعًا ، وأخبثُها مرعى ، وأشدُّها قَلْعا ، فَحَرْبًا لها وجدعًا [6] ! الْقوا بى أخا عَبْس ، أرجعه عليكم بتعْس [7] ونُـكس ، وأتركه من أمره فى لَبْس .

فقالوا : نُصْبِح فنرى فيك رأينا . فقال لهم عامر : انظروا إلى غلامكم هذا ؛ فإن رأيتموه نائمًا فليس أمرُه بشيء ، إنما يتـكلمُ بما جرى على لسانه ويَهْذِى بما يَهْجِس فى خاطرهِ ، وإن رأيتموه ساهرا فهو صاحبكم !

فرمَقُوه بأبصارهم ، فوجدوه قد رَكِبَ رَحْلا يَكْدِمُ [8] واسطته حتى أصبح

فلما أصبحوا قالوا : أنت والله صاحبُه . وحلقُوا رأسه ، وتركوا له ذُؤابتين ، وألبسوه حُلَّةً ، وغدوْا به معهم .

---

(١) القضبان : الأغصان (٢) التربة . نبت سهلى ، والبقل : ما نبت من بزره لا من أرومة ثانية ، والبقلة واحدته (٣) أذكى النار : أوقدها (٤) كليل : ضعيف غير صليب .
(٥) خاشع : دان من الأرض (٦) جدعا : قطعاً (٧) التعس : الهلاك .
(٨) كدمه : عضه بأدنى فه أو أثر فيه بحديدة .

فدخلوا على النعمان ، فوجدوه يتغدّى ومعه الربيع ، ليس معه غيره ، والدارُ والمجالس مملوءة من الوفود .

فلما فرغ من الغداء ذكروا له حاجتهم ؛ فاعترضهم الربيعُ فى كلامهم ، فقال لبيد ـ وقد دهن أحد شِقَّىْ رأسه ، وأرْخَى إزاره ، وانْتَعل نعلاً : آبيتَ اللعن ! أتأذنُ لى فى الكلام ؟ فأذِنَ له ، فأنشأ يقول [١] :

لا تَزْجُرِ الفتيان عن سوء الرِّعَهْ [٢] ... يارُبَّ هَيْجا [٣] هى خيرٌ من دَعَهْ

فى كل يوم هَامَتِي مُقَزَّعَه [٤] ... نحن بنو أم البنين [٥] الأربعه

نحن خيارُ عامر بن صَعْصَعَه ... المطعِمون الجَفْنَةَ المدَعْدَعَهْ [٦]

والضاربون الهامَ تحت الخيْضَعه [٧] ... يا واهبَ المال الجزيل من سَعَه

إليك جاوزنا بلاداً مُسْبِعَهْ [٨] ... إذ الفلاة أوحشتْ فى المَعْمَعَهْ

* يخبرك عن هذا خبيرٌ فاسمعه *

فقال النعمان : ما هو ؟ فقال : * مهلاً أبيتَ اللَّعْنَ لا تأكل معهْ *

فقال النعمان : ولِمَ ؟ فقال : * إن اسْتَهُ من برَصٍ مُلَمَّعَهْ *

فقال النعمان : وما عَلَىَّ ؟ فقال : * وإنه يُدْخِل فيها إصْبَعَه *

يدخلها حتى يوارى أَشْجَعَه [٩] ... كأنما يطلب شيئاً ضَيَّعَهْ

---

(١) مجمع الأمثال : ٢ ـ ٤٤ مع اختلاف الرواية (٢) الرعة : حالة الأحمق التى رضى بها
(٣) الهيجا : الحرب . (٤) يقال هو مقزع ومتقزع : رقيق شعر الرأس .
(٥) بنو أم البنين الأربعة : هم خمسة : مالك بن جعفر ، وطفيل بن مالك ، وربيعة بن مالك ، وعبيدة بن مالك ، ومعاوية بن مالك ، وهم أشراف بنى عامر ، فجعلهم أربعة لأجل القافية .
(٦) المدعدعة : المملوءة (٧) الخيضعة : البيضة (٨) بلاد مسبعة : كثيرة السباع .
(٩) الأشاجع : عروق ظاهر الكف .

فلما سمع النعمان قوله أُفَّفَ [١] ، ورفع يده من الطعام ، والتفت إلى الربيع يَرْمُقُه شزَرَاً ، وقال : أ كذلك أنت ! قال : كذَب والله ابن الحَمِق [٢] اللئيم ! فقال النعمان : لقد خبُث علىَّ طعامى .

ثم قضى النعمان حوائج الجعفريين ، وانصرف الربيع إلى منزله ، فبعث إليه النعمان بِضِعْفِ ما كان يَحْبُوه به ، وأمره بالانصراف إلى أهله . فكتب إليه : « إنى قد تخوّفتُ أن يكون قد وقع فى صَدْرِك ما قال لَبِيد ، ولست برائم [٣] حتى تبعثَ من يردّنى ؛ ليعلم مَنْ حضرك من الناس أنى لست كما قال . . . »

فأرسل إليه : « إنك لست صانعاً بانتفائك مما قال لَبيد شيئاً ، ولا قادراً على ردّ ما زلّت به الألسن ، فالْحَق بأهلك » . فلحق بأهله .

ثم أرسل إلى النعمان :

لئنْ رَحَلْتُ جِمالى إنّ لى سعةً	ما مثلُها سَعَةً عَرْضاً ولا طولا
ولو جَمَعْتَ بنى لخمٍ بأسرهمُ	لم يَعْدِلوا ريشةً من ريش سَمْويلا [٤]
تَرْعى الرَّوائم [٥] أحرارَ البقول بها	لا مثلَ رعيكمُ مِلْحًا وغَسْوِيلاً [٦]
فاثبت بأرضك بعدى واخلُ متّكئاً	مع النّطاسىّ طوراً [٧] وابن نوفيلا

---

(١) أفف : قال «أف» (٢) الحمق : الأحمق (٣) رائم : بارح وراحل (٤) سمويل: أحد أجداد الربيع . وهو فى الأصل اسم طائر ، وقيل : بلد كثير الطير (٥) ناقة رءوم ورائمة ورائم : عاطفة على ولدها (٦) الغسويل : نبت ينبت فى السباخ (٧) النطاسى وابن نوفيل : اثنان كانا يذادمان النعمان أولهما طبيب وثانيهما تاجر .

فأجابه النعمان :

شرِّدْ برحلِكَ حيث شئتَ ولا ... تكثر عليَّ ، ودَعْ عنك الأقاويلَا

فقد رُميتَ بداء لست غاسلَه ... ما جاور السيلَ أهلُ الشام والنيلا

فما انتفاؤك منه بعد ماقطعتْ ... هُوجُ[1] المطيِّ به أكناف شِمْليلاَ[2]

قد قيل ماقيلَ إن صدقاً وإن كذباً ... فما اعتذارُك من قولٍ إذا قيلاَ

فالحقْ بحيث رأيتَ الأرض واسعةً ... وانشُرْ بها الطرف إن عرضاً وإن طولَا

---

(١) الهوجاء : الناقة المسرعة ، جمعها هوج (٢) شمليل : بلد .

٤٩ — أنت اليوم ذو جدَّين*

قال الملك النعمان : لأُعْطِينّ أفضلَ العرب مائةً من الإبل . فلما أصبح الناسُ اجتمعوا لذلك ، ولم يكُ قيس بن مسعود فيهم ، وأرادَه قَوْمُه على أن يَنْطلق معهم إليه ، فقال : لا ، لئن كان يُريدُ بها غيرى لا أشهدُ ذلك ، وإن كانَ يريدنى بها لأُعطينّهَا .

فلما رأى النعمانُ اجتماعَ الناس قال : ليس صاحبُها شاهداً . فلما كان من الغدِ ، قال له قومُه : انطلقْ ؛ فانطلق فدفعها الملك إليه ، فقال حَاجِب[1] بن زُرَارة : أبيتَ اللّعْن ! ماهو بأحقّ بها منى ، فقال قيس بن مسعود : أنا فِرُه[2] عن أكرمنا قَعِيدةً[3] ، وأحسنِنا أدبَ ناقة ، وأكرم لئيم قوم .

فبعث معهما النعمانُ مَنْ ينظر فى ذلك ، فلما انتَهَوْا إلى بادية حاجب بن زُرارة مَرُّوا على رجل من قومه ، فقال حاجب : هذا ألأَمُ قومى ، وهو فلان ابن فلان — والرجلُ عند حوضه يُورِدُ إبلهَ — فأقبلوا إليه فقالوا : ياعبدَ الله ؛ دَعْنَا فَلْنَسْتَق فإنا قد هلَكْنَا عَطَشاً ، وأهلكْنَا ظُهُورنَا[4] ، فتَجَهّمَ وأبى عليهم . فلما أعْياهم قالوا لحاجب : أسْفِر ، فَسَفَر ، وقال : أنا حاجبُ بن زرارة فدعنا فلْنشرب . قال : أنت ! فلا مرحباً بك ولا أهلا ؛ ثم أتَوْا بيته ، فقالوا لامرأته : هل من منزل يا أمةَ الله ؟ قالت : والله ماربُّ المنزل شاهداً وما عنده من منزل ، وأرادوها على ذلك فأبَتْ

* بلوغ الأرب : ١٠ — ٢٨٦

(١) حاجب بن زرارة : من سادات العرب فى الجاهلية ، أدرك الإسلام وأسلم ، وتوفى نحو سنة ٣ هـ . (٢) أنافره : أحاكمه (٣) القعيدة : المرأة (٤) يريد ما يركبون .

ثم أتوا رجلا من قوم قيس بن مسعود على ماء يُورِد إبلَه ، فقال قيس: هذا والله ألأمُ قومى ، فلما وقفوا عليه قالوا مثلَ ما قالوا للآخر ، فأبى عليهم وهمَّ أن يضربهم ، فقال له قيس بن مسعود : ويلك ! أنا قيسُ بن مسعود ، فقال له : مرحباً وأهلا ، أَوْرِدْ. ثم أتوا بيتَه ، فوجدوا فيه امرأته قِدرُها تَغِطُّ [(١)] ، فلما رأتْ الركب من بعيد أَنْزَلَتِ القِدْرَ وتَرَوَّت ، فلما انتهَوْا إليها قالوا : هل عندكِ يا أَمَةَ الله منزل ؟ قالت : نعم ! انزِلُوا في الرَّحْب والسّعة . فلما نزلوا وطَعِمُوا وارتحلوا أخذوا ناقتيهما ، فأناخُوها على قريتين للنمل ، فأما ناقةُ قيس بن مسعود فتضوَّرَت [(٢)] ، وتقلبت ثم لم تَثُرْ ، وأما ناقة حاجب فمكثَتْ وتَبَتَّتْ ، حتى إذا قالوا : قد اطمأَنَّتْ طفقت هاربة. فأتوا الملك ، فأخبروه بذلك ، فقال له : قد كنتَ ياقيس ذا جَدّ [(٣)] ، فأنت اليوم ذُو جَدَّين .

---

(١) تغط : أى تصوت ، وذلك عند اشتداد غليانها (٢) التضور : الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع (٣) الجد : العظمة ، والحظ .

٥٠ — إن البلاء مُوَكَّل بالمَنْطِق *

خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلى . قال علىّ : فدفَعْنَا إلى مجلس من مجالس العَرَب ، فتقدّم أبو بكر — وكان نَسَّابة [١] — فسلّم فردُّوا عليه السلام، فقال: مِمَّن القوم ؟ قالوا : مِنْ ربيعة . فقال : من هَامَتِها أم مِنْ لَهَازِمِها [٢] ؟ قالوا : من هامَتِها العُظمَى . قال : فأىّ هامتها العظمى أنتم ؟ أنتم ذُهْل الأكبر ؟ قالوا : نعم .

قال : أفمنكم عَوْف الذى يقال له : لا حُرّ بوَادِى عوف ؟ قالوا : لا ! قال : أفمنكم بِسْطَام [٣] ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ! قال : أفمنكم جسّاس بن مرة حامى الذمار ، ومانعُ الجار ؟ قالوا : لا ! قال : أفمنكم الحَوْفَزَان [٤] قاتل الملوك وسالبها أَنْفُسَها ؟ قالوا : لا ! قال : أفمنكم المزدَلِف [٥] صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا : لا ! قال : فأنتم أخوال الملوك [٦] من كِنْدَة ؟ قالوا : لا ! قال : فأنتم أصهار الملوك من لَخْم [٧] ؟ قالوا : لا ! قال : فلستم ذُهْلاً الأكبر ، أنتم ذُهْل الأصغر !

فقام إليه غلام منهم حين بَقَل [٨] وجهه يقال له دَغْفَل [٩] فقال :

---

* المحاسن والأضداد : ١٠٤ ، مجمع الأمثال : ١ — ١٢

(١) النساب : العالم بالنسب ، وأدخلوا الهاء للمبالغة والمدح (٢) من هامتها أم من لهازمها : يريد أمن أشرافها أم من أوساطها ؟ (٣) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى ، أفرس فرسان بكر فى الجاهلية (٤) الحوفزان : لقب الحارث بن شريك ، لقبه به قيس بن عاصم حين حفزه بالرمح ففاته (٥) هو عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل الشيبانى ، سمى بذلك لازدلافه إلى العدو وحده بين الصفين ، وكان إذا اعتم لا يجرؤ بكرى أن يلبس مثل عمته (٦) هم كليب ومهلهل وأختهم فاطمة أم امرئ القيس (٧) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيبان ، منهم ماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة (٨) بقل : ظهر ونجم (٩) هو دغفل بن حنظلة السدوسى النسابة .

إنّ على سائلنـا أن نسألَهْ   والعبء لا تعرفُه أو تَحْمِلَهْ

ياهـذا ، إنك سألتنا فلم نـكتمْك شيئاً من أمْرنا ، فمن الرجل ؟ قال : رجل من قريش ، قال : بَخٍ بَخٍ ! أهل الشرفِ والرياسة ، فمن أيّ قريش أنت ؟ قال: من تَيْمِ بن مُرّة . قال : أفمنـكم قُصَيّ بن كِلاب الذى جمع القبائل من فِهْر وكان يدعى مجمِّعًا ؟ قال : لا ، قال : أفمنـكم هِشَام الذى هَشَمَ الثّرِيد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتُونَ عِجَاف [1] ؟ قال : لا ، قال : أفمنـكم شيبةُ الحمد مُطْعِم طير السماء الذى كأنّ بوجهه قمراً يضيء ليلَ الظلام الدّاجِي ؟ قال : لا ، قال : أفمن المفيضين بالناس أنت [2] ؟ قال: لا ! قال : أفمن أهل النَّدْوَة أنت ؟ قال : لا ! قال أفمن أهل الرِّفادة [3] أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الحِجَابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل السّقَاية [4] أنت ؟ قال : لا .

واجتذب أبو بكر زِمامَ ناقته ورجع إلى رسول الله ، فقال دَغْفل :

صادف دَرَّ السيل دَرٌّ يدفعُهْ   يَرفعــه حيناً وحيناً يضعُهْ

أما والله لو ثبتّ لأخبرتُك أنك من زَمَعَات [5] قريش ، أو ما أنا دَغْفَل ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عليّ : قلت لأبى بكر : لقـد وقعتَ من الأعرابى على بَاقِعَة [6] ، قال : أجل ! إن لـكل طامَّة طامة ، وإن البلاء مُوَكّلٌ بالمَنْطق [7] .

---

(١) مسنتون : مجدبون ، والأعجف : المهزيل (٢) الإفاضة من مناقب قريش فى الجاهلية ، وكانت فى آل صفوان ، ثم انتقلت إلى عبد الدار وإليهم كانت السدانة . (٣) كانت لبنى نوفل . (٤) كانت لبنى هاشم فى العباس بن عبد المطلب وكذلك الحجابة . (٥) أصل الزمعات : الزوائد وراء الأرساغ . (٦) داهية كيس . (٧) ذهبت مثلا .

١٦ — مُعاقرة *

أَسْنَتَ (١) بنو تميم زمن علىّ بن أبى طالب؛ فانتجعوا أرضاً من أرض كَلْب من طرف السَّماوة ، فصنعَ غالب بن صعصعة ـ وهو أبو الفرزدق ـ طعاماً ، ونَحَرَ نحائر ، وجفَنَها (٢) فى جفان ، وجعل يُقَسِّمها على أهل المزايا (٣) .

فأتت جَفْنَةٌ منها سُحَيم بن وَثيل الرياحىّ الشاعر ، فكَفَأَها وضرب الخادم التى أتته بها ، واحتفظ (٤) غالب من ذلك ، فعاتب سحيما ؛ فسرى القول بينهما حتى تداعيا إلى المعاقرة (٥) ـ وكان سُحيم رجلا فيه شِنْفِيرَةٌ (٦) وأذًى للناس، وكان الناس شآَفِى (٧) القلوب عليه ـ وكانت إبله خَوَامس (٨) لم تردْ .

ووردت إبلُ غالب ؛ فطفق غالب يعقِرها ، وطافت الوُغْدَان (٩) والفتيان بالإبل ، فجعلت تحُوزُها من أطرافها إليه ، ومع الفرزدق هِرَاوةٌ يردّ بها على أبيه ، فيقول غالب : ردّ ، أى بنى ، فيقول الفرزدق : اعقِرْ أبتِ ؛ حتى نحر سائرها ؛ وكانت مائتين .

فقال طارق بن دَيْسَق ـ وكان يهاجى سُحَيما :

أَبْلغْ سُحَيماً إن عَرَضْتَ وجَحْدَراً ... أن المخــــازىَ لا يَنَامُ قُرَادُها

---

* ذيل الأمالى : ٥٢ ، بلوغ الأرب : ٣ ـ ٣٠

(١) أسنت : أجدبوا (٢) جفن الناقة : نحرها وأطعم لحمها فى الجفان (٣) أهل القدر (٤) غضب (٥) المعاقرة : هى أن يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه ، فيعقر هذا عدداً من إبله ، ويعقر صاحبه ، فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه ونفره (٦) الشنفيرة : سوء الخلق والفحش والبذاءة (٧) وغراء الصدور عليه (٨) الخمس من أظماء الإبل : أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع ، والإبل خوامس (٩) الوغدان : جمع وغد ، وهو خادم القوم .

أَقْدَحْتُمَا حتى إذا أَوْرَيْتُمَا ... للحرب نارَ كما خبا إيقــادُها

لو كان شاهــدَنا الجميلُ ومالكٌ ... لَحَبَتْ [١] لِقَاحٌ وُلَّهٌ أولادُها

أطْردتَهــا نِيباً تَحِنُّ إفَائُها [٢] ... من أن يــكونَ لسَيْفِه إيرادُها

فأقبلت إبلُ سُحَيم حتى وردتْ عليه ، فأوردها كُناسَةَ [٣] الـكوفة . وجعل يَعْقِرها وهو يقول :

كيف ترى جُحَيْــدِراً يرعاها ... بالسَّيْفِ يُخْلِيها إذا استَخْلاها

* ينترُ الجزيزَ [٤] مِنْ ذُراها *

فلم يَنْفَعْهُ عَقْرُهُ إياها ، وقد سبقه غالبٌ بالعقر .

---

(١) اللحب : الطريق الواضح ، ولحب الطريق : سلكه (٢) الإفال : جمع أفيل ، الفصيل

(٣) كناسة الـكوفة : محلة بها .

(٤) أصل الجزيزة : خصلة من صوف .

٥٢ — قد كان يَسُوءُنى أن تكونَ أميراً *

دخل صَعصَعَة[١] بن صُوحان على معاوية أول مادخل عليه ، وقد كان يبلغُ معاوية عنه كلام ، فقال له معاوية : مِمّن الرّجل ؟ قال : رجل من نِزَار . قال : وما نِزَار ؟ قال : إذا غزا احْتَرَش[٢] ، وإذا انصرف انكمش ، وإذا لَقِيَ افترش .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة ؟ قال : كان يغزو بالخَيْل ، ويُغير بالليل ، ويجود بالنَّيْل .

قال : فمن أيّ ولده أنت ؟ قال : من أَسَد . قال : وما أسد ؟ قال : كان إذا طلب أَفضَى[٣] ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى[٤] :

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جَدِيلة ؟ قال : وما جَديلةُ ؟ قال : كان يطيل النِّجَاد[٥] ، ويُعدّ الجياد ، ويجيد الجِلَاد[٦] .

قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من دُعْمىّ . قال : وما دُعْمىّ ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشرًّا قاطعًا ، وخيراً نافعاً .

---

* بلوغ الأرب : ٣ — ٢٠٥ ، صبح الأعشى : ١ — ٢٥٤ ، مروج الذهب : ٢ — ٧٧ ، الأمالى : ٢ — ٢٣٠

(١) صعصعة بن صوحان : كان خطيباً بليغاً له شعر ، شهد صفين مع على ، وله مع معاوية مواقف ومات نحو سنة ٦٠ هـ (٢) احترش : جمع وكسب (٣) أفضى إلى الشىء : وصل .
(٤) أنضى بعيره : هزله ، وثوبه أبلاه (٥) النجاد : حمائل السيف .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفْصَى ، قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات[١] ، ويُكْثِر الغارات ؛ ويَحْمِى الجارَات .

قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال : وما عبدُ القيس ؟ قال : أبطالٌ ذَادَة ، جَحَاجِحة[٢] قَادَة ، صناديدُ سادة .

قال : فمن أىٍّ ولده أنت ؟ قال : من أَفْصَى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ذا رِمَاح مُشْرَعة ، وقدُور مُتْرَعة[٣] ، وجفانٍ مُفْرغة .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من لُكَيْز . قال : وما لُكَيْز ؟ قال : كان يُباَشر القتال ، ويعاَنِق الأبطال ، ويُبَدِّد الأموال :

قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من عجْل : قال : وما عجْل ؟ قال : الليوث الضراغمة[٤] ، الملوك القَاقمة[٥] ، والقرُوم القَشَاعمة[٦] .

قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال: من كَعْب، قال : وما كعب ؟ قال : كان يُسعِّر[٧] الحرب، ويجيد الضَّرْب ، ويكشف الكَرْب :

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال: منْ مالك : قال : وما مالك ؟ قال : الُهمَام للهوام ، والقَمقام للقمقام .

قال معاوية : والله ماتركتَ لهذا الحى من قريش شيئاً ! قال : بل تركتُ أكثَرَه وأحبَّه . قال . وما هو ؟ قال : تركتُ لهم الوبَرَ والمدَرَ[٨] ، والأبيض

(١) القارات : جمع قارة ؛ وهى الجبيل الصغير (٢) جحاجحة : جمع جحجح : السيد .
(٣) مترعة : مملوءة (٤) جمع ضرغام : الأسد (٥) جمع قمقام : السيد (٦) القرم : السيد ، والقشعم : الأسد أو الرجل المسن ، ويقصد المجرب (٧) سعر الحرب : أوقدها (٨) كناية عن البادية والمدن .

والأصفر ، والصَّفا والمَشْعر[١] ، والقُبَّـة والمفْخَر ، والسرير والمِنْـبر ، والمُلْك إلى المحشَرْ .

فقال: أما والله لقد كان يسوءنى أن أَرَاك أسيراً . فقال : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أرَاك أميراً . ثم خرج ، فبعث إليه فردّه ووصَلَه وأكرمه .

٥٣ — لترجعنّ بأكْثر مما آبَ به مَعَدّىّ*

كان الوليدُ بن جابر بن ظالم الطائىّ ممن وفَد على رسول الله ، ثم صَحِب عليا ، وشهد معه صِفِّين[٢] ، وكان من رجاله المشهورين ، ثم وفد على معاوية ، فدخل عليه فى جملة الناس .

فلما انتهى إليه اسْتَنْسَبَه[٣] فانْتَسَب له فقال له : أنت صاحبُ ليلة الهَرير[٤]؟ قال : نعم ! قال: والله ماتخلو مسامعى من رَجَزِك تلك الليلة، وقد علا صوتُك أصواتَ الناس، وأنت تقول:

---

(١) المشعر : موضع مناسك الحج .

* ابن أبى الحديد : ٤ ــ ٤٩ .

(٢) موضع قرب الرقة بشاطئ الفرات كانت به الموقعة العظمى بين على ومعاوية فى صفر سنة ٣٧هـ.

(٣) استنسبه : سأله أن ينتسب . (٤) سفرت بين على ومعاوية السفراء ؛ ليصلحوا بين الفريقين ولكن ذهب سعيهم سدى ، فابتدأ القتال ثانية فى يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هجرية من غير أن يقف كلا الجمعين وجهاً لوجه ، بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال على لجنده : حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ! فباتوا يصلحون أمرهم ، وفى الصباح زحف على بجنوده ، وزحف معاوية بجنوده ، واقتتل الفريقان ، ثم أعادوا الكرة فى غد ذلك اليوم ولما أمسى المساء لم ينفصلا ، بل استمر القتال شديداً طول الليل ، ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير.

شُـــدُّوا فداءٌ لـكم أمّى وأبْ   فإنما الأمرُ غـداً لمن غَلَبْ
هـــذا ابنُ عم المصطفى والمنتخَبْ   تنْميه للعليـــاء ساداتُ العربْ
ليس بموصوم إذا نُصَّ [١] النَّسبَ   أول من صلّى وصَامَ واقـــتْرَبْ

قال : نعم . أنا قائلها . قال : فلماذا قلتَها ؟ قال : لأنا كنـا مع رجل لا نعلَمُ خَصْلَةً تُوجب الخـلافة ولا فضيلةً تصير إلى التقدِمة إلا وهى مجموعة له . كان أول الناس سِلْماً [٢] ، وأكثرَهم علماً ، وأرجَحهم حِلمًا ، فَاتَ الجياد فلا يُشَقُّ غُبَارُه ، وأوْضَح منهجَ الهدى فلا يبيدُ مَنَاره ، وسلك القَصْدَ فلا تَدْرُسُ آثاره، فلما ابتلانا الله تعالى بافْتِقَاده ، وحوّل الأمرَ إلى من يشاء من عباده دخلنا فى جملةِ المسلمين ؛ فلم نَنْزِعْ يداً عن طاعة ، ولم نَصْدَعْ صَفَاةَ جماعة .

على أنّ لك منّا ما ظهر ، وقلوبُنا بيدِ الله ، وهو أملكُ بها منك ؛ فاقبـلْ صفوَنا ، وأعْرِضْ عن كَدَرِنا ، ولا تُثِرْ كوامِنَ الأحقـادِ ؛ فإن النـار تُقْدَحُ بالزِّناد .

قال معاوية : وإنك لتهدِّدنى يا أخا طيّئ بأوْبَاش [٣] العراق ، أهل النفاق ومَعْدن الشِّقاق ، قال : يا معاوية ، هم الذين أشرَقُوك بالريق ، وحبسوك فى المضيق، وذَادُوك عن سَنَنَ الطريق ، حتى لُذْت منهم بالمصاحف ، ودعوتَ إليها من صدّق بهـا وكذّبت ، ومَنْ آمن بمُنزِلهـا وكفرت ، وعَرَفَ مِنْ تأويلهـا ما أنْـكَرْت .

فغضب معاوية ، وأدار طرْفَه فيمن حوله ، فإذا جلّهم من مُضَر ونفر قليل من اليمن ، فقال : أيها الشقىُّ الخائن ، لإِخال أنّ هذا آخرُ كلامٍ تفوّهْتَ به .

---

(١) كل ما أظهر فقد نص (٢) السلم : الإسلام (٣) الأوباش : الأخلاط .

وكان عقير بن ذى يَزَن بباب معاوية حينئذ فعرف موقفَ الطائىّ ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدّار ، وأقبل على اليمانية ، فقال : شاهت الوجوه ذُلًّا وقُلًّا[1] ، وجَدْعًا وفَلًّا.!

ثم التفت إلى معاوية فقال : إى والله يا مُعَاوية ، ما أقول قولى هذا حبًّا لأهل العراق ، ولا جُنوحًا إليهم ، ولكن الحفيظةَ [2] تُذْهِب الغضَب.

لقد رأيتُك بالأمس خاطبت أخا ربيعة ـ يعنى صَعْصَعَة بن صُوحان ـ وهو أعظمُ جُرْمًا عندك من هذا ، وأذْكى لقلبك ، وأقدح فى صَفَاتك ، وأجدُّ فى عداوتك ، وأشدُّ انتصاراً فى حربك ، ثم أثَبْته وسرَّحتَه ، وأنت الآن مُجْمِعٌ على قَتْل هذا ، زعمتَ استصغاراً لجماعتنا ، وأنا لا نمِرُّ ولا نُحْلِي[3] ، ولعمرى لو وكَّلتَك أبناء قَحْطَان إلى قومك لكان جدّك العاثر ، وذكرك الداثر ، وحدّك المَفلول ، وعرشك المَثْلول ، فارْبَعْ [4] على ظَلْعِك ، واطْوِنَا على بُلَلَاتِنا [5] ، ليسهل لك حَزْننا ، ويطمئنّ لك شارِدنا ، فإنا لا نُرَام بوقع الضَّيْم ، ولا نتلمَّظ [6] جُرَع الخسف ، ولا نغمر بغمار الفتن ، ولا نَدِرُّ على الغضب .

فقال معاوية : الغضبُ شيطان ، فارْبَعْ على نفسك أيّها الإنسان ، فإنا لم نأتِ إلى صاحبك مكروهًا ، ولم نرتكبْ له مُغْضِباً ، ولم ننتهك منه محرَّماً ، فدونَكه ، فإنه لم يضق عنه حلمُنا ويَسَعَ غيره .

---

(١) القل : القلة (٢) الحفيظة : الحمية (٣) يقال فلان ما يمر وما يحلى : أى لا يضر ولا ينفع
(٤) اربع على ظلعك : ارفق على نفسك فإنك ضعيف فانته عما لا تطيقه . (٥) يقال : طويت فلاناً على بللاته ، وتفتح اللام أيضاً : إذا احتملته على ما فيه من الإساءة والعيب ، وداريته وفيه بقية.
(٦) تتلمظ : تتذوق .

فأخذ عفير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لتثوبَنَّ بأكثر مما آب به مَعَدِّىّ .

وجمع مَنْ بدمشق من اليمانيـة ، وفرض على كلّ رجـل دينارين فى عطائه فبلغت أربعين ألفاً ، فتعجّلها من بيت المـال ، ودفعها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .

٥٤ — ما تكشِفُ الأيامُ منك إلا عن سَيْفٍ صقيل *

وفد عبدُ الله بن عباس على معاوية مرّة ، فقال معاوية لابنه يزيد ولزياد بن سُمَيّة وعُتْبَةَ بن أبى سفيان ومروان بن الحكم وعمْرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس ، وما كان شَجَرَ بيننا وبينه وبين ابن عمّه [1] ، ولقد كان نصبَه للتحكيم فدُفِعَ عنه [2] ؛ فحرِّكوه على الكلام لنبلغ حقيقةَ صفته ، ونقف على كُنْهِ مَعْرِفته ؛ ونعرفَ ما صُرِفَ عنا من شَبَاَ حَدِّه ، ووُورى عنّا من دَهاء رأيه ؛ فربما وُصِف المرء بغير ما هو فيه ، وأُعْطِىَ من النَّعْتِ والاسم ما لا يستحقُّه .

ثم أرسلَ إلى عبدِ الله بن عباس ، فلما دخل واستقرّ به المجلس ابتدأه ابنُ أبى سفيان ، فقال : يابنَ عباس ، ما منع عليًّا أن يوجِّه بك حَكَماً ؟ فقال :

* ابن أبى الحديد : ٢ — ١٠٥ .

(١) يريد على بن أبى طالب (٢) حينما خرج الخوارج على علىّ بن أبى طالب وأصروا على التحكيم أشار بابن عباس أو الأشتر حكماً ، ولكنهم أبوا إلا تحكيم أبى موسى الأشعرى .

أما والله لو فعل لقَرَنَ عمراً بصَعْبةٍ(١) من الإبل يوجع كتفيه مِراسُها(٢)، ولأذهلتُ عقلهُ ، وأجْرَضْتُهُ برِيقِه(٣) وقَدَحْتُ فى سويداء قَلْبِهِ ؛ فلم يُبْرِمْ أمراً ، ولم ينفض تراباً إلّا كنتُ منه بمرأى ومسمع ، فإن نَكَثه أرَمْتُ(٤) قواه ، وإن أرَمَهُ فَصَمْتُ(٥) عراه ؛ بغَرْب مِقْوَل(٦) لا يُفَلُّ حدُّه ، وأصالةِ رأى كمُتَاحِ(٧) الأجل لاوَزَرَ منه ، أصدعُ به أديمَه ، وأَفُلُّ به شبا حَدِّه ، وأشْحَذُ به عزائم المتقين ، وأُزيحُ به شُبَه الشاكِّين .

فقال عمرو بن العاص : هذا والله يا أمير المؤمنين نُجُومُ(٨) أولِ الشرّ ، وأفولُ آخرِ الخير ، وفى حَسْمِهِ قطعُ مادته ؛ فبادِرْه بالحملة ، وانتهز منه الفُرْصَة ، واردع بالتنكيل به غيرَه ، وشَرِّدْ به مِنْ خلفَه .

فقال ابنُ عباس : يا بن النَّابغة ؛ ضلَّ والله عقلك ، وسَفِهَ حِلْمُكَ ، ونطق الشيطانُ على لسانك! هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفِّين ، حين دُعيت نَزَال(٩)، وتكافح الأبطال ، وكَثُرَتْ الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مُصَاوِلا ، فانكفأ نحوك بالسيف حاملا ، فلما رأيت الكواثر(١٠) من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دُعَائه ، فمنحته — رجاء النجاة — عورتَك ، وكشفت له — خوف بأسه — سوأتَك؛ حذراً أن يَصْطَلِمك بسَطْوَته ، أو يلتهمك بحملته :

---

(١) الصعبة : مؤنث صعب ، والصعب من الدواب نقيض الذلول . (٢) مراسها : علاجها (٣) جرض بريقه : ابتلعه بجهد (٤) أرم قوته : أضعفها ولينها (٥) يقال أرم الحبل : فتله شديداً ، فصمت : حللت (٦) الغرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان (٧) الأجل المتاح : المقدر (٨) نجوم : ظهور (٩) أى حين قال الأبطال بعضهم لبعض : نزال . (١٠) الكواثر : جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء .

ثم أشرتَ على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسَّنتَ له التعرضَ لمكافحته ، رجاء أن تكفى مئونته وتَعْدَم صورته ؛ فعَلِمَ غِلَّ صدرك ، وما انحنتْ عليه من النِّفاق أضلُعك ، وعرف مقرَّ سَهْمِكَ فى غرضك ؛ فاكْفُفْ غَرْبَ لسانك ، واقْمعْ عَوْرَاء[1] لفظك ، فإنَّكَ بَيْنَ أسدٍ خادِرٍ ، وبَحْرٍ زاخرٍ ؛ إن تَبرَّزْتَ[2] للأسد افْترَسَك ، وإن عُمْتَ فى البحرِ قَمَسَكَ[3] .

فقال مروان بن الحكم : يابن عباس ؛ إنك لتَصْرِفُ[4] نَابَك ، وتُورِى نارَك ، كأنك ترجو الغَلَبَة ، وتؤمِّلُ العافيةَ ، ولولا حِلْمُ أميرِ المؤمنين عنكم لتناول لكم بأقصرِ أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صَدَرُه[5] ؛ ولعمرى لئنْ سَطَابكم ليأخُذَنَّ بَعْضَ حَقِّهِ منكم ، ولئنْ عَفَا عن جرائِركم[6] فقديماً نُسِبَ إلى ذلك .

فقال ابنُ عباس : وإنك لتقولُ ذلك ياعدوَّ الله ، وطريدَ رسول الله ، والمُباح دَمُه[7] ، والداخل بين عثمان ورعيَّته بما حملهم على قَطْع أَوْدَاجه[8] وركوب أثْباجِه[9] ! أما والله لو طلبَ معاويةُ ثأره لأخذك به ، ولو نظر فى أمرِ عثمان لوجدك أوَّلَه وآخره . وأما قولُك لى : إنك لتصرف نَابَك وتُورِى نارك ، فسَلْ معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهرير[10] ، كيف ثباتنا للمُثلاتِ[11] ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدقُ جِلادنا عند المُصَاوَلة ، وصبْرُنا على اللأْوَاء[12] والمطاولة ، ومصافحتُنا بجباهنا السيوفَ المُرْهفة ،

---

(١) العوراء : الكلمة أو الفعلة القبيحة (٢) تبرز : برز وخرج إلى القفار (٣) القمس : الغلبة بالغوص (٤) الصريف : صوت الأنياب ، يقال : صرف نابه وبنابه ، إذا صوت بها . (٥) الصدر : الرجوع (٦) الجريرة : الذنب (٧) فى فتنة عثمان (٨) جمع ودج ، وهو العرق الذى يقطعه الذابح (٩) الثبج : ما بين الكاهل إلى الظهر ووسط الشيء ومعظمه (١٠) ليلة الهرير هى تلك الليلة التى استمر فيها القتال طول الليل بين أنصار معاوية وعلى فى حرب صفين وأوشك جيش على أن تكون له الغلبة (١١) جمع مثلة (بضم الثاء وسكونها) ، من مثلث بالقتيل إذا نكلت به (١٢) اللأواء : الشدة .

ومباشرتنا بنحورنا حدَّ الأسنة ؛ هل خِمْنا[١] عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مُهَجَنا للمتلف ! وليس لك إذ ذاك فيها مقـامٌ محمود ، ولا يومٌ مشهود ، ولا أثرٌ معدود ، وإنهما شهدا مالو شهدتَ لأقلقك ؛ فاربَع[٢] على ظَلْعِكَ ، ولا تتعرَّضْ لمـا ليس لك ؛ فإنك كالمغروز فى صَفَد[٣] ، لا يهبط برِجْل ، ولا يرْفأ[٤] بيد .

فقال زياد : يابن عباس؛ إنى لأعلم مامنع حسناً وحسيناً من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ماسوّلتْ لهما أنفسهما، وغرَّهما به مَنْ هو عند البأساء يُسْلِمُهُما[٥] . وايمُ الله لو وليّتهما لأدْأَبا[٦] فى الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقلَّ بمكانهما لُبثهُمَا .

فقال ابنُ عباس: إذن والله يقصر دونهما باعكَ، ويضيق بهما ذراعكَ، ولو رُمْتَ ذلك لوجدتَ من دونهما فئةً صُدُقاً[٧] صُبُراً على البلاء ، لا يَخيمُونَ عن اللقاء، فلعرَكُوكَ بكلاكِلِهِم[٨] وَوَطئُوكَ بمَنَاسِمِهِم[٩] ، وأوْجَرُوكَ مَشْقَ[١٠] رماحهم وشِفَارَ سيوفهم ، وَوَخزَ أسِنَّتهم ، حتى تشهدَ بسوء ما أتيت ، وتتبيَّنَ ضياعَ الحزم فيما جنيتَ ؛ فحذار حَذار من سوء النيّة ؛ فإنها تردُّ الأمنيّة ، وتـكونُ سبباً لفساد هذين الحيَّين بعد صلاحهما ، وسعياً فى اختلافهما بعد ائتلافهما ، حيثُ لا يضرُّهما إبْسَاسُك ، ولا يُغْنى عنهما إيناسُك[١١] .

فقال عبد الرحمن بن أم الحـكم : لله دَرُّ ابن مُلْجَم[١٢] ! فقد بَلَّغَ الأمل ،

---

(١) خام عنه : نكص وجبن (٢) اربع على ظلعك : ارفق على نفسك واسكت على ما بك .
(٣) الصفد : الوثاق (٤) يقال : رفأ فى الدرجة ، أى صعد (٥) أسلمه : خذله (٦) أدأبا : أجهدا (٧) أى ذات صدق وصبر (٨) بكلاكلهم : بصدورهم (٩) المنسم : خف البعير
(١٠) يقال : أوجره الرمح ، أى طعنه به فى فيه . والمشق : الطعن الخفيف السريع .
(١١) الإبساس أن يقال للناقة عند الحلب : بس بس ، والإيناس : خلاف الإيحاش .
(١٢) هو عبد الرحمن بن ملجم قاتل علىّ .

وأمّن الوَجِل،وأَحَدَّ الشَّفْرَة ، وألانَ المُهْرَة ، وأدرك الثَّار ، ونفى العار ، وفاز بالمنزلة العليا ، ورَقِيَ الدرجةَ القُصْوَى .

فقال ابن عباس : أما والله لقد كَرَع كأس حَتْفِه بيده ، وعَجَّلَ الله إلى النار برُوحه ؛ ولو أبدى لأمير المؤمنين صفحَتَه لألْعَقَهُ صاباً [١] ، وسقاه سِماما [٢] ، وألحقه بالوليد وعتبة وحَنْظَلَة [٣] ، فكلُّهم كان أشدَّ منه شَكيمة ، وأمضى عزيمة ، ففرَى بالسيف هامَهم [٤] ، ورَمَّلَهم [٥] بدمائهم ، وقَرَى الذئاب أشلاءهم [٦] ، وفرّق بينهم وبين أحبائهم ، أولئك حَصَبُ [٧] جهنم هم لها واردون فهل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكزاً [٨] ! ولا غَرْوَ إن خُتِلَ ، ولا وَصْمَة إن قُتِلَ .

فقال المغيرة بن شعبة : أما والله لقد أشرتُ عَلَى عَلِيّ بالنصيحة ، فآثَرَ رَأْيَه ، ومضى على غُلَوَائِه ، فكانت العاقبةُ عليه لا لَهُ ، وإنى لأحسبُ أنَّ خلفه يقتدون بمنهجه .

فقال ابنُ عباس : كان واللهِ أميرُ المؤمنين ـ عليه السلام ـ أعلَمَ بوجوه الرأى، ومَعَاقِدِ الحزْمِ ، وتَصْرِيف الأمور،من أن يقبلَ مشورتك فيما نهى الله عنه،وعنّف عليه : قال سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

ولقد وقفك على ذِكْرٍ مبين ، وآية متلوة قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ . وهل كان يسوغُ له أن يُحكِّمَ فى دماء المسلمين وفَىْء المؤمنين

---

(١) الصاب : عصارة شجر مر (٢) السمام : جمع سم (٣) هؤلاء قتلوا يوم بدر .
(٤) جمع هامة ، وهى الرأس (٥) رملهم : لطخهم (٦) الأشلاء : جمع شلو ، وهو العضو
(٧) الحصب : ما يرمى فى النار (٨) الركز : الصوت الخفى .

من ليس بمأمونٍ عنده ، ولا موثوقٍ به فى نفسه ، هيهات هيهات ! هو أعلم بفرضِ الله وسنةِ رسوله أن يُبْطِنَ خلافَ ما يظهر إلا للتقيَّة [١] ، ولاتَ حينَ تَقِيَّة ، مع وضوح الحق وثبوتِ الجنان ، وكثرة الأنصار ؛ يمضى كالسيف المُصْلَت [٢] فى أمرِ الله ، مُؤْثراً لطاعةِ ربه والتقوى على آراء أهلِ الدنيا .

فقال يزيد بن معاوية : يابنَ عباس ؛ إنك لتنطقُ بلسانٍ طَلْق [٣] ، تنبئُ عن مكنونِ قلبٍ حَرِق [٤] ، فاطوِ ما أنت عليه كَشْحاً ، فقد محا ضوء حقِّنا ظلمةَ باطلِكم .

فقال ابنُ عباس : مهلًا يزيد ! فوالله ما صفَتِ القلوب لكم منذ تكدَّرَتْ بالعداوة عليكم ، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم منذ نَأَتْ بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلِ [٥] الأيامُ نستقصِ ماشذَّ عنا ، ونسترجع ما ابتُزَّ منا ، كيلًا بكيل ، ووَزْناً بوزن ؛ وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًّا ووكيلاً على المعتدين علينا !

فقال معاوية : إن فى نفسى منكم لَحزَازَات يا بنى هاشم ، وإنى لخليق أن أدركَ فيكم الثأر ، وأتقِيَ العار ؛ فإن دماءنا قِبَلَكُمْ ، وظلامتَنا فيكم .

فقال ابن عباس : والله إن رُمْتَ ذلك يامعاوية لتثيرنّ عليك أُسُداً مُخْدَرَة [٦] ، وأفاعى مُطْرِقة لا يَفْثَؤُها [٧] كثرةُ السلاح ، ولا تعضُّها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قُدُماً قُدُماً من ناوَأَهُمْ ، يهون عليهم نُباح الكلاب ، وعُواء الذئاب ، لا يفاتون بوتر ، ولا يسبقون إلى كريم ذِكْر ، قد

---

(١) التقية : المحافظة على النفس (٢) المصلت : المسلول (٣) طلق : ذلق (٤) حرق : محروق (٥) يقال : أداله الله من عدوه ، نصره عليه (٦) أخدر الأسد : لزم الأجمة .
(٧) المراد : لا يسكنها .

وطنوا على الموت أنفسهم ، وسَمَتْ بهم إلى العَلْيَاء هممُهم كما قالت الأزديّة :

قومٌ إذا شهدوا الهِيَاج فــلا ضَرْبٌ يُنَهْنِهُهُمْ ولا زَجْرُ

وكأنهم آسادُ غِينَــةَ [١] قد غَرِثَتْ [٢] وبَلَّ متونَها القَطْرُ

فلتكونَنّ منهم بحيث أعددت ليلةَ الهرير للهرب فرسَك ، وكان أكبرُ هَمِّك سلامةَ حُشاشة نفسك ، ولولا طَغَامٌ [٣] من أهل الشام وقَوْك بأنفسهم ، وبذلوا دونك مهجهم ، حتى إذا ذاقوا وَخْز الشِّفَار ، وأيقنوا بحلول الدمار ، رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائذين بعصمتها ، لكنت شِلْواً مطروحاً بالعَرَاء ، تَسْفِى عليك رِياحُها ، ويعتورك ذِئَابُها .

وما أقول هــذا أريد صَرْفَك عن عزيمتك ، ولا إزالتَك عن معقود نيتك ، لكن الرحمَ التى تعطف عليك ، والأوامرَ التى توجب صَرْف النصيحة إليك !

فقال معاوية : لله دَرّك يا بنَ عباس ! ما تكشفُ الأيامُ منك إلا عن سَيْفٍ صقيل ، ورأى أصيل ؛ وبالله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددِهم ، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم .

ثم نهض ابنُ عباس وانصرف .

---

(١) الغينة : الأجمة (٢) غرثت : جاعت (٣) الطغام : أوغاد الناس .

٥٥ — لولا ما جعل الله لنا فى يدك ما أتيناك *

بينا معاويةُ جالس يوماً وعنده عمرُو بن العاص إذ قال الآذِن : قد جاء عبدُ الله بن جعفر بن أبى طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأنه اليوم ! فقال معاوية : لا تفعلْ يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتَصِفُ (١) منه ، ولعلك إن تفعل تظهر لنا من مَنْقَبَته (٢) ما هو خفيٌّ عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه .

وغشِيَهُم عبد الله بن جعفر ، فأدْناه معاويةُ وقرّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فَنالَ من عَلِىّ جهاراً غير ساتر له ، وثَلَبَهُ ثَلْباً قبيحاً ؛ فالْتمع لونُ عبد الله واعتراه أفْـكَل (٣) حتى أُرْعِدتْ خَصائِله (٤) ثم نزل عن السرير كالفَنِيق (٥) ؛ فقال عمرو : مَهْ يا أبا جعفر ! فقال عبد الله : مَهْ ، لا أمّ لك ! ثم قال :

أظنُّ الحلم دلّ علىّ قومى وقد يتَجهَّل الرجلُ الحليمُ

ثم حَسَر عن ذراعيه ، وقال : يا معاوية ؛ حتّام نتجرع غيظك ، وإلام الصبرُ على مكروه قولك وسيئ أدبك ، وذميم أخلاقك ، هبلَتْك الهَبُول (٦) ! أما يزجرك ذِمامُ المجالسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ؟ أما والله لو عطفتك أواصِرُ الأرحــام ، أو حاميت على سهمك من

---

* ابن أبى الحديد : ٢ ـ ١٠٤ .

(١) انتصف منه : استوفى حقه منه كاملا (٢) المنقبة : المفخر (٣) الأفـكل : الرعدة (٤) الخصلة : كل قطعة من لحم عظمت أو صغرت ، وجمعها الخصائل (٥) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله (٦) هبل : ثكل ، والهبول : هى من النساء التى لا يبقى لها ولد

الإسلام ، ما أرعيتَ بنى الإمام أعْراض قومك ؛ وما يجهل موضع الصَّفْوة إلا أهل الجَفْوَة .

وإنك لتعرفُ قريشاً وصَفْوة غرائزها فلا يدعوَنَّك تصويبُ ما فرط من خطئك فى سَفْكِ دماء المسلمين ، ومحاربةِ أميرِ المؤمنين إلى التمادى فيما قد وضح لك الصوابُ فى خلافه ؛ فاقصِد لمنهج الحق ؛ فقد طال عَمَهُك (١) عن سبيل الرشد ، وخبْطُك فى دَيجور ظُلْمَةِ الغىّ ؛ فإن أبيت ألا تتابعنا فأعْفِنا من سوء القالة فينا ، إذا ضمنا و إياك الندِىّ (٢) ، وشأنك وما تريد إذا خَلَوْت ، والله حسيبك ! فوالله لولا ما جعل الله لنا فى يديك لما أتيناك .

ثم قال : إنّك إن كلفتنى ما لم أطِقْ ساءك ما سُتِر منى من خُلُق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ؛ نُغيِّر الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسنّ ، لعن الله من أخرج ضَبَّ صدرك من وِجاره (٣) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أمّلت ، فلو لم يكن مَحْتِدك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافعيْن لك إلينا ، وأنت ابنُ ذى الجناحيْن ، وسيد بنى هاشم .

فقال عبدُ الله : بل سيدُ بنى هاشم : حَسَن وحسين ، لا ينازعهما فى ذلك أحد . فقال : يا أبا جعفر ؛ أقسمتُ عليك لما ذكرتَ حاجةً لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت ! ولو ذهبتْ بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا المجلس فلا !

ثم انصرف فأتبَعه معاويةُ بصرَه ، فقال والله لكأنه رسول الله فى مِشْيَته وخُلُقِه وخَلْقه ، وإنه لمن مِشكاتِهِ (٤) ؛ ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

---

(١) العمه : التردد فى الضلال (٢) الندى : مجلس القوم (٣) الوجار : جحر الضبع وغيرها
(٤) أى أنهما من شىء واحد .

ثم التفت إلى عَمْرو فقال : يا أبا عبد الله ؛ ما ترَاه منعه من الـكلام معك ! قال : مالا خفاء به عنك ! قال : أظنُّك تقول : إنه هابَ جوابك ، لا والله ، ولـكنه ازْدَرَاك واستحقرك ، ولم يرَك للـكلام أهْـلًا ، أما رأيت إقباله عليّ دونك ، ذاهباً بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددته لجوابه ؟ فقال معاوية : أرغبُ إليك يا أبا عبد الله ؛ فلات حين جواب فيما يُرى اليوم ، ونهض معاوية وتفرق الناس .

٥٦ — ذهبت قريش بالمكارم والعلا*

شبَّبَ عبدُ الرحمن بن حسان برَمْلَةَ بنت معاوية فقال :

رَمْلُ ، هل تذكرين يوم عَزَالٍ ... إذ قطعنا مَسِيرَنا بالتَّمَنِّي

إذ تقولين : عَمْرَكَ الله ، هل شَىْ ... ءٌ وإن جلّ سوف يُسْلِيك عنى !

وبلغ ذلك يزيدَ بنَ معاوية ؛ فغضب ، وَدَخل على معاوية وقال : يا أمير المؤمنين ؛ ألا ترى إلى هذا العِلْج [1] من أهل يثرب يتهكَّم بأعراضنا ، ويتشبَّب بنسائنا ! قال : ومن هو ؟ قال : عبد الرحمن بن حسان ، وأنشده ما قال .

فقال : يا يزيد ؛ ليست العقوبة من أحدٍ أقبحَ منها من ذوى القدرة؛ ولكن أمهل ، حتى يقدَم وفدُ الأنصار ، ثم ذَكِّرْنى .

فلما قدم وفدُ الأنصار ذكَّره به ، فلما دخلوا عليه قال : يا عبدَ الرحمن ؛ ألم يبلغنى أنك تشبّب برملة بنت أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، ولو علمتُ أن أحداً أشَرَّف به شعرى أشرفَ منها لذكرتُه ! قال : وأين أنت عن أختها هند ؟ قال : وإن لها لأختاً ! قال : نعم ـ وإنما أراد معاوية أن يشبِّبَ بهما جميعاً فيكذِّب نفسه ـ فلم يُرْضِ يزيدَ ما كان من معاويةَ .

فأرسل إلى كَعْب بن جُعَيْل فقال: اهجُ الأنصار، فقال: أَفْرَق [2] من أمير المؤمنين، ولكن أدلُّك على الشاعر الكافر الماهر ، قال : ومن هو ؟ قال : الأخطل [3] .

---

* الأغانى : ١٤ ـ ١٤٢ .

(١) العلج : الرجل الشديد الغليظ (٢) أفرق : أخاف (٣) الأخطل : شاعر اشتهر فى عهد بنى أمية بالشام وأكثر من مدح ملوكهم ، وتهاجى مع جرير والفرزدق فتناقل الرواة شعره ، توفى سنة ٩٠ هـ .

فدعا به ، فقال : اهج الأنصار ، قال : أفرَق من أميرِ المؤمنين ، فقال : لا تخف شيئاً ، أنا لك بذلك ، فهجاهم فقال :

وإذا نسبت ابن الفُرَيْعَة (١) خِلْتَهُ ... كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ

لعن الإلٰه من اليهود عصابةً ... بالجِزْعِ بين جَلَاجِلٍ وصِرارِ (٢)

قومٌ إذا هَدَرَ العصيرُ رأيتهمْ ... حمرا عيونهمُ من المُسْطار (٣)

خلُّوا المكارم لَسْتُمُو من أَهْلِها ... وخذوا مَسَاحِيَكم (٤) بنى النجّار

ذهبتْ قريش بالمكارم والعُلَا ... واللؤمُ تحت عمائمِ الأنصار

فبلغ ذلك النعمانَ بن بشير ؛ فدخل على معاوية فحَسَرَ عن رأسه عِمَامَتَه ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أترى لؤماً ؟ قال : لا ، أرى كرماً وخيْراً ، ما ذاك ؟ قال: زَعَمَ الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا ، قال : أو فعل ! قال : نعم ، قال : لك لسانُه .

وكتب فيه أن يُؤْتَى به ، فلما أُتِيَ به ، سأل الرسول ليدخلَ إلى يزيد أوّلًا ، فأدخلَه عليه ، فقال : هذا الذى كنتُ أخاف ، قال : لا تخفْ شيئاً ، ودخل على معاوية ، فقال : عَلام أُرْسل إلى هذا الرجل وهو يرمى من وراء جَمْرَتِنَا (٥) ! قال : هجا الأنصار ، قال : ومَنْ زَعَمَ ذلك ؟ قال : النعمان بن بشير . قال : لا يُقْبَلُ قوله عليه ، وهو يدّعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالبيِّنة، فإن أثبت شيئاً أخذتَ به له .

فدعاه بالبيّنة ، فلم يأت بها فخلّى سبيله ، فقال الأخطل فى يزيد :

---

(١) الفريعة : هي أم حسان بن ثابت (٢) صرار : اسم جبل ، وجلاجل : مكان
(٣) المسطار من أسماء الخمر التى اعتصرت من أبكار العنب (٤) المساحى : جمع مسحاة وهى المجرفة من الحديد (٥) الجمرة : اجتماع القبيلة الواحدة على من ناوأها .

صحاَ القلبُ إلا من ظعائن فاتنى ... بهنَّ أميرٌ مستبدٌ فأصعَدا (١)
وقرّبْنَ للبَيْنِ الجمالَ وزُيِّنتْ ... بأحمر من لَكٍّ(٢) العراق وأسودَا
فطِرْنَ بوَحْشٍ ماتؤاتيك بعد ما ... دنتْ نهضةُ البازى لأنْ يتَصيَّدَا
وإنى غَدَاةَ استعبرتْ(٤) أمُّ مالكٍ ... لراضٍ من السلطان أن يتهدّدَا
ولولا يزيدُ ابن الملوك وسَيْبُه ... تجلّلتُ حِدْباراً(٥) من الشرِّ أنكدَا
فكم أنقذتنى من جَرُورٍ(٦) حبالُكم ... وخَرْساء(٧) لو يرمى بها الفيلُ بَلّدَا(٨)!

إلى أن قال :

أبا خالدٍ ؛ دافعتَ عنى عظيمةً ... وأدركْتَ لحمى قبل أن يتبدّدا
وأطفأتَ عنى نَارَ نُعْمان بعد ما ... أغَذَّ لأمرٍ عاجزٍ وتجرّدَا(٩)
ولما رأى النعمانُ دونى ابن حُرَّةٍ ... طوى الكَشْحَ إذ لم يستطعنى وعَرَّدَا(١٠)
ولاقى امرأً لا يَنقُضُ القومُ عهده ... أمرَّ القُوَى دون الوُشاة، وأحْصَدا(١١)

---

(١) أصعد : سار فى أرض مرتفعة (٢) لك : أراد بها الجلود أو الثياب المصبوغة (٣) أراد بالوحش النساء ، والبازى نفسه (٤) استعبرت : جرت عبرتها ، وأم مالك : امرأة الأخطل (٥) الحدبار : السنة المجدبة ، ويستعار للأمر الصعب (٦) الجرور : البئر البعيدة الغور (٧) الخرساء : الداهية (٨) بلد : لصق بالأرض (٩) النعمان بن بشير ، والإغذاذ : سرعة السير ، وأمر عاجز : شديد يعجز صاحبه (١٠) طوى الكشح : أضمر العداوة ، عرد : هرب (١١) أمر القوى : أحكم فتلها ، وكذلك أحصد .

٥٧ — لو تُرِكَ القطا لنام*

تزوج عبدُ الله بن الزبير[1] أم عمرو ابنة منظور بن زَبَّان الفَزَارِيَّة ، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة : أتَدْرِين مَنْ معك فى حَجَلتك[2] ؟ قالت : نعم ! عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريدُ ؟ قال : معكِ مَنْ أصبحَ فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس .

قالت : أما والله لو أن بَعْضَ بنى عبد مناف حَضَرَكَ لقال لك خلافَ قولك. فغضب وقال : الطعامُ والشرابُ علىّ حرام حتى أُحْضِرَكِ الهاشميين وغيرهم من بنى عبد مناف فلا يستطيعون لذلك إنكاراً .

قالت : إن أطعتنى لم تفعل ، وأنت أعلمُ وشأنك .

فخرج إلى المسجد ، فرأى حَلْقَةً فيها قومٌ من قريش ، منهم عبد الله بن عباس وعبدُ الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابن الزبير: أحِبُّ أن تنطلقُوا معى إلى منزلى ، فقام القومُ جميعاً ، حتى وقفوا على باب بيته . فقال ابن الزبير : ياهــذه ؛ اطرحى عليك سِتْرَك .

---

* ابن أبى الحديد : ٢ — ٥٠١ .

(١) عبد الله بن الزبير : أول مولود فى المدينة بعد الهجرة بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ بعد موت يزيد بن معاوية وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ

(٢) الحجلة : موضع يزين بالثياب والستور .

فلما أخذوا مجالسَهم دعا بالمائدة فتغذّى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنما جمعتُكم لحديثٍ رَدَّتْه علىَّ صاحبةُ الستر ، وزعمتْ أنه لو كان بعضُ بنى عبدمناف حضرنى لمـا أقرَّ لى بما قلت . وقدحضرتُم جميعاً . وأنتَ يابنَ عباس، ماتقول ؟ إنى أخبرتُها أن معها فى خدرها مَنْ أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس ، فردّت علىَّ مقالتى .

فقال ابنُ عباس: أراك قصدتَ قَصْدى ؛ فإن شئتَ أن أقول قلت ، وإن شئتَ أن أكفَّ كففْتُ ، قال : بل قل ، وما عسى أن تقول ؟ ألستَ تعلم أن أبى الزبير حوارىُّ رسول الله ، وأن أمى أسماء بنتُ أبى بكر الصديق ذات النِّطاقَيْنِ ، وأن عمتى خديجــة سيدة نساء العالمين ، وأن صفيّة عمة رسول الله جدّتى وأن عائشة أم المؤمنين خالتى ، فهل تستطيع لهذا إنــكاراً !

قال ابنُ عباس: لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً، وفخراً فاخراً ؛ غير أنك تفاخر مَنْ بفخره فخرتُ ، وبِفَضْله سَموْتُ . قال : وكيفَ ذلك ؟ قال : لأنك لم تَذْكُرْ فخراً إلا برسول الله وآلِه ، وأنا أولى بالفَخْرِ به منك !

قال ابنُ الزبير: لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابنُ عباس: قد أنصف القارةَ[1] من رَاماَها ، نَشدتُكم الله أيها الحاضرون ؛ أعبدُ المطلب أشرفُ أم خويلد فى قريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرفَ فيها أم أسد ؟

---

(١) القارة : قبيلة ، وفى اللسان: زعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى والآخر أسدى ، فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الأسدى : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتنى وأنشد :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا ما فئة نلقاها
نرد أولاها على أخراها

قالوا : بل هاشم ! قال : أفعبد مناف كان أشرفَ أم عبد العُزّى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنَافِرُنى[١] يابْنَ الزبير وقد قضى عليك رسولُ الله لا قَولَ هازلِ

ولو غيرَنا يابن الزّبير فخرته ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

قضى لنا رسولُ الله بالفضل فى قوله : « مَا أفترَقَتْ فِرْقَتَانِ إلّا كُنْتُ فِى خَيْرِ هِمَا » ، فقد فارقناك من بعد قُصَىٍّ[٢] بن كلاب ، أفنحن فى فِرْقة الخير أم لا ؟ إن قلت : نعم خُصِمْتَ[٣] ، وإن قلت : لا كفَرْتَ .

فضحك بعض القوم ؛ فقال ابنُ الزبير : أما والله لولا تحرُّمك[٤] بطعامنا يابن عباس لأعْرَقْتُ جبينك قبل أن تقوم من مجلسك !

قال ابن عباس : ولِمَ ؟ أبباطل ! فالباطل لا يَغلِبُ الحق ، أم بحق ! فالحق لا يخشَى من الباطل .

فقالت المرأة من وراء الستر : إنّى والله قد نهيتُه عن هذا المجلس فأبى إلّا ماترَوْن . فقال ابن عباس : مَهْ أيتها المرأة ، اقنعى ببَعْلك ، فما أعظمَ الخطَر ، وما أكرم الخبر ! .

فأخذ القومُ بيد ابن عباس — وكان قد عمىَ — فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرة ، فنهض وهو يقول :

ألا ياقومَنا ارْتَحِلوا وسيروا فلو تُرِكَ القطا لَغفَا ونَاما

---

(١) تحاكمنى فى الحسب وتفاخرنى (٢) كان من أولاد قصى عبد العزى (ومن سلالته ابن الزبير) وعبد مناف (ومن سلالته بنوهاشم) (٣) خصمت: غلبت (٤) تحرمك : احتماؤك .

فقال ابنُ الزبير : ياصاحبَ القَطَا ؛ أَقْبِل علىَّ ، فما كنتَ لِتَدَعنى حتى أقول ، وايمُ الله لقد عرَف الأقوام أنى سابق غير مسبوق ، وابن حَوارىّ [١] وصدّيق ، مُتَبجِّح [٢] فى الشرف الأنيق ، خيرٌ من طِليق [٣] وابن طليق .

فقال ابنُ عباس : هذا الكلام مردود من امرئٍ حَسُود ، فإن كنت سابقاً فإلَى مَنْ سبقت ؟ وإن كنت فاخراً فبِمَنْ فخرت ؟ فإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا فالفخرُ لك علينا ، وإن كنت إنما أدركتَه بأسرتنا فالفخرُ لنا عليك ، والكَثْكَث [٤] فى فمك ويديك .

وأما ما ذكرت من الطليق ؛ فوالله لقد ابتُلى فصبر ، وأُنعِم عليه فشكر ، وإن كان — والله — وفيّاً كريماً غير ناقض بيعة بعد توكيدها ، ولا مسلم كتيبة بعد التأمّر [٥] عليها .

فقال ابن الزبير : أتعيّر الزبير بالجبن ! والله إنك لتعلَمُ منه خلافَ ذلك .

قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلا أنه فرّ وما كرّ ، وحارب فما صبر ، وبايع فما تمم ، وقطع الرَّحِم ، وأنكر الفضل ، ورام ماليس له بأهل :

وأدركَ منها بعضَ ما كان يرتجى ... وقَصَّر عن جَرْىِ الكرام وبلّدا [٦]
وما كان إلا كالهَجِين أمامه ... عِتَاق [٧] فجاراه العِتَاق فأُجْهِدا

---

(١) الحوارى فى الأصل : كل مبالغ فى نصرة آخر ، وقد لقب الزبير بذلك . والصديق : أبو بكر ، وهو أبو أسماء أم عبد الله بن الزبير (٢) التبجح : الافتخار والتعظم (٣) يعرض بالعباس ابن عبد المطلب ، وقد أسره المسلمون يوم بدر ، وقد أطلقه رسول الله بعد أن أخذ منه الفدية (٤) الكثكث : التراب (٥) يعرض بالزبير وقد بايع على بن أبى طالب ثم نكص (٦) لم يتجه لشىء ، وبخل ولم يجد (٧) العتاق : جمع عتيق وهو الكريم من الخيل ، والهجين : ما ليس عتيقاً

فقال ابن الزبير : لم يَبْقَ يابنى هاشم غير المشاتمة والمُضَاربة . فقال عبد الله ابن الحصين بن الحارث : أقمناه عنك يا بْنَ الزبير ، وتأبى إلا منازَعته ! والله لو نازَعْتَهُ من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسَّغِب [1] الظمآن ، يفتح فاه يستزيدُ من الريح ، فلا يشبع من سَغَب ، ولا يَرْوَى من عَطش ، فقل : إن شئتَ أو فَدَعْ . وانصرف القوم .

---

(١) السغب : الجائع .

٥٨ — مفاخرة ربيعة *

قال عبدُ الملك[1] بن مروان يوماً لجلسائه : خبِّرُونى عن حىّ من أحياءالعرب، فيهم أشدُّ الناس ، وأسْخَى الناس ، وأخطبُ الناس ، وأطوع الناس فى قومه ، وأحلم الناس ، وأحضرُهم جواباً .

قالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ ما نعرفُ هذه القبيلة ، ولكن ينبغى أن تكونَ فى قريش ، قال : لا ، قالوا : فنى حِمْيَر وملوكها ، قال : لا . قالوا : فنى مضر ، قال : لا .

قال مَصْقَلَةُ بنُ رقبة العبدىّ : فهى إذن فى ربيعة ، ونحن هم . قال : نعم . قال جُلَساؤه : ما نعرفُ هذا فى عبد القيس ، إلا أن تخبرَنا به ياأميرَ المؤمنين .

قال : نعم ، أمَّا أشدُّ الناس فحكيم[2] بن جَبَلَة ؛ كان مع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقُطِعَتْ ساقُه ، فضمَّها إليه ، حتى مرَّ به الذى قطعها فرماه بها ، فألقاه عن دابته ، ثم حبا إليه فقتله ، واتَّكأ عليه ؛ فر به الناس ؛ فقالوا : ياحكيم ؛ مَنْ قطع ساقَك ؟ قال : وِسادى هذا ! وأنشأ يقول :

ياساقُ لا تُرَاعى إن مَعِى ذِرَاعى

* أحمِى بها كُرَاعى[3] *

---

* العقد الفريد : ٢ ـ ٢٣٢

(١) عبد الملك بن مروان من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، استعمله معاوية على المدينة ، وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ ، توفى بدمشق سنة ٨٦ هـ (٢) حكيم بن جبلة : صحابى ، اشترك فى الفتنة أيام عثمان ، ولما كان يوم الجمل قاتل مع أصحاب على ، وقتل فى هذه الوقعة سنة ٣٦ هـ
(٣) الكراع : اسم يجمع الخيل والسلاح .

وأما أسْخَى النـاس فعبدُ الله بن سوّار ؛ استعمله معاوية على السِّند ؛ فسار إليها فى أربعة آلاف من الجند ، وكانت تُوقَدُ معه نار حيثما سار فيطعم النـاس ؛ فبينما هو ذات يوم إذ أبْصَرَ ناراً ، فقال : ماهذه ؟ قالوا : أصلح الله الأمير ! اعتلّ بعضُ أصحابنا ، فاشتهى خبيصاً [١] ، فعملنا له ؛ فأمر خبّازَه ألا يطعمَ النـاس إلا الخبيص ، حتى صاحوا ، وقالوا : أصلح اللهُ الأمير ! رُدّنا إلى الخبز واللحم ؛ فسمِّى مُطْعِمَ الخبيص .

وأما أطوعُ الناس فى قومه فالجارُود [٢] بن بشر بن العلاء ؛ لأنه لما قبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدّت العرب ، خطبَ قومه فقال : أيّها الناس ، إن كان محمدٌ قد ماتَ فإن الله حىٌّ لا يموت ؛ فاسْتَمْسِكُوا بدينـكم ، فمن ذهب له فى هـذه الرِّدَّة دينـار أو درهم أو بعيرٌ أو شاة ، فله علىّ مِثْلَاه ؛ فما خالفه منهم رجل .

وأما أحضرُ النـاس جواباً فصعصعةُ بن صُوحان ؛ دخل على معاوية فى وَفْدِ أهْل العراق ؛ فقـال معاوية : مرحباً بـكم يَأَهْلَ العراق ، قدمتم أرضَ اللهِ المقدسة ، منها المَنْشر وإليها المحشر ، قَدِمْتم على خير أميرٍ يَبرُّ كبيرَكم ، ويرحَمَ صغيركم ، ولو أنَّ الناس كلَّهم ولَدُ أبى سفيان لـكانوا حلماء عقلاء .

فأشار الناس إلى صعصعة ؛ فقام ، فحمِدَ اللهَ ، وصلّى على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال : أما قولُك يامعاوية : إنّا قدمنا الأرض المقدسة ؛ فلَعمرى ما الأرض تقدِّس الناس ، ولا يقدِّسُ الناسَ إلا أعمالُهم ، وأما قولُك : منها المَنْشَر وإليها المحشر

---

(١) الخبيص : الطعام من التمر والسمن (٢) هو بشر بن عمرو سيد عبد القيس ، كان شريفاً فى الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم وقتل شهيداً سنة ٢٠ هـ

فلعمرى ما ينفع قُرْبها ولا يضر بُعْدُها مؤمناً . وأما قولُك: لو أن الناس كلُّهم ولدُ أبى سفيان لـكانوا حلماء عقلاء ، فقد ولدهم خيرٌ من أَبى سفيان ، آدم صلوات الله عليه ، فمنهم الحليم والسفيهُ ، والجاهل والعالم .

وأما أحلمُ الناس فإن وفدَ عبد القيس قدموا على النبى صلى الله عليـه وسلم بصدقاتهم ، وفيهم الأشجّ ، ففرّقَها رسول الله ، وهو أول عطاء فرّقه فى أصحابه ، ثم قال : يا أشجّ ، ادْنُ منى ، فدنا منه ، فقال : إن فيك خلَّتين يحبّهما الله : الأناةَ والحلم ، وكفى برسول الله شاهِداً .

٥٩ — أراكَ عالماً بقومِكَ *

رُوِى أن عبد الملك بن مَرْوان لما قَدِمَ الكوفة بعد قتله مُصْعَب بن الزبير جلس لعَرْض أحياء العرب ، فقام إليه مَعْبَدُ بن خالد الجَدَلِيّ - وكان قصيراً دَميماً - فتقدمه إليه رجلٌ حسنُ الهيئة .

قال مَعْبَد : فنظر عبد الملك إلى الرجل وقال : ممَّنْ أنت ؟ فسكت ولم يقل شيئاً - وكان مِنَّا - فقلت مِنْ خَلْفِهِ : نحن يا أمير المؤمنين من جَدِيلة ، فأقبل على الرجل وتركنى وقال : مِن أيّكم ذو الإصبع ؟ قال الرجل : لا أدرى ، قلت : كان عَدْوَانيًّا ، فأقبل على الرجل وتركنى وقال : لِمَ سُمِّىَ ذَا الإصْبَع ؟ قال الرجل : لا أدرى، فقلت : نَهَشَتْهُ حيَّةٌ فى إصبعِه فيَبِسَتْ فأقبل على الرجل وتركنى، ثم قال: وبِمَ كان يُسمَّى قبل ذلك ؟ قال الرجل : لا أدرى ، قلت : كان يسمى حُرْثان ، فأقبل على الرجل وتركنى ، ثم قال : من أىِّ عَدْوَانَ كان ؟ فقلت من خلفه : من بنى ناجٍ ، الذين يقول فيهم الشاعر :

وأمَّا بنو ناجٍ فــلا تَذْكُرَنَّهُمْ ولا تُتْبِعَنْ عَينيكَ ما كان هالــكا
إذا قُلْتُ معروفاً لِأُصلحَ بينهمْ يقول وُهَيْبٌ لا أُسَالِمُ ذَلِــكَا
فأضحى كظهر الفحل جُبَّ سَنَامُهُ يدبُّ إلى الأعــداء أَحْدَبَ باركَا

فأقبل على الرجل وتركنى وقال : أنشدنى قوله : « عَذِيرَ الحىِّ من عَدْوَان » .

---

* الأغانى : ٣ - ٩١ .

قال الرجل : لستُ أرويها ؛ قلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن شئت أنشدتك . قال : ادنُ مني ؛ فإني أراك بقومك عالماً . فأنشدتُه :

وليس المرء فى شىء من الإبرام والنَّقْضِ
إذا أبرم أمراً خا لَهُ يقْضى وما يَقْضِي
يقولُ اليومَ أمْضِيـهِ ولا يملكُ ما يُمْـضى
عذيرَ الحىّ من عَدْوا نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ[1]
بغى بعضُهم بعضاً فلم يُبْقُوا على بعض
فقد صاروا أحاديثَ برَفْعِ القول والخفضِ
ومنهم كانت السادا تُ والموفُونَ بالقَرْضِ
ومنهم حَكَمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي
ومنهم من يُجِيزُ[2] النَّا سَ بالسُّنَّةِ والفَرْضِ
وهم مَنْ وَلَدُوا أشْبَوْا[3] بسرِّ الحسَبِ المَحْضِ
وممن ولدوا عامِـر ذو الطّول وذو العَرْضِ
وهم بَوَّوْا[4] ثَقِيفاً دا رَ لَا ذُلّ ولا خَفْضِ

فأقبل على الرجل وتركنى وقال : كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان . فأقبل على كاتبه وقال : اجعل الألفين لهذا والخسمائة لهذا . فانصرفتُ بها .

(١) يقال : فلان حية الوادى أو الأرض أو البلد : أى داه خبيث .
(٢) كانت إجازة الحج لخزاعة ، ثم انتقلت إلى عدوان ، يقف رئيسهم فى أيام الحج يخطب فى الناس ثم ينفر ويتبعونه بعدذلك (٣) يقال : أشبى فلان إذا ولد له ولد كيس (٤) بوّوا : أنزلوا .

٦٠ — لقد خِفْتُ أَنْ تفخر عليّ*

دخل رجل من بنى سعد على عبد الملكِ بن مروان ، فقال له ممن الرجل؟ قال : من الذين قال لهم الشاعر :

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم حَسِبْتَ الناسَ كلهمُ غضابا

فقال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذينَ يقول فيهم القائل :

يزيدُ بنو سعدٍ على عَدَدِ الحصَى وأثقلُ من وزنِ الجبال حُلُومُها(١)

قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذينَ يقول لهم الشاعر :

ثيابُ بنى عوفٍ طَهَارَى نقيـةٌ وأوجُهُم بيض المَسَافِرِ غُرّانُ(٢)

قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

فلا وأبيك ماظَلَمَتْ قُرَيْعٌ بأن يَبْنُوا المكارمَ حيث شاءوا

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :

قوم هم الأنفُ والأذنابُ غيرهُمُ ومن يُسَوِّى بأنفِ الناقةِ الذّنبا ؟

قال: اجلس لا جلستَ ! والله لقد خفْتُ أن تفخرَ عليّ .

---

* نهاية الأرب : ٣ ـ ٢٠٠

(١) الحلوم : جمع حلم : وهو العقل .

(٢) يقال : رجل أغر الوجه إذا كان أبيض الوجه ، من قوم غر وغران ، والبيت لامرئ القيس (اللسان ـ غرر) .

٦١ — عبد الله بن جعفر والحجاج*

أكْرَه الحجاجُ بن يوسف عبدَ الله بن جعفر على أن زوّجه ابنتَه، فاستأجَلَهُ[١] في نَقْلِها سنة؛ ثم فكّرَ عبدُ الله في الانفكاك منه، فأُلْقِيَ[٢] في روعهِ خالدُ بن يزيد، فكتب إليه يُعلمه ذلك ـ وكان الحجاجُ تزوّجها بإذنِ عبد الملك ـ فورد على خالد كتابه ليلًا، فاستأذنَ من ساعتهِ على عبد الملك. فقيل: أفي هذا الوقت؟ فقال: إنه أمرٌ لا يُؤخّر.

فأُعلِمَ عبدُ الملك بذلك، فأَذِن له. فلما دخل عليه قال له عبد الملك: فيم السُّرَى[٣] يا أبا هاشم؟ قال: أمرٌ جليل لم آمَنْ أن أُؤخِّره، فتحدُثُ عليّ حادثة، فلا أكون قد قضَيْتُ حقّ بَيْعتك. قال: وما هو؟ قال: أتعلمُ أنه ما كان بين حيّيْنِ من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبي سُفيان؟ قال: لا، قال: فإن تزْويجي[٤] إلى آل الزبير أذْهَبَ ما كان لهم في قلبي، فما أهل بيت أحبُّ إليّ منهم.

قال: فإنّ ذلك لَيكون.

قال: فكيف أذِنْتَ للحجّاج أن يتزوّج في بني هاشم، وأنت تعلم ما يقولون ويُقال فيهم؟ والحجّاجُ من سلطانك بحيث علمت! فجزاه خيراً وكتب إلى الحجاج أن يطلّقها.

---

* رغبة الآمل: ٥ ـ ٢٣، الكامل: ١ ـ ٢٠٥

(١) طلب منه أن يؤجله إلى مدة (٢) في روعه: فكر فيه (٣) السرى: السير بالليل (٤) كان خالد قد تزوج رملة بنت الزبير بن العوام.

فطلّقها ، وغدا الناس عليه يُعَزُّونه عنها ؛ فكان ممن أتاه عمرو بن عُتْبَة بن أبى سفيان ، فأوقعَ الحجاجُ بخالد ؛ فقال : كان الأمر لآبائه فعجز عنه حتى انتُزِع منه . فقال له عمرو بن عُتبة : لا تَقُلْ ذا أيُّها الأمير ؛ فإن لخالد قديماً سبق إليه ، وحديثاً لم يُغلَبْ عليه ، ولو طلب الأمر لطَلَبه بِجَدّ وجِدّ ، ولكنه علم عِلْماً ، فسلّم العِلْمَ إلى أهله .

فقال الحجاج : يا آل أبى سفيان ؛ أنتم تُحبُّون أن تَحْلُمُوا ، ولا يكون الحِلْم إلا عن غضب ؛ فنحن نُغْضِبُكم فى العاجل ؛ ابتغاءَ مَرْضاتِكم فى الآجل .

٦٢ — إنها قريش يُقَارِع بعضها بعضاً *

لما قُتِل ابنُ الزبير حَجّ خالد (١) بن يزيد بن معاوية ، فخطب رَمْلَةَ بنت الزبير بن العوام ؛ فأرسل إليه الحجاج حاجبه عبيد الله ، فقال له : ما كنتُ أراكَ تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورنى ! وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء ، وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة ، ورموه بكل قبيحة ، وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة !

فنظر إليه خالد طويلا ، ثم قال له : لولا أنك رسول ـ والرسولُ لا يعاقب ـ لقطعتك إرْباً إرْباً (٢) ، ثم طرحتك على باب صاحبك ؛ قل له : ما كنتُ أرى أن الأمور بلغتْ بك إلى أن أشاورك فى خِطْبة النساء . وأما قولك لى : قارَعُوا أباك ، وشهدوا عليه بكلّ قبيح ، فإنها قريش يقارعُ بعضها بعضاً ؛ فإذا أقرّ الله عز وجل قَرَارَه كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم .

وأما قولك : إنهم ليسوا بأكفاء ، فقاتلك الله يا حجاج ! ما أقلّ علمك بأنساب قريش ! أيكون العوّام كفئا لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية ، ويتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد ، ولا تراهم أهلا لأبى سفيان !

فرجع الحاجب إليه فأعلمه !

* الأغانى : ١٦ ـ ٨٤ ، بلوغ الأرب : ٢ ـ ٦ ،

(١) خالد بن يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان من رجالات قريش سخاء ، وعارضة وفصاحة ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه (٢) إربا إربا : عضوا عضوا .

٦٣ — تَستجيرُ بقبر أبيه*

لما ولّى الحجاجُ تميمَ بن زيد القَينىّ السندَ دخل البصرة فجعل يُخْرِجُ من أهلها مَنْ شاء ؛ فجاءت عجوزٌ إلى الفرزدق (١) فقالت : إنى استجرتُ بقبر أبيك — وأتتَ منه بحصَيات (٢) — فقال لها : وما شأنُك ؟ قالت : إن تميمَ بنَ زيد خرج بابْنٍ لى معه ، ولا قُرّة لعينى ، ولا كاسِبَ لى غيرُه : فقال لها : وما اسم ابنك ؟ فقالت : خُنَيْس .

فكتب إلى تميم بن زيدٍ مع بَعْض من شَخَصَ :

تَميمُ بن زيدٍ لا تكونَنَّ حاجَتى ... بظَهْرٍ ، فلا يَعْيَا علىَّ جوابُها
وَهَبْ لى خُنَيساً واحْتَسِب فيه مِنّةً ... لَعَبْرَةِ أُمٍّ ما يَسُوغُ شرابُها
أتتنِى فعاذَتْ يا تميمُ بِغَالِبٍ (٣) ... و بالُحفْرَةِ السَّافى عليها تُرابُها
وقد علِمَ الأقوامُ أنك ماجِدٌ ... وليثٌ إذا ما الحربُ شُبَّ شِهابُها

فلما وردَ الكتابُ على تميم تشكك فى الاسم ، فقال : أحُبَيْش أم خُنَيْس ؟ انظروا مَنْ له مثلُ هذا الإسم فى عسكرنا . فأصيب ستة ما بين حبيس وخنيس ، فوَجه بهم إليه .

---

* الكامل : ١ — ٢٩١

(١) الفرزدق : شاعر من أهل البصرة ، عظيم الأثر فى اللغة وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر . توفى سنة ١١٠ هـ (٢) الحصى : صغار الحجارة ، الواحدة حصاة . (٣) غالب هو أبو الفرزدق .

٦٤ — الفرزدق والأنصار *

قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبى وقّاص الزُّهرى : قدمَ الفرزدقُ المدينة فى إمارة أبَان بن عثمان ؛ وإنى والفرزدق وكثيّراً لجلوسٌ فى المسجد نتناشد الأشعار ؛ إذ طلع علينا غلام شَخْتٌ (١) آدَمُ فى ثوبيْن مُمصَّرَين (٢) ، ثم قصد نحْوَنا حتى جاء إلينا فلم يسلِّم ، فقال : أيُّكم الفرزدق ؟ فقلت ـ مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ! فقال : لو كان كذلك لم أقل هذا له .

فقال له الفرزق : ومن أنتَ لا أمَّ لك !

قال : رجل من بنى الأنصار ، ثم من بنى النجار ، ثم أنا ابنُ أبى بكر بن حزْم . بلغنى أنك تزعمُ أنك أشعرُ العرب ، وتزعم مُضَرُ ذلك لك ، وقد قال صاحبُنا حسانُ شعراً ، فأردتُ أن أعرِضه عليك وأؤجِّلك سنةً ، فإن قلت مثله فأنتَ أشعرُ العرب ، وإلا فأنت كذابٌ مُنتِحل ، ثم أنشده قول حسان :

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمَعن بالضُّحا ... وأسيافُنا يَقْطُرن من نجْدةٍ دماَ

متى ما تزَرنا من معَدٍّ عصابةٌ ... وغسانَ (٣) نمنعْ حوضنا أن يُهَدَّماَ

أبى فعلُنا المعروفَ أن ننْطِقَ الخنا ... وقائلنا بالعُرْف إلا تَكَلُّما

وَلَدْنا بنى العَنْقاء وابنَى مُحرِّقٍ ... فأكْرِم بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابنَما

وأنشده القصيدة إلى آخرها ، وقال له : إنى قد أجّلتك فيها حولا ، ثم انصرف

---

* الأغانى : ٩ ـ ٣٣٧

(١) الشخت : الدقيق الضامر ، أصلا ، لا هزالا (٢) ممصران : أى مصبوغان بصفرة غير شديد

(٣) وغسان : الواو هاهنا للقسم ، لأن غسان لم تكن تغزوهم مع معد .

وانصرف الفرزدق مُغْضَباً يسحبُ رداءَه ما يدرى أىّ طريق يَسْلُكُ ، حتى خرج من المسجد .

فأقبل كُثيّر علىّ فقال : قاتل الله الأنصارىَ ! ما أفْصَح لهجتَه ، وأوضح حجَّتَه وأجود شعرَه ! ثم لم نزَلْ فى حديث الفرزدق والأنصارى بقيّة يومنا ، حتى إذا كان الغدُ خرجتُ من منزلى إلى مجلسى الذى كنت فيه بالأمس ؛ وأتانى كُثيِّر فجلس معى ؛ فإنَّا لنتذاكر الفرزدق ونقول : ليت شعرِى ما فعل ! إذ طلع علينا فى حُلة أفْوَافٍ[1] يمانيةٍ مُوَشَّاةٍ ، له غديرتان ، حتى جلس فى مجلسه بالأمس ، ثم قال : ما فعلَ الأنصارى ؟ فنِلْنا منه وشَتَمْناه ؛ فقال : قاتله الله ! ما رُمِيتُ بمثله ولا سمعتُ بمثل شعره ؛ فارقتكما فأتيتُ منزلى ، فأقبلتُ أُصَعِّد وأصَوِّب فى كل فنّ من الشعر ، فكأنى مُفْحَم ، أو لم أقل قط شعراً ، حتى نادى المنادى بالفجر ، فرحَلْتُ ناقتى ، ثم أخذت بزمامها ، فقدتُها حتى أتيتُ ذِباباً[2] ، ثم ناديتُ بأعلى صوتى : أخاكم أبا لُبنى ! وجاش صدرى كما يجيش المِرْجل ، ثم عَقَلْتُ ناقتى ، وتوسَّدْتُ ذراعها ، فما قمتُ حتى قلتُ مائة وثلاثة عشر بيتاً .

فبينما هو يُنشدنا ، إذ طلع علينا الأنصارىّ حتى انتهى إلينا فسلم ، ثم قال : أما إنى لم آتك لأعجلك عن الأجل الذى وقّتُّهُ لك ، ولكنى أحببت ألا أراك إلا سألتك عما صنعت ، فقال : اجلس ، ثم أنشده قصيدته :

عزفتَ بأعشَاش[3] وما كدتَ تعزفُ وأنكرتَ من حَدْرَاء ما كنتَ تعرفُ
ولجّ بك الهجران حتى كأنما ترى الموتَ فى البيت الذى كنت تألفُ

---

(١) أفواف : جمع فوف وهو القطن (٢) ذباب : جبل بالمدينة .
(٣) أعشاش : موضع فى بلاد بنى تميم .

ومنها :

لنا العِزّةُ الغَلْبَاء والعــددُ الذى ... عليـه إذا عُدَّ الحصَى يتَحَلَّفُ (١)

ولا عزَّ إلا عِـــــزُّنا قاهرٌ له ... ويَسْأَلُنا النَّصَفَ الذليلُ فيُنْصَفُ (٢)

ومنّا الذى لا ينطقُ الناسُ عنـدهُ ... ولـكن هو المُسْتَأْذَن المُتَنَصَّفُ (٣)

تراهُمْ قعوداً حولَه ، وعيونُهم ... مُـكَسَّرَةٌ أطرافُهـا ما تصَرَّفُ

إذا هبطَ الناسُ المُحَصَّبَ من مِنًى ... عَشِيَّةَ يومِ النحرِ من حيثُ عرَّفُوا (٤)

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنـا ... وإن نحنُ أوْمأْنا إلى الناس وقَّفُوا (٥)

فلما فَرغ الفرزدقُ من إنشاده قام الأنصاريّ كئيباً ، فلما توارى طلع أبُوه فى مَشْيَخة من الأنصار فسلموا علينا وقالوا : ياأبا فِرَاس ؛ قد عَرَفتَ حالَنا ومكاننا من رسول الله ووصيَّتَه بنا ؛ وقد بلَغنا أن سفيهاً من سفهائنا تعرّض لك ، فنسألك بالله لَمَّا حفظت فينا وصيّة رسولَ الله ووهبتَنا له ولم تفضَحْنا . قال إبراهيم : فأقبلت أكلمه أنا وكُثيِّر ، فلما أكثرنا عليه قال : اذهبوا فقد وهبتُكم لهذا القرشىّ .

---

(١) يتحلف : يحلف الناس أنه عدد الحصى .

(٢) النصف هنا : الإنصاف (٣) المتنصف : المطلوب منه الإنصاف (٤) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى . وعرفوا : أى من حيث هبطوا من جبـل عرفات (٥) كان الذى يؤم الناس ويدفع بهم من عرفات فى الجاهلية من تميم ، فيسيرون بسيره ويقفون بوقوفه .

٦٥ — الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك *

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : مَنْ أنت ؟ وتجهّم له كأنه لا يعرفه ، فقال له الفرزدق : أوَ ماتعرفنى ياأميرَ المؤمنين ؟ ! قال : لا ، قال : أنا من قَوْمٍ منهم أوفى العرب ، وأسود العرب ، وأجودُ العرب وأحلمُ العرب ، وأفرسُ العرب ، وأشعرُ العرب .

قال : والله لتبيِّنَنَّ ماقُلْتَ أو لَأُوجعَنَّ ظهرك ولأُهْدِمَنَّ دارك .

قال : نعم ياأمير المؤمنين ، أما أَوْفَى العرب فحاجبُ بن زُرَارة الذى رهن قوسَه عن جميع العرب فوَفَّى بها .

وأما أَسْوَدُ العرب فقيس بن عاصم الذى وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبَسط له رِدَاءه ، وقال : هذا سيدُ الوَبَر .

وأما أحلمُ العرب فعَتَّاب بن وَرَقاء الرِّياحىّ .

وأما أفرس العرب فالحريش ابن عبد الله السَّعْدِى ، وأما أشعر العرب فهأنذا بين يديك ياأمير المؤمنين .

فاغتمَّ سليمانُ مما سمع من فَخْرِه ولم ينكره ، وقال : ارجع على عَقِبيك ،فمالك عندى شىء من خير . فرجع الفرزدق وقال :

أَتَيْنَاكَ لا مِنْ حاجة عَرَضَتْ لنا إليك ، ولا من قلَّةٍ فى مُجَاشِع (١)

---

* العقد الفريد : ٢ ــ ١٩٣

(١) هو مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة من تميم .

٦٦ — البَاهِلىّ *

قال أبو قِلَابَةَ الجَرْمِىُّ : حَجَجْنَا مرةً مع أبى جَزْء بن عمرو بن سعيد ، وكُنا فى ذَرَاه (١) : وهو إذ ذاك بهِىٌّ وَضِىٌّ ؛ فجلسنا فى المسجد الحرام إلى أقوامٍ من بنى الحارث بن كعب ، لم نَرَ أفْصَحَ منهم ؛ فرأوا هيئةَ أبى جَزْء وإعظامَنا إياه ، مع جَمَالِه ؛ فقال قائل منهم : أمِنْ أهْلِ بيت الخليفة أنتَ؟ قال : لا،ولـكن رجلٌ من العرب . قال : مِمَّن الرجل ؟ قال رجـل من مُضَر . قال : أعْرَض ثوبُ المَلْبَس (٢) ! من أيّها عافاك الله ! قال : رجل من قَيْس . قال : أين يُرَاد بك ؟ صِرْ إلى فَصِيلتك التى تُؤْويك . قال : رجل من بنى سعد ، قال : اللهم غَفْراً ! من أيها عافاك الله ؟ قال : رجل من بنى يَعْصُر . قال : من أيها ؟ قال رجل من باهلة . قال : قُمْ عنا .

قال أبو قِلَابة : فأقْبَلْتُ على الحارثىّ فقلت : أتعرفُ هذا ؟ قال : ذكر أنه باهلىٌّ ، فقلت : هذا أمير ابن أمير . . . وعددت خمسة . ثم قلت : هذا أبو جزء ابن عمرو ، وكان أميرا ، ابنِ سعيد ، وكان أميراً : ابنِ سلم ، وكان أميراً ، ابنِ قتيبة وكان أميراً .

---

* الـكامل : ٢ — ٢٤

(١) ذراه : كنفه (٢) الملبس : ثوب اللبس ، يريد اتسع وسار عريضاً ، وهو مثل يضرب حين يقال للرجل : ممن أنت ؟ فيقول : من مضر أو ربيعة أو اليمن ولم يخص ، أى عممت ولم تخص

فقال الحارثىّ : الأمير أعظمُ أم الخليفة ؟ فقلت : بل الخليفة . قال : أفالخليفة أعظم أم النبي ؟ قلت : بل النبيّ . قال : والله لو عددتَ له فى النُّبوَّةِ أضعافَ ما عدَدْتَ له فى الإمَارةِ ، ثم كان باهِليًّا ما عَبَأَ[1] الله به شيئاً .

فكادت نَفْسُ أبِى جَزْء تخرجُ ؛ فقلت : انْهَض بنا ، فإن هؤلاء أسْوأُ الناس آداباً .

(١) ما عبأ الله به شيئاً : يريد : لم يكن له قدر عنده .

٦٧ — كُلْثوم العتابيّ *

كان أَخَوَان من قيس يَخْفُرَان قرية بالجزيرة ، فطال مقامهما بها حتى أَثْرَيا ، فحسدهما قوم من ربيعة؛ وقالوا : يَخْفُرَان هذه الضياع فى بلدنا ! وجمعوا لهما جمعاً ، وساروا إليهما ، فقاتلوهما حتى قُتِل أَحَدُهما ؛ وعلى الجزيرة يومئـذٍ عبد الملك بن صالح الهاشمي(١) ، فشكا القَيسىُّ أمرَه إلى وجوه قيس ، وعرّفهم قتلَ ربيعة أخاه .

فقالوا له : إذا جلس الأميرُ فادخل إليه ، ففعل ذلك ، ودخل على عبد الملك وشكا إليه ما لِحَقه ، ثم قال له : وحسْبُ الأمير أنهم لما قتلوا أخى وأخذوا مالى قال قائل منهم :

لا يحوزَنَّ أمرنَا مُضَرىٌّ   بخفيرٍ ولا بـغير خفيرِ

فقال عبد الملك : أَتَنْدُبنى(٢) إلى العصبية ! وزَبَره(٣) .

فخرج الرجل مغموماً ، وشكا ذلك إلى وُجُوه قَيْس ، فقالوا : لا تُرَعْ ، فو الله لقد قذفتها فى سُوَيداء قلبه ، فعاوِدْهُ .

فعاوده فى المجلس الآخر فزَبره ، وقال له قـولَه الأوّل ، فقال له : إنّى لم آتك أَنْدُبك للعصبيّة ، وإنما جئتك مستعدِياً(٤) . فقال له : حدّثنى كيف فعل القوم ؟ فحدّثه وأنشده فغضب ، وقال : كذبت لعمرى ليحوزَنّ .

* الأغانى : ١٢ — ٨

(١) عبد الملك بن صالح : أمير من بنى العباس ، تولى الموصل ، ثم المدينة ، وبلغ الرشيد أنه يطلب الخلافة فحبسه ، وتوفى سنة ١٩٦ هـ (٢) ندبه لأمر : دعاه إليه (٣) زبره : زجره وانتهره (٤) استعديت الأمير : استعنت به .

ثم دعا أحد قوّاده، وقال له : اخرج ، وجرِّد السيف فى ربيعة . فخرج وقتل منها مَقْتلة عظيمة ، فقال كلثوم بن عمرو العتّابىّ — وهو من ربيعة — قصيدة فيها :

هَذِى يمينك فى قُرْبَاكَ صائلةٌ وصارم من سيوف الهند مشهورُ
إن كان منا ذَوُو إفك ومارقةٌ(١) وعُصْبَةٌ دينُها العُدْوَان والزُّورُ
فإنّ منّا(٢) الذى لايستحثّ إذا حُثَّ الجياد وضمّها المضاميرُ(٣)
مستنبط عزمات القلب من فِكَرٍ ما بينهن وبين الله معمُورُ

وبلغت القصيدة عبدَ الملك ، فأمر قائده بالكفّ عنهم .

ولما قدم الرشيد الرّافِقة(٤) أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال: لِمَنْ هذه ؟ فقال : لرجل من بنى عتّاب يقال له : كُلْثوم بن عمرو ، فقال : وما يمنعه أن يكون ببابنا ؟ وأمر بإشخاصه من رَأْس عَيْن(٥) .

فوافَى الرشيدَ ، وعليه قميص غليظ وفَرْوَة وخُفّ ، وعلى كتفه مِلْحَفَةٌ جافية ؛ فلما رُفِع الخبرُ بقدومه أمر الرشيد بأن تُفْرَش له حجرة ، وتقام له وظيفة ؛ ففعلوا ، فكانت المائدة إذا قُدِّمت إليه أخذ منها رقاقةً وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكله بها ، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض ، والخدمُ يتعجبون من فعله ، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره ، فأمر بطَرْدِه .

فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلىّ وهو فى منزله ، فسلّم عليه ، وانتسب له ، فرحّب به وقال له : ارتفع ، فقال : لم آتك للجلوس ، قال : فما حاجتك ؟ قال :

---

(١) الإفك : الكذب ، والمارقة : الخارجون (٢) يشير إلى عبد الله بن هشام بن بسطام التغلبى وكان أحد قوادهم (٣) المضمار : الموضع الذى تضمر فيه الخيل (٤) بلدة على الفرات بناها المنصور (٥) الجزيرة .

دابّة أبلغُ عليها إلى رأس عَيْن ، فقال : يا غلام ! أَعْطِه الفرس الفلانىّ ، فقال : لا حاجة لى فى ذلك ، ولكن تأمر أن تُشترَى لى دابة أتبلغ عليها ، فقال لغلامه : امض معه ، فابتعْ له ما يريد . فمضى معه ، فعدل به العتّابى إلى سوق الحمير ، فقال له : إنما أمرنى أن أبتاع لك دابة ، فقال كلثوم : إنه أرسلك معى ولم يُرْسِلنى معك فإن عملت ما أريد وإلا فانصرف . فمضى معه ، فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً وقال : ادفع ثمنه ، فدفعه . فركب الحمار بمرْشَحَة[1] عليه و برِذْعة، وساقاه مكشوفتان .

فقال له يحيى بن سعيد : فضَحْتَنى ، أَمِثْلى يَحْمِلُ مثلك على هذا ! فضحك وقال : ما رأيتُ قَدْرَك يستوجب أكثرَ من ذلك . ومضى إلى رأس عين ، وكانت تحته امرأةٌ من باَهِلَة ، فلامته وقالت : هذا منصور النمرىّ قد أخذ الأموال فحلّي نساءه ، وبنى داره ، واشترى ضِياَعاً ، وأنت هنا كما ترى ؛ فأنشأ يقول :

تلومُ على تَرْكِ الغِنَى باهليّـةٌ	ذَوِى الفقرُ عنها كل طِرْف وتالدِ[2]
رَأَتْ حولها النِّسْوان يرفُلْن فى الثرى[3]	مقـلدة أعناقُها بالقـلائدِ
أَسرّكِ أنى نِلْتُ ما نال جعفرٌ[4]	من العيش،أو ما نال يحيى بنُ خالدِ !
وأن أميرَ المؤمنين أغَصَّنى	مَغَصَّهما بالمُرْهَفَات البوارد
رأيتُ رَفِيعات الأمـور مَشُوبةً	بمستودَعَاتٍ فى بطونِ الأَسَاود
دعينى تَجِئْنى ميتتى مطمئنةً	ولم أتجشمْ هَوْلَ تلك المَوَارِدِ !

---

(١) المرشحة : مايوضع تحت الميثرة ، والميثرة : هنة تتخذ للسرج .
(٢) الطرف هنا : الحديث من المال ، والتالد : غير الحديث من المال .
(٣) الثراء (٤) جعفر البرمكى .

البَابُ الثّالِثُ

في القصص التي تَنْقُل ما كانوا يتفكّهون به من أَسْمار ومُطَايَبَات ، ومُنَاقَذَات وأُفَاكِيه ، مما نال به المحدِّثُونِ والندماء سَنِيَّ الجوائز والخِلَع من الخلفاء والوزراء ، وما ارتفعت به مكانَتُهُم عند السَّادةِ والوُجُوه في المجتمعات والمُنتَدَيات .

٦٨ — يبيع اسمه*

لقى تأبّط شرًّا(١) رجلاً من ثقيف يقال له أبو وهب ، وكان جبانًا أهوج(٢) ، وعليه حلةٌ جيدة ، فقال أبو وهب لتأبط شرا : بم تغلبُ الرجال ياثابت وأنت - كما أرى - دميمٌ ضئيل ؟ قال : باسمى ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبّط شرا ، فيُخْلَع قلبُه حتى أنال منه ما أردتُ .

فقال له الثقفىّ : أَ قَط(٣) ؟ قال : قَطّ ، قال : فهل لك أن تبيعَنى اسمَك ؟ قال : نعم ، قال : فمَ تَبْتَاعُه ؟ قال : بهذه الحُلّة و بكُنْيتى . قال له : أفعل . ففعل ، وقال تأبط شرا : لك اسمى ولى كنيتك ، وأخذ حُلته ، وأعطاه طِمْرَيْه(٤) ، ثم انصرف .

وقال فى ذلك يخاطب زوجة الثّقفى :

ألا هَلْ أتى الحسناء أن حايلَها ... تأبط شرًّا واكتنيتُ أبا وَهْبِ
فهبْه تسمّي اسمى وسُمّيت باسمه ... فأيْن له صَبْرى عَلَى مُعْظَمَ الخطبِ !
وأين له بأسٌ كبأسى وسَوْرَتى ... وأين له فى كل فادِحَةٍ قَلْبى !

---

* مهذب الأغانى : ١ - ٢١٦

(١) هو ثابت بن جابر ، كان أسمع العرب وأبصرهم وأكيدهم ، اشتهر بالعدو والغزو ، توفى نحو سنة ٨٠ ق ٠ هـ (٢) الهوج : الطول فى حمق وطيش وتسرع (٣) أقط : أحسب

(٤) الطمر : الكساء البالى .

٦٩ – أنا كنتُ أَوْلى بهذا الشعر من أبيك*

حجَّ معاوية حِجَّتَين(١) فى خلافته ، وكانت له ثلاثون بَغْلةً يحُجُّ عليها نساؤُه وجواريه ؛ فحج فى إحداها ، فرأى شيخاً يصلى فى المسجد الحرام ، عليه ثوبان أبيضان ؛ فقال : من هذا ؟ قالوا : سَعْيَة بن غَرِيض – وكان من اليهود .

فأرسل إليه يَدْعوه ، فأتاه رسولُه ، فقال : أجِبْ أمير المؤمنين . قال : أوَليس قد مات أميرُ المؤمنين ؟ قيل : فأجب معاوية : فأتاه فلم يسلِّم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : مافعلتْ أرضُك التى بتَيْماء ؟ قال : يُكْسَى منها العارِى ، ويُرَدُّ فَضْلُها على الجار . قال : أَفتبيعُها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بستين ألف دينار ، ولولا خَلَّةٌ(٢) أصابت الحىّ لم أبعْها . قال : لقد أغْلَيْت(٣) ! قال : أمَا لو كانت لبعض أصحابك لأخذتَها بستمائة ألف دينار ، ثم لم تُبَالِ : قال : أجل ، وإذ بخلتَ بأرضك فأنشدنى شعر أبيك يَرْثى به نفسَه فقال : قال أبى :

يا ليتَ شِعرى حين أُنْدَبُ هالكاً … ماذا تؤبِّنُنى به أَنْوَاحِى(٤) !

أيقُلْن : لا تبعَدْ ، فربَّ كريهةٍ … فرَّجتُها بشجاعةٍ وسَماحِ

ولقد ضربتُ بِفَضْلِ مالى حقَّهُ … عند الشتاء وهَبَّةِ الأَرْواح(٥)

ولقد أخذتُ الحقَّ غيرَ مخاصمٍ … ولقد رددتُ الحق غيرَ مُلاَحِى(٦)

وإذا دُعيت لصَعْبةٍ سهَّلتُها … أُدْعَى بأفلحْ مرةً ، ونجاح

---

* الأغانى : ٣ – ١٣٠

(١) الحجة : المرة من الحج ، وهى من الشواذ ، لأن القياس الفتح (٢) الخلة : الحاجة والفقر (٣) جعلتها غالية (٤) الأنواح : النائحات (٥) الأرواح : الرياح (٦) الملاحاة : المنازعة .

فقال : أنا كنتُ بهذا الشعر أَوْلَى من أبيك . قال : كذبتَ ولؤُمْتَ ! قال: أما كذَبْتُ فنعَمْ ، وأما لؤُمْتُ فَلِمَ ؟ قال : لأنك كنت مَيِّتَ الحقِّ فى الجاهلية ومَيِّتَهُ فى الإسلام ؛ أما فى الجاهليّة فقاتلتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والوَحْيَ حتى جَعَلَ الله عزّ وجلّ كَيْدَكَ المردود . وأما فى الإسلام فمنعتَ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة ، وما أنت وهى ، وأنت طَلِيق ابن طليق [1] ! فقال معاوية : قد خَرِف [2] الشيخ فأقيموه ؛ فأخِذ بيده فأُقِيم .

---

(١) الطليق : الأسير الذى أطلق عنه إساره ، وهو يريد أنه من الطلقاء الذين حاربوا النبىوآذوه فلما غلبهم عام الفتح خطبهم فقال : يامعشر قريش ؛ ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(٢) خرف : فسد عقله من الكبر .

٧٠ — عبد الرحمن بن الحكم يترضّى زياداً *

دخل بنو أميّة ، وفيهم عبد الرحمن بن الحكم ، على معاوية ، عندما استلحق زياداً ، فقال له عبدُ الرحمن : يا معاويةُ ؛ لو لم تجدْ إلا الزَّنج (١) لاستكثرتَ بهم علينا قِلّةً وذِلّةً — يعنى عَلَى بنى أبى العاص .

فأقبلَ معاويةُ على مَرْوان ، وقال : أَخْرِجْ عنا هذا الخَلِيع (٢). فقال مَرْوان: إى والله إنه لخليع ما يطاقُ ، فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمتَ أنه يطاق ؛ ألم يبلغنى شعرُه فىّ وفى زياد ! ؟ فقال مروان : أَسْمِعْنِيه فأنشد :

ألا أَبْلغْ معاويةَ بن حرب ... لقد ضاقتْ بما يَأْتِى اليدان

ثم قال : والله لا أَرْضَى عنه حتى يأتىَ زيادا ، فيترضّاه ويعتذرَ إليه .

فجاء عبد الرحمن بن الحكم إلى زياد معتذراً يستأذنُ عليه ، فلم يأذنْ له .

فأقبلتْ قريشٌ تكلّمهُ فى أمر عبد الرحمن ، فلما دخل سلّم فتشاوس (٣) إليه زياد بعينيه ، ثم قال : أنتَ القائلُ ما قلتَ ؟ قال عبد الرحمن : ما الذى قلت ؟ قال : قلتَ مالا يقال ، قال : أصلح الله الأمير ! إنه لا ذنبَ لمن أعتبَ (٤) ، وإنما الصَّفْحُ عمّن أذنب ، فاسمع منى ما أقول . قال : هاتِ ، فأنشده :

إليك أبا المغيرة تبتُ مما ... جرى بالشام من خَطَلِ (٥) اللسانِ

---

* ابن أبى الحديد : ٤ — ٧١

(١) الزنج والزنوج : جيل من السودان (٢) الخليع : الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيبرءون منه ومن جناياته ، والخليع أيضاً : المستهتر بالشرب واللهو والملازم للقمار (٣) التشاوس: أن ينظر إليه بمؤخر عينيه ويميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها (٤) أعتب : الإعتاب رجوع المعتوب عليه إلى مايرضى العاتب (٥) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب .

وأغضبتُ الخليفـــةَ فيك حتى	دعاه فَرْط غيــظٍ أنْ هجـانى
وقلت لمن َلحَانى [١] فى اعتذارى :	إليـك اذهب فشأنُك غـيرُ شانى
عرفتُ الحقّ بعـد ضلالِ رأيى	وبعـد الغىِّ من زَيْغ ِالجَنَانِ [٢]
زيادٌ من أبى سفيان غُصْنٌ	تهـــادى ناضراً بين الجِنَانِ [٣]
أراك أخاً وعمًّا وابنَ عمٍّ	فمـــا أدرى بعيبٍ ما ترانى
وإن زيادة فى آل حرب	أحَبُّ إلىَّ من وُسْطَى بنـانِى
ألا أبلــــغ معاوية بن حرب	فقـد ظَفِرت بمـا تأتى اليـدان

فقال زياد : قد سمعنا شعرك ، وقبلنا عذرك ، فهات حاجتك . قال : تـكتبُ إلى أمير المؤمنين بالرّضا عنى . قال : نعم ، ثم دعا بكاتبه فـكتب له بالرضا عنـه . فأخذ كتابَه ومضى حتى دخلَ على معاوية ، فلما قرأه ، قال : لحا الله [٤] زياداً ! لم يتنبه لقوله : «وإن زيادة فى آل حرب» .

ثم رضى عن عبدِ الرحمن ، وردَّه إلى حاله .

---

(١) لحانى : لامنى وعنفنى (٢) الجنان : القلب (٣) جمع جنة (٤) لحاه الله : أهلكه ولعنه.

٧١ — أتاكم غريبُ الدّارِ مظلوم *

استعمل عُتْبَةُ بن أبى سفيان رجلاً من آله على الطائف ، فظلم رجلا من أزْدِشَنوءَةَ ، فأتى الأزدىُّ عتبة ، فمثل بين يديه ، فقال :

أَمَرْتَ من كان مظلوماً لِيَأتيكُمْ   فقد أتاكم غريبُ الدارِ مظلومُ !

ثم ذكر ظُلامته ؛ فقال له عتبة : إنى أراك أعرابيًّا جافياً ، والله ما أحْسِبُكَ تدرى كم تُصَلِّى فى كلِّ يومٍ وليلة : فقال : أرأيتَ إن أنبأْتُكَ ذلك أتَجْعَلُ لى عليك مَسْأَلَةً ! قال : نعم ، فقال الأعرابى :

إنّ الصلاةَ أربعٌ وأَرْبَعُ   ثم ثلاثٌ بعدهُنَّ أرْبعُ

* ثم صلاةُ الفَجْرِ لا تُضَيَّعُ *

فقال : صدقتَ . فاسأل ، فقال : كم فَقَارُ [١] ظَهْرِك ؟ فقال : لا أدرى، فقال : أفتحكمُ بين الناس ، وأنتَ تجهلُ هذا من نفسك ! قال : ردُّوا عليه غُنَيْمَتَه [٢] .

* الكامل للمبرد : ١ — ٢٠٩

(١) الفقار : جمع فقارة ، وهى أيضاً الفقرة (٢) الغنيمة : تصغير غنم ، قال فى اللسان : إذا صغرتها أدخلت عليها التاء لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين وصغرتها فالتأنيث لها لازم .

٧٢ — أَرَى فيك موضعاً للصنيعة *

أخذ مُصْعَبُ [١] بنُ الزُّبير رجلا من أصحاب المختار ، فأمر بضرب عنقه فقال : أيها الأمير ؛ ما أقبحَ بك أن أقومَ يوم القيامة إلى صورتِكَ هذه الحسنة ووجهِك هذا الذى يُسْتَضَاء به ، فأتعلَّق بأطرافك وأقول : أى ربِّ ؛ سَلْ مصعباً فيم قَتَلنى ؟ قال : أطلقوه .

قال : اجعلْ ما وهبتَ لى من حياتى فى خَفْض . قال : أعْطوه مائة ألف . قال : بأبى أنتَ وأمى ، أشْهِد الله أنّ لابن قيس الرُّقَيّات منها خمسين ألفاً . قال : ولِمَ ؟ قال : لقوله فيك :

إنما مُصْعَبٌ شهاب من الله — هِ تجلّتْ عن وجهه الظَّلْمَاء

مُلْكُهُ مُلْكُ رحمةٍ ليس فيه — جَبَرُوتٌ يُخْشَى ولا كبرياء

يَتَّقِى اللهَ فى الأمور وقد أفْـ — ـلح مَنْ كان همُّه الاتِّقَاء

فضحك مُصْعَب ، وقال : أرى فيك موضعاً للصنيعة . وأمره بلزومه ، وأحْسن إليه ، فلم يزل معه حتى قتل .

---

* عيون الأخبار : ١ : ١٠٣

(١) أحد الولاة الأبطال فى صدر الإسلام ، ولاه أخوه عبدالله البصرة ، ثم أضاف إليه الكوفة فأحسن السياسة ، وأجرى العدل ، خرج عبد الملك بن مروان لقتاله ، ثم قتل وحمل رأسه إليه سنة ٧١ هـ.

٧٣ — الرُّقية *

دخل عبدُ الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان [١] ، فوجده يتأوّه ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ لو أدخلْتَ عليك من يُؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت ! فقال : لستُ بصاحبِ لهو ، فقال: ما الذى تشكوه ياأمير المؤمنين؟ قال: هَاجَ بى النَّسَا [٢] ليلتى هذه ؛ فبلغ منى ماتراه .

فقال : إنّ بُدَيحاً مولاى أَرْقى [٣] الخلْقِ منه . فأمر بإحضاره .

فلما مثَل [٤] بين يَدَيْه قال عبد الملك : يابُدَيْح ، ارْقِ رجلى ، فقال : يامولاى ؛ أنا أَرْقَى الناس لها . ثم وضع يدَه عليها ، وجعل يقول مالا يُسْمَع ، فقال عبد الملك : قد وجدْتُ راحةً بهذه الرُّقْية ؛ أين فلانة ؟ ائتونى بها تكتبها ؛ لئلا يهيجَ بى الوجعُ بالليل .

فقال بديح : يميناً ؛ ما أكتُبها إلا بتعجيل جائزتى ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال : ياأمير المؤمنين ، يميناً ، ما أكتبُها حتى تُحْمَلَ جائزتى إلى بيتى . قال : تُحْمَل . فحُمِلَتْ .

---

* المستطرف : ٢ — ٢٣٢

(١) من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ فى المدينة ، واستعمله معاوية عليها ، وانتقلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٨٦ هـ (٢) النسا عرق من الورك إلى الكعب ، ولا يقال : عرق النسا لأن الشىء لا يضاف إلى نفسه (٣) يقال : رقى الراقى رقية ، إذا عوذ ونفث .

(٤) مثل : وقف .

فقال : ياأمير المؤمنين : يميناً مارقيتُ رجلَك إلا مباسطة بقول نصيب :

ألا إنَّ ليـــلى العامريةَ أصبحتْ   على البعد منى ذَنْبَ غـيرىَ تَنْقِمُ

فقال : ويلك ، ما تقول ! قال : مارقَيْتُكَ إلا بهـا ، فقـال : اكتُمْها علىّ ، فقال : كيف وقد سارت بها الرُّكْبان إلى أخيك بمصر ! فضحك حتى فَحَص الأرضَ برجليه .

٧٤ — ظَرْف عُبّاد الحجاز *

قال عبدُ الله بن عمر العمريّ : خرجتُ حاجًّا ، فرأيتُ امرأةً جميلة تتكلم بكلام أرْفَثت (١) فيه ، فأَدْنَيْتُ ناقتى منها ، ثم قلتُ لها : ياأَمَةَ الله، ألستِ حاجّةً! أما تخافين الله ؟ فَسَفَرَتْ عن وجه يَبْهَر الشمس حسناً ، ثم قالت : تأَمَّلْ ياعمّ فإننى ممن عَنَاهُ العَرْجِى (٢) بقوله :

أَمَاطَتْ كِساَء الخزِّ عَنْ حرِّ وَجهِهاَ ... وأَدْنَتْ على الخدَّين بُرْداً مُهَلْهَلَا

من اللّاء لم يَحْجُجْنَ يَبْغِين حِسْبَةً (٣) ... ولكِنْ لِيَقْتُلْنَ الْبَرِىء المُغَفَّلَا (٤)

فقلت لها : فإنى أسأل الله ألاَّ يُعَذِّب هذا الوجه بالنار .

و بلغ ذلك سعيد بن المسيِّب (٥) فقال : أما والله لو كان من بعض بُغَضَاء العراق لقال لها : اعزُبى قبَّحَكِ (٦) الله ! ولكنه ظَرْفُ عبّاد الحجاز .

---

* الأغانى : ١ — ٤٠٣ .

(١) أرفثت : تكلمت بفاحش القول (٢) هو عبد الله بن عمر، شاعر غزل ينحو نحو عمر بن أبى ربيعة ، وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء ، ولقب بالعرجى لسكناه قرية العرج فى الطائف (٣) الحسبة : الأجر (٤) المغفل: الذى لا فطنة له (٥) سعيد بن المسيب ، سيد التابعين ، جمع بين الحديث والفقه ، توفى سنة ٩٤ هـ . (٦) قبحه الله : نحاه عن الخير .

٧٥ — جرير وجارية الحجاج *

نزل جريرٌ على عَنْبَسَةَ [(١)] بن سعيد بوَاسِط ، ولم يكن أحدٌ يدخلها إلا بإذن الحجَّاج ، فلما دخل على عَنْبَسَةَ ، قال له : وَيْحَك ! لَقَدْ غرّرت بنفسك ، فما حملك على ما فعلت ؟ قال : شِعْرٌ قلته اعْتَلَجَ فى صدرى ، وجاشَتْ به نفسى ، وأحببتُ أن يسمعه الأمير . فمنّنه وأدخله بيتاً فى جانب داره ، وقال : لا تُطْلِعَنَّ رأسك حتى ننظرَ كيف تكونُ الحيلةُ لك .

ولم يلبث أن أتاه رسولُ الحجاج من ساعته يدعوه فى يوم قائظ ، وهو قاعد فى الخضْرَاء [(٢)] ، وقد صُبَّ فيهـا ماء استَنْقَع [(٣)] فى أسفلها ، وهو قاعد على سرير ، وكرسىٌ موضوعٌ ناحية .

قال عنبسة : فقعدتُ على الكرسىّ ، وأقبل على الحجا يحدّثنى ، فلما رأيتُ تطَلُّقه وطيبَ نفسه قلتُ : أصلح الله الأميرَ ! رجل من شعراء العرب قال فيك شِعْراً أجاد فيه ، فاستخفّه عَجَبُه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك ، ودخل مدينتك من غير أن يُسْتَأْذن له .قال: ومَن هو ؟ قلت : ابنُ الخطفَى . قال : وأين ؟ قلت : فى المنزل . قال : يا غلام ، فأقبل الغِلْمَانُ يتسارعون . قال : صفْ لهم موْضعه من دارك ؛ فوصفت لهم البيتَ الذى هو فيه .

---

* الأغانى : ٨ — ٧٥ ، الكامل : ١ — ٣١٢ .

(١) هو عنبسة بن سعيد بن العاص أحد أشراف بنى أمية ، حبسه عبد الملك بن مروان يوم قتل أخيه عمرو بن سعيد الأشدق (٢) الخضراء : يراد بها خضراء واسط ، وتعرف بالقبة الخضراء بناها الحجاج مع قصره فى هذه المدينة (٣) استنقع الماء : اجتمع .

فانطلقوا حتى جاءوا به ، فأُدْخل عليه وهو مأخوذ بضَبْعَيْه[١] حتى رُمِى به فى الَخضْراء ، فوقع على وجهه فى الماء ، ثم قام يَتَنَفَّشُ كما يتنفَّش[٢] الفَرْخُ . فقال له : هيه ! ما أقدمَك علينا بغير إذننا ؟ لا أمَّ لك ! قال : أَصْلَحَ اللهُ الأمير ! قلتُ فى الأمير شعراً لم يقل مثلَه أحدٌ ؛ فجاشَ به صَدْرى ، وأحببت أن يسمعه منى الأميرُ ؛ فأقبلتُ به إليه .

فتَطَلَّق الحجَّاجُ وسكَن ، واستنشده ، فأنشَده، ثم قال : ياغلام ، فجاءوا يَسْعَوْن. فقال : علىَّ بالجارية التى بَعث بها إلينا عاملُ اليمامة ؛ فأُتِى بجاريةٍ بيضاءَ مَدِيدةِ القامةِ . فقال : إن أصبْتَ صِفَتَها فهى لك . فقال : ليس لى أن أقولَ فيها وهى جاريةُ الأمير. فقال : بلى ، فتأمَّلْها واسألها ؛ فقال لها : ما اسمكِ ؟ فأمسكت . فقال لها الحجاج : خَبِّريه ، فقالت : أمامة ، فأنشأ :

وَدِّع أمامةَ حانَ منك رَحيل ... إنَّ الوداعَ لمن تُحِبُّ قليلُ
مثلُ الكَثِيبِ تمايلَتْ أعطافهُ ... فالريح تَجْبُرُ متنَه وتَهِيلُ
هَذِى القلوب صواديًا تَيَّمْتِهَا ... وأرى الشفاء وما إليه سبيلُ

فقال الحجاج : قد جعل اللهُ لكَ السبيل إليها ، فخُذْها فهى لك .

فضرب بيده إلى يَدِها ، فتمنَّعت عليه ، فقال :

إن كان طِبُّكم[٣] الدلالُ فإنه ... حسنٌ دلالُكِ يا أُمامَ جميل

فاستَضْحَكَ الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة .

وكانت من أهل الرىّ ، وكان إخوتها أحراراً ، فاتبعوه ، فأعطوْه بها حتى بلغوا عشرين ألفا فلم يقبل ، ففى ذلك يقول :

---

(١) الضبع : العضد كلها أو وسطها بلحمها (٢) تنفش الطائر : نفض ريشه (٣) الطب : المذهب ، والدلال : الدالة .

إذا عرضوا عشرين ألفاً تعرّضت لأُمٍّ حكيم حاجةٌ هى ماهِيـــاَ
لقد زدْتِ أهلَ الرِّىِّ عندى مودَّة وحبَّبْتِ أضْعافاً إلىَّ المَوَاليـــاَ

فأولدها حكيماً و بِلالاً وحرْزَه بنيه .

٧٦ — أرادت عرَاراً بالهوان*

لمـا أخذ الحجاجُ رأس ابن الأشعث وجَّهَ به إلى عبد الملك بن مروان ، مع عَرَار[١] بن عمرو بن شأسٍ الأَسدى ، وكان أسودَ دميماً ؛ فلما وردت به عليه جعل عبدُ الملك لا يسألُ عن شىء من أَمْرِ الوقيعة[٢] إلا أنبأه به عَرَار ، فى أصحّ لَفْظ ، وأشْبَع قولٍ ، وأجْزأ اختصار .

فشفاه من الخبر ، وملأ أُذنه صواباً ، وعبدُ الملك لا يعرفه ، وقد اقْتحَمَتْه[٣] عينُه حين رآه ، فقال عبد الملك مُتَمَثِّلاً :

أرَادَتْ عَرَاراً بالهَوَان ومن يُرِدْ لَعمرى عَراراً بالهوَانِ فقــد ظَلَمْ
و إنّ عَراراً إن يكُنْ غير واضِـحٍ فإنى أُحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنْـكِبِ العَمَمْ[٤]

فقال له عرَار : أتعرفُنى ياأمير المؤمنين ؟ قال : لا ! قال : فأنا والله عَرارٌ ، فزاد فى سروره ، وأَضْعَف له الجائزة .

---

* الـكامل : ١ ــ ١٦٠

(١) ضبطه صاحب اللسان (مادة عرر) بالفتح ، ولما أورد البيت الثانى من البيتين الواردين فى القصة ضبطه بالـكسر (٢) الوقيعة : الواقعة (٣) اقتحمته : احتقرته (٤) منكب عمم : طويل .

٧٧ — قــــد نجوت*

خرج العَدِيل[١] بن الفرخ يريدُ الحجَّاج[٢] ، فلما صار ببابه حجبَه الحاجب فَوَثَبَ عليه العَدِيلُ ، وقال : إنه لنْ يدخلَ على الأمير — بعد رجالات قريش — مَنْ هو أكبرُ منّى ولا أولى بهذا الباب ؛ فنازَعه الحاجبُ الكلامَ ، فأحْفظه[٣] ، وانصرف العديلُ عن باب الحجاجِ إلى يزيد بن المهلّب ، فلما دخل إليه أنشأ يقول :

لئن أَرْتَجَ الْحَجّاجُ بالبخل بابَه ... فبابُ الفتى الأَزْدِى بالعُرْفِ يُفْتَحُ

فتًى لا يُبالى الدهرَ ماقلَّ ماله ... إذا جُعِلَتْ أيدى المكارم تَسْنَحُ

يَدَاهُ يد بالعُرْف تنهب ماحَوَتْ ... وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ

إذا ما أتاه المُرْمِلُون[٤] تيقَّنُوا ... بأنَّ الغِنى فيهم وَشِيكاً سيسْرَح

أقام على العافِينَ[٥] حرَّاسَ بابه ... ينادونهم ، والحُرُّ بالحرِّ يَفْرَحُ

هلُمّوا إلى سيْبِ الأمير وعُرْفِه ... فإن عطاياه على الناس تنفَحُ

فقال له يزيد : عرَّضتَ بنا وخاطرتَ بدمك ، وبالله لا يصل إليك وأنت فى حيّزى ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم ، وأمر له بأفراس ، وقال له : الحق بعلياء نَجْد ، واحْذَر أن تعلقك حبائلُ الحجاج ، أو تَحْتَجِنَك[٦] مَحاجِنُه ، وابعثْ إلىَّ فى كل عام ، فلك علىَّ مثل هذا ، فارتحل .

---

* الأغانى : ١٣ — ٢٠

(١) العديل : شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية (٢) الحجاج : انظر صفحة ٢٨

(٣) أحفظه : أغضبه (٤) أرملوا : نفد زادهم (٥) العافى : طالب المعروف (٦) تحتويك .

وبلغَ الحجاجَ خبرُه ، فأحفَظَه ذلك على يزيد ، وطلبَ العديلَ فهرب وقال :

أُخَوَّف بالحجاج حتى كأنما يحرِّكُ عظمٌ فى الفــؤاد مَهِيضُ

ودون يَدِ الحجاج من أن تنالنى بساطٌ لأيدى الناعِجاتِ[1] عريضُ

مَهَامِــهُ أشباهٌ كأنَّ سَرَابَها مُلَاءٌ[2] بأيدى الغاسلات رحيضُ[3]

ولـكنَّ الحجاجَ لجَّ فى طلبه حتى لَفَظَتْه الأرض ، ونبَا به كلُّ مكان هرب إليه ؛ فأتى بـكر بن وائل ، وهم يومئذ بَادُون ، فشكا إليهم أمره ، وقال لهم : أنا مقتول ، أفتسلموننى هـكذا وأنتم أعزُّ العرب ! قالوا : لا والله ؛ ولـكن الحجاجَ لا يُراغم[4] ، ونحن نستوهبك منه ، فإن أجابنا فقد كُفِيتَ ، وإن حادَّنا[5] فى أمرك منعناك ، وسألنا أميرَ المؤمنين أن يهبك لنا .

فأقام فيهم ، واجتمعت وجوهُ بـكْرِ بن وائل إلى الحجاج ، فقالوا له : أيها الأمير ؛ إنّا قد جنينا جميعاً عليك جناية لا يغفر مثلُها ، وها نحن أولاء قد استسلمنا وألقيْنا بأيدينا إليك ، فإما وهبتَ فأهلُ ذلك أنت ، وإما عاقبتَ فـكنت المُسَلط المالك العادل ؛ فتبسّم وقال : قد عفوتُ عن كل جُرْم إلا جرم الفاسق العَديل ، فقاموا على أرجلهم وقالوا : مثلُكَ أيها الأمير لا يستثنى على أهل طاعته وأوليائه فى شىء ، فإن رأيت ألا تـكَدِّر مِنَّتَك باستثناء ، وأن تهب لنا العديل فى أولِ من تهب . قال : قد فعلت ، فهاتوه ـ قبحه الله ـ فأتوه به ، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :

فلو كنتُ فى سَلْمى أجا وشعابِها لـكان لحجاج علىّ دليــــل

---

(١) ناعجات : جمع الناعجة : الناقة السريعة ، أو التى تصاد عليها نعاج الوحش (٢) الملاء : جمع ملاءة ، وهى الريطة (٣) الرحيض : الثوب المغسول (٤) لا يراغم : لا يعادى .
(٥) حاده : غاضبه وعاداه وخالفه .

بنى قبّة الإسلام حتى كأنما ... هدَى الناسَ من بعد الضلالِ رسولُ

إذا جارَ حكمُ الناس ألجأ حكمه ... إلى الله قاضٍ بالكتاب عَقُول

خليلُ أمير المؤمنين وسيفُهُ ... لكلٍّ إمام صاحبٌ وخليل

به نَصَرَ اللهُ الخليفة منهمُ ... وثبَّتَ ملكا كاد عنه يزولُ

فأنت كسيف الله فى الأرض خالدٌ ... تَصُولُ بعون الله حين تصولُ

وجازيت أصحابَ البلاء بلاءهم ... فما منهمُ عما تُحِبُّ نُكُول[1]

وصُلْتَ بمُرَّاق العراق فأصبحت ... مناكبها للوَطْء وهى ذَلُولُ

وما خِفْتُ شيئاً غيرَ ربى وحدَه ... إذا ما انتحيتُ النفس كيف أقول

ترى الثقلين : الجِنَّ والإنْسَ أصبحا ... على طاعةِ الحجاج حين يصول

فقال له الحجاج : أَوْلى لك ! قد نجوت ، وفرض له ، وأعطاه عطاءه .

(١) النكول : النكوص والجبن .

٧٨ — ما أنا ببارح أو يرضى أمير المؤمنين *

أوفد الحجاجُ ابنه محمداً إلى عبد الملك عاشرَ عشرة من أهل العراق ، وأوفدَ إليه جريرا[١] معه ، ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك فى الاستماع منه .

فقدم محمدٌ على عبد الملك فخطب بين يديه ، فأجلسه على سريره عند رجليه ، ثم دعا بالوفد رَجُلاً رَجلاً ، فجعل كلما خطب رجل قطع خطبته وتكلم جرير فقطع خطبته ، ثم قال : مَنْ هذا يا محمد ؟ فقال : هذا يا أمير المؤمنين ابنُ الخطفى . قال : مادحُ الحجاج ؟ قال : ومادحُك يا أمير المؤمنين ! فقال جرير : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذنَ لى فى إنشاده مِدْحةً فيه ! قال : هات ما قلتَ فى الحجاج ، فأنشده :

صَبَرْتَ[٢] النفسَ يابْنَ أبى عقيل ... محافظــــةً فكيف ترَى الثوَابَا

ولو لم يَرْضَ ربُّكَ لم يُنزِّلْ ... مع النصر الملائــــكةَ الغِضَابا

إذا سَعَرَ[٣] الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رأى الحجاجَ أثقبَها[٤] شِهابا[٥]

---

* المحاسن والمساوئ : ٢٣٠ ، طبع ليبزج ، الأغانى : ٨ — ٦٧

(١) كان جرير مقيما بالبادية ، فكتب إليه بنو يربوع : أنت مقيم بالبادية ، وليس أحد يروى عنك ، والفرزدق قد ملأ عليك العراق ، فانحدر إلى جماعة الناس ؛ فأشد بالرجل كما يشيد بك ؛ فانحدر وأقام بالبصرة ؛ فلذلك يقول :

وإذا شهدت لثغر قومى مشهداً ... آثرت ذاك على بنى ومالى

فأوجهه الحجاج ، وملأ بمدحه الأرض ، وبلغ أهل الشام وأمير المؤمنين ورواه الناس .

(٢) صبرت : حبست (٣) سعر الحرب : أوقدها (٤) الكوكب الثاقب : المضىء

(٥) الشهاب : الكوكب .

فقال : صدقت ! كذلك هو ، ثم قال : ابدأ بالجحاج ، فأنشَدَه :

طَرِبْتَ لعهــدٍ هيَّجَتْهُ المنازلُ وكيف تَصابِى[١] المرء والشيبُ شامل

فما فرَغَ منها حتى ظهر فى وَجْه أمير المؤمنين الغضب ، وقال : هات ؛ أبدأ بالحجاج ، فأنشده :

هاجَ الهــوى لفؤادك المُهتَاج فانظُرْ بتوضح[٢] باكِرَ الأحْدَاج[٣]

حتى أتى على قوله :

مَنْ سدّ مُطَّلَعَ النفاق عليهم أمْ مَنْ يصُولُ كصَوْلة الحجاج

أم من يغَارُ على النساء حَفيظَةً إذ لا يَثِقْنَ بغَـيْرَةِ الأزواجِ

فتكلمَ الأخطل وقال : أين أمير المؤمنين يا بنَ المرَاغة ؟ فعلم جرير أنه الأخطل فزَبَنَ[٤] حيال وجهه بكُمِّهِ ، وقال : اخسَأْ ، ومضى حتى أنشده كلها .

فقـال الخليفة : اجلس ، فجلس ، ثم قال : قم يا أخطـل ، هات مديحَ أمير المؤمنين .

قال جرير : فقام حِيالى ، فأنشد أشعرَ الناس وأمدح الناس ؛ فقال له الخليفة : أنت شاعرُنا ومادحنا ، ارْكَبْهُ ، فرمى بردائه ، وألقى قميصه على منكبه ، ووضع يده على عنقى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لا يفعل . فقـال أهــلُ المجلس : صدق يا أمير المؤمنين ، فقال : دَعْه ، وانتقض المجلس وخرجنا .

فقال جرير : فدخل الوفدُ عليه ثمانيةَ أيام مع محمد كلهن أُحْجَب فلا أدخل

---

(١) التصابى : التظاهر بالصبا (٢) توضح : اسم مكان (٣) الحدج : مركب للنساء كالمحفة جمعه أحداج (٤) الزبن : الدفع .

عليه ، ثم دخلوا فى التاسع ، وأخذوا جوائزَهم ، وتهيّئوا فى العاشر للدخول والتَّوديع للرحيل .

فقال محمد : يا أبا حَرْزَة ما لى لا أراك تتَجَهّز ؟ قلتُ : كيف وأميرُ المؤمنين عَلَىّ ساخط ؟ ما أنا ببارح أو يَرْضَى عنى !

فلما دخل عليه محمد ليودّعه ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ابن الخطفى ما دحك وشاعرُك ، ومادح الحجاج سيفك وأمينك ، وقد لزمَتْنا له صُحْبةٌ وذِمام ، فإن رأيتَ أن تأذنَ له ؟ فإنه أبى أن يخرجَ معنا ، وأنت عنه غضبان ، وآلى أنه لا يخرج أو ترضى عنه فيدخل و يودّعك .

قال جرير : فأَذِن لى ؛ فدخلت عليه ، ودعوت له ، فقال : إنما أنت للحجاج . قلت : ولك يا أمير المؤمنين .

ثم استأذَنْتُهُ فى الإنشاد ، فسكت ولم يأذن لى ، فاندفعت فقلت :

أتَصْحُو (١) أم فُؤَادُكَ غيرُ صاحِ

فقال : بل فؤادك !

فقلت :

عَشِيّة هَمّ صَحْبُك بالرَّوَاحِ (٢)

حتى فرغت منها ، وعلمت أنى إن خرجت بغير جائزة كان إسقاطى آخرَ الدهر .

فلما بلغت إلى قولى :

ألستُم خيرَ من ركبَ المطايا وأَنْدَى العالَمين بُطُونَ رَاحِ (٣)

---

(١) تصحو : تترك الباطل (٢) الرواح : الذهاب عشية (٣) الراح : جمع راحة : باطن الكف.

تبسَّم عبد الملك وقال : بلى ، كذلك نحن ، وما زِلنا كذلك ؛ أَعِدْ فأعدتُ ، فطرب لذلك ، ثم أنشدته إياها حتى أتيت إلى قولى :

تعزَّت أم حَرْزَة ثم قالت رأيتُ الموردِين ذوى لِقَاحِ
تُعَلِّل وهى ساغبة بَنِيهـا بأنفاس من الشَّبِمِ القَرَاحِ [١]

فالتفت عبد الملك إلى محمد بن الحجاج ، وقال : أَتُرى ام حَرْزَة تُرْوِيها مائةٌ من الإبل ؟ قال : إن لم يُرْوِها ذلك فلا أَرْوَاها الله !

فقال : أخرجوا لنا مائة من النعم التى جاءت من عند كلب ، ولا تُرْذِلوها [٢] ؛ فشكَرْتُ له ، وشكَرَ له أصحابى ومن شَهِدَنى من العرب .

ثم قلتُ : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنما نحن أشياخٌ من أهل العراق ، وليس فى واحدٍ منا فضلٌ عن راحلته . قال . أفنجعل لك أثمانها ؟ قلت : لا ! ولكن الرِّعَاء ياأمير المؤمنين ؛ فنظر جَنَبَتَيْهِ ، ثم قال لجلسائه : كم يجزئ مائةً من الإبل ؟ قالوا : ثمانية ياأميرَ المؤمنين . فأمر لى بثمانية عبد ؛ وكان قد أهدى إليه بعض الدَّهاقين [٣] ثلاثَ صِحاف فضة ، وهنّ بين يديه يقرعُهنّ بالخيزرانة ، فقلت : المِحْلَبُ ياأميرَ المؤمنين فندَسَ [٤] إلىّ منهن واحدة ، وقال : خذها لا نَفَعَتْكَ ، قلت : بلى ، كل ما أخذتُه منك ينفعنى إن شاء الله ، وودّعناه وانصرفنا .

وكتب محمدٌ إلى أبيه بالحديث كله ، فلما قدِمْنا على الحجّاج قال لى : أما والله لولا أن يبلغَ الخبرُ أميرَ المؤمنين فيجِدَ علىّ لأعطيتك مثلَها ، ولكن هذه خمسون راحلة وأحمالُها حِنْطَة ، تأتى بها أهلَكَ ؛ فتَمِيرهم ؛ فقبضتُها وانصرفتُ .

---

(١) الأنفاس : جمع نفس ، وهو جرعة الماء ، والشبم : البارد ، والقراح : الخالص ، يريد أنها تعللهم بالماء عند افتقاد اللبن (٢) أرذله : جعل فيه الرذالة ، وهى ما انتقى جيده
(٣) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو زعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم — معرب (٤) ندس إلى منهن واحدة : قذفنى بها .

٧٩ — آكل *

قال الشَّمَرْدل وكيلُ عَمْرو بن العاص : قدم سليمانُ بن عبدِ الملك الطائفَ فدخل هو وعمرُ بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستاناً لعمرو ، فجال حتى ألقى صدره إلى غُصْن ، ثم قال : ويلك ! يا شَمَرْدَل ؛ ماعندك شيء تُطْعمنى ؟ قلت : عندى جَذَع[1] حافِل[2] تغدو عليه وتروح أخرى . قال عجّل به فأتيتُه به كأنه عُكَّةٌ[3] سَمْن ، فجعل يأكل ، وهو لا يَدْعو عُمَرَ ولا ابنَه ، حتى بقى منه فَخِذ . فقال : ياأبا حفص ؛ هلم ! قال : إنى صائم ، فأتى عليه ، ثم قال : ياشمردل ؛ ويلك ! ماعندك شيء تُطعِمنى ؟ قلت : دَجاجات سِت ، كأنهن رِئْلان[4] النعام ، فأتيته بهنّ فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقى عظامها نَقِيَّة فأتى عليهن ، ثم قال : ويلك ياشمردل ! ماعندك شيء تطعمنى ؟ قلت : سَوِيق كأنه قُرَاضَة الذهب ، فأتيته بعُسٍّ[5] يغيب فيه الرأس ، فشرب به ، فلما فرغ تجشّأ كأنه صارخٌ فى جُبٍّ ، ثم قال : ياغلام ! أفَرَغْتَ من غَدَائنا ؟ قال : نعم ! قال : ماهو ؟ قال : نيّف وثمانون قدراً ، فأتى بها قِدْراً قِدْراً ، وبقناع[6] عليه رُقَاق ، فأكل من كل قدرٍ ثلاث لقم ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، فوُضِع الخوان ، وقعد يأكل مع الناس ، فما أنكرت شيئاً من أكله .

---

* العقد الفريد : ٣ — ١٦٨ ، نهاية الأرب : ٣ — ٣٤٤

(١) الجذع : الصغير السن ، وهو يختلف فى أسنان الأبل والخيل والبقر والشاء ، وهو من الغنم ما عمره سنة (٢) شاة حافل : كثيرة اللبن (٣) العكة : آنية السمن (٤) رئلان : جمع الرأل : وهو ولد النعام أو حوليه (٥) العس : القدح العظيم (٦) القناع : الطبق من عسيب النخل .

٨٠ — نُزُلُ أُمِّ حَبِيب*

نزل نُصَيب(١) بامرأة تُكْنَى أمّ حَبيبٍ ، من أهل مَلَل(٢) ، وكانت تُضِيف في ذلك الموضع وتَقْرِى ، ولا يزال الشريف ينزلُ بهـا فيُفْضِلُ عليهـا الفضلَ الكثيرَ ، ولا يزالُ الشريفُ ممن لم يَحْلُلْ بها ، يتناولُها بالبرِّ ليُعينها على مُرُوءتِها؛ فنزل بها نُصَيبٌ ومعه رجلان من قريش ، فلما أرادوا الرِّحْلَةَ عنها وصَلَها القرشيان، وكان نُصيب لا مالَ معه في ذلك الوقت ؛ فقال لها : إن شئتِ فلك أن أُوَجِّه إليكِ بمثل ما أعطاكِ أحدُهما ، وإن شئتِ قلتُ فيك شعراً ؛ فقالت : بل الشعر ؛ فقال :

ألاَ حيِّ قبل البَيْنِ(٣) أُمَّ حَبيبِ ... وإنْ لم تَكُنْ عنا غداً بقريب

وإن لم يكن أنِّى أحبكِ صادقاً ... فما أحدٌ عندى إذن بحَبيب

تَهَامٍ أصابَتْ قَلْبَه مَلَلِيَّةٌ ... غريبُ الهوى،واهاً لكلِّ غريبِ!

---

* الكامل : ١ ـ ٣٣٤

(١) نصيب بن رباح : شاعر فحل مقدم فى النسيب والمدائح توفى سنة ١٠٠ هـ (٢) ملل : موضع فى طريق مكة بين الحرمين (٣) البين : الفراق .

٨١ — امرأةٌ تجاورُ كثيّراً *

قال السائب راوية كُثَيِّر : والله إنى لأسير يوماً مع كُثَيِّر (١) ، حتى إذا كنا من المدينة على أميال ، لقِيَتْنا امرأة فى رِحالَة (٢) مُتَنَقِّبة ، معها عَبِيدٌ لها يَسْعون معها ، فمرّت جَنَابى (٣) ، فسلّمتْ ، ثم قالت : ممن الرجل ؟ قلت : من أهل الحجاز : قالت : فهل تَرْوى لكُثَيِّر شيئاً ؟ قلت : نعم . قالت : أمَا والله ما كان بالمدينة من شىء هو أحبّ إلىّ من أن أرى كُثيّرا وأسمعَ شعره ، فهل تروى قوله :

أهاجك برقٌ آخرَ الليل وَاصِبُ (٤)

قلت : نعم ، فأنشدتُها إياها إلى آخرها ، قالت : فهل تروى قولَه :

كأنك لم تسمع ولم ترَ قبلها تفرُّقَ ألاَّف لهُنَّ حنِينُ

قلت : نعم ، وأنشدتها . قالت : فهل تَرْوِى قوله أيضاً :

أأطْلال سعدى باللّوى تتعهّدُ

قلت : نعم ، وأنشدتها حتى أتيت على قوله :

فلم أر مثل العين ضنَّتْ بمائها علىّ ولا مثلى على الدمع يُحْسَد

فقالت : قاتله الله ! فهل قال مثلَ قولِ كُثيّر أحدٌ على الأرض ! والله لأن أكون رأيت كُثيِّراً أو سمعتُ منه شعره أحبُّ إلىّ من مائة ألف درهم .

---

* الأغانى : ١١ — ٤٨

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، اشتهر بعزة ، وشبب بها ، وكان رافضياً شديد التعصب لآل أبى طالب ، توفى سنة ١٠٥ هـ (٢) الرحالة : السرج (٣) الجناب : الناحية

(٤) واصب : دائم .

قال السائب: فقلتُ: هو ذاك الراكب أمامك، وأنا السَّائب رَوايته، قالت: حيَّاك الله! ثم ركَضَتْ بغلتها حتّى أدركته، فقالت: أنت كُثيّر؟ قال: مالكِ؟ ويلك! فقالت: أنت الذى تقول:

إذا حُسِرَتْ عنه العِمامَةُ راعَها جميلُ المحيَّا أَغفلَتْهُ الدَّواهِن

والله مارأيت عربياً قط أقبح ولا أحقر ولا ألأم منك! قال: أنتِ والله أقبحُ منى وألأم. قالت له: أو لست القائل:

تراهُنَّ إلا أن يؤدين نظرةً بمؤخر عين أو يقلِّبن مِعْصما

يُحاذِرْن منى غَيْرة قد عرفنَها قديماً فما يَضْحَكْنَ إلا تَبَسُّما

لعن الله من يفرَق[1] منك! قال: بل لعنك الله، من أنت؟ قالت: لا يضرُّك إن لم تعرفنى. قال: والله إنى لأراكِ لئيمةَ الأصل والعشيرة. قالت: حيَّاك الله يا أبا صَخْر! ما كان بالمدينة رجل أحبَّ إلىّ وجهاً ولا لقاء منكَ: قال: لا حيَّاك الله، ولكن ماعلى الأرض أحدٌ أبغَض إلىّ وجْها منكِ. قالت: أتعرفنى؟ قال: أعرفُ أنكِ لئيمةٌ من اللئام، ثم تعرفتْ إليه فإذا هى غاضرة أمُّ ولدٍ لبشر ابن مروان.

قال السائب: وسايَرها حتى الجبل، ثم قالت له: ياأبا صَخْر؛ أضمنُ لك مائة ألف درهم عند بشر بن مروان إن قدِمت عليه. قال: أَفِى سبِّك إياى أو فى سبِّى إيّاك تضمنين لى هذا؟ والله لا أخرجُ إلى العراق على هذه الحال. فلما قامت تودِّعه سفرت فإذا هى أَحْسَنُ مَنْ رأيت من أهل الدنيا وجهاً، وأمرتْ له بعشرة آلاف درهم.

---

(١) يخاف.

٨٢ — إفحـــام *

بينما كان كثيِّر عزّة مارًّا بالطريق يوماً ، إذ هو بعجوز عَمْياء على قارِعَة[١] الطريق تمشي ؛ فقال لها : تَنَحَّىْ عن الطريق ، فقالت له : ويحك ! ومَنْ تكون ؟ قال : أنا كثيِّر عزة . قالت : قبّحك الله ! هل مثلُك يُتَنَحَّى له عن الطريق ؟ قال : ولِمَ ؟ قالت : ألستَ القائل :

وما رَوْضةٌ بالحَزْن طَيِّبَةُ الثَّرى يَمجُّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها[٢]

بأطْيَبَ من فِيهَا إذا جئتَ طَارِقاً وقدأُوقدتْ بالمِجْمَرِ[٣] اللَّدْن[٤] نارُها

ويحك ياهذا ! لو تبخّر بالمجْمَرَ اللَّدْن مثلي ومثلُ أمِّك لطاب ريحها ؛ هلاَّ قلت كما قال سيِّدُك امرؤ القيس :

وكنتُ إذا ماجئتُ بالليل طارقاً وجدتُ بها طيباً وإنْ لم تَطَيَّب

فقَطَعَتْه[٥] ، ولم يردَّ جواباً !

---

* المستطرف : ١ — ٥٥

(١) قارعة الطريق : أعلاه (٢) الجثجاث ، نبات له زهر أصفر طيب الريح . والعرار : نبت طيب الريح أيضاً (٣) المجمر : ما يبخر به من عود وغيره (٤) اللدن : اللين .

(٥) انقطع الرجل : إذا انقطعت حجته ، وقطعه أيضاً وأقطعه .

٨٣ — بين كثيّر وعزّة *

دخل كُثير بن عبدالرحمن على عَزّة، فقالت :ماينبغى أن نَأْذَنَ لك فى الجلوس. قال : ولِمَ ذلك ؟ قالت : لأنى رأيت الأَحْوَص أَلْيَنَ جانباً عند القوافى منك فى شعره ، وأضرعَ خَدًّا للنساء ؛ وإنه الذى يقول :

يأَيها اللائمى فيها لِأَصْرِمَها (١) أكثرتَ لو كان يُغْنِي عنك إكثار
أقْصِرْ فلستَ مُطاعاً إذْ وَشَيْتَ بها لا القلبُ سالٍ ولا فى حُبِّها عار

ويعجبنى قوله :

أدُور ولولا أن أَرَى أمّ جعفر بأَبْيَاتكم ما دُرْتُ حيث أدُورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكن ذَا الهوى إذا لم يُزَرْ لا بدَّ أنْ سيزور
لقد منعتْ معروفها أمُّ جعفر وإنى إلى معروفها لفَقِيرُ

ويعجبنى قوله :

كم من دنىّ لها (٢) قد صرتُ أتبعُه ولو صحا القلب عنها كان لى تَبعاَ
لا أستطيعُ نزوعاً عن محبتها أو يصنعَ الحبُّ بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني حتى إذا قلت : هذا صادق نَزَعا
وزادنى رغبةً فى الحب أن منعت أشْهَى إلى المرء من دنياه ما مُنِعا

وقوله (٣) :

إذا أنتَ لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جَلْمَدَا

---

* ذيل زهر الآداب : ١٥٠

(١) أصرمها : أقطعها ، وأفارقها (٢) الدنى : القريب (٣) البيتان الأخيران ألحقهما العيني وغيره بهذا الموضع من شعر الأحوص ، وأنشدهما أبو بكر بن دريد لأعرابى .

وما العيشُ إلا ما تــلذّ وتشتهى ‏ ‏ وإنْ لامَ فيه ذُو الشَّنَان وفَنَّدَا [١]

وإنى لأَهْوَاها وأهوى لقاءها ‏ ‏ كما يشتهى الصادِى [٢] الشرابَ المبرَّدَا

فقال لها كثير : والله لقد أجاد ؛ فما استجفَيْتِ [٣] من قولى ؟ قالت : فذلك قولك :

وكنتُ إذا ماجئت أجْلَلْنَ مجلِسى ‏ ‏ وأظهَرْنَ منى هيبةً لا تجَهُّمَا

يحاذِرْنَ منى غَيْرَةً قد عرَفْنَها ‏ ‏ قديماً فما يَضْحَكْنَ إلا تبَسُّمَاَ

تَراهنَّ إلا أن يؤدين نظرة ‏ ‏ بمؤخر عين أو يُقَلِّبْنَ مِعصما

وقولك :

وددت ـ و بيت الله ـ أنك بَكْرَةٌ ‏ ‏ هِجَانٌ [٤] وأنى مُصْعَبٌ [٥] ثم نهرب

كلاَنا به عُرٌّ [٦] فمن يرَنَا يَقُلْ ‏ ‏ ـ على حُسْنِها ـ جرباء تُعْدِى وأجْرَبُ

نكون لذِى مالٍ كثير مُغفَّل ‏ ‏ فلا هو يَرْعَانَا ولا نحن نُطْلَبُ

إذا ما وَرَدْنَا مَنْهَلًا صاح أهلُه ‏ ‏ علينا ، فما ننفَكُّ نُنْفَى ونُضْرَبُ

ويحك ! لقد أردتَ فىَّ الشَّنْعَاء ، ما وجدت أُمْنِيَّةً أَوْطأَ من هذه ! فخرج من عندها خَجِلا !

---

(١) ذو الشنان : البغض . فنده : خطأ رأيه (٢) الظمآن (٣) استجفاه : عده جافياً
(٤) الهجان من الإبل : البيضاء الكريمة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والجمع (٥) المصعب : الفحل (٦) العر : داء يأخذ الإبل فيتمعط عنها وبرها حتى يبدو الجلد ، وهو كالجرب للانسان.

٨٤ — حِوارٌ بين شعراء*

قَدِمَ عمرُ بن أبى ربيعة المدينةَ لأمرٍ ، فأقام شهراً ثم خرج إلى مكة ، وخرج معه الأحوص مُعتمِراً .

قال السائب راوية كثيّر : فلما مرّا بالرَّوْحاء[١] اسْتَتْليَانى[٢] ، فخرجت أتلوهما ، حتى لحقتُهما بالعرْج[٣] . فخرجنا جميعاً حتى وردْنا ودّان[٤] ، فحبسهما نُصيب ، وذبح لهما وأكرمهما .

وخرجْنا وخرج معنا نُصيب ، فلما جئنا إلى منزل كُثيِّر قيل لنا قد هَبط قُدَيْدًا[٥] ، فجئنا قُدَيْداً ، فقيل لنا : إنه فى خيْمَة من خيامها ، فقال لى ابن أبى ربيعة : اذهب فادْعُه لى، فقال نُصيب : هو أحمقُ وأشد كِبْراً من أن يأتيَك ، فقال لى عمر : اذهبْ كما أقول .

فجئتُه فهشّ لى وقال : «اذكُرْ غائباً ترَهْ» ، لقدجئتَ وأنا أذكرُك ، فأبلغتُه رسالةَ عُمر ، فحدّد إلىّ نَظره ، ثم قال : أما كان عندك من المعرفة بى ما كان يرَدْعُك عن إتيانى بمثل هذا ! فقلت : بلى ، ولكن سترتُ عليك ، فأبى الله إلّا أن يهتِك سترك ، قال : إنك والله يابْنَ ذَكْوان ، ما أنت من شكلى ، فَقُلْ لابن أبى ربيعة: إن كنتَ قُرشيًا فإنى قرشى ، وإن كنتَ شاعراً فأنا أشْعَرُ منك . فقلت : هذا إذا كان الحكم إليك ، قال : وإلى مَنْ هو ؟ ومَنْ أولى به منى !

---

* الأغانى : ١١ — ١٧ ، الكامل للمبرد : ١ — ٣٣٢ .

(١) الروحاء : موضع على ثلاثين ميلا من المدينة (٢) استتليانى : طلبا منى أن أتلوهما

(٣) العرج : قرية بالطائف فى الحجاز (٤) ودان : موضع بين مكة والمدينة

(٥) قديد : موضع قرب مكة .

قال السائب : فرجعت إلى القوم فأخبرتُهم ، فضحكوا ، ثم نهضوا معى إليه ، فدخلنا عليه فى خَيْمةٍ ، فوجدناه جالساً على جلد كَبْش، فوالله ما أَوْسَع للقرشى ، فلما تحدّثوا مليًا ، وأفاضوا فى ذِكْر الشعراء أقبل كُثيّر على عمر فقال له : أنت تنعت المرأة فتشبّب بها ، ثم تدَعُها وتنسبُ بنفسك ! أخبرنى عن قولك :

قالت : تَصَدّىْ له ليعرفَنا ثم اغمزِيه يا أُخْتُ فى خَفَرِ
قالت لها : قد غمَزْتُه فأَبَى ثم اسبَطَرّتْ[1] تشتدُّ فى أثَرى
وقولها والدموع تَسْبِقُها لَتفْسِدن الطَّوافَ فى عمر

أتراكَ لو وصفتَ بهذا الشعر هِرّةَ أهلِكَ ، ألم تكن قد قبُحْت وأسأت لها ، وقلت الهجر ! إنما توصف الُحرّة بالحياء والإباء والبخل والامتناع ، كما قال هذا — وأشار إلى الأحوص :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ[2] بأبياتكم ؛ مادرتُ حيثُ أدُورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنّ ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لا بد أن سيزورُ
لقد منعتْ معروفَها أمُّ جَعْفَرٍ وإنى إلى معروفها لَفَقيرُ

فدخلتْ الأحوص الأُبّهة ، وعُرِفت الخيلاء فيه . فلما عرف كُثَيِّر ذلك منه قال له : أبطلَ آخرُكَ أوّلك ، أخبرنى عن قولك :

فإن تَصِلِى أَصِلْكِ وإن تعودى لهَجْرٍ بعد وَصْلِكِ لا أُبالى
ولا أُلْفَى كمن إن سِيمَ صَرْماً[3] تعرّضَ كى يُرَدَّ إلى الوصالِ

أما والله لو كنتَ فَحْلاً لباليت ولو كُسِرتْ أنفك ! ألا قلت كما قال هذا الأسود — وأشار إلى نُصيب :

(١) اسبطرت : أسرعت ، : تشتد : تجرى وتسرع (٢) أم جعفر : امرأة من الأنصار كان يشبب بها الأحوص (٣) صرما : قطيعة .

جزينب ألمْ قبل أن يرْحلَ الركبُ وقلْ : إنْ تمَلّينـا فـما مَلّكِ القلبُ

فانـكسر الأحْوص، ودخل نصَيبا الأبهة ، فلما فهم ذلك منه قال : وأنت يا أسود ؛ أخبرنا عن قولك :

أهيمُ بدَعْدِ ماحَييتُ وإن أمُتْ فوا كبدِى مَنْ ذا يهيمُ بها بَعْدى !

أهمّك من يُشَبّبُ بها بعدك ! فقال نصيب : استوى القِرْق[1] .

قال السائب : فلما أمْسَك كـثيّر أقبل عليه عمر فقال : قد أنْصَتْنَا لكفاستمع، أخبرنى عن قولك لنفسك وتخيّرك لمن تحب حيثُ تقول :

ألا ليتنا ياعزّ من غيرِ ريبـةٍ بعيران نَرْعى فى الخَلا ونُعـذّب !

كلانا به عرٌّ[2] فمن يرنا يقلْ على حسنهـا جرباء تعدى وأجْرَبُ

إذا ماوردنا منهلا صـاح أهـله علينـا ، فما نَنْفَكّ نرمى ونضرب

وددت ، وبيت الله ، أنك بكرةٌ هِجان[3] وأنى مُصْعَبٌ[4] ثم نهرَبُ

نكـونُ بَعيرَىْ ذى غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحنُ نُطْلَبُ

ويلك ، تمنيت لها ولنفسك الرِّق والجرب والرَّمْى والطرد والمسْخَ ، فأىّ مكروه لم تتمنّ لها ولنفسك ! ولقد أصابها منك قول الأولِ : معاداة عاقل خير من مودّة أحمق ، فجعل يَخْتَلِـج جَسَد كثيّر كله ، ثم أقبل عليه الأحْوَصُ فقال : أخبرنى عن قولك :

وقُلْنَ ـ وقد يكذبن ـ فيك تعفّفٌ وشُؤمٌ إذا مالم تطع صاحَ نَاعِقُـهْ

وأعييتَنا لا راضيـاً بكـرامـةٍ ولا تاركا شكوى الذى أنت صادقهْ

---

(١) القرق . نوع من اللعب ، ومعنى الجملة : استوينا فلم يغلب واحد منا صاحبه ، وفى الـكامل « القرقة » وهى لعبة على خطوط فاستواؤها انقضاؤها (٢) العر : الجرب (٣) الهجان من الإبل : البيضاء الـكريمة (٤) المصعب : الفحل .

فأدركتَ صفوَ الودِّ منا فلمتَنا ... وليس لنا ذنبٌ ، فنحن مَوَاذِقُه[١]

وألفيتَنا سِلماً فصدَّعْتَ بيننا ... كما صدَّعَت بين الأديم خوَالِقُه[٢]

والله لو احْتَفَل عليك هاجِيك مازاد على ما بُؤْتَ به[٣] على نفسك . فخفق[٤] كثيِّر كما يَخْفِق الطائر ، ثم أقبل عليه نُصيب فقال : أقبل علىّ ، فقد تمنيت معرفةَ غائبٍ عندى علمُه حيث تقول :

وددتُ ، وما تغنِى الودادةُ ، أننى ... بما فى ضمير الحاجبيَّةِ عالمُ

فإن كان خيراً سرَّنى وعلمتُه ... وإن كان شرًّا لم تَلُمْنى اللوائمُ

انظر فى مرآتك ، واعرف صورةَ وجهك تعرف ماعندها . فاضطرب اضطرابَ العصفور ، وقام القوم يضحكون .

---

(١) مذق الود : لم يخلصه (٢) الخالق : صانع الأديم .

(٣) رجعت به على نفسك ، أى ما وصفت به نفسك (٤) اضطرب .

٨٥ — احتال حتى أقرأها رسالته *

كان عُمرُ بن أبى ربيعة (١) يَهْوَى كَلْثمَ بنتَ سعدٍ المخزُومِيَّة ، فأرسل إليها رسولًا (٢) فضربَتْها وحَلَقتْهَا (٣) وأحْلفتْها ألّا تُعَاوِدَ ؛ ثم أعادها ثانيةً ففعلتْ بها مثلَ ذلك ، فتَحَامَاها رسُلهُ ؛ فابتاع أمةً سَوْدَاء لطيفةً رقيقةً ، وأتى بها منزله فأحسن إليها وكساها ، وآنَسَهَا وعرّفها خبره ، وقال لها : إن أوْصَلْتِ لى رُقْعَةً إلى كلثم فقرأتْهَا فأنتِ حرّةٌ ولك معيشتُكِ مابقيتِ .

فقالت : اكتُبْ لى مُكَاتَبَةً (٤) واكتبْ حاجتك فى آخرها . ففعل ذلك فأخذتْها ومضتْ بها إلى باب كلثم ، فاستأذنتْ ، فخرجتْ إليها أمَةٌ لها ، فسألتها عن أمرها ، فقالت : مكاتَبَةٌ لبعض أهل مَوْلَاتِكِ جئتُ أستعينُها فى مكاتبتى ، وحادثتْهَا وناشدتْهَا حتى مَلَأَتْ قلبها .

فدخلت إلى كَلْثَمَ وقالت : إن بالباب مكاتَبَةً لم أر قطُّ أجمل منها ولا أكمل ولا آدب . فقالت : ائْذنِى لها ، فدخلتْ ، فقالت : مَنْ كاتَبكِ ؟ قالت : عمرُ ابنُ أبى ربيعةَ الفاسقُ ؛ فاقرئى مكاتَبَتِى . فمدّتْ يدها لتأخذها فقالت لها : لى عليك عهدُ الله أن تَقرَئيها ؛ فإن كانت منكِ إلىّ شىء مما أُحِبُّه ، وإلّا لم يَلْحَقنى

---

* الأغانى : ١ — ٢٠٤ .

(١) من مخزوم ، بطن من قريش ، واختص شعره بوصف النساء ، والتشبيب بهن ، قال ابن جريج : ما دخل على العواتق فى حجالهن شىء أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة ، توفى سنة ٩٣ هـ

(٢) رسول . يجوز استعماله للمذكر والمؤنث (٣) يقال : حلقه : أى أوجعه فى حلقه

(٤) المكاتبة : أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما ، فإذا أداه صار حراً .

منك مكروه ، فعاهدتها وفطنت ، وأعطتها الكتاب فإذا أوله :

من عاشقٍ صبٍّ يُسِرُّ الهوى ... قد شفَّه الوجدُ إلى كَلْتَمِ
رأتكِ عيني فدعاني الهوى ... إليكِ لِلْحَيْنِ [1] ولم أعلَمِ
قَتَلْتِنا ، يا حبَّذا أنتمُ ... في غير ما جُرْمٍ ولا مَأْثَمِ
واللهُ قد أنزلَ في وحيِهِ ... مُبيِّنًا في آيهِ المحْكَمِ
مَن يقتلِ النفسَ كذا ظالمًا ... ولم يُقِدْها نفسَه يَظْلِمِ
وأنتِ ثأري فتلافَيْ دمي ... ثم اجعَليه نِعمةً تُنعِمِي
وحكِّمي عدلًا يكن بيننا ... أو أنتِ فيما بيننا فاحكمي
وجالِسيني مجلسًا واحدًا ... من غير ما عارٍ ولا مَحْرَمِ [2]
وخبِّريني : ما الذي عندكم ... بالله في قتلِ امرئٍ مُسْلِمِ ؟

فلما قرأتِ الشعرَ قالت لها : إنه خدّاعٌ مَلِقٌ ، وليس لما شكاه أصلٌ . قالت : يامولاتي ؛ فما عليكِ من امتِحانه ؟ قالت : قد أُذِنتُ له ، وما زال حتى ظفِرَ ببغيَتِه ، فقولي له : إذا كان المساء فليَجْلِسْ في موضع كذا حتى يأتيه رسولي . فانصرفتِ الجاريةُ فأخبرتْه فتأهَّب لها .

فلما جاءه رسولُها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيَّأتْ أجملَ هيئة . وزيَّنتْ نفسها ومجلسها وجلَستْ له من وراء سِتْرٍ ، فسلَّمَ وجلسَ ، فتركَتْه حتى سكنَ ثم قالت له : أخبِرْني عنكَ يا فاسق ؛ ألستَ القائل :

هلّا ارْعَوَيْتِ فترحمِي صبًّا ... صَدْيان لم تَدَعِي له قلبَا
جَشِمَ الزيارةَ في مودتكم ... فأراد ألا تحقِدى ذنبَا

---

(١) الحين : الهلاك (٢) المحرم : الحرام .

وَرَجا مُصالَحةَ فكان لكم سَلْماً[١] وكنتِ تَرَينَه حَرْبا

يأيُّهـــا المُضْنى مودَّتَهُ مَنْ لا يَرَاكَ مُسامِياً خِطْبا[٢]

لا تَجْعَلَنْ أحداً عليك إذا أحببتَـــه وهَوِيتَه رَبّا

وَصِلِ الحبيبَ إذا شُغِفْتَ به واطْوِ الزيارة دونه غِبّا

فَلذَاكَ أحسنُ من مُواصلةٍ ليستْ تَزِيدُكَ عنده قُرْبا

لا ، بل يَمَلُّكَ عند دَعْوَتِه فيقولُ هاه[٣] وطالمـــا لَبَّى

فقال لها : جُعِلْتُ فِدَاكِ ، إن القلبَ إذا هَوِى نطقَ اللسانُ بما يَهْوَى !
فتزوّجها ، فولدتْ له ابنْين .

(١) سلاما (٢) الخطب : الخاطب (٣) هاه : كلمة وعيد .

٨٦ — مَنْ لى بمثلك يُعْتِبُنى إذا استعتبته ! *

دخل حَمْزَة بن بَيْض (١) على مَخْلد بن يزيد بن المهلّب ، فوعده أن يصنع به خيراً ، ثم شُغِل عنه ، فاختلف عليه مراراً ثم لم يصل إليه ، وأبطأتْ عليه عِدَتُه ، فقال ابن بَيْض :

أمخلَدَ (٢) إنّ الله ماشاء يَصْنَعُ ... يجودُ فيُعْطى ما يشاء ويَمْنَعُ

وإنىَ قــد أمّلتُ منك سحابةً ... فجادَتْ سَراباً فوق بَيْدَاء تَلْمَعُ

فأَجمعتُ صَرْماً ثم قلت لَعلّه ... يَثُوب إلى أمْرٍ جميل ويَرْجِــعُ

فأيأسنى من خـــير مخلد أنَّهُ ... على كل حالٍ ليس لى فيه مَطْمَعُ

يجــودُ لأقوامٍ يودّون أنّه ... من البُغْضِ والشنآنِ أمْسى يُقطّعُ

ويبخــل بالمعروف عمَّن يَوَدُّه ... فوالله ما أدْرى به كيف أصنع

أأصرِمه ، فالصَّرم شَرٌّ مَغَبّــة ... ونفسى إليــه بالوصال تَطَلَّعُ

وشتان بينى والوصال وبينــه ... على كل حالٍ أستقيم ويَظْلَعُ (٣)

فأعقبنى صرماً على غــيرِ إحْنَةٍ ... وبخــلاً وقِدْماً كان لى يتبرّعُ

وغَيّرَه ما غيّر الناسَ قبــلَه ... فنفسى بمــا يأْتِى به ليس تقْنَعُ

---

* الأغانى : ١٥ ـ ٢٣ .

(١) حمزة بن بيض : شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كوفى خليع ماجن ، وكان منقطعاً إلى المهلب ابن أبى صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد وبلال بن أبى بردة وا كتسب بالشعر من هؤلاء مالا عظيما ، توفى سنة ١٢٠ هـ (٢) أمير من بيت إمارة ورياسة وبطولة ، ولى إمارة خراسان على عهد عمر بن عبد العزيز نائباً عن أبيه ، ثم رحل إلى الشام وافداً على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فأعجب به ، مات سنة ١٠٠ هـ (٣) الظلع : العرج .

ثم كتبها فى قِرْطاسٍ ، وختمه ، وبعث به مع رجل ، فدفعه إلى غلامه ، فدفعه الغلام إليه .

فلما قرأه سأل الغلام: مَنْ صاحبُ الكتاب؟قال لا أعرفه ، فأدخل إليه الرجل ، فقال : مَنْ أعطاك الكتاب ؟ ومن بعث به معك ؟ قال : لا أدرى ، ولكن مِنْ صفته كذا وكذا ، ووَصف صفة ابن بَيْض . فأمر به فضُرِب عشرين سوطاً على رأسه ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وكساه ، وقال : إنما ضربناك أدَباً لك ؛ لأنك حملت كتاباً لا تدرى ما فيه لمن لا تعرفه ، فإياك أن تعود لمثلها .

فقال الرجل : لا والله ، أصلحَك الله ! لا أحمل كتاباً لمن أعرف ولا لِمن لا أعرف . قال : احذر فليس كلُّ أحدٍ يصنع بك صنيعى .

وبعث إلى ابن بَيْض ، فقال له : أتعرف ما لحق صاحبك ؟ قال لا ، فحدّثه مَخْلد بقصته . فقال ابن بيض : واللهِ إنه لا يزال يتوقُ إلى العشرين سوطاً مع الخمسمائة أبداً ؛ فضحك مَخْلد ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب ، وقال : وأنت والله لا تزالُ نفسك تتوق إلى عتاب إخوانك أبداً . قال : أجل والله ، ولكن منْ لى بمثلك يُعتبنى [1] إذا استعتبته ، ويفعل بى مثل فعلك ، ثم قال :

وأبيضَ بُهلول إذا جئتُ داره ... كفانى ، وأعطانى الذى جئتُ أسألُ
ويُعتبنى يوماً إذا كنت عاتباً ... وإن قلت زدنى قال حقًّا سأفعل
تراه إذا ما جئته تطلبُ الندى ... كأنك تعطيه الذى جئت تسألُ

---

(١) يقال : أعتبنى فلان ؛ إذا ترك ما كنت أجد عليه ، ورجع الى ما أرضانى عنه ، بعد إسخاطه إياى عليه .

فلله أبنــــاء المهلب فتيــةً ⁂ إذا لَقِحتْ حَرْبٌ عوانٌ تأكَّلوا[1]

ترى الموت تحت الخافقات أمامهم ⁂ إذا وَرَدُوا علُّوا الرماح وأنهلوا[2]

يجودون حتى يحسبَ الناسُ أنهم ⁂ لجـــودهمُ نَذْر عليهم يحلَّلُ

فذلك مــيراثُ المهلَّب ، إنه ⁂ كريمٌ نمــاه المكارم أوَّلُ

فلما أنشده ابنُ بيض هــذه الأبيات أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب وقال : نزِيدُكَ ما زِدْتنا ونُضْعِفُ لك ، فقال :

أمخـــلد لم تترك لنفسى بقيةً ⁂ وزدتَ على ما كنت أرجو وآمُل

فـكنتُ كما قد قال معنٌ فإنَّهُ ⁂ بصــيرٌ كما قد قال إذ يتمثَّل

وجَدتُ كثيرَ المال إذ ضَنّ مُعدِماً ⁂ يُذَمُّ ويلحاه[3] الصديق المؤمِّلُ

وإن أحق الناس بالجود مَنْ رأى ⁂ أباه جوَاداً للمكارم يُجـزِلُ

وجـــدتَ يزيداً والمهلب برَّزا ⁂ فقلتَ فإنى مثــلَ ذلِكَ أفعلُ

ففزت كما فازا وجاوزت غايةً ⁂ يقصِّرُ عنهـــا السابقُ المتمهل

فأنت غياثٌ لليتـــامى وعصمةٌ ⁂ إليك رجاء الطالبي الخـــير يرْحل

وموتُ الفتى خـيرٌ له من حياته ⁂ إذا كان ذا مالٍ يضِنُّ ويَبْخَــل

فقال له مخلد : احْتَكم ، فأبى ، فأعطاه ألفى دينار وجاريةً وغـلاماً وبِرْذَوْناً .

(١) تأكل الرجل : غضب وهاج كأنه يأكل بعضه بعضاً (٢) العل : الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول (٣) يلومه .

٨٧ — هما قَمَرَا السماء وأنت نجم *

قَدِم الفرزدق إلى المدينة فى سنةٍ مُجْدبةٍ ، فمشى أهـلُ المدينـة إلى عمر بن عبد العزيز ، فقالوا له : أيها الأمير ؛ إن الفرزدق قدم مدينتنا فى هـذه السنة الجدْبة التى قد أهلكت عامة الأموال التى لأهل المدينة ، وليس عند أحدٍ منهم ما يعطيه شاعراً ؛ فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وتَقَدَّم إليـه ألا يَعْرِض لأحدٍ بمدحٍ ولا هجاء .

فبعث إليه عمر : إنك يافرَزْدَق قدِمتَ مدينتنا فى هذه السنة الجدْبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرتُ لك بأربعة آلاف درهم ، فخُذْها ولا تعرِض لأحد بمدح ولا هجاء .

فأخذها الفرزدق ، ومرّ بعبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو جالس فى سقيفة داره ، عليه مُطرف (١) خَزٍّ أحمر ، وجبة خزٍ أحمر ، فوقف عليه ، وقال :

أعبـد الله أنت أحق ماشٍ ... وساعٍ بالجماهـير الـكبارِ

نما الفاروقُ (٢) أمك وابن أروى ... أبوكَ فأنت مُنْصَدِع النهـار

هما قَمَرَا السـماء وأنت نجمٌ ... به فى الليل يُدْلِـجُ (٣) كلُّ سارِ

فخلع عليه الجُبّة والعمامة والمطْرَف ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

---

* الأغانى : ١٩ ــ ٥٢ .

(١) رداء من خز مربع له أعلام (٢) عمر بن الخطاب (٣) أدلج : سار من أول الليل .

فخرج رجلٌ كان حضر عبد الله والفرزدقُ عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ، وسمع ما أمره عُمَرُ به ألاَّ يَعْرِض لأحـد ؛ فدخل إلى عمر بن عبد العزيز ، فأخبره ، فبعث إليه عُمر : ألم أتَقدَّمْ إليك يافرزدق ألاّ تعرضَ لأحدٍ بمدح ولا هجاء ! اخرج ، فقد أجَّلتك ثلاثاً ، فإن وجدتُك بعد ثلاث نـكَّلْتُ بك ، فخرج وهو يقول :

فأجَّلَنِي ووَاعَدَنِي ثَلَاثاً ‌ ‌ ‌ ‌ كما وُعِدَتْ لِمَهْلـكها ثمودُ[1] !

---

(١) هم أصحاب صالح .

٨٨ — نَفْى الأحوص *

لما وَلىَ عمرُ بنُ عبد العزيز الخلافةَ لم تكن له هِمَّةٌ إلا عمرَ بن أبى ربيعة والأَحْوَص . فكتب إلى عامله على المدينة : قد عرفتُ عمر والأحوص بالخُبْثِ والشرّ ، فإذا أتاك كتابى هذا فاشْدُدْهما واحمِلْهما إلىَّ .

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه ؛ فأقبل على عمر فقال له : هيه !

فلم أر كالتَّجْمِيرِ(١) منظرَ ناظرٍ ولا كلَيالِى الحج أفلَتْنَ ذَا هَوى

وكم مالِىء عينيه من شَىْء غيرِه إذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدُّمى

فإذا لم يُفْلت الناس منك فى هذه الأيام فمتى يُفلتون ! أما والله لو اهتممتَ بأمرِ حَجِّك لم تنظر إلى شَىْء غيرك ، ثم أمر بنَفْيِه . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أو خيرٌ من ذلك ! قال : وما هو ؟ قال : أعاهدُ الله ألاّ أعود إلى مثل هذا الشعر أبداً وأُجَدِّد توبة على يديك . قال : أو تفعل ؟ قال : نعم . فعاهد الله على توبةٍ وخلاَّه .

ثم دعا بالأَحْوَص فقال : هيه !

الله بينى و بين قَيِّمها يهرُبُ منّى بها وأَتَّبعُ

بل الله بين قيِّمها و بينك ! ثم أمر بنفيه إلى دَهْلَك(٢) ، فلم يزل بها .

فرحل إلى عمر عدةٌ من الأنصار فكلّموه فى أمره ، وسألوه أن يُقْدِمه ،

---

* الأغانى : ٩ ـ ٦٤

(١) التجمير : رمى الجمار (٢) دهلك : بلدة ضيقة حارة تجاه مصوع ، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها .

وقالوا له : قد عرفتُ نسبَه و قِدمَه وموضعه ، وقد أُخرجَ إلى بلادِ الشرك ،فنطلب منك أن تردَّه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودارِ قومه . فقال لهم عمر : من الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها فُجَاءةً فأُبْهَتَ حتى ماأ كادُ أُحِير[1]

قالوا : الأحوص . قال : فمن الذى يقول :

أدورُ ولولا أنْ أرَى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم مادرتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنّ ذا الهوى إذا لم يزُرْ لا بُدَّ أَنْ سيزورُ

قالوا : الأحوص . قال : فمن ذا الذى يقول :

كأن لُبنى صَبِيرُ[2] غاديةٍ أو دُمْيَةٌ زُيِّنَتْ بها البِيَعُ
الله بينى وبين قَيمها يهرُبُ منى بها وأتّبع

قالوا : الأحوص ، قال : والله لا أرده مادام لى سطان .

فمكث هناك حتى مات عمر ، ووِلِيَ الأمرُ يزيدُ بن عبد الملك ، فغنّته جميلة يوماً :

كريمُ قريش حين يُنسَبُ والذى أقرّت له بالملك كَهلاً وأمْرَدا

فطرب يزيد وقال : ويحك ! مَنْ كريم قريشٍ هذا ؟ قالت : أنتَ يا أمير المؤمنين ، ومن عسى أن يكون ذلك غيرَك . قال : ومَنْ قائل هذا الشعر فِيَّ ؟ قالت : الأحوص وهو منفى .

---

(١) لم يحر جوابا : لم يرجع ولم يرد (٢) صبير : سحابة بيضاء .

فـكتب بردِّه وحمله إليه : وأنفذَ إليه صلاتٍ سنيَّةً ؛فلما قدِم إليه أدناه وقرَّبه وأكْرَمَه ، وقال له يوماً فى مجلس حافل : والله لو لم تمتّ [1] إلينا بحقٍ ولا صِهْرٍ ولا رَحِيمٍ إلَّا بقولك :

وإنى لأسْتحييكمُ أن يقودَنى إلى غـيركم من سائر الناس مَطْمعُ

لـكفاك ذلك عندنا . ولم يزل يُنَادِمُه حتى مات .

---

(١) تتصل .

٨٩ — شهادة *

قال دُكَيْنٌ الراجز : امتدحتُ عمرَ بن عبد العزيز وهو والى المدينة ، فأمر لى بخمسَ عشرةَ ناقةً كرائمَ ، فكرهت أن أرمِىَ بهنَّ الفِجَاجَ (١) ، ولم تَطِبْ نفسى ببَيْعِهِنَّ . فقدمتْ علينا رُفْقَةٌ من مِصْر ، فسألتُهُمُ الصُّحْبة ، فقالوا : ذلك إليك ، ونحنُ نخرج الليلةَ .

فأتيتهُ فودّعتهُ ، وعنده شيخان لا أعرفهما ، فقال لى : يا دُكَيْنُ ؛ إن لى نفساً توّاقةً ، فإن صِرْتُ إلى أكثر مما أنا فيه فأتنى ولك الإحسان . قلت : اشْهدْ لِى بذلك . قال : أُشْهِدُ اللهَ به . قلت : ومِنْ خَلْقِهِ ؟ قال : هذين الشيخين ، فأقبلتُ على أحدهما فقلت : مَنْ أنت أعرفك ؟ قال . سالم بن عبد الله بن عمر . وقلت للآخر : من أنت ؟ قال : أبُو يحيى مولى الأمير .

فخرجتُ إلى بلدى بهن ، فرمى اللهُ فى أذنابِهِنَّ بالبركة حتى اعْتَقَدْتُ (٢) منهنَّ الإبل والعبيد ؛ فإنى لبصحراء فَلْج (٣) إذا ناع يَنْعَى سليمانَ . قلت : فمَنِ القائمُ بعده ؟ قال : عمرُ بن عبد العزيز ،

فتوجّهتُ نحوه ، فلقينى جرير مُنصرِفاً من عنده ؛ فقلت : يا أبا حَرْزَة (٤) ، من أين ؟ فقال : من عند مَنْ يُعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، فانطلقتُ فإذا هو فى عَرْصة (٥) دار ، وقد أحاط الناسُ به ، فلم أخلُصْ إليه ، فنادَيتُ :

---

* الأغانى : ٩ — ٢٦١ ، العقد الفريد : ١ — ٢٠٢

(١) أصل الفج : الطريق الواسع ، وجمعه فجاج (٢) اعتقد الشيء : اشتراه أو اقتناه .
(٣) فلج : اسم واد (٤) كنية جرير (٥) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

يا عمرَ الخيراتِ والمكارِمِ وعُمَرَ الدَّسائِعِ (١) العظائِمِ
إنى امرؤٌ من قَطَنِ بن دارِمِ طلبتُ دَيْني (٢) من أخى مَكارِمِ
إذْ تَنْتَحِى والليلُ غيرُ نائِمِ عند أبى يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لهذا البدوىّ عندى شهادةٌ عليك ، فقال ؛ أعرفُها ؛ ادْنُ يا دُكَيْن ، أنا كما ذكرتُ لك ، إن نفسى لم تَنَل شيئاً قط إلا تاقت لما هو فوقَه ، وقد نلتُ غايةَ الدنيا ، فنفسى تتوقُ إلى الآخرة ، والله ما رَزَأْتُ (٣) من أموال الناس شيئاً ؛ ولا عندى إلا ألفُ درهم ، فخذ نصفَها .

قال دُكين : فوالله ما رأيتُ ألفاً كان أعظم بركةً منه .

---

(١) الدسائع : العطايا (٢) يشير إلى وعده السابق (٣) رزأ من ماله شيئاً : إذا أخذ .

٩٠ — فغُضَّ الطرف إنك من نمير*

كان رَاعِي[١] الإبل يَقِضي للفرزدق على جرير[٢] ويُفضِّله. فلما أكثر من ذلك خرج جريرٌ إلى رجالٍ من قومه، فقال: هلَّا تَعْجَبُون لهذا الرجل الذى يَقضى للفرزدق علىّ، وهو يهجو قومَه وأنا أمدحهُم!

ثم خرج ذاتَ يومٍ يمشى ولم يركب دابّتَه ـ وكان لراعى الإبل والفرزدق وجلسائهما حَلْقة بأعلى المِرْبَد بالبصرة يجلسون فيها ـ قال جرير: فخرجت أتعرّض له لألقاه حيث كنتُ أراه يمرُّ إذا انصرف من مجلسه، وما يسرنى أن يعلم أحد، حتى إذا مَرّ على بغلة له وابنهُ جَنْدَلٌ يسير وراءه على مُهْر له أَحْوَى محذوف الذنب[٣]؛ فلما استقبلته قلت: مرحباً بك ياأبا جَنْدَل؟ وضربت بشمالى على مَعْرفةِ بغلته، ثم قلت: يا أبا جندل؛ إن قولَك يُسْتَمع، وإنك تُفضِّل الفرزدقَ علىَّ تفضيلًا قبيحاً، وأنا أمدحُ قومك وهو يهجوهم، ويكفيك من ذلك إذا ذُكِرْنا أن تقولَ: كلاهما شاعر كريم، ولا تحتملُ منى ولا مِنْه لائمةً.

فبينما أنا وهو كذاك وما ردّ علىّ شيئًا إذ لحق به ابنهُ جَنْدل، فرفع

---

(١) هو عبيد بن حصين، ويكنى أبا جندل، والراعى لقب غلب عليه لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إياها. (٢) هو جرير بن عطية الخطفى أشهر شعراء عصره، وأصفاهم ديباجة، عاش عمره كله يناضل الشعراء ويساجلهم، وكان هجاء مراً، لم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل مات سنة ١١٠ هـ. (٣) الأحوى: الذى يضرب إلى السواد من شدة خضرته. ومحذوف

كَرْمانية[1] معه ، فضرب بها عَجُزَ بَغْلته ، ثم قال : إنّى لأَرَاكَ واقفاً على كلب من بنى كُلَيب كأنك تخشى منه شرًّا أو تَرْجُو منه خيراً !

وضرب البغلةَ ضربةً فرَمَحَتْنِى[2] رَمْحة وقعتْ منها قَلَنْسُوَتى ،فوالله لوعرّج علىّ الراعى لقلت : سَفِيهٌ غَوَى ـ يعنى جَنْدَلًا ابنه ـ ولكن لا والله. ما عَاجَ[3] علىّ ، فأخذتُ قَلَنْسُوتِى فمسحتها ؟ ثم أعَدْتها على رأسى ، ثم سمعتُ الراعىَ قال لابنه : أما والله لقد طرحتَ قلنْسُوَتَه طرحةً مشئومة .

فانصرف جريرٌ غضبان حتى صلّى العشاء بمنزله فى عِلِّيَّة[4] له ، ثم قال :ارفعوا إلىّ باطيَةً[5] من نبيذ وأسرِجُوا لى . فأسرجوا له ، وأتوه بباطِيَـةٍ من نبيذ . فجعل يُهَمْهِمُ[6] ، فسمعتْ صوته عجوز فى الدار ، فاطّلَعَتْ فى الدرجة حتى نظرتْ إليه ، فإذا هو يَحْبُو على الفِراش عُرْيانًا لما هو فيه ، فانحدرتْ فقالت : ضيفُـكم مجنون ! رأيت منه كذا وكذا ! فقالوا لها : اذهبى لِطِيّتِك ، نحن أعلم به وبما يُمَارِس . فما زال كذلك حتى كان السَّحَرُ ، ثم إذا هو يكبِّر ، قد قالها ثمانين بيتًا فى بنى نمير ، فلما ختمها بقوله :

فَغُضّ الطَّرْفَ إنك من نُمَـيْرٍ فلا كَعْباً بلغْت ولا كِلابَا

كبَّر ، ثم قال : أخْزَيْتُه وربِّ الكعبة . ثم أصبح ،حتى إذا عرف أن الناسَ قد جلسوا فى مجالسهم بالمِرْبد ، وكان يعرف مجلسَه ومجلسَ الفرزدق ، دعا بدُهْنٍ فادّهن ، وكفَّ[7] رأسه ـ وكان حسن الشعر ـ ثم قال : يا غلام ؛ أسْرِجْ لى ،

---

(١) نوع من السياط (٢) رمحته : رفسته (٣) عاج : رجع وعاد (٤) العلية : الغرفة (٥) الباطية : الناجود ، وهو إناء الخمر (٦) الهمهمة والهينمة : الصوت الخفى (٧) كف شعره : جمعه وضم أطرافه .

فأسْرج له حصاناً ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان بموضع السلام قال : يا غلام — ولم يسلّم — قل لعَبِيد [(١)] أبَعثك نسوتك تُـكْسِبُهُنّ المال بالعراق ! أما والذى نفس جرير بيده لترجعَنّ إليهن بِمَـيْرٍ [(٢)] يَسوءهنّ ولا يسرُّهن !

ثم اندفع فيها فأنشدها، فنـكس الفرزدق وراعى الإبل، وأَرَمَّ [(٣)] القوم، حتى إذا فرغ منها سار ، وثبت راعى الإبل ساعة ، ثم ركب بغلته بِشَرٍّ وعَرٍ [(٤)] ، وخَلّى المجلِسَ حتى ترقّى إلى منزله الذى ينزله، ثم قال لأصحابه : ركابَـكُمْ ركابكم، فليس لـكم هاهنا مقام ، فَضَحكم والله جرير ! فقـال له بعض القوم : ذاك شؤمك وشؤم ابنك . ثم رحل بنو نمير فوجدوا البيتَ قد سبَقَهُمْ .

---

(١) هو راعى الإبل (٢) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان ، وقد مار ميراً (٣) أرم القوم : سكتوا . (٤) أصل العر : الجرب .

٩١ — لا أهجو شاعراً هذا شعره*

هجا الأَحْوَصُ [١] رَجُـلاً من الأنصار من بنى حَرَام يقال له ابن بشير ، وكان كثيرَ المـال ؛ فغضب من ذلك ، وخرج حتى قَدِم على الفرزدق بالبَصْرَة ، وأهـدى إليه وأَلْطَفَهُ [٢] فقبلَ منه ؛ ثم جلسا يتحدَّثان ، فقال الفرزدق : ممن أنت ؟ قال : من الأَنْصار ؛ قال : ما أَقْدمك ؟ قال : جئتُ مستجيراً بالله عزّ وجل ، ثم بك من رجُلٍ هَجَانى ؛ قال : قد أَجَارك الله منه وكفاكَ مَئُونته ؛ فأين أنت عن الأحوص ؟ قال : هو الذى هجانى ؛ فأطرق ساعة ثم قال : أليس هو الذى يقول :

أَلَا قِف برسمِ الدَّار فاسْتنْطِقِ الرَّسما فقد هاج أحزانى وذكّرنى نُعْمَا

قال : بلى ؛ قال : والله لا أَهْجُوا رجلاً هذا شِعْرُه .

فخرج ابنُ بشير فاشـترى أفضلَ من الشراء الأول من الهدايا ، فقدِمَ بهـا على جرير ، فأخـذها وقال له : ما أقْدمك ؟ قال : جئتُ مستجيراً بالله وبك من رجل هجانى ؛ فقال : قد أجارك الله عز وجل منه وكفاك ، أين أنت عن ابنِ عمّك الأحوص بن محمد ؟ قال : هو الذى هجانى ؛ فأطرق ساعـة ثم قال : أليس هو الذى يقول :

---

* الأغانى : ٤ : ٢٦٢

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله من الأوس ، وكان ميالا إلى الرخاء ، قليل المروءة والدين مع ميل إلى هجو النـاس ، إلا أنه كان شاعراً ذا ديباجة صافية ، وحلاوة وعذوبة ، توفى سنة ١٠٥ هـ (٢) ألطفه : أكرمه وبره بطرف التحف .

تمشّى بشتَمى فى أكاريسِ[1] مالك ... تُشيدُ به كالكلب إذ ينبح النّجْماَ

فما أنا بالمخسوسِ[2] فى جِذْم مالكٍ[3] ... ولا بالمُسَمَّى ثم يلتزمُ الإسماَ

ولكنّ بيتى إن سألت وَجدته ... توسط منها العزّ والحسبَ الضَّخْماَ

قال : بلى والله ؛ قال : فلا والله لا أهجو شاعراً هذا شعرُه . فاشترى أفضلَ من تلك الهدايا ، وقدِم على الأحوص ، فأهداها إليه وصالَحه .

---

(١) الأكاريس : جمع الكرس . وهو الجماعة من الناس . (٢) رجل مخسوس : مرذول .
(٣) الجذم : الأصل .

٩٢ — جارية *

وفد الكُمَيت(١) على يزيد(٢) بن عبد الملك ، فدخل عليه يوماً وقد اشتُرِيَتْ له سلامة القَس؛ فأُدخِلت إليه والكميتُ حاضر ، فقال له : هذه جارية تباَع ، أفترى أن نبتاعها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، وما أرى أنّ لها مِثلا فى الدنيا فلا تفوتنّك .

قال : فصفها لى فى شعر حتى أَقْبَلَ رأيك ، فقال :

هى شمسُ النهار فى الحسن إلاّ ... أنها فُضِّلت بقتل الظِّراف(٣)

غَضَّة بضة رخيم لَعُوبٌ ... وَعْثَة(٤) المتن شَخْتَة(٥) الأطراف

زانها دَلُّها وثغرٌ نقِيٌّ ... وحديثٌ مُرَتَّلٌ غيرُ جافِ

خلقتْ فوقَ منيَةِ المتمنِّى ... فاقبل النصحَ يابن عبد منافِ

فضحك يزيد وقال : قد قَبِلنا نصحك ومشورتك وأمر له بجائزةٍ سنية .

---

* مهذب الأغانى : ٥ ـ ٢٠٧

(١) هو الكميت بن زيد الأسدى ، كان شاعرا عالما بلغات العرب ؛ خبيرا بآيائها ، من شعراء مضر المتعصبين على اليمن ، وكان مشهوراً بالتشيع لبنى هاشم ، توفى سنة ١٢٦ هـ .

(٢) من ملوك الدولة الأموية فى الشام ، تولى الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ ، ولم يطل عهده إذ توفى سنة ١٠٥ هـ .

(٣) الظراف : جمع ظريف . (٤) امرأة وعثة : كثيرة اللحم ، كأن الأصابع تسوخ فيها من لينها وكثرة لحمها . وامرة وعثة الأرداف : لينتها . (٥) الشخت : الدقيق الضامر من الأصل لا هزالا .

٩٣ — فَضَحْتُ شيخاً من قريش وعذَّبتنى! *

حدّث مُصعب بن عبد الله عن أبيه قال : أتانى أبو السائب [١] المخزومى فى ليلة بعد ما رَقَدَ السامِرُ [٢] فأشرفْتُ عليه ، وقلت : هل مِن حاجة ؟ فقال : سَهِرتُ الليلة فذكرتُ أخاً لى أستمتعُ به ، فلم أجد أحداً سواك ! فلو مضينا إلى العَقِيق [٣] فتناشدنا وتحدّثنا ! قلت : نعم ! فنزلتُ ؛ فما زال فى حديث إلى أن أنشدته فى بعض ذلك بيتين للعَرْجى :

بَاتَا بأَنْعَمِ ليــلةٍ حتى بدا　　صبحٌ تلوَّحَ [٤] كالأغرّ الأشْقَر

فتلازما عند الفراق صَبَابةً　　أَخْذَ الغريمِ بفضْل ثوب المُعْسِر

فقال : أعِدْه علىّ ! فأعــدته ! فقال : أحسن والله ، امرأته طالق إن نطق بحرفٍ غيره حتى يرجعَ إلى بيته .

فمضينا فلقينا عبد الله بن حسن ، فلما صِرْنا إليه وقف بنا ، وهو منصرف يريد المدينة ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازَما عنــــد الفراق صبابةً　　أخذ الغريم بفضل ثوْبِ المُعْسر

---

* الأغانى : ١ : ٣٩٨ ، ذيل زهر الآداب : ٣٨

(١) اسمه عبد الله ، وكان أشراف المدينة يقدمونه ويعظمونه لشرف منصبه وحلاوة طربه ، وغزارة أدبه ، وجده يكنى أبا السائب أيضاً ، وكان خليصاً للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الإسلام فكان النبى إذا ذكره يقول : نعم الخليص كان أبو السائب لا يدار ، ولا يمارى (٢) السامر : السمار ، وهم القوم يسمرون ، والسمر : حديث الليل (٣) العقيق : موضع بالمدينة .
(٤) تلوح : بان ووضح .

فالتفت إلىّ وقال : متى أنكرتَ عقلَ صاحبك ؟ قلت : منذ الليلة ! قال : إنّا لله ! أى كهلٍ أُصيبت به قريش !

ثم مَضَيْنا فلقِينا محمد بن عِمْران التيْمِى ، قاضىَ المدينة ، يريد مالاً على بغلة له ، وكان أثقلَ الناس جسما ، ومعه غلامْ له على عنقه مِخْلاةٌ فيها قيدُ البغلة ، فسلم عليه ، ثم قال : كيف أنتَ يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عنـد الفراق صبابة ... أَخذَ الغريم بفَضْل ثوْبِ المعسر

فالتفت إلىّ وقال : متى أنكرتَ عقـلَ صاحبك ؟ قلت : آنفاً ! فتركَنى وانصرف ، فقلت : أَفَتَدَعُه هكذا ! ؟ ما آمنُ أن يَتهورَ[1] فى بعض آبار العقِيق ؛ قال : صدقت ! يا غلام ؛ هات قيد البغـلة ، فوضعه فى رجله ، وهو ينشدُ البيت ويشير بيديه إليه ، يُرِى أنه يفهمُ عنه قِصَّته ، ثم نزل الشيخُ عن البغـلة ، وقال : يا غلام ؛ احمله على بغلتى ، وألحقه بأهله .

فلما كان بحيث علمتُ أنه قد فاته أخبرته الخبر ، فضحك وقال : قبَّحك الله ماجِناً ! فَضَحْتَ شيخاً من قريش ، وعذبتنى وأنا لا أقدرُ أنْ أتحرَّكَ !

---

(١) يتهور : يسقط .

٩٤ — فى دار هشام بن عبد الملك *

قال حمّاد[1] الرّاوية : كان انقطاعى إلى يزيد بن عبد الملك. فكان هشام[2] يَجْفُونى لذلك دون سائرِ أهله من بنى أمية فى أيام يزيد . فلما مات يزيدُ، وأفضَتِ الخلافةُ إلى هشام خِفتُه ، فمكثتُ فى بيتى سنةً لا أخرجُ إلّا لمن أثِقُ به من إخوانى سرًّا .

فلما لم أسمعْ أحداً يذكرنى سنةً أمِنْتُ فخرجتُ فصلّيت الجمعة ، ثم جلستُ فإذا شُرَطيّان قد وقفا علىّ فقالا لى : ياحمّاد ؛ أجبِ الأمير يوسف بن عمر[3] . فقلت فى نفسى : مِنْ هذا كنتُ أحْذَر ، ثم قلت للشّرَطيّيْنِ : هل لكما أن تَدَعانى آتى أهلى فأودّعهم وَدَاعَ مَنْ لا ينصرف إليهم أبداً ، ثم أصير معكما إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك من سبيل .

فاستسلمتُ فى أيديهما وصِرتُ إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان الأحمر[4] . فسلّمتُ عليه فرد علىّ السلام ، ورمى إلىّ كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد فإذا قرأتَ كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية مَنْ يأتيك به غيرَ مُروَّع ولا مُتَعْتَع[5] ، وادفع إليه

* ثمرات الأوراق : ١ : ١١٢ ، الأغانى : ٦ : ٧٥

(١) هو حماد بن ميسرة، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وكانت ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ، فيسألونه ويجزلون صلته (٢) انظر صفحة ٤٥

(٣) لم يكن يوسف بن عمر والياً على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان الوالى عليها خالد القسرى حتى سنة ١٢٠ هـ . ثم ولى يوسف بعده . (٤) الإيوان : البيت يبنى طولا

(٥) غير متعتع : من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه .

خمسمائة دينار وجملاً مَهْرِيًّا [١] يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دِمَشْق » .

فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جمل مَرْحُول [٢] ، فوضعتُ رجلى فى الغَرْز [٣] وسِرتُ اثنتى عشرة ليلة ، حتى وافيت بابَ هشام ، فاستأذنتُ فأُذِنَ لى ، فدخلتُ عليه فى دار قَوْرَاء [٤] مفروشةٍ بالرُّخام ، وهو فى مجلس مفروش بالرُّخام ، و بين كل رُخَامتين قضيبُ ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشامٌ جالس على طِنْفِسَةٍ حمراء ، وعليه ثياب خَزٍّ حُمْر ، وقد تضَمَّخَ بالمسك والعنبر ، و بين يديه مسك مفتوت فى أوانى ذهب يُقَلِّبُه بيده فتفوحُ روائحه ، فسلّمتُ فرد علىّ ، واستدنانى فدنوت حتى قبّلتُ رجلَه ، وإذا جاريتان لم أَرَ قبلهما مثلَهما ، فى أُذُنَىْ كلٍّ واحدة منهما حَلْقتان من ذهب ، فيهما لؤلؤتان تتوقّدان .

فقال لى : كيف أنت ياحَمَّاد ؟ وكيف حالُك ؟ فقلت : بخيرٍ يا أمير المؤمنين ؛ قال : أتدرى فيم بعثتُ إليك ؟ قلت : لا . قال : بعثتُ إليك لبيتٍ خطر ببالى لم أدرِ مَنْ قاله . قلت : وما هو ؟ فقال :

فدعَوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءت قَيْنَةٌ فى يمينهـــا إبريقُ

قلت : هذا يقوله عَدِىّ بن زيد فى قصيدةٍ له . قال فأَنْشِدنيها ، فأنشدته :

بَكَر العاذلون فى وَضَح الصُّبْـــحِ يقولون لى : ألَا تَسْتفيقُ

ويلومون فيكِ يابْنَةَ عبـد اللـــه والقلبُ عنـــدكم موهوقُ [٥]

لستُ أدرى إذ أكثروا العَذْلَ عندى أعدوٌّ يلومنى أم صـــــديقْ

---

(١) مهرة بن حيدان : أبو قبيلة ، وهم حى عظيم ، وإبل مهرية : منسوبة إليهم (٢) مرحول: عليه الرحل (٣) الفرز : ركاب الرحل من جلد ، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب (٤) دار قوراء : واسعة (٥) الموهوق : المشدود بالوهق ، وهو الحبل .

زانها حسنُهـــــا وفرعٌ عميم   وأثيثٌ صلْتُ الجبينِ أنيقُ (١)
وثَنَايَا مفلَّجَاتٌ عِـــــذَابٌ   لا قِصَارٌ ترَى ولا هُنَّ رُوقُ (٢)
فدعوا بالصَّبُـــوح يوماً فجاءتْ   قَيْنَةٌ فى يمينهـــــا إبريقُ
قَدَّمتـــه على عُقار كعين الديك صَفَّى سلافَهـــا الرَّاوُوقُ (٣)
مُرّةٌ قبـــل مَزْجها ، فإذا ما   مُزجت لَذَّ طعمُها مَنْ يَذُوقُ
وطَفَتْ فوقهـــا فقاقيعُ كالدّ   رّ صِغَارٌ يُثِيـــرُها التَّصْفيقُ
ثم كان المزاج ماءَ سماء   غـــيرَ ماآجِنٍ ولا مَطْروق

فطرب ، ثم قال : أحسنتَ والله يا حماد . يا جاريةُ ؛ اسقيـه . فسقتنى شَربةً ذهبت بثلث عَقْلى . وقال : أَعِد . فأعـدتُ فاستخفَّه الطرب ، حتى نزل عن فرشه .

ثم قال للجارية الأخرى : اسقيه . فسقتنى شربةً ذهبت بثلث : عقلى . فقلت إن سقتنى الثالثة افتضحت . فقـال : سَلْ حوائجك . فقلت : كائنةً ما كانت ؟ قال : نعم . قلت : إحدى الجاريتين ، فقال لى : هما جميعاً لك بما عليهما وما لَهما . ثم قال للأولى : اسقيه . فسقتنى شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحتُ فإذا بالجاريتين عند رأسى وإذا عدّة من الخدم مع كلٍّ واحـد منهم بَدْرة ؛ فقال لى أحدهم : أميرُ المؤمنين يَقْرَأُ عليك السلام ويقول لك : خذ هـذه فانتفع بهـا . فأخذتها والجاريتين وانصرفت .

(١) الفرع : الشعر ، والأثيث الكثير ، يطلق على الشعر وعلى البـدن الممتلىء باللحم ، وهو المراد هنـا والصلت : الواضح (٢) روق : طوال (٣) الراووق : ناجود الشراب الذى يروق فيه .

٩٥ — هروب الكميت*

كان حكيمُ بن عبّاس الأعور الكَلْبي وَلِعاً بهجاء مُضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه ويُجيبهم ، وكان الكُمَيْت يقول : هو والله أشعرُ منكم ، قالوا : فأجبِ الرجل ؛ قال : إن خالدَ بن عبد الله القَسْرِي مُحسنٌ إلىّ ، فلا أقدِرُ أن أَرُدّ عليه . قالوا : فاسمعْ بأذُنِك ما يقول فى بناتِ عمك و بنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك ؛ فحمى الكميتُ لعشيرته ، وقال قصيدة هجا فيها أهلَ اليمن ، و بلغ خالداً خبرُها فقال : لا أبالى مالم يجْرِ لعشيرتى ذِكرٌ ، فأنشدوه القصيدةَ وفيها ذمٌّ لعشيرة خالد ، فأحفَظْتُه[١] عليه ، ثم قال : فَعَلها ، والله لأقتلنّه !

ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيَّرهن نهايةً فى حُسْنِ الوجوه والكمال والأدب ، فروّاهن الهاشميات ودَسَّهُنّ مع نخّاس إلى هشام بن عبدالملك ، فاشتراهنّ جميعاً ، فلما أَنِسَ بهنّ استنطقهنّ ، فرأى فَصاحة وأَدباً ، فاستقرأهن القرآنَ فقرَأْنَ . واستنشدهن الشعرَ فأنشدْنَه قصائد الكميت الهاشميات ، فقال : ويلكن ! مَنْ قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدى ، قال : وفى أى بلد هو ؟ قلن : فى العراق ، ثم بالكوفة .

فكتب إلى خالد ـ وهو عامله على العراق : ابعث إلىّ برأس الكميت بن زيد ، فبعث خالد إلى الكميت فى الليل ، فأخذه وأَوْدَعه السجن ؛ ولما كان من

---

(١) الأغانى : ١٥ : ١١٠

(٢) أحفظته : أغضبته .

الغد أقرأ مَنْ حضره من مُضر كتابَ هشام ، واعتذر إليهم مِنْ قتله ، وآذنهم فى إنفَاذِ الأمر فيه فى غد .

ثم قال لِأبان بن الوليد البَجَلى ـ وكان صديقاً للكميت : انظر ماورد فى صديقك ، فقال : عزّ علىّ والله ذلك .

ثم قام أبان فبعثَ إلى الكميت بغلام على بغل وقال له : أنت حرٌّ إن لحقتَه والبغل لك ، وكتب إليه : « قد بلغنى ماصرتَ إليه وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل، وأرى لك أن تبعث إلى حُبَّى[1] ، فإذا دَخَلَتْ إليك تنقَّبْتَ بنقابها ، ولبستَ ثيابها وخرجتَ ، فإنى أرجو ألا يُوْبَه لك » .

فأرسل الكُمَيْت إلى أبى وَضاح حبيب بن بديل و إلى فتيانٍ من بنى عمه فدخل عليه حَبيب ، فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسدَّد رأيه .

ثم بعث إلى حُبَّى امرأته ، فقصّ عليها القصة وقال لها : أى ابنة عم ، إن الوالى لا يقدم عليك ، ولا يُسْلِمُكِ قومُك ، ولو خفتهُ عليك لما عرَّضْتُكِ له ؛ فألبسَتْهُ ثيابها و إزارها وخمَرَتْهُ ، وقالت له : أقْبِلْ وأدبِر ، ففعل ، فقالت : ماأُنكِر منك شيئاً إلا يبساً فى كَتِفك ، فاخرُجْ على اسم الله ـ وأخرجت معه جارية لها ـ فخرج وعلى باب السجن أبو وَضاح ومعه فتيان من بنى أسد ، فلم يُوْبَه له ، ومشى والفتيان بين يديه ، فمرَّ بمجلس من مجالس بنى تميم ؛ فقال بعضهم : رجلٌ وربِّ الكعبة ، وأمر غلامه فاتبعه ، فصاح به أبو وضاح : يا كذا وكذا ، لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم ! وأومأ إليه بنعْله ، فولّى العبد مُدبراً وأدخله أبو وضاح منزله .

---

(١) حبى بنت نكيف : زوج الكميت ، وكانت ممن يتشيع .

ولما طال على السجّان الأمر نادى الكميت فلم يجبه ، فدخل ليعرفَ خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك ! لا أم لك ! فشق ثوبَه ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر ؛ فأحضر حُبّى ، وقال لها : ياعدوّة الله ؛ احتلتِ على أمير المؤمنين ، وأخرجت عَدوّه ! لأمثّلنّ بكِ ، ولأصنعنّ ولأفعلنّ ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ماسبيلُك على امرأة مِنّا خُدِعَتْ ! فخافهم ، وخلّى سبيلها .

قال الراوى : وسقط غرابٌ على الحائط فنَعَب[1] ، فقال الكميت لأبى وضاح : إنى لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط . فقال : سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله . فقال له : لا بدّ من أن تُحوّلنى[2] فخرج به إلى بنى عَلقَمة — وكانوا يتشيعون — فأقام فيهم ، ولم يُصبح حتى سقط الحائط الذى وقع عليه الغُراب .

وأقام الكميت مدةً متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خفّ عنه خرج ليلاً فى جماعة من بنى أسد على خوفٍ ووَجل ، وكان عالماً بالنجوم مهتدياً ، فلما صار سحيراً صاح بالفتيان هوّمُوا[3] وقام هو يصلى . ثم رأى واحدٌ منهم شخصاً ، فتَضَعْضَع[4] له ، فقال الكميت : مالك ؟ قال : أرى شيئاً مقبلا ، فنظر إليه فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية ، فأطعموه يَدَ جزور فتعرَّقها[5] ، ثم أهوَوْا له بإناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يَعوى ، فقال الكميت : ماله ؟ ويله ! ألمْ نطعمه ونَسقِه ؟ وما أعْرَفَنِى بما يريد ؛ هو يُعْلِمنا أنّا لسنا على الطريق ، تيامَنُوا يافتيان ، فتيامنوا . فسكن عُواؤه !

---

(١) نعب : صاح (٢) تحول عنه : زال إلى غيره (٣) أصل التهويم والتهوم : هز الرأس من النعاس (٤) تضعضع : خضع وذل (٥) تعرق العظم : أ كل ماعليه من اللحم .

ولم يزلْ يسير حتى جاء إلى الشام ، وتوارى فى بنى أسد وتميم ، وأرسل إلى أشراف قريش ـ وكان سيدَهم يومئذ عَنْبَسَةُ بن سعيد بن العاص ـ فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض ، وأتوا عَنْبَسَة ، فقالوا : يا أبا خالد ؛ هذه مَكْرُمَة قد أتاكَ الله بها ؛ هذا الكُمَيْتُ بن زيد لسانُ مضر ، كتب أميرُ المؤمنين فى قتله ، فنجا حتى تخلّص إليك وإلينا .

قال : فمُرُوه أن يعوذَ بقبر معاوية بن هشام ؛ فمضى الكُمَيْتُ ، فضرب فُسْطاطه عند قبره ، ومضى عَنْبَسة ، فأتى مَسْلَمَةَ بن هشام فقال له : يا أبا شاكر ؛ مكرُمة أتيتُك بها تبلغُ الثريّا إن اعْتَقَدْتَهَا[1] ، فإن علمت أنك تفى بها وإلا كتمتَها . قال : وما هى ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم بما لم يُسمع بمثله ، فقال : علىَّ خلاصُه .

ودخل على أبيه هشام فى غير وقت دخول ـ فقال له هشام : أجئت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هى مَقْضيّة إلا أن يكون الكميت ، فقال : ما أحبُّ أن تستثنى علىّ فى حاجتى ، وما أنا والكميت ، فقالت أُمّه : والله لتقضينَّ حاجته كائنةً ما كانت . قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قُطْرَيها[2] ؛ قال : هى الكميت يا أمير المؤمنين ! وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولا لم يُقَلْ مثله ، قال : قد أمنته وأجزتُ أمانك له ، فاجْلِسْ له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا .

---

(١) اعتقد مالا وضيعة : اقتناهما .

(٢) القطر : الجانب والناحية .

فقعدَ له ، فتكلم بخطبة ارتجلها ما سُمع بمثلها قط ، وامتدحه بقصيدته الرائية ، فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك من الوقو ف بها وإنك غيرُ صاغر

دَرَجَتْ عليها العاديا ت الرائحاتُ من الأعَاصر(١)

إلى أن قال :

فالآن صرتُ إلى أميّة والأمورُ إلى المصاير

وجعل هشامٌ يغمز مسلمة بقضيبٍ فى يده ، فيقول : اسمع ، اسمع ، ثم استأذنه فى مرثيّة معاوية ، فأذن له ، فأنشده قوله :

سأبكيك للدنيا وللدين إننى رأيتُ يدَ المعروف بعدك شَلَّتِ

فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام وصلت

فبكى هشام بكاء شديداً ، فوثب الحاجب فسكته ، ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً ، فحشدت له المضرية بالهدايا ، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم ، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته ، وأنه لا سلطان له عليهم ، وجمعت له بنو أمية مالاً كثيراً .

ولم يُجمع من قصيدته تلك يومئذ إلا ماحفظه الناس منها ، وسئل عنها ، فقال : ما أحفظ منها شيئاً ، إنما هو كلام ارتجلته .

---

(١) الأعاصر : الأعاصير .

٩٦ — وشاية *

كان الوليد[1] بن يزيد يُكرم طُرَيحاً[2]، وكانت له منه منزلةٌ قريبة ومكانة، وكان يُدْنِي مجلسَه، وجَعَله أولَ داخل وآخرَ خارج، ولم يكن يُصْدِر إلا عن رأيه. فاستفرغ مديحه كلَّه وعامة شعره فيه، فحسده ناسٌ من أهل بيت الوليد، وقَدِم حمادٌ الراوية على التَّفِئة[3] الشام، فشكَوْا ذلك إليه، وقالوا: والله لقد ذهب طُرَيحٌ بالأمير، فما نالنا منه ليلٌ ولا نهار؛ فقال حماد: ائتونى من يُنشد الأمير بيتين من شعر؛ فأُسْقِطَ منزلتَه.

فطلبوا إلى الخادم الذى كان يقومُ على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم على أن يُنْشِدَهما الأمير فى خَلْوة. فإذا سأله مِنْ قولِ مَنْ هذا؟ قال: من قولِ طُرَيح، فأجابهم الغلام إلى ذلك وعلَّموه البيتين.

فلما كان ذات يوم دخل طُرَيحٌ على الوليد، وفُتِح الباب وأُذِنَ للناس؛ فجلسوا طويلًا، ثم نهضوا، وبقى طريح مع الوليد وهو ولىُّ عهد ثم دعا بغَدَائه فتغدَّيا جميعاً.

---

* الأغانى: ٣ : ٣١٢

(١) كان الوليد قبل أن يلى الخلافة من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشعرائهم، ولما ولى الخلافة انهمك فى اللهو والشراب وسماع الغناء، مات مقتولا سنة ١٢٦ هـ. (٢) هو طريح بن إسماعيل الثقفى، نشأ فى دولة بنى أمية، واستفرغ شعره فى الوليد بن يزيد، وأدرك دولة بنى العباس، ومات فى أيام المهدى سنة ١٦٥ هـ. (٣) التفئة: الحين والزمان.

ثم إن طُرَيحاً خرج وركب إلى منزله ، وترك الوليدَ فى مجلسه ليس معه أحد . فاستلقى على فراشه ، واغتنم الغلامُ خَلْوَته ؛ فاندفع ينشد :

سِيرى ركابى إلى مَنْ تَسْعَدِين به ... فقد أقمتُ بدار الهُون ماصَلحا
سيرى إلى سيِّدٍ سَمْحٍ خلائقُه ... ضَخْمِ الدَّسيعة(١) قَرْمٍ يَحْمِلُ المدَحا(٢)

فأَصْغَى الوليد إلى الغلام بسمعه . وأعاد الغلامُ غيرَ مرة . ثم قال الوليد : ويحك يا غلام ! مِنْ قولِ مَنْ هذا ؟ قال : من قول طُريح .

فغضب الوليد حتى امتلأ غَيظاً ، ثم قال : والهفا على أمٍّ لم تلدْنى ! قد جعلتُه أولَ داخل وآخر خارج ، ثم يزعم أن هشاماً يحمل المِدَحَ ؛ ولا أَحمِلُها .

ثم قال : علىّ بالحاجب ، فأتاه . فقال : لا أعلم أنك أذنتَ لطُرَيح ؛ فإن حاورك فى ذلك فاخْطَفْه بالسيف .

فلما كان بالعَشىّ وصُلِّيَتِ العصر جاء طُرَيح للساعة التى كان يُؤْذَنُ له فيها ؛ فدنا من الباب ليدخلَ ؛ فقال له الحاجب : وراءك ! فقال : مالك ! هل دخل على ولىِّ العهد أحدٌ بعدى . قال : لا ! ولكن ساعةَ ولَّيْتَ مِنْ عنده دعانى فأمرنى ألّا آذن لك ، وإن حاوَرْتَنى فى ذلك خطفتُكَ بالسيف .

فقال : لك عشرةُ آلاف وأْذَنْ لى فى الدخول عليه . فقال له الحاجب : والله لو أعطيتَنى خَراج العراق ما أذِنتُ لك فى ذلك ، وليس لك من خير فى الدخول عليه فارجعْ . قال : ويحك ! هل تعلمُ من دَهَانى عنده ؟ قال الحاجب :

---

(١) الدسيعة : العطية ، والقرم : السيد . (٢) يحمل المدح : يدخرها ويعرفها ويكافئ عليها من قوله تعالى : « وكأين من دابة لاتحمل رزقها » .

لا والله، والله لقد دخلتُ عليه وما عنده أحـــد ، ولـكنَّ الله يُحْدث مايشـــاء فى الليل والنهار .

فرجع طُريح ، وأقام بباب الوليد سنةً لا يَخْلُصُ إليه[1] ، ولا يقـدر على الدخول عليه ، وأراد الرجوع إلى بلده وقومه . فقال : والله إن هذا لَعَجْزٌ بى أن أرجعَ من غير أن ألقى ولىَّ العهد ، فأَعْلمَ مَنْ دهانى عنده ؛ ورأى أناساً كانوا له أعداء قد فرحوا بما كان من أمره ، فـكانوا يدخلون على الوليد ويحـدِّثونه ، ويصْدرُ عن رأيهم ، فلم يزل يلطُفُ بالحاجب ويمنِّيه حتى قال له الحاجب : أما إذ أطَلْتَ المقام فإنى أكرَه أن تنصرفَ على حالك هذه ، ولـكنَّ الأمير ، إذا كان يوم كذا وكذا ، دخل الحمَّام ثم أمر بسريره فأُبْرِزَ ، وليس عليه يومئذ حِجَابٌ ، فإذا كان ذلك اليوم أعَلمْتُك ؛ فتكون قد دخلتَ عليه وظفِرتَ بحاجتك، وأكون أنا على حال عُذْر .

فلما كان ذلك اليوم دخلَ الأميرُ الحمامَ وأمر بسريره فأُبرز ، وجلس عليه ، وأُذِن للناس ؛ فدخلوا عليه ، والوليد ينظر إلى مَنْ أقبل . وبعث الحاجب إلى طُريح فأقبل وقد تَتَامَّ الناس ؛ فلما نظر الوليد إليه من بعيد صرف عنه وَجْهه ، واسْتَحْيَا أن يردَّه من بين الناس ؛ فدنا فسلَّم فلم يرد عليه السلام ؛ فقال طريح يستعطفـــه ويتضرع إليه :

نام الخــــلىُّ من الهموم وبات لى ... ليـــلٌ أكابِدُه وهمٌّ مُضْلِـعُ[2]

جزَعًا لمِعْتَبَةِ الوليـــد ولم أكُنْ ... من قبلِ ذاك من الحوادث أَجْزَعُ

---

(١) لا يخلص إليه : لا يصل إليه . (٢) مضلع : مثقل .

يابنَ الخلائفِ إنَّ سخطكَ لامرئٍ أنسيتَ عِصْمته بلاء مُفْظِع
فلأَنْزِعَنَّ[1] عن الذى لم تَهْوَهُ إن كان لى ـ ورأيتَ ذلك مَنْزِعُ
فاعطفْ فِداكَ أبى علىّ توسُّعاً وفضيلةً فعلى الفضيلة تُتْبَعُ
فلقد كفاكَ وزاد ما قد نالنى إن كنتَ لى ببلاءِ ضُرٍّ تَقْنَعُ[2]

فقرّبه وأدناه وضحك إليه وعاد إلى ما كان عليه .

(١) نزع عن الشىء من باب جلس : انتهى . (٢) القصيدة فى الأغانى صفحة ٣١٥ ج ٤ .

٩٧ — أشعب يبلِّغ رسالة*

بعث الوليدُ بن يزيد إلى أشْعَب(١) بعد ماطلّق امرأته سَعدة ، فقال له : يا أشعب ؛ لك عندى عشرةُ آلاف درهم ، عَلَى أن تُبَلِّغَ رسالتى سعدة ، فقال له : أحْضِر المال أنظر إليه، فأحضر الوليدُ بَدْرَة(٢) ، فوضعها أشعب على عنقه ، وقال : هاتِ رسالتك ، قال : قل لها يقول لك :

أسعدةُ هل إليكِ لنا سبيلُ ؟ وهل حتى القِيامةِ من تلاق ؟
بلى ! ولعل دهراً أن يؤاتِى بموتٍ من حليلِك أو طلاقِ
فأُصْبِحَ شامتاً وتقرَّ عينى ويُجْمعَ شملُنا بعد افتراق

فأتى أشعب الباب ، فأخْبِرَتْ بمكانه ، فأمرت ففُرِش لها فرش ، وجلست وأذِنت له ، وكان نساء المدينة لا يحتَجِبْنَ عنه ، فدخل فأنشدها ، فلما أنشد البيت الأول :

أسَعدةُ هل إليكِ لنا سبيلُ ؟ وهل حتى القيامةِ من تلاق ؟

قالت : لا والله ، لا يكونُ ذلك أبداً ، فلما أنشد البيت الثانىَ :

بلى ! ولعل دهراً أن يؤاتى بموتٍ من حليلك أو طلاقِ

قالت : كلاَّ إن شاء الله ، بل يفعل الله ذلك به ، فلما أنشد البيت الثالث :

---

* العقد الفريد : ٣ : ١٨١ ، الأغانى : ٧ : ٢٧ ، نهاية الارب : ٤ — ٤١

(١) هو أشعب بن جبير ، من ظرفاء أهل المدينة ، كان مولى لعبد الله بن الزبير ، وكان يجيد الغناء وضرب المثل بطمعه ، عمر طويلا ، وتوفى سنة ١٥٤ هـ . (٢) البدرة : كيس فيه عشرة آلاف درهم .

فأُصبحَ شامتـاً وتقرَّ عينى ويُجْمعَ شملُنـا بعـد افتراقِ

قالت : بل تـكون الشماتةُ به . ثم قالت لخدمها : خـذوا الفاسق ، فقال : ياسيدتى ؛ إنها عشرة آلاف درهم ، قالت : والله لأقتلنك أو تبلّغه كما بلّغتنى ، قال : وما تهَبِينَ لى ؟ قالت : بساطى الذى تحتى ، قال : قومى عنه ، فقامت ، فطواه ، ثم قال : هاتى رسالتك ، جعِلتُ فداكِ ، قالت : قل له :

أتبـكى على لُبنى وأنت تركتَهاَ فقد ذهبت لُبنى ؛ فما أنتَ صانع ؟

فأقبل أشعب حتى دخل على الوليد ، فأنشده البيت ، فقال : قتَلْتنى والله ؛ فما ترانى صانعاً بك ؟

اخترْ إما أن أُدَلِّيك مُنـكَّسًا فى بئر ، أو أَرْمِى بك من فوق القصر منـكَّساً ، أوأضربَ رأسك بعمودى هذا ضَرْبةً !

قال له : ما كنتَ فاعلا بى شيئاً من ذلك ! قال : ولِمَ؟ قال : لأنك لم تكن لتعذب عينين قد نظرتا إلى سَعدة .

قال : صدقت !

٩٨ — رُعْتَنى راعك الله *

غذَّى أشعبُ جَدْياً بلبنِ أُمّه وغيرِها حتى بلغ غايةً ، ثم قال لزوجته : إنى أحبُّ أن ترْضعيه بلَبنك ، ففعلت .

ثم جاء به إلى إسماعيل بن جعفر ، فقال : تالله إنه لابنى ، رضع بلبن زوجتى ، قد حَبَوتُك به ، ولم أر أحداً يستأهِله[1] سِوَاك . فنظر إسماعيلُ إليه وأمر به فذُبِح ، فأقبل عليه أشعب وقال : المكافأة . فقال : ما عندى والله اليوم شىء ، ونحن مَنْ تعرف ، وذلِكَ غيرُ فائتك .

فلما يَئِس أشْعَب منه قام من عنده ، فدخل على أبيه جعفر ، ثم اندفع فشَهق حتى التقَتْ أضلاعُه ، ثم قال : أخْلِنى ، قال : ما معنا أحد يسمع ، ولا عليك عَيْن ، قال : وثب ابنُك إسماعيل على ابنى فذبحه ، وأنا أنظر إليه ؛ فارتاعَ جعفر وصاح ، وَيْلَكَ ! وفِيم ؟ وتريد ماذا ؟ قال : أمَّا ما أريد ، فوالله مالى فى إسماعيل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبداً بعدك .

فجزاه خيراً ، وأدخله منزله ، وأخرج إليه مائتى دينار ، فقال : خُذْ هذه ولك عندنا ما تحِبّ .

وخرج إلى إسماعيل وهو لا يُبْصِر ما يطأُ عليه ، فإذا به مسترسل فى مجلسه ، فلما رأى إسماعيلُ وَجْهَ أبيه أنكره ، وقام إليه ، فقال : يا إسماعيل ؛ فعلتَها بأشعب ! قتلتَ ولده ؟ فاستَضْحَك ، وأخبره الخبر ، فأخبره أبوه بما كان منه ؛ وما صار إليه .

---

* نهاية الأرب : ٤ — ٢٨

(١) يستأهله : يستحقه .

فكان جعفر يقول لأشعب : رُعتنى راعك الله ! فيقول : روعةُ ابنك بنا فى الجدْى أكثرُ من روعتك بالمائتى الدينار .

٩٩ — كادت تموت فرحاً *

قال أشعب : تعلّقتُ بأستار الكعبة ، فقلت : اللهم أذْهِبْ منى الحِرْص والطلب إلى الناس ، فمررت بالقرشيِّين وغيرهم فلم يعطنى أحدٌ شيئاً ، فجئت إلى أمى ، فقالت : مالك قد جئتَ خائباً ؟ فأخبرتُها بذلك فقالت : والله لا تدخلُ حتى ترجعَ فتَسْتَقِيل(١) ربك ! فرجعت ، فجعلت أقول : ياربِّ أَقِلنى ، ثم رجعت ، فما مررتُ بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعْطَوْنى !

ووُهب لى غلام ؛ فجئت إلى أمى بجمَال مُوقَرَة(٢) من كل شىء ، فقالت : ما هذا الغلام ! فخِفْتُ أن أخبرها فتموت فرحاً إن قلت : وهبوه لى ، فقالت : أىّ شىء هذا ؟ فقلت : غين ، قالت : أىّ شىء ! قلت : لام ، قالت: أىّ شىء ؟ قلت : ميم ، قالت : أىّ ميم ؟ قلت : غلام ؛ فغُشِى عليها ، ولو لم أقطع الحروف لماتت فرحاً .

---

* نهاية الأرب : ٤ : ٢٨

(١) تطلب منه الإقالة : العفو .　(٢) موقرة : محملة .

١٠٠ — هلمّ إلىّ حتى أُكافِئك *

قال ابن زَبَنّج : كان أبان بن عثمان من أَهْزَل الناس ، فبينا نحن ذاتَ يوم عنده ، وعنده أَشْعَب ، إذ أقبل أعرابىّ ،معه جمل أشقرُ أزرقُ أَزْعَر[١] يتلظَّى[٢] كأنه أفعى ، والشرُّ بيِّنٌ فى وجهه ، ما يدنُو منه أحدٌ إلا شتَمه ونَهَرَه ، فقال أبان : ادْعوه لى ، فدعَوْه له ، وقيل : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك ؛ فأتاه فسلّم عليه ، فسأله أبَان بن عثمان عن نسبه فانْتَسَب له ، فقال له أبان : حيّاك الله يا خَال ؛ اجلس ، فجلس .

فقال له : إنى أطلبُ جملا مثلَ جَمَلِك هذا منذُ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه الهامَة والصُّورة والوَرِك والأخفاف ، والحمد لله الذى جعل ظَفَرى به عند من أُحِبُّه ، أتَبيعُنيه ؟ فقال : نعم أيها الأمير ! قال : فإنى قد بذلتُ لك به مائة دينار ؛ فطمع الأعرابىّ وسُرّ وانتفخ ، وبانَ الطمعُ فى وجهه .

فأَقْبَل أبانُ على أشعب ، ثم قال له : ويلك يا أشعب ! إن خالى هذا من أهلك وأقَاربك — يعنى فى الطمع — فأَوسِعْ له ممّا عندك ، فقال : نعم ! بأبى أنت وزيادة ! فقال له أبان : ياخال ؛ إنما زدتُك فى الثمن على بصيرة أن الجملَ يساوى ستين ديناراً ، ولكنى بذلتُ لك مائة دينار لقلّة النَّقد عندنا ، وإنى معطيك

---

* نهاية الأرب : ٤ : ٣٤

(١) الزعارة : الشراسة وسوء الخلق . (٢) يتلظى : يتقد من شدة الغضب .

عُروضاً[1] تساوى مائة دينار .

فزاد طمعُ الأعرابى ، وقال : قد قَبِلت ذلك أيها الأمير ! وأمرَ أبان إلى أشعب ؛ فأخرج شيئاً مغطًّى ، فقال له : أَخْرِج ما جئتَ به ، فأخرج عمامةً بالية تساوى أربعة دراهم ، فقال له : قوّمها يا أشعب ، فقال : عمامةُ الأمير يَشْهَدُ فيها الأعياد والُجمَع ويلقى فيها الخلفاء ! خمسون ديناراً ، قال : ضَعْها بين يديه .

قال ابن زَبَنّج : فقال لى : أثْبت قيمتها ؛ فكتبت ذلك ، ووُضِعَت العمامة بين يدى الأعرابىّ ، فكادَ يدخلُ بعضُه فى بعض غيظاً ، ولم يقدر على الكلام .

قال أبان : هاتِ قَلَنْسُوَتى ، فأخرج أشعب قلنسوةً طويلة بالية قد علاها الوسَخ والدُّهن وتخرقَتْ ، تساوى نصفَ درهم قال: قوِّم ، فقال : قَلَنْسُوَةَ الأمير تَعْلُو هامَته ، ويصلى فيها الصلواتِ الخمس ، ويجلسُ فيها للحُكْم ! ثلاثون ديناراً ، قال لى : أثبِتْ ، فأثبتُّ ذلك ، ووضعت القلنسوة بين يدى الأعرابىّ ؛ فاربَدَّ وجهه ، وجَحَظَتْ[2] عيناه ، وهمّ بالوثوب ، ثم تماسك .

ثم قال لأشعب : هاتِ ما عندك ! فأخرج خُفَّيْن خلقَين قد نُقِبا وتقشرا وتفتّتَا فقال : قَوِّم ، فقال : خفَّا الأمير يَطَأُ بهما الرَّوضة ويعلو بهما منبر النبى صلى الله عليه وسلم ! أربعون ديناراً ، فقال : ضَعْها بين يديه ، ثم قال للأعرابىّ : اضمم إليك متاعَك وقال لبعض الأعوان : امضِ مع الأعرابىّ واقبضْ ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً .

---

(١) العروض: كل ماسوى النقدين . (٢) جحظت عينه : عظمت مقلتها .

فوثب الأعرابيّ ، فأخـذ القُمَاشَ [١] ، فضرب به وجوهَ القوم لا يَألُو في الرَّمْيِ .

ثم نهض كالمجنون ، حتى أخذ برَأْسِ بعـيره ؛ وضحِك أبانُ حتى سقط ، وضحك من كان معه ، فـكان الأعرابيّ بعد ذلك إذا لقى أشعبَ يقول له : هلمّ إليَّ حتى أُكافئك على تقويمـك المتـاع ، يوم قوّمت ، فيهرب منـه أشعب .

---

(١) القماش : جمع قمش ، وهو الردىء من كل شيء .

١٠١ — بوزَع *

قال حمّاد : كان جعفر بنُ أبى جعفر المنصور (١) المعروف بابن الكُردِية يَسْتَخِفُ مطيع بن إياس (٢) ويحبُّه ، وكان منقطعاً إليه ، وله معه منزلةٌ حسنة ، فذكَر له حمّاداً الراوية ، وكان صديقه ، وكان مُطَّرَحاً مَجْفُوًّا فى أيامهم ، فقال له : ائتِنا به لنراه .

فأتى مطيعٌ حمّاداً فأخبره بذلك ، وأمره بالمسير معه إليه ، فقال له حمّاد : دعْنِى فإنّ دولتى كانتْ مع بنى أمية ، وما لى عند هؤلاء خيرٌ . فأبى مُطيع إلا الذهاب إليه ، فاستعار حماد سوَاداً وسيفاً ثم أتاه ، فمضى به مطيع إلى جعفر ، فلما دخل سلم عليه سلاماً حسناً ، وأثنى عليه ، وذكر فضله ، فردَّ عليه ، وأمره بالجلوس فجلس .

فقال جعفر : أنشدنى ؛ فقال : لِمَن أيها الأمير ، ألشاعرٍ بعَيْنه أم لمن حضر ؟ قال : بل أنشدنى لجرير .

قال حمّاد : فسلخَ والله شعرُ جرير كلُّهُ من قلبى إلا قولَه :

بان الخليطُ برامتين (٣) فودَّعوا أوَ كلَّما اعتزموا لبين تجزعُ

---

* الأغانى : ٦ : ٨١

(١) انظر صفحة ٥٥ (٢) مطيع بن إياس : شاعر من مخضرى الدولتين الأموية والعباسية ، كان ظريفاً مليح النادرة ماجنا، مولده ومنشؤه بالكوفة ، انقطع فى الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور فكان معه إلى أن مات وكان صديقاً لحماد ، وتوفى سنة ١٦٦ هـ .

(٣) رامتين تثنية رامة ، ورامة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة ، وكثير من أسماء المواضع تثنى فى الشعر للضرورة .

فاندفعت فأنشدته إياها ، حتى انتهيت إلى قوله :

وتقول بَوْزَعُ : قد دببتَ على العصا   هلا هَزِئْتِ بغـيرنا يا بَوْزَعُ

فقال لى جعفر : أَعِدْ هـذا البيت ، فأعـدته ، فقال : بَوْزَع أى شىء هو ؟ فقلت : اسم امرأة ؛ فقال : امرأةٌ اسمهـا بوزع ! هو برىء من الله ورسوله ونَفِيٌّ[1] من العباس بن عبد المطلب إن كانت بَوْزَع إلا غولاً من الغِيلان ! تركْتَنِى والله يا هذا لا أنام الليلة من فزع بَوْزَع ، ياغلمان ! قفاه ! فَصُفِعْتُ[2] والله حتى لم أَدْرِ أين أنا ؛ ثم قال : جُرُّوا برجـله ؛ فجرُّوا برجـلى حتى أُخْرِجْتُ من بين يديه مسحوباً ، فتخرّق السـواد وانكسر جَفْنُ السيف ، ولقيت شرًّا عظيما مما جرى علىَّ ؛ وكان أغلظ من ذلك كلّه وأشد بلاءً ثمن السَّواد وجَفْنِ السيف .

فلما انصرفتُ أتانى مُطِيع بن إياس يتوجَّـع لى ، فقلت له : أَلَمْ أخـبرك أنى لا أصيبُ منهم خيراً وأن حَظِّى قد مضى مع بنى أمية !

---

(١) نفى : منحى ومبعد .   (٢) القفا : ماوراء العنق ، وهو مؤنث وقد يذكر .

١٠٢ — المنصور يطلب مَنْ يسَلِّيه بالشعر *

لما مات جعفر بن أبى جعفر المنصور مشى أبوه فى جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ، ومضى الناس أجمعون معه حتى دَفَنه ، ثم انصرف إلى قَصْره ، وأقبل على الربيع فقال : ياربيع ؛ انظر مَنْ فى أهلى ينشدنى :

* أمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ (١) *

حتى أتسلّى بها عن مصيبتى .

قال الربيع : فخرجتُ إلى بنى هاشم وهم بأجمعهمْ حضور ، فسألتُهم عنها ؛ فلم يكنْ فيهم أحدٌ يحفظها ؛ فرجعت فأخبرتُه . فقال : والله لَمُصِيبتى بأهل بيتى ألَّا يكون فيهم أحدٌ يحفظُ هذا ؛ لِقِلَّةِ رغبتهم فى الأدب ، أعظمُ وأشدّ علىّ من مصيبتى بابْنى !

ثم قال : انظرْ هل فِى القوّاد والعوامّ من الجند مَنْ يعرفها ؟ فإنى أحب أن أسمَعها من إنسان يُنْشِدُها ؛ فخرجت فاعترضت الناس ؛ فلم أجد أحداً ينشدها إلا شيخاً كبيراً مُؤَدِّباً قد انصرف من موضع تأديبه ؛ فسألته : هل تحفظ شيئاً من الشعر ؟ فقال : نعم ! شعر أبى ذؤيب (٢) ، فقلت : أَنْشِدْنى ، فابتدأ القصيدة العينية

* عصر المأمون : ١ : ١٧٥

(١) بقية البيت : * والدهر ليس بمعتب من يجزع *
وهى نحو سبعين بيتاً أورد ابن رشيق أبياتاً منها فى العمدة ، ورواها صاحب جمهرة العرب فى المراثى صفحة ٢٦٤ ، وهى لأبى ذؤيب الهذلى . فى ديوان الهذليين ج ١ ص ١ — ٢١ طبع دار الكتب

(٢) هو خالد بن خويلد ، شاعر مجيد مخضرم قدم المدينة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه ، وتوفى فى غزوة إفريقية مع ابن الزبير .

فقلت له : أنت بُغيَتِي ، ثم أوصلتُه إلى المنصور ، فاستَنْشَدَه إياها ، فأنشد :

أَمِنَ المنون[١] ورَيْبِهَا تتوجّعُ والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ

قالتْ أُمَيْمَةُ : مالِجِسْمِكَ شاحباً منذ ابتُذِلْتَ[٢]، ومثْلُ مالكَ يَنْفَعُ

أمْ مَا لجسمك لا يلائم[٣] مَضْجَعاً إلا أُقِضَّ عليك ذَاكَ المَضْجَعُ

فأجبتُها : أمّا لجسمى إنّه أوْدَى[٤] بَنِيَّ من البلاد فودَّعُوا

أودى بنيَّ فأعقبُونى[٥] حسرةً بعد الرُّقادِ وعبْرَةً ما تُقْلِعُ[٦]

سبقوا هَوَىَّ وأعنقُوا[٧] لهواهُم فَتُخُرِّمُوا[٨]، ولكل جنبٍ مَصْرَعُ

فَغَبَرْتُ بعدهمُ بعيش ناصبٍ وإخال أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ

ولقد حَرَصْتُ بأن أُدافعَ عنهمُ وإذا المنيّةُ أقبلتْ لا تُدْفَعُ

وإذا المنيةُ أنشبَتْ[٩] أظفارَها ألفيتَ كل تميمةٍ لا تنفعُ

حتى أتى على آخرها ، فأجازه بمائة درهم !

---

(١) المنون : المنية ، وهى مؤنثة . (٢) ابتذلت : أى ابتذلت نفسك وأهنتها حسرة وأسى
(٣) لا يلائم : لا يوافق . (٤) أودى بنى : هلكوا . (٥) أعقبونى : خلفوا لى .
(٦) ما تقلع : ما تنقطع . (٧) أعنقوا : أسرعوا . (٨) تخرموا : ماتوا .
(٩) أنشبت : أعلقت ، والتميمة : التعويذة .

١٠٣ — صر إلىّ متى شئت*

كان أزهر[1] السمّان صديقاً لأبى جعفر المنصور فى أيام بنى أميـة ، وكانا قد سافرا جميعاً ، وسمعا الحديث ، وكان المنصور يَألَفُه ويأنسُ إليه .

فلما أفضت الخلافة إليه شَخَص[2] إليه من البصرة ؛ فسأله المنصور عن زوجته وبناته ـ وكان يعرفُهنّ بأسمائهنّ ـ وأظهر بِرّه وإكرامه ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يَقْدَم إليه مُسْتَمِيحاً[3] .

فلمّا كان بعدَ حولٍ صار إليه فقال له : ألم آمرك ألا تصيرَ إلى مستميحاً ! فقال له : ماصرتُ إليك إلّا مسلِّماً ومجدِّداً بك عَهْداً . قال : ماأرى الأمرَ كما ذكرتَ . وأمر له بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألا يصير إليه مسلِّماً ولا مُسْتَمِيحاً .

فلمّا كان بعد سنة صار إليه ، فقال : إنى لم أقْدَم عليكَ للأمرين اللّذين نهيتَنى عنهما ، وإنّما بلغنى أنّ عِلّةً عرَضت لأمير المؤمنين ؛ فأتيتُه عائداً ، فقال : ماأظنّك أتيتَ إلاّ مُسْتَوصلا ، وأمر له بأربعة آلاف درهم .

فلمّا كان بعد الحوْل ألحّ عليه بناتُه وزوجُه ، وقلْنَ له : أمير المؤمنين صديقك ، فارجع إليـه ، فقـال : ويحكُنّ ، ماذا أقول له ، وقد قلت له : أتيتك مُسْتَميحاً ومسلِّماً وعائداً ، ماذا أقول فى هـــذه المرة ؟ وبمَ أحْتَجّ ! فأبيْن على الشيخ إلّا الإلحاح .

* المسعودى : ٢ ـ ٢٣٧ . وثمرات الأوراق : ١ ـ ١٢٦

(١) هو أزهر بن سعد الباهلى ، عالم بالحديث من أهل البصرة كان يتردد على المنصور العباسى ، وله معه أخبار ، توفى سنة ٢٠٣ هـ . (٢) شخص من بلد إلى بلد : ذهب . (٣) الاستماحة : طلب العطاء .

فخرج فأتى المنصور ، وقال : لم آتك مُسْتَرْفِداً[1] ولا زائراً ولا عائداً ، وإنما جئتُ لسماع حديث كنّا سِمعْناه جميعاً فى بلد كذا من فلان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فيه اسمٌ من أسماء الله تعالى ، مَنْ سأل الله به لم يردّه . ولم يخيِّب دَعْوتَه .

فقال له المنصور : لا ترُدْه فإنى قد جرّبتُه فوجدته غيرَ مُستجاب . وذلك أنى منذ جئتَنى أسأل الله به ألّا يردّك إلىّ ، وأنت ذا ترجع ، لا تنفكّ تقول مُسَلِّماً أو عائداً أو زائرا . ووصَلَه بأربعة آلاف درهم ،وقال له : قدأَعْيَتْنى فيك الحِيلة ، فصِرْ إلىّ متى شئتَ .

(١) المسترفد : طالب العطاء .

١٠٤ — أَتَذكرُ إذْ لحافك جلد شاة !*

تذاكر جماعةٌ فيما بينهم آثار مَعْن(١) وأخبارَ كرمه ، معجَبين بما هو عليه من التُّؤدة ووَفْرَة(٢) الحلم ، ولين الجانب ، وغالَوْا فى ذلك كثيراً ؛ فقام أعرابىّ ، وأخذ على نفسه أن يُغضِبَه . فأنكروا عليه ، ووعدوه مائة بعير ، إن هو فَعَل ذلك .

فعَمَد(٣) الأعرابىُّ إلى بعيرٍ فسلخه ، وارتدى بإهَابه(٤) ، واحْتَذَى(٥) ببعضه جاعلاً باطنَه ظاهراً ، ودخل عليه بصورته تلك ، وأنشأ يقول :

أتذكرُ إذْ لحافُك جلد شاة ... وإذ نَعْلاك من جلدِ البعيرِ !

قال مَعْن : أذكرُه ولا أنساه ! فقال الأعرابىّ :

فسبحان الذى أعطاك مُلْكاً ... وعلَّمك الجلوسَ على السرير !

فقال معن : إن الله يُعزّ من يشاء ويذلُّ من يشاء ، فقال الأعرابىّ .

فلستُ مسلِّماً إن عِشْتُ دهراً ... على مَعْن بتسليمِ الأميرِ

فقال معن : السلام خير ، وليس فى تركه ضَيْر(٦) ، فقال الأعرابىّ :

سأَرْحَلُ عن بلادٍ أنتَ فيها ... ولو جار الزمانُ على الفقير

فقال معن : إن جاوَرْتَنَا فمرحباً بالإقامة ، وإن جاوَزْتنا فمصحوباً بالسلامة ، فقال الأعرابى :

* بحر الآداب : ٣ — ٢٦٣

(١) من أشهر أجواد العرب ، أدرك العصرين : الأموى والعباسى ، ولاه المنصور إمارة سجستان ، فأقام بها ، ثم قتل بها غيلة سنة ١٥١ هـ (٢) كثرة . (٣) عمد إلى الشىء : قصد إليه (٤) الإهاب : الجلد مالم يدبغ (٥) احتذى : انتعل (٦) الضير : الضرر .

فَجُدْ لى يا بْنَ[1] ناقصةٍ بمال فإنى قد عَزَمْتُ على المسيرِ

فقال معن : أعطوه ألف دينار ، تخفِّفُ عنه مشاقَّ الأسفار ، فأخذها وقال :

قليلٌ ما أتيتَ به وإنى لأطمعُ منك فى المال الكثير

فثَنِّ فقد أتاك الملْكُ عَفْواً بلا عَقْلٍ ولا رَأْىٍ مُنِيرِ

فقال مَعْن : أعطوه ألفاً ثانياً ، كى يكونَ عنَّا راضياً . فتقدم الأعرابىّ إليه ، وقبّل الأرض بين يديه وقال :

سألتُ الله أن يُبقيك دَهْراً فمالك فى البريَّة من نظير

فمنك الجودُ والإفضَالُ حقًّا وفَيْضُ يديك كالبَحْرِ الغزيرِ

فقال معن : أعطيناه على هجونا ألفين ، فليُعْط أربعةً على مدحنا ،

فقال الأعرابى : بأبى أيها الأمير ونفسى ! فأنت نسيجُ وحدك فى الحلم، ونادرةُ دَهْرِكَ فى الجود ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾ . ولقد كنتُ فى صفاتك بين مصدِّقٍ ومُكَذِّبٍ ، فلما بَلَوْتُك صَغَّرَ الخُبْرُ[2] الخبرَ ، وأذْهَبَ ضعفَ الشكِّ قوةُ اليقين، وما بعثنى على مافعلتُ إلا مائةُ بعير جُعِلتْ لى على إغضابك .

فقال له الأمير : لا تَثْرِيب[3] عليك ! ووصله بمائتى بعير : نصْفُها للرهان والنصف الآخر له ؛ فانصرف الأعرابىُّ داعياً له ، شاكراً لِهبَاته ، مُعْجَباً بِأَنَاتِه.

---

(١) يابن ناقصة بدلا من قوله: ابن زائدة (٢) الخبر : المخبر

(٣) لاتثريب : لالوم عليك .

١٠٥ — لقد كان ذلك الرجل شؤماً *

خرج معنُ بنُ زائدة في جماعةٍ من خواصّه للصيـد ، فاعترضهم قَطِيعُ (١) ظِبَاء ، فتفرّقُوا في طلبه ، وانفردَ معنٌ خَلْفَ ظَبْيٍ حتى انقطع عن أصحابه ، فلما ظَفِر به نزل فذبحه ؛ فرأى شيخاً مُقْبِلاً من البَرِّيةِ على حمار ؛ فركب فرسه ، واستقبله ؛ فسلّمَ عليه ؛ فقال : مِنْ أيْن ؟ وإلى أين ؟ قال : أتَيتُ من أرضٍ لهـا عشرون سنةً مجدِبة ، وقد أخْصَبَتْ في هـذه السنة ؛ فزرعتها مَقْثَأَة (٢) فأَخرجت القِثّاء في غـير أوان ؛ فجمعتُ منهـا ما اسْتَحْسَنْته ، وقصدتُ به معنَ بنَ زائدة لـكرمه المشـكور ، وفَضْله المشهور ، ومعروفه المأثور ، وإحسانِه الموفور .

قال : وكم أمّلْت منـه ؟ قال : ألفَ دينار ، قال : فإن قال لك : كثير ! قال : خمسمائة : قال : فإن قال لك : كثير ! قال : ثلثمائة ! قال : فإن قال لك : كثير ! قال : مائة . فما زال به حتى قال : لا أقل من الثلاثين ! قال : فإن قال لك : كثير قال : أُدْخِل قوائم حماري في عينه ، وأرجع إلى أهلي خائباً .

فضحك معن ، وساقَ جواده حتى لحق بأَصْحَابه ، ونزل في منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقِثّاء فادْخُل به عليّ .

فأتى الرجلُ بعد ساعة ، فلما دخل عليه لم يعرفْه لهيبته وجلاله ، وكثْرَةِ حَشَمِه وخَدَمه ، وهو مُتَصَدِّر في دَسْتِه (٣) ، والخدمُ قيامٌ عن يمينه وشماله وبين يديه .

---

* المستطرف : ٢ ـ ٢٣٧ .

(١) القطيع من الظباء : الطائفة (٢) المقثأة : موضع زراعة القثاء (٣) الدست : صدر البيت .

فلما سلَّم عليه قال : ما الذى أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أمّلْتُ فَضْلَ الأمير ، وأتيْتُه بقِثّاء فى غير أوان . فقال : كم أمّلتَ فينا ؟ قال : ألف دينار . قال : كثير ! فقال فى نفسه : والله لقد كان ذلك الرجل شؤماً علىّ . ثم قال : خمسمائة دينار . قال: كثير ، ثم مازال به إلى أن قال : خمسين ديناراً ، فقال له : كثير . فقال : لاأقل من الثلاثين ؛ فضحك معْن .

فعلم الأعرابىّ أنه صاحبُه ؛ فقال : ياسيــدى ؛ إن لم تُجِبْ إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب ، وهاهو ذا معن جالس . فضحك معن حتى استلقى على فراشه ، ثم دعا بوكيله ، فقال : أعطه ألفاً ، وخمسمائة ،وثلاثمائة ، ومائة ، وخمسين ، وثلاثين ، ودَعِ الحمار مكانه .

١٠٦ — حُبِسْتُ مع الدَّجاج *

شرب أبو دُلَامَة [١] فى الحانَات [٢] ؛ فمشى وهو يميل ؛ فلقِيَه العَسَس فأخذوه فقيل له : من أنتَ ؟ وما دينُك ؛ فقال :

دِينى على دينِ بنى العبَّاسِ   ماخُتِمَ الطينُ على القِرْطَاسِ
إذا اصْطَبَحْتُ أربعاً بالكاس   فقد أدار شُرْبُهَا بِرَاسى
* فهل بما قُلْتُ لكم من بَاسِ *

فأخذوه وخرَّقوا ثيابه وَساجَه [٣] ، وأُتِىَ به إلى أبى جعفر فأَمَرَ بحبْسه مع الدّجاج فى بيت ؛ فلما أفاق جعل ينادى غلامَه مرّة ، وجاريتَه أخرى ، فلا يجيبُه أحد ؛ وهو مع ذلك يسمعُ صوت الدجاج ، وزُقَاءَ [٤] الدُّيوك .

فلمّا أكثر قال له السجّان : ماشأْنُكَ ؟ قال : ويلك ! من أَنت ؟ وأين أنا ؟ قال : أنت فى الحبس،وأنا السجّان . قال : ومَنْ حَبَسنى ؟ قال : أميرُ المؤمنين.قال: ومَنْ خرّق طَيْلَسَانى ؟ قال : الحرَس .

فطلب أن يأتيَه بدَوَاةٍ وقِرْطَاس ، ففعل ، فكتب إلى أبى جعفر المنصور يقول :

أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسِى   علامَ حَبَسْتَنى وخرَقْتَ سَاجِى !

---

* نهاية الأرب : ٤ — ٤٢ ، الأغانى : ١١٠ — ٢٥١ ، (طبعة دار الكتب) .
(١) هو زند بن الجون شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، نشأ فى الكوفة واتصل بالخلفاء من بنى العباس ، فكانوا يستلطفونه ، ويغدقون عليه صلاتهم ، وأخباره كثيرة . توفى سنة ١٦١ هـ (٢) الحانات : المواضع التى تباع فيها الخمور (٣) الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود (٤) زقاء الديك : صياحه .

أمن صَهْبَاءَ[1] صافيــةِ المِزاج   كأنَّ شُعاعَهــا لَهَبُ السِّرَاجِ
وقــد طُبِخَتْ بنـار الله حتى   لقد صارتْ من النُّطَفِ[2] النِّضاجِ
تَهَشُّ لهـــا القلوبُ وتشتهيها   إذا برزتْ ترَقْرَقُ فى الزّجاجِ
أُقادُ إلى السجون بغـير جُرْمٍ   كأنى بعضُ عمَّالِ الخراجِ
فلو معهم حُبِسْتُ لـكان سهلا   ولـكنى حُبِستُ مع الدَّجَاجِ
وقــد كانت تخبّرُنى ذنوبى   بأنى من عقابِك غــيرُ ناجِ
على أنى ـ وإنْ لاقيتُ شرًّا ـ   لخيرِك بعـــد ذاك الشرِّ رَاجِ

فاستـدعاه المنصور ، وقال : أينَ حُبِستَ يا أبا دلامة ؟ قالَ : معَ الدجاج ! قال : فمـا كنتَ تصنع ؟ قال : أُقَوْقِئُ[3] إلى الصباح . فضحك وخلَّى سبيله ، وأمر له بجائزة .

فلمـا خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أما سمعت قوله : « وقد طُبِخَتْ بنار الله » ـ يعنى الشمس ـ فأمر بردِّه ، ثم قال : ياخبيث؛ شربتَ الخمر؟ قال : لا ، قال : أفلم تقـل : طبخت بنار الله ـ تعنى الشمس ؟ قال : لا ، والله ماعَنَيْتُ إلا نارَ الله الموقَدة التى تطّلعُ على فؤاد الربيع ! فضحك المنصور ، وقال : خذها ياربيع ، ولا تُعاوِد التعرُّضَ له .

---

(١) الصهباء : الخمر   (٢) النطف : ج نطفة ، وهى الخمر   (٣) أقوقئ : أصيح.

١٠٧ — ماضرَّه لو أن ذنوبَ العالمين على ظهرى ! ؟

قال أيُّوب المورياني لأبي جعفر — وكان يَشْنَأُ[١] أبا دُلامة : إن أبا دُلامة معتكف على الخمر ، فما يحضرُ صلاة ولا مسجداً ؛ وقد أفْسَدَ فِتْيَانَ العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لَأُجِرْتَ[٢] فيه وفي غيره مِنْ فتيان عسكرك بِقَطْعِهِ عنهم .

فلما دخل عليه أبو دُلامة قال له : ما هـذا المجون الذى يبلغنى عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أنا والمجونَ ، وقد شارفْتُ بابَ قبرى ! قال : دَعْنى من استكانَتِكَ وتضرُّعك ، وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر فى مسجدى ؛ فلئن فاتتاك لَأُحْسِنَنَّ أدبك ولأُطيلَنَّ حبْسك .

فوقع فى شرٍ ، ولزم المسجد أياماً ، ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدىّ فأوصلها إلى أبيه ، وكان فيها :

أَلم تَعْلَمَا أن الخليفـــة لَزَّنى[٣] بمسجده والقصرِ ، مالى وللقصرِ !
أُصلِّى به الأولى جميعاً وعصرَها فويلى من الأولى وَوَيْلى من العصرِ !
أُصليهما بالْكُرْه فى غير مَسجدى فما لىَ فى الأولى ولا العصر من أجرِ
لقد كان فى قومى مساجد جمَّةٌ ولم ينْشَرح يوماً لغِشْيَانها صدرِى[٤]
يكلِّفنى من بعد ما شِبْتُ خطةً[٥] يحط بها عنى الثقيلَ من الوِزْرِ
وما ضرّه — والله يغفرُ ذنبـــه — لو أنَّ ذنوبَ العالمين على ظَهْرِى !

---

* تهذب الأغانى : ٩ : ٣٣ ، الأغانى : ١٠ — ٢٤٦ ، ذيل زهر الآداب : ٩١

(١) يبغضه ويكرهه (٢) نالك الأجر والثواب (٣) اللز : لزوم الشىء بالشىء والزامه به (٤) الذهاب إليها (٥) الخطة : الأمر .

فقال : قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصلِّىَ فى مسجد قبيلتك ، ولكن على ألّا تدع القيامَ معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أظَلَّ[١] ؛ فقال : أفعل . قال : فإنك إن تأخَّرت لشُرْب الخمر علمتُ ذلك ، والله لئن فعلتَ لأحُدَّنَّكَ[٢] . فقال أبو دُلامة : البليَّةُ فى شهرٍ أخفُّ منها فى طول الدهر ، سمعاً وطاعة !

فلما حضر شهرُ رمضان لزم المسجد ، وكان المهدىُّ يبعثُ إليه فى كل ليلة حَرَسيًّا يجىء به ، فشقَّ ذلك عليه ، وفزِع إلى الخيزران ، وإلى أبى عبيد الله[٣] ، وإلى كلِّ من يلوذ بالمهدى ليشفعوا له فى الإعفاء من القيام ، فلم يجِبهم ، فقال له أبو عبيد الله : الدَّالُّ على الخير كفاعله ، فكيف شكْرك ؟ قال : أتمّ شكر ، قال : عليك برَيطة[٤] فإنه لا يخالفها . قال : صدقت ، ثم رفع إليها رُقعةً يقول فيها :

أبْلِغا ريْطةَ أنى ... كنتُ عبداً لأبيها

فمضى يرْحمُه اللـ ... ـه وأوصى بى إليها

وأراها نسيتنى ... مثل نِسيَان أخيها

جاء شهر الصوم يمشِى ... مِشْيةً ما أشْتَهيها

قائداً لى ليلة القـدْ ... رِ كأنّى أبْتغيها

ولقد عشتُ زمانا ... فى فيَافٍ وجيها

فى ليالٍ من شتاء ... كنت شيخاً أصطليها

قاعدا أوقد ناراً ... لِضِبَابٍ[٥] أشتويها

(١) أظل : قرب وأشرف (٢) حده : أقام عليه الحد (٣) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيدالله كان من رجالات المنصور ثم المهدى (٤) ريطة : هى ابنة الخليفة أبى العباس ، وزوج المهدى (٥) الضب : دويبة من الحشرات ، تحرص العرب على صيده وأكله ، وجمعه ضباب .

وصَبُوحٍ وغَبُوقٍ في عِلَابٍ (١) أحْتَسِيها
ما أبالى ليلة القدْرِ ولَا تُسْمِعُنيهَا
فاطلبى لى فرجاً مِنها وأجْرِى لكِ فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت إليه : يصطبرْ حتى تمضى ليلةُ القدْرِ فكتب إليها : إنى لم أسألك أن تكلميه فى أعفائى عاماً قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر فقَدْ فَنِيَ الشهر وكتب تحتها أبياتاً

خافِى إلٰهك فى نفس قد احتُضِرَتْ قامت قيامتها بين المصلِّينا
ما ليلة القدرِ من همّى فأطلبها إنى أخافُ المنايا قبلَ عشرينا
يا ليلة القدرِ قد كسَّرْتِ أرجلنا يا ليلة القدر حقًّا ما تمنيناَ !
لا بارك الله فى خيرٍ أؤمِّلُهُ فى ليلةٍ بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، ودخلت على المهدىّ ، فشفعت له إليه ، وأنشدته الأبيات ، فضحك حتى استلقى ، ودعا به ورَيطَةُ معه فى الحَجَلةِ (٢) ، فدخل فأخرج رأسه إليه وقال : قد شفعت رَيطَةَ فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم .

فقال : أما شفاعةُ سيدتى فىَّ حتى أعفَيْتَنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فإما أنْ تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ؛ فإنى لا أحسنُ حسابَ السبعة . فقال : قد جعلتُها خمسة ، فقال : أعيذُك بالله أن تختارَ أدْنى الحالينِ ، وأنتَ أنتَ ا ثم تكلَّمَتْ فيه ريطة فأتمَّها له عشرة آلاف درهم .

---

(١) جمع علبة : وهى قدح ضخم من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيه (٢) الحجلة : بيت يزين بالثياب والأسرة والستور .

١٠٨ — لو أنَّ لى مُهْجَةً أخرى لجُدْتُ بها *

قال أبو دُلامة : أُتى بى إلى المنصور وأنا سَكْران ؛ فحلف ليُخْرِجَنِّى فى بَعثِ حرب ، فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم [١] المهلَّبى لقتال الشُّراة [٢] . فلما التقى الجمعان ، قلت لرَوْح : أما والله لو أنَّ تحتى فرسَك ، ومعى سلاحُك لأثَّرْت فى عدوّك اليوم أثراً ترتضيه .

فضحك وقال : والله لأدفعنّ ذلك إليك ، ولآخذنك بالوفاء بَشرْطك ؛ ونزل عن فرسه ، ونزع سلاحه . ودفعهما إلىّ ودعا بغيرهما .

فلما حصل ذلك فى يدى ، وزالت عنى حلاوة الطمع ، قلت له : أيها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلتُ بيتين فاسمعهما . قال : هات ، فأنشدته :

إنى استجرتك أن أُقدَّم فى الوغى ... لتطاعنٍ وتنــازلٍ وضِرَابِ

فهَبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً ... فتركـتُها ومضيتُ فى الهُرّابِ

ماذا تقــول لما يجىء وما يُرَى ... من واردات الموت فى النُّشَّابِ [٣] !

فقال : دَعْ عنك هذا .

وبرز رجلٌ من الخوارج يدعــو للمبارزة . فقال : اخرج إليــه يا أبا دُلاَمة ! فقلت : أَنْشُدُكَ الله أيها الأمير فى دمى ! قال والله لتَخْرُجَنَّ . فقلت : أيها الأمير ،

---

(١) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، ولى افريقية والبصرة وغيرها ، وكان جليلا شجاعاً (٢) الشراة : هم الخوارج ، وقد لزمهم هــذا اللقب ، لأنهم زعموا أنهم شروا دنياهم بالآخرة ، أى باعوها (٣) النشاب : السهم .

فإنه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ماشبعتْ منى جارحةٌ من الجوع ، فَمُرْ لى بشىء آكله ثم أخرج .

فأمر لى برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزْتُ عن الصَّف . فلما رآنى الشَّارِى[1] أقبل نحوى وعليه فَرْوٌ قد أصابه المطر فابتلَّ ، وأصابته الشمس فاقفعلَّ[2] ، وعيناه تَقِدَان ، فأسرع إلىَّ . فقلت له : على رِسْلِك[3] ياهذا كما أنت! فوقف .

فقلت : أتقتل من لا يُقاتلك ؟ قال لا . قلت : أتقتلُ رجلاً على دِينك ؟ قال : لا . قلت: أفتستحلُّ ذلك قبل أن تدعوَ من تقاتِله إلى دينك ؟ قال: لا ،قال :فاذهب عنى إلى لعنة الله ! قلت : لا أفعل أو تسمع منى . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا قطّ عداوةٌ أو تِرَة[4] ؟ أو تعرفنى بحال تُحفِظُك علىَّ[5] ! أو تعلم بين أهلى وأهلك وتْراً ؟ قال : لا ، والله . قلت : ولا أنا واللهِ لك إلا على جميل الرأى ، وإنى لأهواك ، وأنْتَحِلُ مذهبك ، وأدينُ دينَك ، وأريدُ السوء لمن أراده لك . قال : ياهذا ؛ جزاك اللهُ خيراً فانصرفت .

قلت : إنّ معى زاداً أحِبُّ أنْ آكلَهُ معك ، وأحبُّ مواكلتك لتتأكّد مودة بيننا ، ويرى أهلُ العسكر هوانَهم علينا : قال : فافعل .

فتقدمت إليه حتى اختَلَفَت أعناقُ دوابّنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها، والناس قد غُلِبوا ضَحِكاً ! فلما استوفينا ودَّعنى . ثم قلت له : إن هذا الجاهل - إن أقمتَ على طلب المبارزة - ندبنى إليك فتتعبنى وتتعب . فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل - قال : قد فعلت . ثم انصرف وانصرفت .

---

(١) الخارجى (٢) اقفعل : تقبض (٣) تمهل (٤) ثأر (٥) تغضبك .

فقلت لرَوْح : أما أنا فقد كفيتك قِرنى ، فقل لغيرى أن يكفيَك قِرْنَه كما كفيتك . فأمسك ! وخرج آخرُ يدعو إلى المُبَارَزَة فقال لى : اخرج إليه . فقلت :

إنى أعوذ برَوْحٍ أن يقدِّمنى   إلى البِرَاز(١) فتَخْزَى بى بنو أسدِ
إن البزازَ إلى الأقران أعلَمهُ   مما يفرِّق بين الرُّوح والجسدِ
قد حالفتْك المنايا إذ صمدْتَ لها   وأصبحتْ لجميع الخلق بالرَّصَدِ
إنَّ المهلّب حُبَّ الموتِ أورثَكم   وما وَرِثتُ اختيار الموتِ عن أحدِ
لو أنّ لى مهجةً أخرى لجُدْتُ بها   لكنها خُلِقتْ فرداً فلم أَجُدِ

فضحك وأعفانى .

(١) المبارزة .

١٠٩ — يهجو نفسه *

دخل أبو دُلامة على المهدى وعنده عيسى بن موسى ، والعبّاس بن محمد ، وجماعةٌ من بنى هاشم ، فقال المهدىّ : يا أبا دُلامة . قال : لبّيك يا أمير المؤمنين ! قال : لئن لم تَهْجُ واحداً ممن فى هذا المجلس لأقطعنّ لسانك . فنظر إلى القوم ، فكلّما نظر إلى واحدٍ منهم غمزه بأنّ عليه رِضَاه . فعلم أنه قد وقع ، وقال : أنا أَحدُ مَنْ بالمجلس ثم أنشد :

ألا أبلِغْ إليكَ أبا دُلَامَهْ   فليس من الكرام ولا كَرَامهْ
إذا لَبِس العمامةَ كان قِرْداً   وخِنزيراً إذا نَزَع العِمَامهْ
جمعتَ دَمَامةً وجمعتَ لؤماً   كَذَاكَ اللؤم تتبَعُه الدَّمامهْ
فإن تَكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنْيَا   فلا تَفْرَحْ فقد دَنَتِ القيامهْ

فضحك المهدى وسُرَّ القومُ إذ لم يسىء إلى أحدٍ منهم ، ثم قال له المهدى : تَمَنَّ . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لى بكلب صَيْد . فسبَّه وقال : ما تصنعُ به ؟ فقال : الحاجةُ لى أمْ لك ؛ فقال : صَدَقْت ؛ أعْطُوه كلباً . فأُعْطِيه . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لابد لهذا الكلب من كَلَّاب [1] . فأمر له بغلام مَمْلوك ؛ فقال: يا أميرَ المؤمنين ، أوَ يتهيَّأُ لى أن أصيدَ راجلاً ؟ فقال : أَعْطُوه دابة . فقال : ومَنْ يسوسُ الدَّابة ؟ فقال : أَعْطُوه غلاماً سائساً . فقال : ومن ينْحَرُ الصيد ويُصلحه ؟

---

* ذيل زهر الآداب : ٨٩ ، ٩٠ ، مهذب الأغانى : ٩ – ٢٠ ، المستطرف : ١ – ٨٦ ، المحاسن والمساوىء : ٢٨٧ ، طبع ليزج الأغانى : ١٠ – ٢٥٨

(١) الكلاب : من يرعى الكلاب .

فقال : أعطوه طَبَّاخاً . فقال : ومن يَأْويهم ؟ فقال : أَعْطوه داراً .

فبكى أبو دلامة وقال : ومن يَمُونُ هؤلاء كلّهم ؟ فقال : يُكتب له بمائة جَرِيب [1] عامرة ، ومائتى جريب غامرة . فقال : وما الغَامِرةُ ؟ قال : التى لا نَبَاتَ فيها . قال : فأنا أعطيك مائتى ألف جريب من فيافى بنى أسد . فضحك وقال ما تريد ؟ قال : بيتَ المال . قال : عَلَى أَنْ أُخْرِجَ المالَ منه . قال : يصيرُ حينئذ غامراً ، فاستفرغَ ضَحِكاً [2] وقال : اذهب فقد جعلتُها لك كلها عامرة . فقال : يا أمير المؤمنين ، ائْذَنْ لى أن أُقَبِّلَ يدك . قال : أمَّا هذه فَدَعْها . فقال : والله ما تمنعُ عِيَالى شيئا أهون عليهم منها ! فناوله يَدَهُ فقبّلها .

(١) الجريب : المزرعة (٢) بالغ فى الضحك .

١١٠ — كلُّ امرىءٍ يأكلُ زادَه *

خرج المهدى وعلى بن سليمان إلى الصـيد ، فسنَحَ لهما [(١)] قطيعٌ من ظباء ، فأُرْسِلَت الـكِلابُ ، وأُجْرِيت الخيل ، فرمى المهدى سَهْماً ، فصرع ظَبْياً ، ورمى علىّ بن سليمان فأصاب كلباً فقتلَه ؛ فقال فى ذلك أبو دلامة :

قد رمى المهدىُّ ظَبْياً شكَّ بالسهم فُؤَادَهْ
وعلىُّ بن سليما ن رَمَى كلباً فَصَادَه
فهنيئـــــا لهمـــــا كلُّ امرىءٍ يَأْكُلُ زادَهْ

فضحك المهدىّ حتى كادَ يسقط عن سَرْجِه ، وقال : صدق والله أبو دُلامة ، وأمر له بجائزة ، ولُقِّبَ علىُّ بن سليمان بصائد الـكلب ، فَعَلِقَ اللقب به .

---

* معاهد التنصيص : ١ ـ ٢١٤ ، الأغانى : ١٠ ـ ٢٥٨

(١) عرض لهما .

١١١ — حماد والمفضَّل *

قال بعض الرواة :

كُنَّا فى دار أمير المؤمنين المهدى بِعِيساباذ [١]، وقد اجتمع فيها عِدَّةٌ من الرُّوَاةِ والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولُغَاتها ، إذ خرج بعضُ أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضّل الضّبّى الراوية فدخل ، فمكث مَلِيًّا ، ثم خرج إلينا ومعه حمّاد والمفضّل [٢] جميعاً ، وقد بان فى وجه حمّاد الانكسار والغم،وفى وجه المفَضَّل السرور والنشاط .

ثم خرج حُسين الخادم بعدهما ، فقال : يامعشر مَنْ حَضَرَ من أهل العلم ؛ إن أميرَ المؤمنين يُعْلِمُكم أنه قد وصل حمّاداً الشاعرَ بعشرين ألف درهم ، لجوْدَةِ شعره ، وأبْطَلَ روايته لزيادته فى أشعار الناس ماليس منها ، ووصل المُفَضّل بخمسين ألفاً لصِدْقه وصِحَّةِ روايته ؛ فمن أراد أن يسمع شعراً جيّداً مُحْدَثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد روايةً صحيحة فليأخذها عن المفضّل .

فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدىّ قال للمفضل لما دعا به وَحْدَه : إنى رأيت زُهَيْرَ بن أبى سُلْمَى افتتح قصيدته بأن قال :

دَعْ ذا وعدِّ القولَ فى هرِمِ [٣]

---

* الأغانى : ٦ — ٩٠

(١) عيساباذ : محلة كانت شرق بغداد ، بنى بها المهدى قصره الذى سماه قصر السلام.

(٢) هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبى ؛ راوية عالم بالأدب من أهل الكوفة ، لزم المهدى ، وصنف له كتاب المفضليات ، توفى سنة ١٦٨ هـ (٣) هرم بن سنان : ممدوح زهير .

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ماسمعتُ يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً إلا أنى توهمتُه كان يفكّر فى قولٍ يقوله ، أو يروّى فى أن يقول شعراً ، فعدل عنه إلى مدح هرم وقال : « دَعْ ذا . . . » أو كان مفكّراً فى شىء من شأنه فتركه وقال : « دع ذا ... » أى دَعْ ما أنت فيه من الفكر وعدِّ القول فى هَرم . فأمسك عنه .

ثم دعا حمّاداً فسأله عن مثل ماسأل عنه المفضّل فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ؛ قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لمن الدِّيار بقُنّةِ[1] الحِجْرِ   أقْوَيْن[2] مُذْ حِجَجٍ ومُذْ دَهْرِ
قَفْراً بِمُنْدَفَعِ النَّحائتِ مِنْ[3]   ضَفْوَى[4] أولاتِ الضَّالِ والسِّدْرِ[5]
دَعْ ذَا وعدِّ القولَ فى هَرِمٍ   خيرِ الكهول وسيِّدِ الحَضْرِ

فأطرق المهدىُّ ساعة ، ثم أقبلَ على حمّادٍ فقال له : قد بلغَ أميرَ المؤمنين عنك خَبَرٌ لا بُدَّ من استحلافِكَ عليه ، ثم استحْلفه بأيمان البَيْعَةِ وكلِّ يمين مُحْرِجة ليصْدُقنّه عن كل مايسأله عنه ، فحلف له بما توثّق منه .

ثم قال له : اصدقنى عن حال هذه الأبياتِ ومَنْ أضافها إلى زهير ؛ فأقرّ له حينئذ أنه قائلها ، فأمر فيه وفى المفضل بما أمر به من شُهْرَةِ أمْرِهما وكَشْفِه .

---

(١) القنة : أعلى الجبل ، والحجر : موضع باليمامة (٢) أقفرن (٣) النحائت : آبار فى موضع معين (٤) ضفوى : مكان دون المدينة (٥) الضال والسدر : نوعان من الشجر (اللسان مادة نحت) .

١١٢ — فى خِباَء الأعرابى *

خرج المهدىُّ يتَصَيَّدُ ؛ فغارَ [١] به فرسُهُ ، حتى وقع فى خِباَء أعرابى ، فقال : ياأعرابىّ ؛ هل من قِرًى ؟ فأخرج له قُرْص شعير فأكله ؛ ثم أخرج له فَضْلَةً من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى رَكْوَة [٢] فسقاه .

فلما شرب قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا ! قال : أنا من خَدم أمير المؤمنين الخاصة . قال : بارك اللهُ لكَ فى موضعك ! ثم سقاه مرةً أخرى فشَرِب ، فقال : ياأعرابىّ ؛ أتدرى مَنْ أنا ؟ قال : زعمتَ أنَّكَ من خَدَمِ أمير المؤمنين الخاصة . قال : لا ؛ أنا من قُوَّاد أمير المؤمنين .

قال : رَحُبَتْ بلادُك ، وطابَ مُرادك ! ثم سقاه الثالثةَ ، فلما فرغ قال : ياأعرابىّ ! أتدرى مَنْ أنا ؟ قال : زعمتَ أنك من قُوَّادِ أمير المؤمنين . قال : لا ؛ ولكننى أميرُ المؤمنين ! فأخذ الأعرابى الرِّكْوَة فأوكاها [٣] . وقال : إليك عنى! فوالله لو شربتَ الرابعةَ لادَّعَيتَ أنَّكَ رسولُ الله .

فضحك المهدى حتى غُشِىَ عليه . ثم أحاطت به الخيل ، ونزلت به الأمراء والأشرافُ ؛ فطار قلبُ الأعرابى ؛ فقال له : لا بأس عليك ، ولا خوف ! ثم أمر له بكسوةٍ ، ومالٍ جزيل .

---

* المستطرف : ٢ ـ ٢٣٣

(١) غار : أتى الغور ، وهو المطمئن من الأرض (٢) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء (٣) أوكى على ما فى سقائه : شده بالوكاء . والوكاء : مايشد به رأس القربة ، والمراد ربطها وكف عن سقيه منها .

١١٣ — دَعَا بفراق مَنْ تَهْوَى أبان! *

قال أبَان بن عبد الحميد : نزل فى ظاهر البَصْرة قومٌ من أعراب قَيْس عَيْلان ، وكان فيهم بيَان وفصَاحة ، فكان بشَّار يأتيهم ، ويُنْشِدُهم أشعارَه التى يمدح بها قيساً ؛ فيُجِلُّونه لذلك ، ويعظِّمونه ، وكان نساؤهن يجلسن معه ، ويتحدَّثن إليه ، وينشدهن أشعارَه فى الغزل . وكنتُ كثيراً ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم .

فأتيتُهم يوماً فإذا هم قد ارتحلوا ، فجئتُ إلى بشّار ؛ فقلت : يا أبا معاذ ؛ أعلمتَ أن القومَ قد ارتحلوا ؟ قال : لا . قلت : فاعْلَمْ ، قال : قد علمتُ لا علمت ! ومضيت .

فلما كان بعد ذلك بأيامٍ سمعتُ الناس ينشدون :

دعَا بفِرَاق من تَهوى أبَانُ ... ففاض الدمعُ واحترق الجنَانُ
كأنَّ شرارةً وقعَتْ بقلبى ... لها فى مقلتى ودَمِى اسْتِنَان(١)
إذا أنشدتُ أو نَسَمَتْ عليها ... رياح الصيف هاجَ لها دخان

فعلمتُ أنها لبشار ؛ فأتيتُه ، فقلت : يا أبا معاذ ؛ ما ذنبى إليك ! قال : ذنبُ غُراب البين . فقلت : هل ذكرتنى بغير هذا ؟ قال : لا . فقلت : أنْشُدُك الله ألّا تزيد ، فقال : امض لشأنك فقد تركتك .

---

* عصر المأمون : ٢ — ٢٧٢

(١) استن الرجل : مضى على وجهه ، واستن السراب : اضطرب .

١١٤ — راوية أبى نواس والعتَّابى *

كان كُلثوم العتَّابى[١] يَضَعُ من قَدْرِ أبى نواس ، فقال له راوية أبى نواس يوماً : كيف تضع من قَدرِ أبى نواس وهو الذى يقول :

إذا نحن أثْنَيْنَا عليـــكَ بصالحٍ فأنتَ الذى نُثنى وفوقَ الذى نُثنى

وإن جَرَتِ الألفـاظُ منا بمِدْحَةٍ لغـيرِكَ إنساناً فأنت الذى نَعْنِى

قال العتـابى : هـذا سَرَقَه ! قال : مِمَّنْ ؟ قال : من أبى دهبـل الجمحى حيث يقول :

وإذا يقـال لبعضهم : نِعْمَ الفتى فابْنُ المغـــيرة ذلك النِّعْمُ

عَقِمَ النساء فلا يَجِئْنَ بمِثْـــلهِ إنَّ النساءَ بمثـــله عُقْمُ

قال : لقد أحسن فى قوله :

فتمشّتْ فى مفاصِلِهم كتمشِّى البرء فى السّقم

قال : سرقهُ أيضاً ! قال له : مِمَّن ؟ قال : من سوسة الفقعسىّ حيث يقول :

إذا ما سَقِيمٌ حلَّ عنهـــا وِكَاءَها تَصَعَّدَ فيـــه برءها وتصوَّبا

وإن خالطتْ منه الحَشى خِلْتَ أنه على سالفِ الأيام لم يُبق مُوهَبا

قال : فقد أحسن فى قوله :

---

* المسعودى : ٢ ـ ٢٧٤

(١) هو الحسن بن هانىء ، رحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس ، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، توفى سنة ١٩٢ هـ .

وما خُلِقَتْ إلا لبَذْلِ أكفُّهم   وأقدامُهم إلَّا لأعوادِ مِنْبَرِ

قال : قد سَرَقه أيضاً ، قال : ممَّن ؟ قال : من مروان بن أبى حفصة حيث يقول :

وما خُلِقَتْ إلا لبَذْلِ أكفُّهُمْ   وألسُنُهم إلا لتَحْبِير مَنْطق

قال : فسكت الراوية ، ولو أتى بِشعْره كلِّه لقال : سَرَقَه !

١١٥ — أَلَا موتٌ يُبَاعُ ! *

كان للمهلبي قبل اتصاله بالسلطان حالٌ ضعيفة ، فبينما هو فى بَعْضِ أَسْفَارِه مع رفيق له من أصحاب الحَرْثِ (١) ، وأهل الأدب إذ أنشده :

أَلَا موتٌ يُبَاعُ فأَشتريه فهذا العيش مالا خير فيه

أَلَا رَحِمِ المُهَيْمِنُ نفسَ حُرٍّ تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيه

فرثى له رفيقُه ، وأحضر له بدرهمٍ وما أَمْسَكَ رَمَقَه ، وحفظ البيتين وتفرقا .

ثم ترقّى المهلبي إلى الوزارة ، وأَخْنَى الدهر على ذلك الرجل؛ فتوصل إلى إيصال رقعة مكتوب فيها :

ألا قل للوزير ـ فَدَتْهُ نفسى ـ مقالًا ذاكِراً ما قد نسيه

أتذكُرُ إذ تقولُ لضَنْكِ عيشٍ : ألا موتٌ يُبَاعُ فأَشتَرِيه !

فلما قرأها تذكَّرَ ما كان ؛ وأمر له بسبعمائة درهم ، ووقّع تحت رقعته : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ . ثم قلَّدَهُ عملا يرْتَزِقُ منه .

---

* المستطرف : ٢ ـ ٦٠

(١) الحرث : الزرع .

١١٦ — قد وجدناك ممتعاً *

قال الأصمعيّ [١] : تصرَّفَتْ بى الأسبابُ على باب الرشيد مؤمِّلًا الظفرَ به ، والوصولَ إليه؛ حتى إنى صرتُ لبعض حرَسِه خَدِيناً [٢]. فإنى فى ليلة قد نثرت السعادةُ والتوفيقُ فيها الأَرَقَ بين أجفان الرشيد ، إذ خرج خادم فقال : أمَا بالحضْرة أحد يُحْسِن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! رُبَّ قَيْد مُضَيَّق قد حلّه التيسير ! فقال لى الخادم : ادخل ، فلعلها تكون ليلةً يُغْرَس فى صباحها الغِنَى إن فُزْتَ بالحظوة عند أمير المؤمنين .

فدخلتُ فواجهتُ الرشيد فى مجلسه ، والفضلُ بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بى الخادم حيث يسمعُ التسليم ؛ فسلّمتُ فردّ علىّ السلام ، ثم قال : يا غلام ؛ أَرِحْهُ لِيُفرِخَ رُوعه [٣] إن كان وجد للرَّوعة حِسًّا !

فدنوتُ قليلًا ثم قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إضاءةُ مجدك وبهاء كرمك مُجيران لمن نظر إليك من اعتراض أَذِيَّة ! فقال : ادْنُ . فدنوت ، فقال : أشاعرٌ أم راوية ؟ فقلت : راوية لِكُلِّ ذى جِدٍّ وهَزْل ؛ بعد أن يكون محسناً ! فقال : تالله ما رأيت ادّعاء أعظم من هذا ! فقلت : أنا على المَيْدان ؛ فأَطْلِق من عِنانى يا أمير المؤمنين !

---

* خزانة الأدب : ٤ ـ ٣٤٦ ، أمالى المرتضى : ٣ ـ ٩٦

(١) الأصمعى : عبد الملك بن قريب راوية العرب ، كان كثير التطواف فى البوادى يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ويتحف بها الخلفاء ، توفى سنة ٢١٦ هـ .

(٢) خليلا وصديقاً (٣) يذهب خوفه .

فقال : أنْصَفَ القَارة[١] من رَمَاها . ثم قال : ما المعنى فى هذه الكلمة بَدِيئاً ؟ فقلت : القارة هى الحرّة من الأرض ؛ وزعمتِ الرواة أن القارة كانت رُمَاةً للتبابعة ، والملكُ إذ ذاك أبو حسان ، فواقف[٢] عسكرُه عسكر السُّغْد[٣] ، فخرج فارس من السُّغْد ، قد وضع سهمه فى كبد قوسه فقال : أين رماةُ العرب ؟ فقالت العرب ؛ قد أنصف القَارَة من رَمَاها . فقال لى الرشيد : أَصَبْت .

ثم قال : أتروِى لرُؤْبة بنِ العَجَّاج والعَجَّاجِ شيئاً ؟ فقلت : هما شاهدان لك بالقوافى وإنْ غُيِّبا بالأشخاص ، فأخرج من ثِنْى فرشه رقعة ثم قال : أنشدنى :

* أرّقنى طارقُ همٍّ طرقَا *

فمضيتُ فيها مضىّ الجواد فى سنَنِ ميدانه تَهدِرُ بها أشداقى ، فلما صرتُ إلى مديحه لبنى أمية ، ثنيتُ لسانى إلى امتداحه لأبى العباس فى قوله :

* قلتُ لزيرٍ لم تَصِلْهُ مرْيَمُه *

فلما رآنى قد عدَلْتُ من أرجوزة إلى غيرها قال : أعن حَيْرَةٍ أم عن عمْد ؟ قلت : عن عمْد ، تركت كَذبه إلى صِدْقه فيما وصف به جدَّك من مجده ! فقال

---

(١) فى اللسان : زعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى (والقارة قبيلة) ، والآخر أسدى ، فقال : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال القارى : قد أنصفتنى وأنشد :

قد أنصف القارة من راماها　　إنا إذا ما فئة نلقاها
نرد أولاها على أخراها

(٢) الواقفة : أن تقف معه ويقف معك فى حرب أو خصومه　　(٣) السغد : بساتين نزهة وأماكن مثمرة بسمرقند .

الفضل : أحسنت ، بارك الله فيك ! مثلك يؤهل لمثل هذا المجلس ! فلما أتيتُ على آخرها قال لى الرشيد : أتروى كلمة عدى بن الرقاع :

☆ عَرَفَ الدِّيَارَ تَوَهُّماً فاعْتَادَهَا ☆

قلت : نعم . قال : هات ! فمضيت فيها حتى إذا صرت إلى وصف الجمل قال لى الفضل : ناشدتك الله أن لا تقطعَ علينا ما أُمْتِعْنَا به من السهر فى ليلتنا هذه بصفة جمل أجْرب . فقال له الرشيد : اسكت فالإبل هى التى أَخْرَجتك من دارك ، واستَلَبَتْ تاج ملكك ، ثم ماتت وعُمِلت جلودها سياطاً ضُربْتَ بها أنت وقومُك !

فقال الفضل : لقد عوقبتُ على غير ذنب ، والحمد لله ! فقال الرشيد : أخطأت، الحمد لله على النعم ، ولو قلت : أستغفر الله كنت مُصِيباً . ثم قال لى : امض فى أمرك ، فأنشدته ، حتى بلغتُ إلى قوله :

☆ تُزْجِى أَغَنَّ كأَنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ [(١)] ☆

استوى جالساً ثم قال : أتحفظ فى هذا ذكراً ؟ قلت : نعم ذكرت الرواة أن الفرزدق قال : كنتُ فى المجلس ، وجرير إلى جانبى ، فلما ابتدأ عدىٌّ فى قصيدته قلت لجرير مُسِرًّا إليه : هَلُمَّ نسخر من هذا الشامى ، فلما ذقنا كلامه يئسنا منه ، فلما قال :

☆ تُزْجِى أَغَنَّ كأن إبرةَ رَوْقِهِ ☆

---

(١) الروق : القرن ، والأغن من الغزلان : الذى فى صوته غنة .

ـ وعدى كالمستريح ـ قال جرير : أما تراه يستلب بها مثلا ؟ فقال الفرزدق : يالُـكَع ، إنه يقول :

☼ قلمٌ أصابَ من الدَّواة مِدَادها ☼

فقال عَدِيّ : قلم أصاب من الدواة مدادها .

فقال جرير : أكان سمعُك مخبوءاً فى قلبه ؟ فقال له : اسكت ، شغلنى سبُّك عن جيد الـكلام ! فلما بلغتِ إلى قوله :

ولقـد أراد الله إذ ولَّاكَهَا من أمّةٍ إصلاحها ورشادَها

قال الرشيد : ما تراه حين أنشده هذا البيت ؟ قلت : قال كذاك أراد الله . فقال الرشيد : ما كان فى جلالته ليقولَ هذا ، أحسبه قال : ما شاء الله ! قلت : وكذا جاءت رواية ؛ فلما أتيت على آخرها قال : أترى لذى الرُّمة شيئاً ؟ قلت : الأكثر ، قال : فما أراد بقوله :

تُمَرٌّ أمَرَّت فتله أسدِيّةٌ ذراعيَةٌ حلّالة بالمَصَانع

قلت : وصف حمار وحْشٍ أَسْمَنه بقلُ روضةٍ تواشَجَتْ أصوله ، وتشابكت فروعـه من مطر سحابة كانت بنوْء الأسد ثم فى الذراع من ذلك ، فقال الرشيد : أرحْ ، فقد وجدناك مُمْتِعاً ، وعرفناك محسناً .

ثم قال : أجِدُ مَلَالة ـ ونهض ـ فأخذ الخادم يصلح عقب النعل فى رجله ـ وكانت عربية ـ فقال الرشيد : عقَرْتَنى يا غلام ! فقال الفضل : قاتل الله الأعاجم ! أما إنها لو كانت سِنْدِيَّة لما احتجتَ إلى هذه الـكلفة ، فقال الرشيد : هذه نعلى ونعل آبائى ، كم تعارِضُ فلا تُتْرك من جواب ممضّ .

ثم قال : يا غلام ، يُؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم على هـذا الرجل ، فى ليلته هـذه ، ولا يحجب فى المستأنْف ، فقال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه غيرُه ، لأمرت لك بمثل ما أمر لك ، وقد أمرتُ لك به إلا ألف درهم ، فتلقّ الخادمَ صباحاً .

قال الأصمعىّ : فما صلَّيتُ من غدٍ إلا وفى منزلى تسعة وخمسون ألف درهم .

١١٧ — تعوَّدْتُ حسنَ الصبرِ حتى أَلِفْتُه *

قال أبو العتاهيـة : حبسنى الرشيد لترْكِى الشعر ، وغُلِّقَتْ عَلَىَّ الأبواب ، فبقيتُ دَهِشاً كما يَدْهَشُ مثلى لتلك الحال ؛ فنظرت فإذا رجلٌ جالس فى جانب السجن وهو مقيّد ، فجعلتُ أنظرُ إليه ساعة ، فتمثَّل بقوله :

تعوّدْتُ حسنَ الصبر حتى أَلِفْتُه ... فأَسلمنى حسنُ العزاءِ إلى الصَّبْرِ
وصيَّرَنى يأْسِى من النــاسِ راجياً ... لحُسنِ صنيعِ اللهِ من حيثُ لا أَدْرِى

فقلت له : أَعِدْ ـ أعزّكَ الله ـ هذين البيتين ، فقال لى : ويلك يا أبا العتاهية! ما أسوأ أدبك ! وأقلّ عَقْلَك ! دخلتَ علىَّ السجن فما سلَّمتَ تسليمَ المُسْلِمِ على المسلم ، ولا سألتَ مسألة الحرِّ للحرِّ ، ولا توجَّعْتَ توجّع المبتلَى للمبْتَلَى ، حتى إذا سمعتَ بيتين من الشعر الذى لا فضيلةَ فيكَ سواه لم تصبر عن استعادتهما ، ولم تُقَدِّم قبل مسألتك عنهما عُذْراً لنفسك فى طلبهما !

فقلت : يا أخى ؛ إنى دَهِشت من هذه الحال فلا تَعْذِلنى واعْذُرنى متفضِّلاً ، فقال : أنا والله بالدَّهَشِ والحَيْرة أولى منك ؛ لأنك حُبِستَ على أن تقول الشعر الذى به ارتفعتَ و بلغت ما بلغتَ ، و إذا قلته أَمِنت ، وأنا حُبِستُ على أن أدلَّ على ابن رسول الله لِيُقْتَل أو أُقتلَ دونه ، ووالله لا أدلُّ عليه أبداً ، والساعة يُدْعى بى فأُقتل ، فأَينا أحقُّ بالدَّهَش ؟

---

* الطبرى : ٤ ـ ٩٢ ، بدائع البدائه : ١ ـ ١٥١ .

فقلت : أنت والله أولى ، سلّمك الله وكفاك ! ولو علمتُ أن هـذه حالك ماسأَلتُك ، فقـال : إذَنْ لا أبخل عليك ، ثم أعادَ علىّ البيتين حتى حفظتُهما ، وأجزتهما بقولى :

إذا أنا لم أقبــلْ من الدهر كل ما   تـكرّهتُ منه طالَ عَتْبى على الدهر

ثم سألتُه عن اسمه ، فقال : أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد .

ولم نلبث إلا قليلاً حتى سمعنا صوتَ الأقفال ، فقام ، فسكَبَ عليه ماءً من جرَّةٍ كانت عنده ، ولبس ثوباً نظيفاً ، ودخل الحرسُ ومعهم الشموع ، فأَخرجونا جميعاً ، وقُدّم قبلى إلى الرشـيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسأَلنى عنه ، وافعل ما بَدَالك ، فلو أنه تحت ثوبى ما كشفتُ عنـه ؛ فأمر به فضُربَتْ عنقه . ثم قال لى : أظنُّك يا أبا إسماعيل ارْتَعْت ، فقلت : دون مارأيته تسيلُ منه النفوس! فقال : ردّوه إلى محبسه ، فردّونى .

١١٨ — مَلَّ كُتَّابُهُ إِحْصاءَ مَا يَهَبُ *

خرج الفضل(١) بن يحيى للصيد والقَنَص، و بيما هو فى موكبه إذْ رأى أعرابيا على ناقةٍ قد أقبل من صَدْرِ البَرِّيَّةِ ، يركُضُ فى سيره ، فقال : هذا يقصـدنى فلا يكلّمه أحدٌ غيرى .

فلما دنا الأعرابى ، ورأى المضارِبَ تُضْرَب ، والخيام تُنصب، والعسكر الكثير والجمَّ الغفير ، وسمع الغوغاء والضّجة ، ظن أنه أمير المؤمنين ؛ فنزل وعَقَل راحِلتَه ، وتقدّم إليه ، وقال : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته . قال: اخْفِضْ عليك ماتقول . فقال : السلام عليك أيها الأمير ، قال : الآن قارَبْتَ ؛ اجلس ، فجلس الأعرابى .

فقال له الفضل : من أين أقبلتَ يا أخَا العرب ؟ قال : من قُضَاعَة ، قال : من أدْناها أو مِنْ أقْصَاها ؟ قال : من أقصاها . فقال : ياأخا العرب ؛ مثلك من يَقْصِدُ من ثمانمائة فرسخ لأىّ شىء ؟ قال : قصدتُ هؤلاء الأمَاجدَ الأنجاد، الذين قداشتهر معروفهم فى البلاد ، قال : مَنْ هم ؟ قال : البرامكةَ !

قال الفضل : يا أخا العرب ؛ إن البرامكة خَلْقٌ كثير ، وفيهم جليلٌ وخَطِيرٌ ، ولكل منهم خاصّة وعامة ؛ فهل أفردْتَ لنفسك منهم من اخترتَ وأتيْتَه

---

* المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(١) وزير الرشيد ، كان من أجود الناس ، وله فى هذا أخبار كثيرة ، سجن فى نكبة البرامكة ، وتوفى فى سجنه بالرقة سنة ١٩٣ هـ .

لحاجتك ؟ قال : أجل ، أطولهم باعاً ، وأسمحهم كفاً . قال : مَن هو ؟ قال: الفضل ابن يحيى .

قال له الفضل: ياأخا العرب ؛ إنّ الفضلَ جليلُ القدرِ عظيمُ الخطَر ،إذاجلس للنّاس مجلِساً عامًّا لم يحضُر مَجْلِسَه إلا العلماء والفقهاء ، والأدباءوالشعراء ،والكتّابُ والمناظرون للعلم . أعالم أنت ؟ قال : لا. قال: أفأديب أنت ؟ قال: لا . قال: أفعارف أنت بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : لا . قال : وَرَدْتَ على الفضل بكتابِ وسيلة ؟ قال : لا . فقال : يا أخا العرب غَرّتْكَ نفسك ؛ مِثْلُكَ يقصد الفضل بن يحيى ، وهو ماعرفتك عنه من الجلالة ! بأى ذريعة أو وسيلة تَقْدَمُ عليه ؟

قال: والله ياأمير ؛ ماقصدتُه إلّا لإحسانِه المعروف ، وكرمِهالموصوف ، و بيتين من الشعر قلتُهما فيه .فقالالفضل : ياأخا العرب ؛ أنشدْنىالبيتين ، فإن كانا يصلحان أن تَلْقَاه بهما أشِرْتُ عليك بلقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بَرَرْتُكَ بشىء من مالى ، ورجعتَ إلى بَادِيتك ، وإن كنتَ لم تستحقّ بشعرك شيئاً . قال: أَفتفعَلُ أيُّها الأمير ؟ قال : نعم . قال : فإنى أقول :

ألم ترَ أنّ الجُودَ من عَهْدِ آدمٍ تحدَّر حتى صار يَمْتَصُّهُ الفضــلُ
ولو أن أمًّا مسّهــا جوعُ طفلِهـا غَذَتْهُ باسمِ الفَضْلِ لاغْتَذَا الطِّفْلُ

قال : أحسنتَ ياأخَا العرب ، فإن قال لك : هٰذان البيتان قد مَدَحنا بهما شاعر ، وأخذ الجائزة عليهما فأنشِدْنى غيرَهما فما تقول ؟ قال : أقول :

قد كان آدمُ حينَ حانَ وفَاتُهُ أوْصاك وهْوَ يجود بالحَوْباء[1]
بِبَنيــه أن ترْعَاهمُ فرَعَيْتَهمْ وكفيتَ آدمَ عوْلَةَ الأبْنــاءِ

(١) الحوباء : النفس .

قال : أحسنتَ يا أخا العرب ؛ فإن قال لك الفضلُ – مُمتحنا : هذانِ البيتان أخذتَهما من أفواه الناس ، فأنشدْنى غيرهما ، فما تقولُ وقدْ رمقتْك الأدباء بالأبصار، وامتدتِ الأعناقُ إليك ، وأنت تحتاجُ أن تناضلَ عن نفسك ؛ قال : إذَنْ أقول :

مَلّتْ جهابذُ(١) فضلٍ وَزْنَ نائلِهِ ومَلّ كُتّابهُ إحصاء مايَهَبُ
واللهِ لولاكَ لم يُمْدَحْ بِمكرُمةٍ خَلقٌ ولم يرتفعْ مجْدٌ ولا حسَبُ

قال : أحسنتَ يا أخا العرب ! فإن قال لك الفضلُ : هذان البيتان مسروقان، أنشِدْنى غيرَهما ، فما تقول ؟ قال : إذن أقول :

ولو قيل للمعروف نادِ أخا العُلَا لنادى بأعلى الصوت يافضلُ يافضلُ
ولو أنفقتْ جَدْواك من رَمْلِ عالجٍ(٢) لأصبح من جَدْواكَ قد نفِدَ الرّملُ

قال : أحسنت يا أخا العرب ؛ فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أيضاً : أنشدنى غيرَهما فما تقول ؟ قال : أقول :

وما الناس إلّا اثنـان صَبٌّ و باذِلٌ وإنى لَذاكَ الصَّبُّ،والباذِلُ الفضلُ
على أنّ لى مِثْلاً إذا ذُكِرَ الوَرَى وليسَ لِفضلٍ فى سماحته مِثلُ

قال : أحسنتَ يا أخا العرب ! فإن قال لك الفضلُ : أنشدنى غيرهما فما تقول؟ قال : أقول أيُّها الأمير :

حكى الفضلُ عن يَحْيى سماحةَ خالدٍ فقامتْ به التّقوى وقام به العدلُ
وقام به المعروفُ شرْقاً ومَغْرِباً ولم يكُ للمعروف بَعْدٌ ولا قَبْلُ

قال : أحسنت ؛ فإن قال لك : قد ضَجِرْنا من الفاضل والمفضول ، أنشدنى بيتين على الكُنْيَةِ لا على الاسم ، فما تقولُ ؟ قال : إذَنْ أقول :

---

(١) جهابذ جمع جهبذ : وهو النقاد الخبير (٢) موضع به رمل .

ألا يا أبا العباس يا واحدَ الوَرَى ... وَ ياملكاً خَدُّ الملوكِ له نَعْلُ
إليك تَسِيرُ النـاسُ شَرْقاً ومَغرِباً ... فُرَادَى وأزواجاً كأنَّهُمُ نَمْلُ

قال : أحسنتَ ياأخا العرب ؛ فإنقال لكالفضل : أنشدنا غيرَ الاسم والكُنْيَة. قال : والله لئن زادنى الفضل ، وامتحننى بعد هـذا لأقولنّ أربعة أبيات ما سَبَقنى إليها عربىٌّ ولا عجمى ، ولئن زادنى بعدها لأجعنّ قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى فمه ، ولأرجعنّ إلى قُضَاعة خاسراً ولا أبالى .

فنكّس الفضل رأسه ، وقال للأعرابى : يا أخا العرب ؛ أسمِعْنى الأبيات الأربعة ، قال : أقول :

ولائمةٍ لامَتْك يا فضلُ فى النّدَى ... فقلت لها : هل يقدحُ اللومُ فى البحر؟
أتنهَيْنَ فضلاً عن عطاياه للورى ... فمن ذا الذى يَنْهَى السحابَ عن القطْرِ
كأنّ نوالَ الفضلِ فى كلّ بلدةٍ ... تحدُّرُ ماء المزنِ فى مَهْمَهٍ قَفْرِ
كأنّ وفودَ النـاس فى كل وُجْهَةٍ ... إلى الفضل لاقَوْا عنده ليلة القَدْرِ

فأمسك الفضل ثم سقط على وجهه ضاحكاً ! ثم رفع رأسه وقال : يا أخا العرب ؛ أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ما شئت ؛ فقال : سألتك بالله أيها الأمير إنك لَهُوَ ! قال : نعم . قال له : فأَقِلْنِي، قال : أقالَكَ الله ، اذْكُرْ حاجتك. قال : عشرة آلاف درهم . قال الفضل : ازْدَرَيْتَ بنا و بنفسك يا أخا العرب ، تُعطى عشرة آلاف فى عشرة آلاف ، وأمر بدفع المال .

فلما صار المال إليه، حسده بعضُ أتباع الفضل ، وقال : يامولاى؛هذا إسراف، يأتيك جِلْفٌ من أجلاف العرب بأبياتٍ اسْتَرَقها من أشعار العرب ، فتَجْزِيه بهذا المال ! قال : استحقّه بحضوره إلينا من أرضِ قُضاعة .

قال : أقسمتُ عليك إلا أخذتَ سهماً من كِنانَتِك ، وركّبتَهُ فى كَبِدِ قَوْسِك وأومأت به إلى الأعرابى ، فإن ردّ عن نفسه ببيتٍ من الشعر ، وإلا كان له فى بعضِ المال كفاية .

فأخذ الفضلُ سهماً ، وركّبه فى كَبِدِ قوسه ، وأومأ به إلى الأعرابى وقال له : رُدَّ سهمى ببيتٍ من الشعر ، فأنشأ يقول :

لقوسُك قوسُ الجود والوَتَرُ النّدَى ... وسَهْمُك سهمُ العزِّ فارْمِ بِهِ فَقْرِى

فضحِك الفضل ، وأنشأ يقول :

إذا مَلَكتْ كَفِّى منالًا ولم أُنِلْ ... فلاانْبَسَطَتْ كَفِّى ولانهضتْ رِجْلِى

عَلَى الله إخلافُ الذى قد بذلتُه ... فلا يُبْقِ لى بُخْلى ولا مُتْلِفِى بَذْلِى

أرُونى بخيلاً نال مجــداً بِبُخْلِهِ ... وهاتوا كريماً مات من كَثْرَةِ البَذْلِ

ثم قال الفضل لتابعه: أعطِ الأعرابىّ مائةَ ألف درهم لقَصْدِه وشعره ، ومائةألف ليكفينا شرّ قوائم ناقته .

فأخذ الأعرابىّ المال وانصرف وهو يبكى ، فقال له الفضل : ممّ بكاؤك ياأَعْرابىّ ؟ أَسْتِقْلالًا للمال الذى أعطيناك ؟ قال : لا ، ولـكنى أبْـكى على مثلك يأكله التراب وتُواريه الأرض ، وتذكَّرت قول الشاعر :

لعمرُكَ ما الرَّزِيَّةُ فَقْدُ مالٍ ... ولا فرسٌ يموتُ ولا بعيرُ

ولـكنَّ الرّزيّةَ فَقْدُ حُرٍّ ... يموتُ لموتهِ خَلْقٌ كثيرُ

ثم انصرف الأعرابىّ .

١١٩ — اسْمِى مشتقّ من اسمك *

قال عبد الله بن منصور : كنتُ يوماً فى مجلس الفضل بن يحيى فأتاه الحاجب ، فقال : إنّ بالباب رجلاً قد أكْثَر فى طَلَبِ الإذْنِ ، وزعم أنّ له يداً يَمُتُّ بها ، فقال : أدْخِلْه .

فدخل رجل جميل رثُّ الثياب ، فسلّم وأحسن ؛ فأومأ الفضل إليه بالجلوس فجلس ، فلما علم أنه قد انطلق وأَمْكَنه الكلام ، قال له : ما حاجتُك ؟ قال له : قد أعرَبَتْ عنها رَثَاثةُ هَيْئتى ،وضَعْف طاقتى ! قال : أجل ! فما الذى تمتُّ به؟قال: وِلادة تقربُ من ولادتك ، وجِوَار يدنو من جِوارك ، واسمٌ مشتق من اسمك !

قال : أما الجِوَار فقد يمكن أن يكونَ كما قلتَ ، وقد يوافق الاسمُ الاسمَ ، ولكن ما علمُك بالولادة ؟ قال : أَعْلمتنى أمى أنها لما وضعتنى ، قيل : إنه ولد الليلة ليحيى بن خالد غلام ، وسُمّى الفضل ، فسمّتنى فُضَيْلاً ، إعظاماً لاسمك أن تلحقنى بك ؛ فتبسّم الفضل ، وقال : كم أتَى عليك من السنين ؟ قال : خمس وثلاثون . قال : صدقت ! هذا المقدار الذى أتيتُ عليه ، فما فعلتْ أمُّك ؟ قال : توفِّيت ، رحمها الله ! قال : فما منعك عن اللّحاق بنا فيما مضى ؟ قال : لم أَرْضَ نفسى للقائك فى حداثة تُقْعدنى عن لقاء الملوك ! قال : يا غلام ؛ أعْطِه لكل عامٍ من سِنيهِ ألفاً ، وأَعْطِه من كُسْوَتنا ومراكبنا مايَصْلُحُ له !

---

* العقد الفريد : ١ ـ ١٣٦ .

١٢٠ — بديهة قَيْنة *

اعترض هارونَ الرشيد قينةٌ فغنَّت :

مانقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْلُمُونَ إن غَضِبُوا

فلما ابتدأتْ به تغيَّر وجهُ الرشيد ، وعلِمت أنها قد غَلِطت ، وأنها إن مرّت فيه قُتِلت ، فغنّت :

ما نَقَموا من بنى أميــة إلّا أنهم يَجْهَلُون إن غَضِبُوا

وأنهم معدِنُ النِّفاق فـا تَفْسُد إلا عليهمُ العربُ (١)

فقال الرشيد ليحيى بن خالد ـ وكان حاضراً : أسمِعتَ يا أبا على ؟ فقــال : يا أمير المؤمنين ؛ تُبتاع ، وتُسْنى (٢) لها الجائزة ، ويعجّل لها الإذن ليسكنَ قلبُها ؛ قال : ذلك جزاؤُها ، قُومى فأنت منى بحيث تحبِّين . فقال يحي :

جُزِيتَ أميرَ المؤمنين بِأمْنِها من الله جنّاتٍ تفوزُ بِعَدْنِها

---

* الأغانى : ٥ : ٨٥ .

(١) والشعر فى الأصل :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

(٢) تسنى الجائزة : تجزل حتى تكون سنية .

١٢١ — لا أذوق المدام إلا شميما*

حبِس أبو نُواس فى شرب الخمر ، وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهلَ السجون ويتعاهدهم ويتفقدهم ، ودخل فى حبْس الزنادقة ؛ فرأى فيه أبا نواس — ولم يكن يعرفه — فقال له : يا شاب ؛ أنتَ مع الزنادقة ! قال : مَعَاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكَبْش ؟ قال : أنا آكل الكبش بصوفِه ! قال : فلعلك ممن يَعْبُدُ الشمس ؟ قال : إنى لأتجنب القعود فيها بُغْضاً لها ! قال : فبأى جُرْم حبِست ؟ قال : حبِست بتهمةٍ أنا منها برئ ! قال : ليس إلا هذا ! قال : والله لقد صَدَقتُك .

فجاء إلى الفضل فقال له : يا هذا ؛ أيُحْبَس الناس بالتهمة ! قال : وما ذاك ؟ فأخبره بما ادّعى من جُرْمه . فتبسم الفضل ، ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدَعَا به ، وتقدَّم إليه أن يجتنب الخمر والسكر . فقال : نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال: نعم ! فأُخرج.

فبعث إليه فِتيَان من قريش ، فقال لهم : إنى لا أشرب . قالوا : وإن لم تشرب فآنِسْنا بحديثك . فأجاب، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترتح لها ؟ قال : لا سبيل والله إلى شُرْبها ، وأنشأ يقول :

---

* الطبرى : ٩ : ٢٢٠ .

أيُّهــا الرَّائحانِ باللَّومِ لُوماَ ... لا أذُوقُ المُــدامَ إلا شميما

نالَنِي بالملام فيهـــا إمامٌ ... لا أرى لى خِلافه مستقيماَ

فاصرِفاها إلى سِوَاىَ فإنِى ... لستُ إلا على الحديث نديما

كبْرحظِّىَ منها إذا هى دارت ... أن أراها وأن أشمَّ النسيما

فـكأنى وما أُحَسِّنُ منها ... قَعَدِىٌّ(١) يُزَيِّنُ التحكيما

كَلَّ عن حَمْلِهِ السِّلاح إلى الحر ... بِ فأَوْصَى المُطِيقَ ألاَّ يُقِيما

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا ؛ غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

١٢٢ — إن بَعْدَ العُسرِ يسراً*

قال مسلم بن الوليد(١) : كنتُ جالساً عند خياط بإزاء منزلى ؛ فمرّ بى إنسانٌ أَعْرفه ، فقمتُ إليه وسلمت عليه ، وجئت به إلى منزلى لأُضِيفه (٢) ، وليس معى درهم ، بل كان عندى زوج أُخفاف فأرسلتهما مع جاريتين لبعض معارفى ، فباعهما بتسعة دراهم ، واشترى بهما الُخبز واللحم .

فجلسنا نأكل ، و إذ بالباب يُطرَق ، فنظرت من شقّ الباب ، و إذا بإنسان يسأل : هذا منزل فلان ؟ ففتحت الباب وخرجت ، فقال : أنت مسلم بن الوليد ؟ قلت : نعم ، فأخرج لى كتاباً ، وقال : هذا من الأمير(٣) ؛ فإذا فيه :

قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكونَ فى منزلك ، وثلاثة آلاف درهم تتجمّل بها لقدومك علينا .

فأدْخَلْتُه إلى دارى وزدت فى الطعام ، واشتريتُ فاكهة ؛ وجلسنا فأكلنا ، ثم وهبتُ لضيفى شيئاً يشترى به هديةً لأهله .

وتوجهنا إلى الأمير بالرَّقّة (٤) ، فوجدناه فى الحمام ، فلما خرج استُؤْذن لى عليه ، فدخلتُ فإذا هو جالس على كرسى ، وبيده مُشْط ، يسرّح به لحيته ،

---

* المستطرف : ٢ ـ ٧٠

(١) أحد الشعراء المبدعين ، اتصل بالرشيد ، وعد من شعرائه ، ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه ثم قربه الفضل بن سهل ، ومات سنة ٢٠٨ ﻫ بجرجان (٢) أضاف الرجل : أنزله ضيفاً (٣) هو يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد (٤) الرقة : بلد على الفرات واسطة ديار ربيعة وبلد آخر غربى بغداد .

فسلّمت عليه فردّ أحسنَ رَدّ ، وقال : ما الذى أقعدَك عنا ؟ قلت : قلّة ذات اليد ، وأنشدتُه قصيدةً مدحتُه بها . قال : أتدرى لِمَ أحضرتك ؟ قلت : لا أدرى ، كنتُ عند الرشيد منذ ليال أُحادِثه ، فقال لى : يايزيد ؛ مَن القائل فيك :

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بنى مُضَرٍ ... يمضى فيخترقُ الأجسام والْهَامَا [1]

كالدّهرِ لا ينثنى عمـا يَهمُّ به ... قد أوْسع الناس إنْعَاماً وإرْغاماً

فقلت : والله لا أدرى يا أمير المؤمنين ! فقال : سبحان الله ! أيُقال فيك مثلُ هذا ولا تدرى مَنْ قاله ؟ فسألت ؛ فقيل لى : هو مسلم بن الوليد !

فأرسلت إليك ، فانهض بنا إلى الرشيد . فسرنا إليه ، واستؤذن لنا ، فدخلنا عليه ، فقبّلت الأرض بين يديه ، وسلمت فردعلى السلام، فأنشدته مالى فيه من شعره، فأمر لى بمائتى ألف درهم ، وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم ، وقال : ما ينبغى أن أساوىَ أمير المؤمنين فى العطاء .

(١) الهامة : الرأس ، والجمع هام .

١٢٣ — رَاوِيَة مسلم بن الوليد*

كان داودُ بن يزيد بن حاتم المهلّبي[1] يَجْلِسُ للشعراء فى السنةِ مجلساً واحداً ، فيقصدونه لذلك اليوم ويُنْشِدُونه ، فوجّه إليه مسلم رَاوِيَته بقصيدته التى أولها :

لا تَدْعُ بى الشوقَ إنّى غيرُ مَعْمُود نَهَى النُّهَى عن هوَى الهيفِ الرّعاديد[2]

فقدِم عليه يومَ جلوسه للشعراء ولحقه عقب خروجه عنه ، فتقدم إلى الحاجب وَحَسَرَ لِثَامَه عن وجْهه ، ثم قال : استأذن لى على الأمير؛ قال : ومَنْ أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد انْصَرَمَ وقْتُكَ وانصرف الشعراء وهو على القيام .

فقال له : ويحك ! إنى قد وفدتُ على الأمير بشعرٍ ماقالت العربُ مثلَه ،وكان مع الحاجب أدبٌ يفهمُ به مايسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمرُ كما ذكرت أوصَلْتُكَ إليه ؛ فأنشده بعضَ القصيدة ، فسمع شيئاً يقصرُ عنه الوصف ؛ فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعرٌ بِشِعْرٍ ماقالت العرب مثلَه ، فقال : أَدْخِلْ قائلَه ! فلما مَثَل بين يديه سلّم ، وقال : قدمتُ على الأمير ـ أعزّه الله ـ بمدحٍ يسمعه ، فيعلم تقدمى على غيرى مِمّنْ امْتَدَحه ؛ فقال : هات !

فلما افتتح القصيدة وقال : «لا تَدْعُ بى الشوق ..» استوى جالساً ،وأطرق حتى

---

* عصر المأمون : ٢-٣٨١

(١) أمير من الشجعان العقلاء ولاه الرشيد السند فانسقت له أمورها واستمر إلى أن توفى فيها سنة ٢٠٥ هـ (٢) أى لا تدعنى مشتاقاً ، وسأله دعبل عن معنى ذلك ، فقال : لاتدعنى صريع الغوانى، فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارهاً . والمعمود :المشغوف عشقاً .والهيف : الضامرات الخصور . وامرأة رعديدة : يترجرج لحمها من نعمتها . وكذلك الرخصة الناعمة .

أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليـه ، فقال : أهذا شعرُك ؟ قال : نعم أيها الأميرُ ! قال : فى كم قلتَه يافتى ؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله . قال : لو قلتَه فى ثمانيةِ أشهر لـكنتَ محسناً ، وقد اتهمْتُكَ ، لجودة شعرِك وخمولِ ذِكْرِك ، فإن كنتَ قائلَ هذا الشعر فقد أنظَرْتُك أربعة أشهر فى مثله ، وأمرتُ بالإجراء عليك ، فإن جئتَنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلَّا حرَمْتُك .

فقـال : أو الإقالة ـ أعزَّ اللهُ الأمير . قال : قد أقلتك ، قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافِدُ عليك بشعره . فقال : أنا ابنُ حاتم ! إنك لما افتتحت شعره فقلت : «لا تدع بى الشوق إنى غير مَعْمُود[1]» سمعتُ كلامَ مسلم ينادينى ، فأجبت نداءه واستويتُ جالساً ، ثم قال : ياغلام ، أَعْطِه عشرة آلاف درهم ، واحمل الساعة إلى مسلم مائةَ ألف درهم .

---

(١) انظر القصيدة فى عصر المأمون : ٢ : ٢٨٢

١٢٤ — لَبَاقة*

قال محمد بن أيوب : كان بالبصرة رجلٌ من بنى تميم ، وكان شاعراً ظريفاً ، خبيثا ماكراً ، وكنتُ أنا والِىَ البصرة ، آنَس به وأَسْتَحْلِيه(١) ، فأردت أن أخدَعه ؛ فقلتُ له : أنت شاعر ظريف ، والمأمون أجودُ من السَّحاب الحافل(٢) والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟

قال : ما عنـدى ما يُقلّنى(٣) . قلت : فأنا أعطيك نجيباً(٤) فارهاً ، ونفقـةً سـابغة ، وتخرجُ إليـه وقـد امتدحتَه ، فإنّك إنْ حَظِيتَ بلقـائه صِرْتَ إلى أمْنِيّتك .

قال : والله أيّها الأمير ، ما إخالك أبعدتَ ، فأعِدَّ لى ماذكرت . فدعوت له بنَجِيبٍ فَارِهٍ ، وقلت له : شأنك به فامْتَطِه ، قال : هذه إحدى الحسنيين ، فما بال الأُخرى ؟ فدعوتُ له بثلثمائةِ درهم ، وقلت: هذه نفقتك ، قال . أَحْسَبُك أيها الأمير قصّرتَ فى النفقة ، قلت : لا ، هى كافية إن قَصَرْتَ(٥) عن السَّرَف ، قال : ومتى رأيتَ فى أكابر سَعْد سَرَفاً حتى تراه فى أصاغرها !

فأخذ النجيب والنفقة ، ثم عَمِل أرجوزةً ليست بالطويلة ، فأنْشَدَنيها وحذف منها ذِكْرِى والثـناء علىّ ، وكان مارِداً(٦) ، فقلت له : ماصنعتَ شيئاً ، قال .

---

* الطبرى : ١٠ : ٢٩٧

(١) أستحليه : أستخفه (٢) السحاب الحافل : كثير الماء (٣) أقله : حمله (٤) النجيب من الإبل : القوى الخفيف السريع ؛ فارهاً : نشيطاً حاذاً قويا (٥) قصر عن السرف : امتنع عن الإسراف (٦) المارد من الرجال : العاتى الشديد .

وكيف ؟ قلت : تأتى الخليفة ولا تُثْنِي على أميرك ! قال : أيها الأمير ؛ أردتَ أن تخدَعَني فوجدتَني خدّاعاً ! أما والله مالِكَرامتى حملتَنِي على نجيبك ، ولاجُدْتَ لى بمالك الذى ما رَامَه أحدٌ قطّ إلّا جعل اللهُ خدَّه الأسفلَ ، ولكن لأذْكُرك فى شعرى ، وأمدحك عند الخليفة .

قلت : قد صدقت ؛ فقال : أما إذا أبديتَ ما فى ضميرك ، فقد ذكرتُك وأثنيتُ عليك ؛ قلت : فأنشدنى ما قلت ، فأنشدنيه ، فقلت : أحسنت ، ثم ودَّعَنِي وخرج .

وأتى الشام وإذا المأمون بسَلَغُوس .

قال : فأَخْبَرَنى ، قال : بينا أنا فى غزاة قُرَّة ، قد ركبتُ نجيبى ذاك ، ولبست مُقَطَّعَاتى [(١)] ، وأنا أرُوم العسكر ، إذا أنا بكَهْلٍ على بَغْلٍ فَارِهٍ ، ما يقرُّ قَراره ، ولا تدرك خطاه ؛ فتلقَّانى مكافَحةً [(٢)] ومواجهة ، وأنا أردّد نشيد أرجوزتى ، فقال : سلامٌ عليكم ، بكلام جَهْوَرِى ولسان بسيط ؛ فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! قال : قف إن شئت ، فوقفت ، فتضوَّعَتْ منه رائحةُ العنبر والمسك الأذْفَر ، فقال : ما أوَّلُك ! قلت : رجل من مُضَر ، قال : ونحنُ من مضر . قال : ثم ماذا ؟ قلت : رجل من بنى تميم . قال : وما بعدَ تميم ؟ قلت : من بنى سَعْد ، قال : هيه ! فما أَقْدَمَك هذا البلد ؟ قال : قصدتُ هذا الملك الذى ما سمعتُ بمثله أندَى رائحةً ، ولا أوسع راحةً ، ولا أطول باعاً ، ولاأمدّ يَفَاعاً [(٣)] !

---

(١) المقطعات : القصار من الثياب (٢) المكافحة : مصادفة الوجه بالوجه مفاجأة
(٣) اليفاع فى الأصل : المشرف من الأرض والجبل .

قال : فما الذى قصدتَه به ؟ قلت : شعرٌ طيّب يلذّ على الأفواه ، وتقتفيه الرواة ، ويحلو فى آذان المستمعين ؛ قال : فأنشِدْنيه ، فغضبت وقلت : يا ركيك[1] ! أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعرٍ قلتُه ، ومديح حبَّرته ، تقول : أنشدنيه ! فتغافَل واللهِ عنها ، وتَطامَن لها .

قال : وما الذى تأمُل منه ؟ قلت : إن كان على ما ذُكِرَ لى عنه فألفُ دينار ، قال : فأنا أعطيك ألفَ دينار إنْ رأيتُ الشعرَ جيداً والكلامَ عَذْباً ؛ وأضع عنك العناء ، وطول التَّرْدَاد ، ومتى تصل إلى الخليفة ، و بينك و بينه عشرةُ آلاف رَامِح ونابِل[2] !

قلت : فلى الله عليك أن تفعل ! قال : نعم ، لك الله علىّ أن أفعل ؛ قلت : ومعك الساعةَ مال ؟ قال : هذا بغلى ، وهو خير من ألف دينارٍ ، أنزل لك عن ظَهره .

فغضبتُ أيضاً ، وعارضنى نَزَق سَعْدٍ وخِفةُ أحْلامها ، فقلت : ما يساوى هذا البغلُ النجيبَ ! قال : فدَعْ عنك البغلَ ، ولك الله علىّ أن أعطيَك الساعةَ ألفَ دينار ! فأنشدته :

مأمون ياذَا المنن الشريفَهْ	وصاحبَ المرتبةِ المُنيفَهْ[3]
وقائدَ الكتيبة[4] الكَثيفَهْ	هل لك فى أرجوزة ظَريفَهْ ؟
أظرفَ من فقه أبى حنيفهْ	لا والذى أنت له خليفَهْ
ماظُلِمتْ فى أرضنا ضعيفَهْ	أميرُنا مُؤنَتُه خفيفَهْ

---

(١) الركيك من الرجال : الضعيف فى عقله ورأيه (٢) الرامح : ذو الرمح ، والنابل : صاحب النبل ، وهى السهام (٣) المنيفة : العالية المرتفعة (٤) الكتيبة : الجيش .

وماا جْتَنَبَى شيئاً سوى الوظيفَهْ   فالذئبُ والنعجةُ فى سقيفَهْ

* واللصُّ والتاجرُ فى قطيفَهْ [١] *

فوالله ما عدا أن أنشدتهُ ، فإذا زُهَاءُ [٢] عشرة آلاف فارس قد سَدّوا الأفق ، يقولون : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته ! فأخذنى أَفْــكَلٌ [٣] ، ونظر إلىّ بتلك الحالة ، فقال : لا بأس عليك أى أخى ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ جعلنى الله فداءك ! أتعرف لغات العرب ؟ قال : إى لعمر الله ! قلت ، فمن جعــل الــكاف منه مكان القاف [٤] ؟ قال : هذه حِمْــيَر ؛ فقلت : لعنها الله ولعَن من استعمل هذه اللّغَة بعد اليوم !

فضحك المأمون وعلم ما أردتُ ، والتفتَ إلى خادمٍ إلى جانبه ، فقال : أَعْطِه ما معك ، فأخرج إلىّ كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقــال : هاك ، ثم قال : السلام عليك ومضى ، فــكان آخر العهد به !

---

(١) أصل القطيفة : دثار مخمل   (٢) زهاء : قدر   (٣) أفــكل كأحمد : رعدة وقشعريرة
(٤) يشير إلى قوله له أولا : ياركيك .

١٢٥ — لولا حمقه وحمق صاحبه لمتّ جوعاً*

قال المأمون يوماً لأحمد بن أبى خالد[١] : اغْدُ علىّ باكراً لآخذ القصص التى عندك ، فإنها قد كثُرَتْ لتقطع فى أمورِ أصحابها ، فقد طال انتظارُهم إياها .

فبكَّر ، وقعد له المأمون ، فجعل يعرِضُها عليه ويوقع عليها ، إلى أن مرَّ بقصة رجل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدى؛ فصحّف[٢] وكان جائعاً فقال : الثَّريدى؛ فضحك المـأمون ، وقال ياغلام ، ثريدةً ضخمة لأبى العباس ، فإنهُ أصبحَ جائعاً !

فخجِل أحمد ، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ، ولـكنَّ صـاحبَ هذه القصة أحمقُ ، وضع فوق نسْبَته ثلاث نقط، قال : دَعْ هذا عنك ، فالجوعُ أضرَّبك حتى ذكرتَ الثَّريد ؛ فجاءوه بصَحْفَة عظيمة ، كثيرة العُرَاق والوَدَك[٣] ؛ فاحتشم أحمد ، فقال المأمون : بحياتى عليك ، لمـا عَدَلْتَ نحوها . فوضع القِصَص ومال إلى الثَّريد ، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر إليه ، فلمّا فرغ دعا بِطِسْتٍ فغسل يده ، ورجع إلى القصص ، فمرّت به قصة فلان الحِمْصى فقال : فلان الخَبيصى ، فضحك المأمون وقال : ياغلام ، جاماً[٤] فيه خَبِيص ، فإن غذاء أبى العباس كان مبتوراً[٥]

---

* عصر المأمون : ١ ـ ٣٠٦

(١) أحمد بن أبى خالد وزير المأمون بعد الفضل بن سهل وكان شرها (٢) المصحف : الذى يروى الخطأ عن قراءة الصحف بأشباه الحروف ـ مولدة (٣) الودك : الدسم ، والعراق جمع عرق : وهو القطعة من اللحم (٤) الجـام : إناء من فضة . الخبيص : المعمول من التمر والسمن (٥) بتره : قطعه قبل الإتمام .

فخجل أحمد وقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ صاحبُ هذه القصة أحمق ، فتح الميم فصارت كأنها سنّتان ، قال : دَعْ عنك هذا ، فلولا حمقُه وحمقُ صاحبــه لمتّ جوعاً ، فجاءوه بجام خَبِيص ، فخجل ، فقال له المأمون : بحياتى عليك إلّا ملتَ إليهـا ! فانحرف فانْثَنَى عليه ، وغسل يده ، ثم عاد إلى القصص ، فما أسقطَ حرْفاً حتى أتى على آخرها .

١٢٦ — إذا لم يكن للمَرْء فى دولة امرئٍ
نصيبٌ ولاحَظٌّ تمنَّى زوالهـــا*

أشرف المأمونُ يوماً على قصره فرأى رجلا يكتب بفَحْمَةٍ على حائط قصره . فقال المأمون لبعض خدَمِه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر ما كتب وأْتنى به . فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً ، وقبض عليه، وقال له : ما كتبتَ ؟ فإذا هو قد كتب هذا البيت :

ياقصرُ جُمّعَ فيك الشؤمُ واللُّومُ متى يُعَشّشُ فى أركانك البُومُ !

ثم إن الخادم قال له : أجب أميرَ المؤمنين . فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بى إليـه ، فقال الخادم : لا بدّ من ذلك ، ثم ذهب به .

فلما مَثَل بين يدى أمير المؤمنين ، وأُعْلِم بما كتب ، قال له المأمون : وَيلك ! ماحَمَلك على هذا ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنه لا يخفى عليك ماحوَاه قصرُك هذا ؛

---

* مجانى الأدب : ٢ ـ ١٨٧

من خزائن الأموال والحليّ والحُلَل ، والطعام والشراب والفُرُش والأوانى ،والأمتعة والجوارى ، والخدَم وغير ذلك ، مما يقْصُرُ عنه وصفى ، ويعجِزُ عنه فَهْمِى . وإنى قد مررتُ عليه الآن وأنا فى غاية من الجوع والفاقة ؛ فوقفتُ مُفكراً فى أمرى ، وقلتُ فى نفسى : هذا القصر عامر عال ، وأنا جائع ، ولا فائدة لى فيه فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رُخامةً أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوَّتُ بثمنه ؛ أو ماعَلِمَ أميرُ المؤمنين رعاه الله قولَ الشاعر :

إذا لم يكنْ للمرءِ فى دولةِ امرىءٍ نصيبٌ ولا حظٌّ تمنَّى زَوالهــــــا
وما ذاكَ من بُغْضٍ لها غــــيرَ أنَّه يُرَجِّى سواها ، فهْوَ يهْوَى انْتِقَالَها

فقال المأمون : ياغلام ؛ أعطِهِ ألفَ درهم . ثم قال : هى لك فى كل سنــة ، مادام قصرُنا عامراً بأهله مسروراً بدولتِه .

١٢٧ — خلُق دِعْبل *

قال محمد بن موسى الضَّبِّىّ ، وكان نديماً لعبد الله بن طاهر : بينا نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة ، يُذاكرنا بالأدب وأهلِه ، وشعراء الجاهلية ، إذ بلغ إلى ذكرِ المحدَثين حتى انتهى إلى ذِكْر دِعْبل[1] فقال : وَيْحَك ياضَبّىّ ! إنى أريد أن أحدِّثَك بشىء على أنْ تستره طولَ حياتى ؛ فقلت له : أصلحك الله ، أنا عندك فى موضع ظِنَّة ؟ قال : لا ، ولكن أُطَيِّبُ لنفسى أن توثِّق لى بالأيمان ؛ لأَركنَ إليها ، ويسكن قلبى عندها ، فأحدثك حينئذ .

قلت : إن كنتُ عند الأمير فى هذه الحال فلا حاجةَ به إلى إفشاء سره إلىّ ، واستعفيتُه مراراً فلم يعفنى ؛ فاستحيَيْتُ من مراجَعته ، وقلت : فلْيَرَ الأميرُ رأيه ؛ فقال لى : ياضبِّى ؛ قل : والله ، قلت : والله ، فأمرّها علىّ غموساً[2] مؤكدة بالبَيْعة والطلاق وكلّ ما يَحْلِفُ به مسلم .

ثم قال : أشعرت أن دِعْبلا مَدْخولُ النَّسَبِ ؟ وأمسك ، فقلت : أعزّ الله الأمير ، أفى هذا أخذتَ العهود والمواثيق ومغلَّظَ الأيمان ! قال : إى والله ، فقلتُ : ولم ؟ قال : لأنى رجلٌ لى فى نفسى حاجة ، ودعبل رجل قد حَمَل نفسه على المهالك ، وحمل جِذْعَهُ على عنقه ، فليس يجد مَنْ يَصْلبُه عليه ، وأخاف إنْ بلغه أنْ يقول

* الأغانى : ١٧ ـ ٥٦ .

(١) هو دعبل بن على بن رزين ؛ شاعر مطبوع هجاء ، لم يسلم من لسانه أحد ممن عاصره من الخلفاء والوزراء والولاة ، ولا ذى نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن ، توفى سنة ٢٤٦ هـ .

(٢) اليمين الغموس : التى تغمس صاحبها فى الإثم .

فىّ مايبقى علىّ عاره على الدهر ، وقُصَارَاى إن ظفرتُ به ، وأسلمَتْه اليمن ـ وما أراها تفعل ؛ لأنه اليوم شاعرها ، والذابُّ عنها ، والمحامى لها دونها ـ أن أضربَه مائة سوط ، وأثقله حديداً ؛ وليس فى ذلك عِوضٌ علىّ مما سار فىّ من الهجاء وفى عَقِبِى من بعدى .

فقلت : ما أراه يفعل ويُقْدِم عليك ، فقال لى : ياعاجز ؛ أتراه أقْدم على الرشيد والأمين والمأمون وعلى أبى ولا يُقدِم علىّ ! فقلت : فإذا كان الأمر كذلك فقد وفّق الأمير فيما أخذه علىّ .

وكان دعبل صديقاً لى ، فقلت : هـذا شىء قد عرفْتَه ، فمن أين قال الأمير إنه مدخول النسب ، وهو فى البيت الرفيع من خُزَاعة ؟ فقال : اسمع ، إنه كان أيام تَرَعْرع خاملاً لا يُؤْبَه له ، وكان ينام هو ومسلم بن الوليد فى إزارٍ واحد لا يملكان غيره ، ومسلم أستاذُه ،وهو غلامُه يَخْدُمُه ، ودِعْبل حينئذ لايقول شعراً يفكّر فيه، حتى قال :

لا تعجبى ياسَلْمُ من رجلٍ   ضحِك المشيب برأسه فبكى

وغنّى فيه بعضُ المغنين وشاع ، فَغُنِّىَ به بين يدى الرشيد ، فطرب ، وسأل عن قائل الشعر ، فقيل له : دعبل بن على ، وهو غلام نشأ من خُزاعة ، فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخِلْعَة من ثيابه ، فأُحْضِر ذلك ، فدفعه مع خادم من خاصته ، وقال له : اذهب بهذا إلى خُزاعة ، فاسأل عن دعبل بن على ، فإذا دُلّت عليه فأَعْطِهِ هذا ، وقل له : ليحضر إن شاء ، وإن لم يُحبّ ذلك فدعه ، وأْمَر للمغنى بجائزة .

فسار الغلام إلى دِعْبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه . فلما دخل عليه وسلّم أمره بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقاً سنيًّا ، فكان أولَ مَنْ حرّضَهُ على قول الشعر ؛ فوالله مابلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على مافعله من العطاء السّنىّ ، والغنى بعد الفقر ، والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة ، وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وليس حىٌّ من الأحيـــاء نعلمُه ... من ذى يَمانٍ ومن بَكْرٍ ومن مُضَرِ

إلّا وهم شركاء فى دمائهمُ ... كما تَشَارَكَ أَيْسَارٌ على جُزُرِ (١)

قتـــلٌ وأسرٌ وتحريقٌ ومَنْهَبَةٌ ... فعلَ الغُزاة بأرض الروم والخَزَرِ (٢)

أرى أميّـــةَ معذورين إن قَتَلوا ... ولا أرَى لبنى العباس من عُذُرِ

اربَع بطوسَ على قبر الزّكِىِّ إذا ... ما كنتَ تَرْبَعُ من دينٍ على وطَرِ (٣)

قبران فى طُوس : خيرُ الناس كلِّهمُ ... وقبرُ شرِّهمُ ؛ هــذا من العِبَرِ !

ماينفعُ الرِّجْسَ من قربِ الزكىِّ ولا ... على الزكىِّ بقرب الرِّجْسِ من ضَررِ

هيهات كلُّ امرئٍ رهنٌ بما كسبَتْ ... له يداه فخذْ ما شئتَ أو فذَرِ

فهذه واحـدة ، وأما الثانية فإنّ المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس إليه قوله :

---

(١) أيسار : جمع ياسر ، وهو الذى يلى قسمة الجزور ، والجزر : نوق تذبح وتقسم أقساماً للمقامرة (٢) الخزر : جيل من الترك ، بلادهم شمال فارس . (٣) طوس : مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد ، دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا . واربع : أقم . والوطر : الحاجة .

أنَّى يكون وليس ذاك بكائنٍ يَرِثُ الخلافةَ فاسقٌ عن فاسق
إن كان إبراهيم [1] مضطلعاً بهـا فلتصلحَنْ من بعـده لمخارق [2]

فلما قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحتُ عن كل ماهجانا به ؛ إذ قرن إبراهيم بمخارق فى الخلافة ، وولَّاه عهده وكتب إلى أَبى أن يكاتبه بالأمان ، ويحمل إليه مالًا ، وإن شاء أن يقيمَ عنـده أو يصيرَ إلى حيث شاء فليفعل . فكتب إليه أبى بذلك ، وكان واثقاً به ، فصار إليه ، فحمله وخلع عليـه ، وأجازه وأعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلّم عليه تبسَّم فى وجهه ، ثم قال : أنشدنى [3] :

مدارسُ آيات خلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرِ العرَصَاتِ [4]

فجَزِع ، فقال له : لك الأمان فلا تخف ، وقد روِيتُها ولكنى أحب سماعها مِنْ فيك ، فأنشده :

مدارسُ آياتٍ خَلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرِ العرَصَاتِ
لآل رسولِ الله بالخَيْفِ مِنْ مِنًى وبالركن والتعريف والجَمَرات [5]
ديارُ علِيٍّ والحسينِ وجعفرٍ وحمزةَ والسَّجَّادِ ذى الثَّفِنَات [6]
ديارٌ عفَاها [7] كلُّ جَوْنٍ مُبَادر [8] ولم تَعفُ للأيَّام والسنوات

---

(١) يريد ابراهيم بن المهـدى ، وهو عم المأمون ، وقد اشتهر بالغناء وأنتقص من قدره .
(٢) مخارق : مغن معروف (٣) من القصائد المشهورة فى مدح آل البيت (٤) المقفر : الخالى من الناس ، والعرصات : ساحات الدار (٥) أسماء مواضع بمكة (٦) الثفنة : الركبة ومجتمع الساق والفخذ ، والسجاد ذو الثفنات : على بن الحسين لأن طول السجود أثر فى ثفناته
(٧) عفاها : محاها (٨) الجون المبادر : السحاب الماطر .

قفا نسأل الدار التى خفّ أهلُها ... متى عَهدُها بالصوم والصَّلوَاتِ !

وأين الألى شطّتْ بهم غُرْبة النوى ... أفانين (١) فى الآفاقِ مُفترِقاتِ

وما الناسُ إلا حاسدٌ ومكذّبٌ ... ومُضطَغِنٌ (٢) ذو إحنَةٍ وتِرَاتِ

ومضى فيها حتى أتى على آخرها .

والمأمون يبكى حتى اخضَلَّت لحيته بدمعه . فوالله ماشعرنا به إلا وقد شاعتْ له أبياتٌ يهجو بهــا المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به ، حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده (٣) .

---

(١) الأفانين : الأنواع أو الأحوال (٢) مضطغن : حاقد ، والإحنــة : العداوة والحقد ، والترات : جمع ترة : الثأر (٣) كان مما قاله فى المأمون :

أيسومنى المأمون خطة جاهل ... أوما رأى بالأمس رأس محمد

إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعــد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

وكان المأمون إذا أنشد هذه الأبيات يقول :

قبح الله دعبلا ، فما أوقحه ! كيف يقول عنى هــذا ، وقد ولدت فى حجر الخلافة ، ورضعت ثديها ، وربيت فى مهدها .

١٢٨ — دِيكُ دِعْبِل *

قال أحمد بن خالد : كنا يوماً بدار صالح بن على ببغـداد ، ومعنا جماعةٌ من أصحابنا ، فسقط على سطح البيت ديك طار من بيت دِعْبل ، فلما رأيناه قلنا : هذا صيْدنا ، فأخذناه .

فقال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحه ، فذبحناه وشَوَيْنَاه . وخرج دعبـل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط فى دار صالح ، فطلبه منا فجحدناه ؛ وشربنا يومنا ، فلما كان من الغد خرج دعبل ، فصلى الغداة ، ثم جلس فى المسجد ، وكان ذلك المسجد مَجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ، وينتابهم الناس . وقال :

أَسَرَ المؤذنَ صالحٌ وضيوفُه ... أَسْرَ الكَمِىِّ هفَا خِلالَ المأقِطِ(١)

بَعثُوا إليـــه بنيهمُ و بناتِهمْ ... من بين ناتِفَةٍ وآخر سامِطِ(٢)

يتنازعون كأنهم قد أوثقُوا ... خاقانَ أو هزموا قبائل ناعِطِ(٣)

نهشُوهُ فانتزعتْ له أسنانُهم ... وتهشّمت أقفاؤهم بالحـــائط

فـكتبها الناس عنه ومضوا ، فقال لى أبى ـ وقد رجع إلى البيت ـ ويحـكم ! ضاقت عليـكم المـآكل فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديك دعبل ، ثم أنشد الشعر وقال : لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته ، وبعثت به إليه وإلا وقَعْنَا فى لسانه ، ففعلتُ ذلك !

---

*مهذب الأغانى ٢ : ٢٥٥

(١) المأقط : موضع القتال ، والكمى : الشجاع (٢) سمطه : نقاه مما عليه من الريش .

(٣) ناعط : قبيلة من همدان .

١٢٩ — بين البادية والحضر * !

قدم عليُّ بن الجهم (١) على المتوكل ـ وكان بَدَوِيًّا جافياً ـ فأنشده قصيدةً قال فيها :

أنت كالكلب فى حِفَاظِكَ لِلْوُدِّ وكالتَّيْسِ فى قِرَاعِ الخطوب
أنت كالدَّلوِ لا عَدِمْنَاكَ دَلْواً من كبار الدِّلاَ كثيرَ الذَّنوب (٢)

فعرف المتوكل قُوَّته ، ورِقَّةَ مقصده ، وخشونة لفظه ، وأنه ما رأى سوى ماشبه به لعدم المخالطة وملازمة البادية ، فأمر له بدارٍ حسنة على شاطىء دَجْلة ، فيها بستانٌ حسن ، يتخلله نسيم لطيف يغذِّى الأرواح ، والجسْرُ قريب منه ، فيخرج إلى محلات بغداد ، فيرى حركة الناس ومظاهر مدنيتهم ويرجع إلى بيته .

فأقام ستة أشهر على ذلك ، والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته ، ثم استدعاه الخليفة بعد مدة لينشده ؛ لحضر وأنشد :

عيونَ المها بين الرُّصافةِ (٣) والجسْر جَلَبْنَ الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

فقال المتوكل : لقد خشيتُ عليه أن يذوب رقَّةً ولطافة .

---

* محاضرات الأبرار : ٢ ـ ٣

(١) هو عربى قرشى شاعر فصيح مطبوع ، خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ، ثم أبغضه بعد ذلك ونفاه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة ، وذلك لكثرة سعايته بندمائه ، مات سنة ٢٤٩ هـ .

(٢) يطلق الذنوب على ما فى الدلو من الماء (٣) الرصافة : محلة ببغداد .

١٣٠ — الجاحظ فى مرضه *

قال بعض البرامكة : كنت أتقلّد السنْدَ ؛ فاتصل بى أن صُرِفتُ عنها وكنت كَسبْتُ ثلاثين ألف دينار ؛ فخِفْت أن يَفْجأ بى الصارف ، ويُسْعَى إليه بالمال ؛ فَصُغْتُه عشرة آلاف إهْلِيلَجَةٍ(١) ، فى كل أهليلجة ثلاثة مثاقيل ، وجعلتها فى رَحْلِي ، ولم أبعد أن جاء الصارف ؛ فركبتُ البحر ، وانحدرت إلى البصرَة ، فخبّرْتُ أن بها الجاحظ(٢) وأنه عليل .

فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه ، فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعْتُه ؛ فخرجت إلىّ خادم صفراء ؛ فقالت : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب ، يحبُّ أن يدخلَ إلى الشيخ ، فيسرّ بالنظر إليه !

فأدّت ما قلت ـ وكانت المسافة قريبةً لصغر الدهليز والحجرة ـ فسمعته يقول : قولى له : وما تصنع بشقٍ مائل ، ولُعاب سائل ، ولون حائل(٣) ! فأخبرتنى ، فقلت : لا بدّ من الوصول إليه . فقال : هذا رجل قد اجْتَازَ البصرَة ؛ فسمع بى وبعلّتى ؛ فقال : أراه قبل موته ؟ ليقول قد رأيت الجاحظ !

ثم دخلت فسلمت ؛ فردّ ردًّا جميلا ، واستدنانى ، وقال : من تكون أعزّك الله ! فانتسبت له ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد الكِرَام الأمْجاد

---

* زهر الآداب : ٢ ـ ١٨٦ ، ذيل زهر الآداب : ١٦٥

(١) الإهليلج : ثمر ، والواحدة بهاء ، ويظهر أنه صاغها على شكل هذا الثمر (٢) هو عمرو بن بحر ، والجاحظ لقبه ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، ألف كثيراً ، وعاش طويلا ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ (٣) حال لونه : تغير .

فقد كانت أيامهم رَوْضَ الأزمنة ، ولقد انجَبَرَ بهم قوم كثير ، فَسَقْياً لهم ورَعياً [1] ! فدعوت له ، وقلت : أنا أسأل الشيخ أن ينشدنى شيئاً من الشعر ؛ أذكره به ، فأنشدنى :

لئن قُدِّمتْ قبلى رجالٌ فطالمـا | مشيت على رِسْلى فكنت المقدَّما [2]
ولكنّ هـذا الدهر تأتى صروفه | فَتبْرِم منقوضاً وتَنقُض مُبرَما

ثم نهضت ، فلما قاربت الدهليز صاح بى فقال : يا فتى ؛ أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج ؟ فقلت : لا ! قال : فأنا ينفعنى الإهليلج الذى معك ! فأهـدِ لنا منه ، فقلت : السمع والطاعة .

وخرجت مُفرِط التعجب من وقوعه على خبرى ، حتى كأن بعض أحبابى كاتبه بخبرى حين صغته ، وأنفذتُ إليه مائة إهليلَجة .

---

(١) سقيا لهم ورعيا : دعاء لهم بالخير (٢) رسلى : مهلى .

١٣١ — ظبي مذبوح ، ورجل ميت جريح ، وفتاة ميتة *

قال موسى بن هارون : كنت عند عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد جاءه الزُّبير بن بَكَّار (١) فأعلمه أن المعتزَّ بعث إلى أخيه محمد بن عبد الله بن طاهر يأمر بإحضاره وتقليده القضاء . فقال له الزّبير بن بكّار : قد بلغتُ هذه السن وأتَوَلَّى القضاء! أوَ بعدَ ما رويتُ أنَّ من ولى القضاء فقد ذُبح بغير سكين ! فقال له : فتلحق بأمير المؤمنين بسُرَّ مَنْ رَأى ، فقال له : أفعل .

فأمر له بمالٍ يُنفِقه ، وبظَهرٍ يحمله ويحمل ثَقَلَه . ثم قال له : إن رأيت يا أبا عبد الله أن تُفيدَنا شيئاً قبل أن نفترق ؟ قال : نعم! انصرفتُ من عُمرة المحرّم، فبينما أنا بأثَايَةِ العَرْج ، إذا أنا بجماعةٍ مجتمعة ، فأقبلت إليهم وإذا رجل كان يَقْنص الظباء ، وقد وقع ظَبْيٌ فى حِبَالته فذبحه ، فانتفض فى يده فضرب بقَرْنِه صدره ، فنَشِب القرن فيه فمات . وأقبلت فتاة كالمهاة ، فلما رأت زوجها ميتاً شهقت ثم قالت :

يا حُسْنُ لو بَطَلٌ لكنه أجلُ ... على الأُثَايَةِ ما أَوْدَى به البطلُ

يا حُسن جمَّع أحشائى وأقلقها ... وذاك يا حُسْنُ لولا غيرُه جَلَلُ

---

* الأغانى ٩ — ٤٢ ، معجم الأدباء : ١١ — ١٦٢

(١) الزبير بن بكار ، كان علامة نسابة إخبارياً ، ثقة ، توفى سنة ٢٥٦ هـ

(٢) جمع أحشائى : جعلها منضمة إلى بعضها ، وجلل : يسير ، إذ المراد أن الأمر الذى كان يسير لولا غيره مما هو مترتب عليه من الظلامة .

أضحتْ فتاة بنى نَهْدٍ عَلَانِيَةً (١) و بعلُهـــا بين أيدى القوم محتَمَلُ

ثم شهقت فماتت ، فما رأيتُ أعجبَ من الثـلاثة : الظبى مذبوح ، والرجل جريح ميت والفتاة ميتةٌ .

فأمر له عبيد الله بمال آخر . ثم أقبل إلى أخيه محمد بن عبد الله بعـد خروج الزبير ، فقال : إن الذى أخذناه من الفائدة فى خبره أكثرُ عندى ممـا أعطيناه من الحِباء[٢] والصلة .

---

(١) علانية : ظاهرة (٢) الحباء : العطاء .

١٣٢ — جوائزه الصّلاة *

كان ابن المدَبر إذا مدحه شاعر فلم يرضَ شعره قال لغلامه : امض به إلى المسجدِ الجامع ، فلا تفارقه حتى يصلّى مائةَ ركعة ! ثم خَلِّه.

فتحاماه الشّعراء إلا الأفرادَ المجيدين ، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصرى ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال : قد عرفتَ الشرط ؟ قال : نعم ! وأنشده :

أردنا فى أبى حسنٍ مديحاً ... كما بالمدح يُنْتَجَع الولاةُ
فقلنا : أكرمُ الثقلين طرًّا ... ومن كفّاه دجلةُ والفراتُ(٢)
فقالوا : يَقْبَلُ المدْحاتِ لكن ... جوائزُه عليهن الصَّلاةُ
فقلتُ لهم : وما تُغْنِى صَلاتى ... عِيَالى ، إنما الشأنُ الزّكاةُ
فيأمر لى بكسر الصَّاد منها ... فتصبح لى الصَّلاة هى الصّلاتُ

فضحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال . من قول أبى تمام الطائى :

هذا الحمام فإن كسرت عِيافةً(٣) ... من حائهن فإنّهنّ حِمامُ(٤)

فأحسن صلته .

---

* زهر الآداب : ٢ ـ ١٨١

(١) انتجع فلاناً : أتاه يطلب معروفه (٢) الثقلين : الإنس والجن (٣) عفت الطير عيافة : زجرتها ، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتتسعد أو تتشاءم . (٤) الحمام : الموت.

١٣٣ — مامعى إلا قفاى*

كان رجل ببغداد يعرف بابن المغازلىّ يتكلم على الطريق ، ويقصّ على الناس أخباراً ونوادِر ومضاحك ، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه ويسمع كلامه إلّا يضحك .

قال : وقفت يوماً فى خلافة المعتضد[1] على باب الخاصة ، فحضر حلْقتى بعضُ خدم المعتضد ، فأخذت فى حكاية الخدَم ، فأُعجب خادم بحكايتى وشُغِف بنوادرى ثم انصرف عنى .

فلم يلبث أن عاد إلىّ وأخذَ بيدى ، وقال : إنى لما انصرفت عن حلْقتك دخلت : فوقفتُ بين يدى المعتضد أمير المؤمنين ، فذكرت حكايتك ، وما جرى من نوادرك فاستضحَكت ، فرآنى أميرُ المؤمنين ، فأنْكَر ذلك منّى ، وقال : ويلك ، مالك ! فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ على الباب رجل يعرف بابن المغازلى يضحك ويحاكى ، ولا يدع حكاية أعرابى وتركى ومَكّى ونَحْوى وزنجى وخادم إلا حَكَاها ، ويخلط ذلك بنوادر تضحك الثَّاكِل وتُصبى الحليم ، وقد أمرنى بإحضارك ، ولى نصف جائزتك . فقلت له ، وقد طمعت فى الجائزة السنية : يا سيدى ؛ أنا ضعيف وفقير ، وقد منّ الله علىّ بك ، فما عليك إن أخذت بعضها ؛

---

* المسعودى : ٢ ـ ٢٤٤

(١) بويع بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ، وظهر بمظهر الخلفاء العاملين ، وكان عارفا بالأدب موصوفاً بالحلم ، توفى سنة ٢٨٩ هـ .

سُدْسَها أو ربعها ، فأبى إلا نصفها ، فطمعتُ فى النصف ، وقنعت به .

فأخذ بيدى وأدخلنى عليه فسلّمْتُ وأحسنت ، ووقفتُ فى الموضع الذى أُوقفت فيه ، فردَّ علىَّ السلام ، وقد كان ينظرُ فى كتابٍ ، فلما نظر فى أكْثَرِه أطْبَقَه ، ثم رفعَ رأسه إلىَّ ، وقال : أنت ابن المغازلىّ ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : قد بلغنى أنك تحكى وتُضْحك ، تأتى بحكايات عجيبة ونوادر ظريفة ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ الحاجةُ تَفْتُقُ الحيلةَ ؛ أجمع بها الناس ، وأتقرب إلى قلوبهم بحكايتها ألْتَمِسُ بِرَّهم ، وأعيش بما أناله منهم ، قال : فهاتِ ماعندك ، وخذ فى فنِّك ، فإن أضحكتَنى أجزتك بخمسمائة درهم ، وإن لم أضحك فما لى عليك ؟ فقلت : مامعى إلا قَفَاى ، فاصْفَعْه ماأحببتَ ، وكم شئت وبما شئت ! فقال لى : قد أنصفتَ ؛ إن ضَحِكْتُ فلك ماضمنت ، وإن أنا لَم أضْحك صفعتُك بهذا الجراب عشر صفعات .

فقلت فى نفسى : ملك لا يصفع إلا بشىء يسير خفيف هين ؛ ثم التفتُّ ، وإذا أنا بجراب أَدَم ناعم فى زاوية البيت فقلت فى نفسى : ماأخطأحَزْرِى[1] ولاأخلف ظَنّى ، وما عسى أن يكون من جراب فيه ريح! إن أضحكته ربحت ، وإن أنا لم أضحكه فأمرُ عشر صَفعات بجراب منفوخ هين .

ثم أخذت فى النوادر والحكايات ، فلم أَدَعْ حكاية أعرابىّ ولا نحوىّ ولا قاض ، ولا عبارة ولا نادرة ، ولا حكاية ، إلا أحضرتها ، وأتيت بها حتى نَفِدَ جميعُ ماعندى ، وتصدّع رأسى ، ولم يبق ورائى خادمٌ إلا هرب ، ولا غلام إلا ذهب لما استفزّهم الضحك .

---

(١) الحزر : التقدير والظن .

فقلت : قد نَفِد ــ والله يا أمير المؤمنين ــ مامعى ، وتصدّع رأسى ، وذهب معاشى ، وما رأيتُ قطّ مثلك ، وما بقيت لى إلا نادرةواحدة ،فقال: هاتها ؛فقلت: ياأمير المؤمنين ؛ وعـدْتنى أن تَصْفَعنى عشراً ، وجعَلتها مكان الجائزة ؛ فأسألك أن تضعف الجـائزة ، وتضيف إليها عشراً ؛ فأراد أن يضحك ، فاستمسك ، ثم قال : نَفْعَل . ياغلام ؛ خُذْ بيده ، فأخذ بيدى ، ومددتُ قفاى ؛ فصفعت بالجراب صفعة، فـكأنما سقطَ على قفاى قلعة ، و إذا فيه حصى مدور ، كأنه صنجات ، فصُفِعت به عشرا ، كادت أن تنفصل رقبتى ، و ينكسر عنقى ، وطَنّتْ أذناى ، وقدح الشعاع من عينى .

فلما استوفيت العشرة صِحْت : ياسيدى ؛ نصيحة ، فرفع الصفع عنى ، فقال : مانصيحتك؟ قلت : ياسيدى ؛ إنه ليس فى الدنيا أحسنُ من الأمانة ، ولا أقبحُ من الخيانة ، وقد ضمنت للخادم الذى أدخلنى عليك نصفَ هـذه الجائزة على قلتها أو كثرتها . وأميرُ المؤمنين ــ أطـال الله بقاءه ــ بفضله وكرمهِ قد أضْعَفها ؛ وقـد استوفيتَ نصفها ، و بقى لخادمك نصفها .

فضحك حتى استلقى ، واستفزّه ما كان قد سمعه منى أولاً ، وتحامل له ، وصبر عليه ؛ فمـا زال يضرب برجليه ، و يمسك بمَراقّ[1] بطنه ، حتى إذا سكن ضَحِكُه ، ورجعت إليه نفسه قال : علىّ بفلان الخـادم ، فأتى به ــ وكان طُوَالاً ــ فأمر بصَفعة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، أى شىء قضيتى ؟ وأى جناية جنايتى ؟ فقلت له : هذه جائزتى ، وأنت شريكى ، وقداستوفيت نصفها ، و بقى نصيبك منها ،فلماأخذه

(١) المراق : ما رق من أسفل البطن ولان ، ولا واحد لها ، أو جمع مرق .

الصَّفْع ، وطرق قَفاه الصافع أقبلت عليه أقول له : أقول لك : إنى ضعيف فقير ، وشكوتُ إليك الحاجةَ والمسكنة ، وقلت لك : ياسيدى ؛ لا تأخذ نصفها ، لك سدسها ، لك ربعها ، وأنت تقول : ما آخذ إلا نصفَها ، ولو علمت أن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — جوائزُه صفعٌ ، وهَبْتُها لك كلها ؛ فعاد إلى الضحك .

فلمّا استوفى صَفْعَه ، وسكَن أميرُ المؤمنين من ضحكه أخرجَ صُرَّة كان قد أعدّها فيها خمسمائة درهم ، ثم قال له — وقد أراد الانصراف — قِفْ ، هذه كنتُ أعدَدْتُها لك ، فلم يدعك فضولك حتى أحضرتَ لك شريكاً فيها ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، وأين الأمانة ؟ ودِدْتُ أنك تدفعها كلها إليه وتصفعه مع العشرة عشرة أخرى ، وتدفع له الخمسمائة الدرهم . فقسم الدراهم بيننا وانصرفنا .

١٣٤ — قد شَفَى منه صدورَنا *

قال أبو على الحاتمى[١] : كان أبو الطيب المتنبى[٢] عند وروده مدينةَ السلام التحفَ رِدَاء الكِبْرِ ، وأذالَ[٣] ذيولَ التيه، وصعّرَ خدّه ، ونأى بجانبه ؛ وكان لا يَلقَى أحداً إلّا نافِضاً[٤] مِذْرَوَيْهِ ، رافلا من التِّيهِ فى بُرْدَيهِ . يخيّلُ إليه أنَّ العِلْمَ مقصورٌ عليه ، وأن الشعرَ بحرٌ لم يَغترِفْ نميرَ مائه غيرُه ، وروضٌ لم يَرْعَ نُوّارَه سواه ، فدلّ بذلك مُدَيْدَةً أجرّته رَسَنَ[٥] الجهلِ فيها ، فظلّ يمرحُ فى تَثْنيهِ . حتى تخيّلَ أنه القَريع[٦] الذى لا يُقارَع ، والنزيع[٧] الذى لا يُجارَى ولا يُنازَع ، وأنه ربُّ الغَلَبِ وما لِكُ القَصَبِ ، وثَقُلَتْ وَطْأَتُهُ على أهلِ الأدب بمدينةِ السلام .

فطأطأ كثيرٌ منهم رأسه ، وخَفَضَ جناحَه ، وطَامَنَ على التسليم له جأشَه[٨] ، وتخيّلَ أبو محمدٍ المهلبيّ أن أحداً لا يقدِرُ على مُساجَلَتِهِ ومُجارَاتِهِ ، ولا يقوم لتَتَبُّعِهِ بشىء من مَطَاعِنِهِ ، وساء مُعِزَّ الدولة أن يَرِدَ عن حضرةِ عدوّه رجلٌ ،

* معجم الأدباء : ١٨ — ١٥٩

(١) هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

(٢) هو أحمد بن الحسين ، أشهر شعراء المحدثين ، وصاحب الشعر الحكيم والمعانى الدقيقة والمخترعة، ولد بالكوفة ونشأ بها ، وتأدب بفصاحة أهل البدو ، ومدح سيف الدولة من أهل الشام ، ومدح كافوراً بمصر ، ومدح عضد الدولة أعظم ملوك بنى بويه ووزيره ابن العميد ، وقتل قرب بغداد سنة ٣٥٤ هـ (٣) أذال : تبختر ، وجر ذيله على الأرض تيهاً (٤) نافضاً : محركا ، والمذروان : ناحيتا الرأس (٥) الرسن : الحبل (٦) القريع : الذى يقارعك ، والمقارعة : المضاربة بالسيوف (٧) النزيع : الشريف من القوم الذى نزع إلى عرق كريم (٨) الجأش : النفس ، وقيل القلب .

فلا يكون فى مملكته أحدٌ يماثلهُ فى صناعته ، ويُسَاويه فى منزِلَتِه .

فنهَدْتُ[١] حينئذ مُتَتبعًا عُوَارَه ، ومتعقبًا آثارَه ، ومُطْفِيًا نارَه ، ومُهتِكًا أستاره ، ومقلمًا أظفارَه ، وناشرًا مطاويَه ، وممزِّقًا جلبابَ مساويه ، متحيِّنًا أن تجمعنا دارٌ ؛ فأجرِى أنا وهو فى مِضْمَارٍ يُعْرَفُ فيه السابقُ من المسبوق ؛ حتى إذا لم أجد ذلك قصدتُ موضعه الذى كان يحُلُّهُ فى رَبَضِ حُمَيْد[٢] .

فوافقَ مَصِيرى إليه حضورَ جماعةٍ تقرأ شيئًا من شعره عليه ، فحين أُوذِنَ بحضورى ؛ واستُؤْذِنَ عليه لدخولى نهضَ عن مجلسه مُسْرِعًا ، ووارى شخصه عنّى مُسْتَخْفِيًا ؛ فنزلتُ عن بغلةٍ كانت تحتى ، وهو يرانى نازلاً عنها ؛ لاتهاُّنى بها إلى أن حاذَيْتُهُ ، فجلستُ فى موضعه ، وإذا تحته قطعة من « زِيلَو »[٣] مُخْلَقةٍ ، قد أكلتْها الأيامُ ، وتعاورَتْهَا السنون ؛ فهى رسوم خافية ، وسلوكٌ[٤] بادية ، حتى إذا خرج إلىّ نهضتُ إليه فوفيته حقّ السلامِ ، غيرَ مُشَاحٍّ[٥] له فى القيام ؛ لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لى عند مُوافَاتى .

وإذا هو قد لبس سبعة أقبية ؛ كلّ قَبَاء[٦] منها لون ، وكان الوقتُ آخر أيام الصيف ، وأخلقَها بتخفيف اللِّبْس ؛ فجلستُ وجلس ، وأعرَض عنى ساعةً لا يُعِيرُنى فيها طرْفَه ، ولا يسألُنى عما قصدتُ له ، وقد كِدْتُ أتميَّزُ[٧] غيظًا ، وأقبلتُ أُسخِّفُ رأيى فى قَصْدِه ، وأفنِّدُ نفسى فى التوجُّهِ نحوَ مثله ، ولوَى عِذَاره عنى مقبلا على تلك الزِّعْنِفَةِ[٨] التى بين يديه ، كلّ واحدٍ يومئُ إليه ، ويوحى

---

(١) نهد : نهض ، وعواره : عيبه (٢) ربض حميد : موضع (٣) زيلو : معناها لحاف بالفارسية.
(٤) السلوك : جمع جمع لسلكة ، وهى الخيط الذى يخاط به الثوب (٥) منازع (٦) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب (٧) أتميز : أتقطع (٨) الزعنفة : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحداً .

بطرْفه ، ويشير إلى مكانى بيده ، ويوقظه من سِنَةِ جهلِهِ ؛ وهو يأبى إلا ازْوِرَاراً ونفَاراً ، وجرياً على شاكلةِ خُلقِهِ المشكلة .

ثم رأى أن يثنِيَ رأسه إلىّ ؛ فو الله ما زادنى على أن قال : أىّ شىء خبرُكَ ؟ قلت : أنا بخير ، لولا ما جنيتُ على نفسى من قَصْدِكَ ، وكلَّفْتُ قدمىّ فى المصير إلى مثلك ؛ ثم تحدّرْتُ عليه تحــدُّرَ السيلِ إلى القَرَارِ ، وقلتُ له : أَبِنْ لى — عافاكَ الله — مِمّ تيهكَ وخُيلاؤكَ وعُجْبُكَ ؟ وما الذى يوجبُ ما أنتَ عليه من التجبّرِ والتنمّر[1] ؟ أنسبٌ فرَعْتَ سماء المجدِ به ! أم عِلْمٌ أصبحتَ عَلَماً يقعُ الإيماء إليكَ فيه ! هــل أنت إلا وَتِدٌ بِقَاع[2] فى شرِّ البقاع ؟ وجُفَاء[3] سيلٍ دفَّاع ! يالله ! استنَّتِ الفِصَالُ حتى القَرْعَى[4] ؛ وإنى لأسمـــع جَعْجَعَةً[5] ولا أرى طِحْناً .

فامْتُقِــعَ لونه عند سماع كلامى ، وعَصِبَ[6] ريقه ، وجَحَظَتْ عيناه ، وسُقِطَ فى يده ، وجعل يلينُ فى الاعتذار ليناً ، كاد يَعْطِفُ عليه عِطْفَ صفْحِى عنه .

ثم قلت : يا هذا ؛ إن جاءكَ رجلٌ شريف فى نسبه تجاهلتَ نسبه ، أو عظيمٌ فى أدَبه صغّرت أدبَه ، أو مُتقدِّمٌ عند سلطانِه لم تَعرِفْ موضعه ؛ فهل العِزُّ تُرَاثٌ لك دون غيركَ ؟ كلا واللهِ ؛ لــكنكَ مددتَ الــكِبْرَ سِتراً على نَقْصِك وضربْتَهُ رِوَاقاً دون جَهْلك .

فعاد إلى الاعتذارِ ، وأخذتِ الجماعةُ فى تليين جانبى ، والرغبةِ إلىّ فى قبول

---

(١) التنمر : التشبه بالنمر ، والنمر لا يلقى إلا متنكراً غضبان (٢) القاع : أرض سهلة مطمئنة (٣) ما نفاه السيل من الزبد (٤) مثل يضرب للرجل يدخل نفسه فى قوم ليس منهم ، والقرعى من الفصال : الذى أصابها قرع ، وهو بثر ، والاستنان : النشاط (٥) مثل يضرب للذى يكثر الـكلام ولا يعمل ، وللذى يعد ولا يفى ، والجعجعة : صوت الرحى ونحوها ، والطحن : الدقيق ـ (٦) عصب : جف .

عُذره ، واعتماد مُيَاسَرَتِه ، وأنا آبَى إلا استشراء[1] واجتراء ، وهو يؤكِّدُ الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفنى ؛ فأقول له : يا هـذا ؛ ألم يُستَأْذَنْ لى عليك باسمى ونَسَبى ! أمَا فى هذه العصابةِ مَنْ يُعَرِّفُكَ بى لو كنتَ جهلتَنى ! وهَبْ ذلك كذلك ؛ ألم ترنى مُمتَطياً بغلة رائعة يعلوها مَرْكَبٌ ثقيل ، و بين يدىّ عِدَّةٌ من الغلمان ؟ أما شاهدتَ لبَاسى ؟ أما شممت نَشْرَ عطرى ؟ أما رَاعكَ شىء من أمرى أتميَّزُ به فى نفسك عن غيرى ؟ وهو فى أثناء ما أُكَلّمه يقول : خفِّضْ عليك ، ارفُق ، استأْنِ[2] ؛ فأصْحَبَ[3] جانبى بعضَ الإصحاب ، وَلانَ شِماسِى[4] بعض اللّيَان ؛ وأقبل علىّ ، وأقبلتُ عليه ساعة .

ثم قلت : أشياء تختلجُ فى صدرى من شِعْرِكَ أحبُّ أن أراجعَك فيها ، قال : وما هى ؟ قلت : خبِّرْنى عن قولك :

فإن كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ   فنى الناسِ بوقات لهـا وطُبُولُ

أهكذا يمدحُ الملوكَ ! وعن قولك :

ولا مَنْ فى جنَازَتِهَا تِجَارٌ   يكون وَداعها نفَضُ النِّعَالِ

أهكذا تُؤَبَّنُ أخوات الملوك[5] ! والله لو كان هذا فى أدنى عبيدها لـكان قبيحاً .

وأخبرنى عن قولك :

خَفِ اللهَ واستُرْ ذا الجمـــال بِبُرْقُعٍ   فإن لُحتَ ذابَتْ فى الخدورِ العواتقُ[6]

---

(١) استشراء : لجاجة وعنادا (٢) استأن : لا تعجل (٣) أصحب جانبى : انقاد

(٤) شماسى : امتناعى وإبائى (٥) المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبى فى رثاء والدة سيف الدولة وأولها :

نعد المشرفية والعوالى   وتقتلنا المنون بلا قتال

(٦) العواتق ، جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت ، والخدور : الستور .

أهكذا تنسِبُ بالمحبوبين ! وعن قولك :

وإذا أشار محــدِّثًا فكأنه ... قِرْدٌ يُقهقِه أو عجوزٌ تلطِمُ

أما كان لك فى أفانين الهجاء التى تصرَّفتْ فيها الشعراء مندوحةٌ عن هذا الكلام الرَّذْل الذى ينفر عنه كلُّ طبع ، ويمجُّه كلُّ سمع ! وعن قولك :

وضاقتِ الأرضُ حتى كانَ هاربُهم ... إذا رأى غيرَ شىء ظنه رَجُلا

أفتعلمُ مَرْئيًّا يتناولُه النظرُ لا يقعُ عليه اسمُ شىء ! وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

مازِلتَ تحسَبُ كلَّ شىء بعدهُمْ ... خيْلاً تَكُرُّ عليْهمُ وَرِجَالا

فأحَلْتَ المعنى عن جهته ، وعبرتَ عنه بغيرِ عبارته ؛ وعن قولك :

أليس عجيباً أنَّ وَصْفَك مُعْجزٌ ... وأنَّ ظنونى فى معاليك تَظْلَعُ [(١)]

فاستعرت الظَّلَع لظنونك ، وهى استعارةٌ قبيحة ! وتعجبتَ من غير متعجَّب ، لأنَّ من أعجزَ وصفه لم يُستَنْكَرْ قصورُ الظنون وتحيُّرُها فى معاليه ، وإنما نقلتَه وأنشدتَه من قول أبى تمام :

ترقَّتْ مُنَاهُ طوْدَ عِزٍّ لو ارتقَتْ ... به الريحُ فِتراً [(٢)] لانثنتْ وهْىَ ظالِعُ

وعن قولك تمدحُ كافوراً :

فإن نِلْتُ ما أمّلتُ منك فربمـا ... شربتُ بماء يُعجِزُ الطيرَ وِرْدُهُ

إنها مدحٌ أو ذم ! قال : مدح ! قلت : إنك جعلتهُ بخيلاً لا يوصِّلُك إلى خيره من جهته ، وشبّهت نفسك فى وصولك إلى ما وصلْت إليه منه بشربِك من ماء يُعجزُ الطيرَ وِرْدُه لبعده وترامى موضعه .

(١) الظلع : الغمز فى المشى (٢) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف المشيرة .

وأخبِرْنى أيضا عن قولك فى صفةِ كَلْبٍ وظَبْىٍ :

وصارَ ما فى جلْدِهِ فى المِرْجَلِ فلم يَضِرْنا معه فَقْدُ الأجدل [1]

فأىُّ شىء أعجبك من هـذا الوصف ؟ أعذوبةُ عبارته ؟ أم لطفُ معناه ؟ أما قرأتَ رَجز [2] ابن هانئ وطَرَدَ [3] ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعانى التى ابتدعها هـذا الشاعران وغُررِ المعانى التى اقْتَنَصاها ما تتشاغلُ بهِ عن بُنَيَّات صَدْرِك هذه ؟ وألّا اقتصرْتَ على ما فى أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تُسِفّ إلى هذه الألفاظ القَلِقَة والأوصاف المختلفة !

فأقبل علىّ ، ثم قال : أين أنتَ من قولى :

كأن الهَامَ [4] فى الهيجا عُيُونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُك من رُقادِ
وقد صُغْتَ الأسِنَّةَ من هُمُومٍ فما يخطرْن إلا فى الفـؤاد

وأين أنت من قولى فى صفة جيش :

فى فَيلقٍ [5] من حَدِيد لو رَمَيْتَ به صرْفَ الزمانِ لما دَارَت دوائرُهُ

وأين أنت من قولى :

لو تَعقِلُ الشجرُ التى قابَلْتَها مدّت محيِّيةً إليك الأغصنا

وأين أنتَ من قولى :

---

(١) الضميرفى جلده للظبى ، والمرجل : القدر من النحاس ، والضميرفى معه للكلب ، والأجدل : الصقر (٢) الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستفعلن ست مرات (٣) الطرد : مزاولة الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر (٤) الهام : جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب ، وطبع السيف : طرقه (٥) الفيلق : الجيش . وجعله من حديد لكثرة ما عليه من الدروع ، وصرف الزمان : حدثانه .

أيقْدَحُ (١) فى الخيْمةِ العُذّلُ ... وتشملُ مَنْ دَهْرَها يشمَلُ !

وما اعْتَمَدَ اللهُ تَقْوِيضَها (٢) ... ولـكنْ أشار بمـا تفعَلُ

وفيها أصِفُ كتيبةً :

وَمَلْمُومةٌ (٣) زَرَدٌ ثوبُهـــا ... ولــكنهُ بالْقَنـــا مُخْمَلُ

وأين أنتَ عن قولى :

النـــاسُ مالمْ يرَوْكَ أشباهُ ... والدهرُ لفظٌ وأنتَ معناهُ

والجــودُ عينٌ وأنتَ ناظِرُها ... والبـــأس باعٌ وأنتَ يُمناهُ

أمَا يُلهِيكَ إحسانى فى هذه عن إساءتى فى تلك !

قلت : ما أعرفُ لكَ إحساناً فى جميع ما ذكرته ؛ إنما أنت سارِق مُتّبع ، وآخذٌ مقصِّر ، وفيما تقدم من هــذه المعانى التى ابتــكرها أصحابها مندوحةٌ عن التشاغل بقولك . فأما قولك :

كأن الهــامَ فى الهيجا عيونٌ ... وقد طُبِعَتَ سيوفُكَ من رُقَادِ

فهو منقول من بيت منصور النُّمَيْرِىّ :

فــكأنما وقْعُ الُحسامِ بهَامِهِ ... خَدَرَ المنيَّةِ أو نُعاسُ الْهاجعِ

وأما قولك :

فى فَيْلَقٍ من حديدٍ لو رميتَ به ... صرفَ الزمانِ لما دارتْ دَوَائرُهُ

فنقلته نقلا لم تُحْسِنْ فيه ، من قول النَّاجمِ :

---

(١) ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ريح هبت (٢) تقويضها : هدمها ، واعتمد الأمر :قصده (٣)ملمومة : مجموعةمضمونة . والمخمل :ما جعل له خمل، وهوهدب القطيفةونحوها .

ولى فى حامدٍ أَمَلٌ بعيــدٌ ومدحٌ قد مَدَحْتُ بهطَرِيفُ
مديحٌ لو مدحتُ به اللَّيالى لما دارتْ علىَّ لها صروفُ

والناجمُ إنما نظمه من قول أَرِسْطَاَليس ، قد تكلمت بكلام لو مدحتُ به الدهر لما دارتْ علىَّ صروفُه :

وأما قولك :

لو تعقلُ الشجرُ التى قابَلتَها مدّتْ محيِّيَةً إليك الأغْصُنَا

فهذا معنى متداول ، تساجلته[1] الشعراء ، وأكْثَرَتْ فيه ؛ فمن ذلك قول الفرزدق :

يكاد يُمْسِكه عِرْفَان رَاحَتِه ركنُ الحطيم إذا ماجاء يَسْتَلِمُ

ثم تكرَّرَ فى أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :

لو سعتْ بقعةٌ لإعظامِ أخرى لَسَعَى نحْوَها المكانُ الجديبُ

وأخذَهُ البحترىُّ فقال :

لو أنّ مُشتاقًا تكلَّفَ فوق ما فى وُسْعِهِ لمشى إليكَ المِنْبَرُ

وأما قولك :

وما اعتمدَ اللهُ تَقْوِيضَها ولكنْ أشار بما تَفعلُ

فقد نظرتَ فيه إلى قول رجلٍ مدح بعضَ الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم على السَّيرِ فاندقَّ لِوَاؤُه ، فقال :

ما كان مُنْدَقَّ اللواء لريبةٍ تُخْشَى ولا أمرٍ يكون مزَيلَا[2]

---

(١) تساجلته : تبارت فيه (٢) زيله : فرقه .

لـكن لأنَّ العُودَ ضَعَّفَ مَتْنَهُ   صِغَرُ الولاية فاستَقَلَّ المَوْصِـلاَ

وأما قولك :

وملمومةٌ زَرَدٌ ثوبُهـا   ولـكنَّه بالقَنـاَ مُخْمَلُ

فمن قول أبى نواس .

أمَامَ خميسٍ[1] أرْجُوَانٍ كأنَّهُ   قميصٌ مُحُوكٌ من قَناً وجِيـادِ[2]

وأما قولك :

النـاسُ مالمْ يَرَوْكَ أشبـاهُ   والدَّهْرُ لفظٌ وأنتَ مَعنـاهُ

فمن قول علىّ بن نصر بن بسّام فى عبيد الله بن سليمان يرثيه :

قد استوى الناسُ ومات الـكمالُ   وصاحَ صَرفُ الدهر : أين الرجالُ !

هـذا أبو القـاسم فى نَعْشِه   قوموا انظُرُوا كيف تزول الجبال !

فقوله : « قد استوى الناسُ ومات الـكمال » هو قولك : « الناس مالم يروك أشبـاه » .

فقال بعض الحاضرين : ما أحسنَ قوله ! « قوموا وانظروا كيف تزولُ الجبالُ ! »

فقال أبو الطيب : اسكت ؛ مافيه من حُسْن ، ألم يسرقه من قول النابغة الذبيانى :

يقولون حِصنٌ ثم تأبى نفوسُهُمْ   وكيفَ بحصْنٍ والجبالُ جُنُوحُ !

قال الحاتمى : فقلت : قد سرقه النَّابغةُ من أوسٍ حين قال :

ألم تُكسَفِ الشمسُ شمسُ النها   رِ والبـدْرُ للقمرِ الواجبِ[3]

---

(١) الخميس : الجيش   (٢) جمع جيد : المدرعة الصغيرة   (٣) الواجب : الغائب .

لفقــد فُضَالة لا يَسْتَوِى الْ   فُقُودُ ولا خَلّةُ الذّاهِبِ

ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأَخْذَ .

فقال الرجل : أَجَل ، فقال المتنبي : يامُحَسَّدُ ؛ خذ بيده ، وأخْرِجْهُ - يريد بمحسّدٍ ابنه - فراجعته إلى أن ترَكَهُ ، ثم قلت له : وأما قولك : « والدهرُ لفظٌ وأنتَ معناه » فمنقول من قَوْل الأخطل - إن كان البيت له - فى عبدالملك بن مروان :

وإن أمــــيرَ المؤمنين وفعلَهُ   لــكالدّهْرِ ، لاعارٌ بما فعلَ الدهرُ

وقد قال جريرٌ :

أنا الدهرُ يَفنِى الموتُ والدهرُ خالد   فجِئْنِى بمثل الدهر شيئاً تُطــاوِلُه

حين قال له الفرزدق :

فإنى أنا الموتُ الذى هو نازلٌ   بنفسِك فانْظُرْ كيف أنت تحاوِلُه

أفترى أن جريراً أخذ قوله : « يفنى الموتُ » من أحدٍ ؟ وأن أحداً شَرِكه فى إفْناء الموت ؟ ففكّر طويلا ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ، عِمْرَان بنُ حِطان حيث يقول :

لن يُعْجز الموتَ شىءٌ دونَ خالِقِه   والموتُ فانٍ إذا ما نالهُ الأجَــلُ

وكلُّ كَرْبٍ أمامَ الموتِ مُتَّضِـعٌ   بالموتِ والموتُ فيما بعده جَلَــلُ

فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إلى ذلك أحد .

ثم قلت له : أترى أن البيتَ المتقدم ، الذى يقول فيه :

وإن أميرَ المؤمنين وفعلَه   لــكالدّهْرِ لاعارٌ بمافعل الدهرُ

مأخوذٌ من أحدٍ ؟ فأطرق هنيهةً ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يُسْتَدَلُّ

على موضعك ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ؛ أساء سمعاً فأساء إجابة ! ما أردتُ ما ذهبتَ إليه . قلت : فإنه أخذه من قول النابغة ، وهو أول من ابتكره :

وَعَيَّرتني بنو ذُبيان خَشيَته وما علىّ بأن أخشاكَ من عار

ثم أخذه أبو تمام فأحسَنَ بقوله :

خشعوا لَصَولَتِك التى هى فيهمُ كالموتِ يأتى ليس فيه يُعَار

قال : ومَنْ أبو تمام ؟ قلت : الذى سرقتَ شِعْره ، فأنشدتَه . قال : هذه خلائقُ السُّفَهاء ، لا خلائقُ العلماء . قلت : أجل ، أنت سفّهت رأيي ولم يَكُنْ سفيهاً ، ألست القائل :

ذِى الْمَعالِى فَليَعْلوَنْ مَنْ تَعَالَى هكذا هكذا وإلّا فَلَا لا

شرفٌ ينطح الثريّا برَوْقَيْهِ[1] وفخرٌ يُقَلقلُ الأجْبَالا

قال : بلى ، قلت : فإنّك أخَذْتَ البيتَ الأول من بيت بكرِ بن النَّطَّاح :

يتلقَّى النَّدَى بوجهٍ حَيِيٍ وصُدُورَ القنَا بوجه وقاحِ

هكذا هكذا تكون المعالى طُرُقُ الجِدِّ غيرُ طُرْقِ المِزَاحِ

وأخذتَ البيتَ فأنشدتَه من قول أبى تمام :

هِمّةٌ تنطحُ الثريا وَجَدٌّ آلِفٌ للحضيضِ فَهْوَ حَضيضُ

قال : وبأىّ شيء أفسدتُه ؟ قلت : بأن جعلتَ للشرف قَرْناً . قال : وأنّى لك بذلك ؛ قلت : ألم تقل : ينطحُ السماء بِرَوْقيه ، والروقان : القرنان ؟ قال : أجل ! إنما هى استعارة . قلت : نعم ، هى استعارة خبيثة .

---

(١) الروقان : القرنان .

قال : أقسمتُ غير مُحْرَجٍ في قسمي إنني لم أقرأ شعراً قطُّ لأبي تمامكم هذا !
فقلت : هذه سوءةٌ لو سترتَهـا كان أولى ! قال : السوءةُ قراءةُ شعر مثله ؛
أليس هُو القائلُ :

خَشُنْتِ عليـهِ أخْتَ بنى خُشَيْنِ ‏ ‏ ‏ ‏ وأُنْجِـحَ فيـكِ قولُ العاذِلَيْن

والذى يقول :

لعمرى ، لقـد حرَّرْتُ يوم لَقِيتُهُ ‏ ‏ ‏ ‏ لو انّ القضـــاء وحدَه لم يُبَرَّدِ

والذى يقول :

تـكادُ عطاياه يجنُّ جُنُونُهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ إذا لم يُعَوِّذْهَا [1] بنعمةِ طَالِبِ

والذى يقول :

تسعون ألفاً كآساد الشَّرَى [2] نَضِجَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ أعمارُهم قبـل نُضْجِ التينِ والعنبِ

والذى يقول :

ولَّى ولم يَظْلِمْ وهل ظَلَمَ امرؤٌ ‏ ‏ ‏ ‏ حثَّ النَّجاءَ [3] وخَلْفَه التنِّينُ

والذى يقول :

كانوا رِدَاء زمانِهم فتصـــدّعوا ‏ ‏ ‏ ‏ فـكأنّما لبِسَ الزمانُ الصوفا

والذى يقول :

أقول لقُرْحَانٍ من البينِ لم يُصِبْ ‏ ‏ ‏ ‏ رَسِيسَ [4] الهوى بين الحشا والترائب

ماقُرْحَانُ البينِ ؟ أخرسَ الله لِسَانَه ! فأحفظنى [5] ذلك وقلت : ياهذا ؛ مِنْ

---

(١) يعوذها : يحفظها (٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل (٣) النجاء : السرعة فى المشى (٤) رسيس الهوى : بقيته وأثره (٥) فأحفظنى : فأغضبنى .

أدَلَّ الدليلِ على أنك قرأتَ شعرَ هذا الرجل تتبُّعُك مساويه ؛ فهل فى الدلالةِ على اختلاقِك إنـكارَه أوضحُ ممـا ذكرتَه ؟ وهل يَصِمُ أبا تمام أو يَسِمُهُ بميَسَمِ النقيصةِ ماعددته من سقَطَاتِه ، وتخوّنتَه (١) من أبْيَاتِه ، وهو الذى يقول فى النونية :

نوالُك ردّ حُسَّادى فُلُولاً وأصْلَحَ بين أيّامى وبينى

فهلّا اغتفَرْتَ الأول لهذا البيتِ الذى لا يستطيعُ أحـدٌ أنْ يأْتى بمثله !

وأما قوله :

تسعون ألفاً كآساد الشّرى نَضِجَتْ أعمارُهم قبلَ نُضْجِ التين و العنب (٢)

فلهذا البيت خبرٌ لو استَقْرَيتَ صُحُفَه لأقْصَرْتَ عمَّا تنَاوَلْتَه بالطعن فيـه .

ثم قصصتُ الخبر ، وقلت : فى هـذه القصيدة ما لا يستطيع أحدٌ من متقدّمى الشعراء وأمراء الـكلام وأرباب الصناعة أن يأْتىَ بمثله .

قال : وما هو ؟ قلت : لو قال قائل : إن أحـداً لم يبتدئْ بأوجز ولا أحسن ولا أخصر من قوله :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الـكُتبِ فى حدِّه الحدُّ بين الجِـدِّ واللَّعِبِ

لمَاَ عُنِّفَ فى ذلك ، وفيها يقول :

---

(١) تخونته : تنقصته (٢) أى أن جيش العدو كان تسعين ألفاً حل أجلهم قبـل أن ينضج التين والعنب ، وفى هذا تهكم بالمنجمين والبيت من قصيدته التى ابتدأها بقوله :

السيف أصدق أنباء من الـكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وقد حـكوا أن المنجمين كانوا حذروا المعتصم فتح عمورية فى هـذا الأوان ، وقالوا : إنا نجد فى الـكتب أنهـا لا تفتح إلا فى وقت نضج التين والعنب فلم يسمع المعتصم لقولهم ، وسار بجيشه ففتحها .

رمى بك اللهُ بُرْجَيْها فهدَّمَها　　ولو رَمَى بكَ غيرُ اللهِ لم يُصِبِ

وفيها يقول :

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء لهُ　　وتبرزُ الأرضُ فى أثوابها القُشُبِ

وفيها يقول :

بِكْرٌ فما افترَعَتْها كفُّ حادثةٍ　　ولا ترقَّتْ إليهـا همةُ النُّوَبِ

وفيها يقول :

غادَرْتَ فيها بهيمَ الليل وهْوَ ضُحًى　　يشلُّه [1] وسْطَها صُبْحٌ من اللّهَبِ

حتى كأن جلابيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ　　عن لونها ، وكأنّ الشمس لم تَغِبِ

وفيها يقول :

أجبْتَهُ [2] مُعلِنًا بالسيفِ مُنصَلِتاً　　ولو أَجَبْتَ بغيرِ السيفِ لم تجب

وأما قوله :

أقول لقُرْحانٍ من البين ... فإنه يريد رجلاً لم يَفْطَنه أحبابُه ، ولم يَبِينوا عنهُ قبل ذلك ، إذا كانت حالُه كذلك كان موقعُ البينِ أشدَّ عليه ، وأفتَّ فى عضـده ، والأصلُ فى هـذا : أنَّ القرْحَانَ الذى لم يُجَدَّرْ [3] قط ، وقد قال جرير :

* وكنتُ من زَفَرَاتِ البيْنِ قُرْحَانَا *

وفى هـذه القصيدة من المعانى الرائعة ، والتشبيهات الواقعة ، والاستعارات

---

(١) يشله : يطرده ، يقول : إن الليل المظلم صار نهاراً باشتعال النيران التى كانت تطارد الظلام

(٢) المراد صوت المرأة التى استغاثت به　(٣) يجدر : يصب بالجدرى .

البارعة ماينغبِرُ معه هذا البيتُ وأمثاله . على أنّا أبنّا عن صحة معناه وعن أمثاله ، فمن ذلك :

إذا العِيسُ لاقَتْ بى أبَا دُلَفٍ فقد   تقَطَّعَ مابينى وبينَ النّوَائب
يرى أقبحَ الأشياء أوْبَةَ آمِلٍ   كَسَتْه يدُ المأمولِ حُـلّةَ خائبِ
وأحسنُ من نَوْرٍ يفتّحُه النّـدَى   بياضُ العطايا فى سَوَادِ المطالبِ
ولو كان يفْنَى الشعرُ أفناه ماقَرَتْ(١)   حياضُك منه فى العصور الذوَاهِبِ
ولـكنّه فيضُ العقُولِ إذا انجلَتْ   سحائبُ جُودٍ أعْقِبَتْ بسحائبِ

فبهره ما أورَدْتُه وقصرَ عِنان عبارته ، وحبَس بُنيّاتِ صدره ، وعَقَلَ عن الإجابة لسانه ، وكاد يَشْغَبُ(٢) لولا ماتخوّفهُ من عاقبةِ شَغَبِهِ ، وما عرَفَهُ من مكانى فى تلك الأيام ، وأن ذلك لا يتمّ له ، فما زاد على أن قال : قد أكثرتَ فى أبى تمَّامٍ ، لا قدّس اللهُ أبا تمام وذَوِيه !

قلت : ولا قدّسَ السارقَ منه والواقعَ فيـه ! ثم قلت له : ما الفرقُ فى كلام العرب بين التقديس والقدّاس والقدَاس والقادس ؟ فقال : وأىّ شىء غرضك فى هـذا ؟ فقلت : المذاكرة . فقال : بل المهاترة(٣) ! ثم قال : التقديس : التطهير فى كلامِ العرب ؛ ولذلك سُمِّىَ القُدْس قُدْساً ، لأنه يشتمل على الذى به الطهور ، وكل هذه الأحرف تؤول إليه .

فقلت : ما أحسبك أنعمتَ النظرَ فى شىء من علوم العرب ، ولو تقدّمتْ منك مطالعةٌ لما لما استجَزْتَ أن تجمعَ بين معانى هـذه الـكلمات مع تباينها ،

---

(١) ماقرت : ماجمت   (٢) يشغب : يهيج الشر   (٣) المهاترة : المسابة بالقبيح من القول .

وذلك لأن «القدّاس» بتشديد الدال : حجرٌ يُلقَى فى البئر ليُعلَمَ به غزارةُ مائِها من قلتِهِ ، حكى ذلك ابنُ الأعرابىّ . والقدَاس ، الُجمَانُ ، حكى ذلك الخليـل ، و « القادس » : السفينة ، قال الشاعر يصف ناقة :

وتَهفُو بِهَادٍ لهـــا مُتْلِعٍ [1] كما اقْتَحَمَ القادِسَ الأرْدَمُونَا [2]

فلمّـا علوته بالـكلام قال : ياهـذا ، مسلّمةٌ إليكَ اللغةُ . قلت : وكيف تسلّمُها ، وأنت أبو عُذْرِها [3] وأولى الناس بالتحقُّق بهـا والتوسُّع فى اشتقاقها ، والـكلام على أفانينها ! وما أحـدٌ أولى بأن يُسْأل عن لُغَتِهِ منك . فشرَعَتِ الجماعة الحاضرة فى إعفائه وقبولِ عذره ، والتواطُؤِ [4] له ، وقال كلٌ منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسرةِ لمثل هذا الرجل من كل أحد .

وكنتُ قد بلغتُ شِفَاءَ نفسى ، وعلمتُ أن الزيادة على الحـدّ الذى انتهيتُ إليه ضَرْبٌ من البَغْى لا أراه فى مذهبى ، ورأيت له حق القَدَمةِ [5] فى صناعته ، فطأطأت له كَتِفِى ، واستأنفتُ جميلاً من وصفه ، ونهضتُ .

فنهض لى مشيِّعاً إلى الباب ، حتى ركبت ، وأقسمتُ عليه أن يعودَ إلى مكانه ، وتشاغلتُ بقية يوم بشُغْلٍ عنّ لى ، تأخرتُ معه عن حَضْرَةِ المهلب ، وانتهى إليه الخبرُ ، وأتتنى رسلُه ليلاً ، فأتيتُه ، فأخبرتُه بالقصة ؛ فـكان من سروره وابتهاجه بمـا جرى ما بعثه على مباكرةِ مُعزِّ الدّولةِ ، قائلاً له : أعلمتَ ما كان من فلان والمتنبى ؟ قال : نعم ، قد شَفَى منه صُدُورنا !

---

(١) من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا (٢) الأردمون . جمع أردم : وهو الملاح الحاذق
(٣) أبو عذرها : يريد ممهد سبيلها (٤) أى موافقته (٥) القدمة : التقدم .

١٣٦ — نقد شعر امرئ القيس *

وصل إلى حَضْرة سيف الدولة رجل من أهل بغداد ، وكان يَنْقُرُ [(١)] العلماء والشعراء بما لم يَدْفعه . ولا ينكره الوَهْم .

فتلقاه سيفُ الدولة باليمين ، وأُعْجِبَ به إعجاباً شديداً ، فقال يوماً : أخطأ امرؤ القيس فى قوله :

كأنّى لم أرْكَبْ جَـــواداً للذّة ولم أتبطّن كاعباً [(٢)] ذات خَلْخَال

ولم أسْبَأ [(٣)] الزّقّ [(٤)] الروِىّ [(٥)] ولم أقل لخيْلِىَ كُرِّى كرّةً بَعْدَ إجْفَالِ [(٦)]

وهذا معدول عن وجهه ، ولا شك فيه .

فقيل : وكيف ذلك ؟ إنما سبيلُه أن يقول :

كأنّىَ لم أركبْ جـــواداً ولم أقل لخليلىَ كُرِّى كرّةً بعـــد إجفالِ

ولم أسْبَأ الزّقّ الرّوِىّ للذّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خَلخالِ

فيقترن ذكر الخيل بما يشاكلها فى البيت كله ، ويقترن ذكر الشراب واللهو بالنساء ، ويكون قوله : « للذة » فى الشراب أطبع منه فى الركوب .

فبُهت الحاضرون ، واهتزّ سيف الدولة ، وقال : هذا التّهدِّى وحقّ أبى !

فقال له بعض الحاضرين من العلماء : أنت أخطأت وطعنت فى القرآن إن كنتَ تعمّدْت .

---

* ذيل زهر الآداب : ٢٥٩ .

(١) نقر الرجل : عابه (٢) الكاعب : من نهد ثدياها (٣) سبأ الخمر : شراها

(٤) الزق : السقاء (٥) الروى : المروى (٦) أجفل : أسرع وذهب .

فقال سيف الدوله : وكيف ذلك ؟ فقـال : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ ، وعلى قياسه يجب أن يكون : وإن لك ألَّا تجوع فيها ولا تظمأ ، ولا تعرى فيها ولا تضحى ! وإنما عطفه امرؤ القيس بالواو التي لا تُوجب تعقيباً ، ولا ترتِّبُ ترتيباً (١) .

فخجل وانقَطَع !

---

(١) روى مثل هذا عن المتنبي مع سيف الدولة إذ أنشده قصيدته التي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم　　　وتأتى على قدر الكرام المكارم

إلى أن قال :

وقفت وما فى الموت شك لواقف　　　كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة　　　ووجهك وضاح وثغرك باسم

فأنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزيهما على صدريهما ، وقال : ينبغى أن تطبق عجز الثانى على الأول ، وعجز الأول على الثانى ، وأنت فى ذلك مثل امرئ القيس فى قوله :

كأنى لم أركب . . . . الخ

فقال له أبو الطيب : أدام الله عز مولانا ! إن صح أن الذى استدرك هذا على شعر امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس ، وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك . . . وإنما قرن امرؤ القيس لذة النسا بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية قلت : « ووجهك وضاح » ؛ لأجمع بين الأضداد فى المعنى . فأعجب سيف الدوله ووصله بخمسمائة دينار .

١٣٥ — لا وَصْلَ إلا أن يشاء ابن مَعْمَر *

قال الرياشىّ : اشترى بَصرىّ جاريةً على أرفع ماتكون من الجمال والصّباحة، فكَلِفَ بها — وكان مُثرِيًا — فأنفق عليها مافى يده حتى أَمْلَق (١) ؛ فأشارت عليه ببيعها شفقةً عليه.

فلما حَضَرَ بها السوق أُخِذَتْ إلى ابن مَعْمَر — وكان عاملاً على البصرة — فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وهمّ بالانصراف أنشدتْ :

هنيئاً لك المالُ الذى قد حويتَه ... ولم يبق فى كَفَّىَّ غيرُ التذكُّرِ

أقول لنفسى وهْىَ فى غَشْىِ كُرْبَةٍ ... أقلِّى فقَدْ بانَ الحبيبُ أو اكْثِرِى

إذا لم يكن للأمر عندىَ حيلةٌ ... ولم تجدى شيئاً سوى الصَّبر فاصْبِرِى

فاشتدّ بكاء مولاها ، وأنشد :

فلولا قعودُ الدهرِ بى عنكِ لم يكُنْ ... يفرّقُنَا شىء سوى الموت فاصبِرِى

أروحُ بهمٍّ فى الفوائد مبرّحٍ ... أُناجى به قلباً طويلَ التفكّرِ

عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا ... ولا وصلَ إلا أن يشاء ابْنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذها ولك المال ، فانصرِفا راشدين ، فوالله لا كنتُ سبباً لفُرْقَةِ محبّين !

---

* تزيين الأسواق : ١٣١

(١) أملق : افتقر .

١٣٦ – الشعر بضاعة تجدى*

قال إبراهيم السويقىّ مولى المهالبة : تتابعتْ علىّ سنون ضيقة ، وألحّ علىّ العُسْرُ وكثرةُ العيال وقلةُ ذات اليد ؛ وكنت مُشْتَهراً بالشعر أقصدُ به الإخوان وأهلَ الأقدار وغيرَهم ، حتى جَفَانى كلُّ صديق ؛ وملّنى مَن كنت أقصِدُه ، فأضَرّنى ذلك جدا .

فبينما أنا جالس مع امرأتى فى يوم شديد البرد ، إذ قالت : يا هذا ؛ قد طال علينا الفقْرُ ، وأضرّ بنا الجهد [١] ، وقد بقيتَ فى بيتى كأنك زَمن [٢] ؛ هـذا مع كَثْرَةِ الولد ؛ فاخرج عنى وا كْفِنِى نفسك ، ودَعنى مع هؤلاء الصبيان ، أقوم بهم مرّة ، وأقعُد بهم أخرى ؛ ثم ألحت علىّ فى الخصومة ، وقالت : يا مشئوم تعلّمتَ صناعة لا تجدى عليك شيئاً .

قال : فضجرتُ منها ومن قولها ، وخرجتُ على وجهى فى ذلك البرد والريح ، وليس علىّ إلا فَروٌ خَلَق ، ليس فوقه دِثَار ، ولا تحته شعار ، وعلى عنقى إزار ، لو قد جاءت ريح شديدة ذهبت به من بِلاَه وكثرة رِقَاعه ؛ فخرجتُ متحيّراً لا أدرى أين أقصِد ، ولا حيث أذهب .

فبينما أنا أجيل الفكرة إذْ أخذَتنى سماء بِقَطْرٍ متدارك ، فدَفَعت [٣] إلى دار

---

* العقد الفريد : ٤ – ٥

(١) الجهد : المشقة (٢) الزمن : المبتلى (٣) دفعت إلى مكان كذا : انتهيت إليه .

على بابها رَوْشن[1] مُطلّ ، ودكان[2] لطيف ، وليس عليه أحد ، فقلت : أستتِر بالرَّوْشن إلى أن يسكن المطر .

فقصدت قَصْـدَ الدار فإذا بجارية قاعدة ، قد جلست على باب الدار كالحافظة عليه ، فقالت لي : إليك يا شيخُ عن بابنا ، فقلت : أنا ـ ويحك ! لستُ بسائل ، ولا أنا ممن تُتَخوَّفُ ناحيتُه . فجلست على الدُّكان ، فلما سكَنَتْ نفسى سمعت نغمة رخيمة من وراء الباب تدلُّ على نغمة امرأة فأصغَيْتُ ، فإذ بـكلام يدلّ على عتاب ، ثم سمعت نغمة أخرى مثل ذلك وهى تقول : فعلتِ وفعلتِ ، والأخرى تقول : بل أنت فعلتِ وفعلتِ ، إلى أن قالت إحداهما : أنا ـ جعلت فداك ـ إن كنتَ أسأت فاغفرى ، واحفظى بيتين لمولانا إبراهيم السويقىّ ، فقالت الأخرى : وما قال ؟ فإنه يبلغنى عنه أشعارٌ ظريفة ، فأنشدتْها تقول :

هبينى يا معـــذِّبتى أسأتُ وبالهِجْرانِ قبلـكم بدأتُ
فأين الفضلُ منكِ ، فدَتْك نفسى علىّ إذا أسأتِ كما أسأتُ !

فقالت : ظَرُف والله وأحسن .

قال إبراهيم : فلما سمعتُ ذكرى ، وذكر مولانا ، علمت أنهما من بعض نساء المهالبة ، فلم أتمالك أن دفعت الباب ، وهجمتُ عليهما فصاحتا : وراءك يا شيخ عنّا حتى نستتر . وتوهمتا أنى من أهل الدار ، فقلت لهما : جعلتُ فداكما ! لا تحتشما منى ، فإنى أنا إبراهيم السويقى ، ثم قلت لإحداهما : بحق حرمتى إلاّ شفعتنى فيها ، ووهبت لى ذنبها ، واسمعى منى ، فأنا الذى أقول :

---

(١) الروشن : الرف ، والمراد الظلة (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

خذى بيدى من الحزَنِ[1] الطويل فقد يعفو الخليـــلُ عن الخليل

فقالت : قد فعلتُ ، وصفحتُ عن زَلتها ؛ ثم قالت : يا أبا إسحاق ؛ مالى أراك بهذه الهيئة الرثة ، والبِزَّة الخَلَق[2] ! فقلت : يا مولاتى ، تعدى علىّ الدهر ، ولم ينصفْنِى الزمان ، وجفانى الإخوان ، وكَسَدَت بضاعتى ، فقالت : عزّ علىّ ذلك ! وأومأتْ إلى الأخرى ، فضربَتْ بيدها على كُمها ، فسلّت دُمْلُجاً[3] من ساعدها ، ثم ثنتْ باليد الأخرى فسلت منها دُمْلُجاً آخر ، فقالت : يا أبا إسحاق ؛ خذ هذا ، واقعد على الباب مكانك وانتظر الجارية حتى تأتيك ، ثم قالت : يا جارية ، سكن المطر ؟ قالت : نعم ، فقامتا .

وخرجتُ وقعدتُ مكانى ، فما شعرت إلا والجارية قد وافت بمديل فيه خمسة أثواب ، وصرةٌ فيها ألف درهم ، وقالت : تقول لك مولاتى : أَنْفِق هذه فإذا احتجتَ فِصرْ إلينا حتى نزيدك إن شاء الله .

فأخـذت ذلك وقمت ، وقلت فى نفسى : إن ذهبت بالدُّمْلُجين إلى امرأتى قالت : هذا لبناتى وكاثرتنى[4] عليهما ، فدخلت السوق ، فبعتهما بخمسين ديناراً ، وأقبلت .

فلما فتحت الباب صاحت امرأتى وقالت : قد جئت أيضاً بشؤمك ، فطرحت الدنانير والدراهم بين يديها والثياب ، فقالت : من أين لك هذا ؟ قلت : مِنْ الذى تشاءمتِ به ، وزعمتِ أنه بضاعتى التى لا تجدى ، فقالت : قد كانت عندى فى غاية الشؤم ، وهى اليوم فى غاية البركة !

---

(١) الحزن : ضد السرور (٢) يستوى فيه المذكر والمؤنث (٣) الدملج : ما على الساعد من الحلى (٤) كاثره : غلبه بالكثرة .

١٣٧ — حديث جويرية*

قال متمّم العبدىّ : خرجتُ من مكةَ زائراً قبر النبىّ صلى الله عليـه وسلم فإنى لَبِسُوق الْجُحْفَةَ (١) إذا جُوَيْرِية (٢) تسوق بعيراً ، وتترنّم بصوتٍ مَليح طيِّب حُلْو فى هذا الشعر :

ألا أيُّها البَيْتُ الذى حِيلَ دونه ... بنا أنت من بيتٍ وأهلُكَ من أهل

بنـا أنت من بيتٍ وحولك لذّة ... وظلّك لَوْ يسطاع بالبـارد السَّهْلِ

ثلاثة أبيـاتٍ : فبيتٌ أحِبُّهُ ، ... و بيتان ليْسَا من هَوَاىَ ولا شَكْلِى

فقلت : لمن هـذا الشعرِ يا جُوَيْرِية ؟ فالت : أمَا ترى تلك الـكُوّة الموقّاة بالـكِلَّة (٣) الحمراء ! قلت : أراها ، قالت : من هناك نهض هـذا الشعر ؛ قلت : أوَ قائله فى الأحياء ؟ قالت : هيهات ! لو أن لميت أن يرجع لطول غيبته لكان ذلك؛ فأعجبَنى فصاحةُ لسانها ، ورقّة ألفاظها : فقلت لها : ألكِ أبَوان ؟ فقالت : فقدتُ خيرَهما وأجلَّهما . ولى أمّ ، قلت : وأين أمُّك ؟ قالت : منك بمَرْأًى ومَسْمَع .

فنظرتُ فإذا امرأة تَبيعُ الخرَز على ظهر الطريق بالْجحفة ، فأتيتها فقلت : يا أمّاه ، استمعى منّى ، فقالت لها : يا أمّه ، فاستمعى من عمّى ما يلقيه إليك ، فقـالت : حيّاك الله ! هيهِ ، هل من خَبَر ؟ قلت : أهـذه ابنتك ؟ قالت : كذا كان يقول أبوها ، قلت : أفتزوجينها لى ؟ قالت : ألِعلّة رغبتَ فيها ! والله ما عندها جمـال ولا لها مال ، قلت : لحلاوة لسانها ، وحسن عَقْلها ، فقالت :

---

* الأغانى : ٢٠ — ٦

(١) الجحفة : قرية على اثنين وثمانين ميلا من مكة (٢) جويرية : تصغير جارية (٣) الـكلة : الستر الرقيق .

أيّنا أملكُ بها ، أنا أم هي بنفسها ؟ قلت : بل هي بنفسها . قالت : فإيّاها فخاطب، فقلت : لعلها أن تستحيَ من الجواب فى مثل هــذا ! فقالت : ما ذاك عندها ، أنا أخبرُ بها . فقلت : ياجارية ، أما تستمعين ما تقول أمك ؟ قالت : قد سمعت . قلت : فما عندك ؟ قالت : أو ليس حسبُك أن قلت : إنى أستحيي من الجواب فى مثل هذا ؟ فإن كنت أستحيي من شيء فلمَ أفعله ؟ أتريد أن يكون سلطانك علىّ ؟ لا والله ، لا يشدّ علىّ رجل حواءهُ [1] وأنا أجد مَذْقَةَ [2] لبن أو بقلة ألين بها مِعَاى .

فورد علىّ والله أعجبُ كلام على وجه الأرض ، فقلت : أتزوّجك والإذْنُ فيه إليك ؛ وأُعطِى الله عهداً ألّا أصدر فى أمرك شيئاً إلا عن إرادتك ، قالت : إذن والله لا تـكون لى فى هذا إرادةٌ أبداً ولا بعد الأبد إن كان بعده بعد ! فقلت: فقد رضيت بذلك ، وتزوجتُها وحملتُها وأمّها معى إلى العراق . وأقامت معى حتى فارقت الدُّنيا .

(١) الحواء اسم المكان الذى يحوى الشيء ويجمعه (٢) مذق اللبن : خلطه ، والمذقة : الطائفة من اللبن المذوق .

١٣٨ — أحلف وأنا فى هذه السنّ ! *

باع مَزْيَد المدينى دابّةً ، فلما كان من الغد أتاه النخّاسون (١) طمعاً ، فلما نظر إليهم قد أقبلوا نحوه قام يصلى ، فأطال الصلاةَ ، فقالوا له ؛ وهُمْ لا يعرفونه : يا عبدَ الله ؛ قد ذهب يومُنا ـ وأطمَعهم طولُ قيامه ، وكان أحسَنَ الناس سَمتاً ، وأظهرَهم هَدْياً ـ فانفَتَلَ (٢) عن صَلَاته ، وقال : ما بالكم ؟ قد قطعتُم علىّ صلاتى !

فقالوا له : قد ظهر بالدابة عَيْب ، قال : وما عَيْبُه (٣) ؟ قالوا : يخلع الرَّسَن (٤) ! قال : لا أعرفُه بهذه الصفة ؛ فماذا تريدون ؟ قالوا : خصْلة من ثلاث : إما الحطِيطة (٥) ، وإما ردُّ الثمن وأخذ الدابة ، وإما اليمين بالله إنك ما تعرف هذا فيه .

فقال : أمّا الثمنُ فقد فرقناه ، وأما الحطيطةُ فما تمكننا ، وأما اليمين فإنى ما حلفت قطُّ على حقٍّ ولا على باطل ؛ فأعْفونى منها ، فإنها أصعبُ الخُطط (٦) عندى . قالوا : مامن ذلك بدّ ؛ فانطلِقْ بنا إلى الوالى .

فقام معهم ، فلما بصر به الوالى ضحك ، وقال : ماجاء بك ياأبا إسحاق؟فقصّ عليه القصة ، فقال : قد أنصفك القوم : فقال : أعزّ الله الأمير ، أحلف وأنا فى هذه السن

---

* ذيل زهر الآداب : ١٥٧
(١) النخاس : بائع الدواب (٢) انفتل عن صلاته : انصرف (٣) الدابة تقع على المذكر أيضاً (٤) الرسن : الحبل ، وما كان من زمام على أنف (٥) الحطيطة : ما يحط من الثمن (٦) الخطة : الطريقة .

السن ! وضرب يدَه على لحيتـه وبكى ! وقال : ما حلفتُ على حقٍ ولا على باطل والتوى [١] .

قال : لابد ! فالتوى ساعة ، ثم قال ، أصلح الله الأمير ؛ فإن حملتُ نفسى على اليمين وحلفتُ وأعْنَتُونى [٢] بعد ! قال : أُوجِعُهم ضرباً وأحبسهم !

فلما سمع ذلك استقبل القبلة ، وأقسم بأَغْلظ الأيمان . وقال : لقـد كان عندى، دواب كلها تَخْلَعُ أَرْسانها ، فـكان الحمار يقوم فيعيدها عليها ، و يصلحها بفمه قليلًا قليلًا ؛ فضحك الوالى حتى فَحَصَ الأرض برجليه ، و بُهتَ الناخسون وعجبوا منه ؛ وانصرفوا عنه !

---

(١) التوى : تثاقل ولم يفعل   (٢) الإعنات : تكليف غير الطاقة .

١٣٩ — ضرّتان *

تزوّج رجلٌ امرأة جديدة على امرأة قديمة ، فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة ، فتقول :

وما يستوى الرِّجْلان رجلٌ صحيحة وأخرى رمى فيهـــا الزمان فَشَلّتِ

ثم تعود فتقول :

وما يستوى الثوبان ثوبٌ به البِلى وثوبٌ بأيد البائعين جديد

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت :

نقِّل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحبُ إلا للحبيب الأول
كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى وحنينـــه أبداً لأول منزل !

---

* المستطرف : ٢ ـ ٢٢٣

١٤٠ — من كذب الأعراب *

تكاذب أعرابيان ؛ فقال أحدهما : خرجت مرةً على فرس لى ، فإذا بظلمةٍ شديدة فيمَّمْتُهَا[١] حتى وصلت إليها ، فإذا قطعة من الليل لم تَنْتَبِه[٢] ، فما زلتُ أحمل بفرسى عليها حتى أنبهتُها ؛ فانجابت[٣] .

فقال الآخر : لقد رميتُ ظبياً مرةً بسهمٍ ، فعدل الظبيُ يَمْنَةً ، فعدل السَّهمُ خَلْفَهُ فتياسر[٤] الظبيُ ، فتياسر السهمُ خَلْفَهُ ، ثم علا ، فعلا السهم خلفه ، وانحدر فانحدَرَ خلفه ، حتى أخذه !

---

* الكامل : ١ ـ ٣٥٧

(١) قصدتها (٢) لم تستيقظ (٣) انجابت : انكشفت (٤) تياسر : سار يساراً .

١٤١ — قسّم فَأَحْسَنَ القِسْمَة *

حدَّث أعرابىٌّ كان ينزلُ بالبصرة قال : قَدِم أعرابىّ من البادية ، فأنزلته وكان عندى دجاج كثير ، ولى امرأة وابنان وابنتان منها ، فقلت لامرأتى : بادرى واشوى لنا دَجاجة وقدِّميها إلينا نتغدّى .

فلما حضر الغَداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتى وابناى وابنتاى والأعرابىّ فدفَعْنا إليه الدَّجاجة ، وقلنا له : اقسمها بيننا — نريد أن نضحكَ منه — فقال : لا أُحْسِنُ القسمة ؛ فإن رضيتم بقسمتى قسمتها بينكم ، قلنا : فإننا نرضى ، فأخذ رأس الدجاجة فقطعها فناوَلنيه ، وقال : الرأسُ للرأس — وقطع الجناحين — وقال : الجناحان للابنين — ثم قطع السَّاقَين — فقال : الساقان للابنتين ، ثم قطع الزِّمِكى[1] وقال : العجز للعجوز ؛ وقال : الزّوْر للزائر ، وأخذ الدجاجة بأسرِها وسخر بنا .

فلما كان من الغد قلت لامرأتى : اشوى لنا خمس دجاجات ، فلمّا حضر الغَداء قلت : اقسم بيننا . قال : إنى أظنّ أنكم وَجدتم[2] فى أنفسكم ، قلنا : لا ، لم نجِد فى أنفسنا ؛ فاقسم ! قال : أقسم شفْعاً أو وِتْراً[3] ؟ قلنا : اقسم وِتراً ، قال : أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ، ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة ، ورمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة ، ورمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : أنا ودجاجتان ثلاثة ، وأخذ دجاجتين ، وسخر بنا !

---

* نهاية الأرب : ١ — ١٧ ، الحيوان : ٢ — ١٣٠

(١) الزمكى : ذنب الطائر (٢) وجد : حزن (٣) الوتر : الفرد ، والشفع ضده .

ثم رآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه ؛ فقال : ما تنظرون ؟ لعلّكم كرِهتم قسمة الوِتْر ، لا يجىء إلا هكذا ؛ فهل لكم فى قِسْمَةٍ للشَّفْع ؟ قلنا : نعم ؛ فضمّهنّ إليه ثم قال : أنت وابناك ودجاجة أربعة ، ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ، ورمى إليهنّ بدجاجة ، ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة ، وضمّ إليه الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها !

١٤٢ — زهد وأدب *

قال محدِّث : قصدت منزل ابن بكّار المرْوانيّ فى أُشْبُونَة [١] ونقرت الباب، فنادى : مَنْ هذا ؟ فقلت : رجلٌ ممّن يتوسّلُ لرؤياك بقَرَابَة ، فقال : لا قرابةَ إلا بالتُّقى ؛ فإن كنتَ من أهله فادخل ، وإلّا فتنحّ عنى .

فقلت : أرجو فى الاجتماع بك والاقتباسِ منك أن أكون من أهل التُّقَى ، فقال : ادخُلْ ، فدخلت عليه ، فإذا به فى مُصَلَّاه ، وسُبْحَةٌ أمامه ، وهو يَعُدُّ حبوبها ويسبح ، فقال لى : أَمْهِلنى حتى أُتمّ وظيفتى من هذا التسبيح ، ثم أقضىَ حقَّك ؛ فقعدت إلى أن فرَغ .

فلمّا قضى شغله عطف علىّ ، وقال : ما القرابة التى بينى و بينك ؟ فانتسبت له فعرف أبى ، وترحّم عليه ، وقال لى : لقد كان نِعْمَ الرجل ، وكان لديه أدبٌ ومعرفة، فهل لديك أنتَ مما كان لديه شىء ؟ فقلت له : إنه كان يأخذنى بالقراءة وتعلّم الأدب ، وقد تعلقتُ من ذلك بما أتميّزُ به ، فقال لى : هل تنظم شيئاً ؟ قلت : نعم ! وقد أَلجأنى الدهر إلى أن أرتزقَ به . فقال : ياولدى ، إنه بئسما يُرْتزَق به ، ونعم مايُتَحَلَّى به إذا كان على غير هذا الوجه ، ولكن تَحِلُّ المَيْتَةُ عند الضرورة ! فأنشدنى — أصلحك الله — مما على ذكرك من شِعْرك .

* نفح الطيب : ٢ : ١١٢

(١) أشبونة : بلد بالمغرب .

فطلبتُ بخاطرى شيئاً أقابله به مما يوافق حاله ، فما وقع لى إلا فيما لا يوافقه من مجون ووصف خمر وما أشبهَ ذلك . فأطرقتُ قليلًا ، فقال : لعلك تنظم ! فقلتُ :لا ، ولكنى أفكّر فيما أقابلُك به ، فقولى أكثرُه فيما حملنى عليه الصِّبا والسُّخف ، وهو غيرُ لائق بمجلسك .

فقال : أنشدنى ما وقع لكَ غيرَ متكلِّف ،فلم يمدّنى خاطرى إلا بشعر أمْجُنُ[1] فيه ، فقال : أما كان فى نظمك أطهرُ من هذا ؟ فقلت له: ماوُفِّقْتُ لغيره[2] ،فقال: لا بأسَ عليك ، فأنشدنى غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولى :

ولما وقفتُ على رَبْعِهمْ ‏ ‏ تجرّعتُ وَجْدِىَ بالأجْرَعِ[3]

وأرسلَ دَمْعِى شِرَارَ الدُّمُوع ‏ ‏ لنارٍ تَأَجّجُ فى الأضْلُعِ

فقام عذولىَ لمّا رأى ‏ ‏ بكائىَ وَقْفاً على الأدْمُعِ

فقلت له : هذه سُنَّةٌ ‏ ‏ لمن حفظ العهدَ فى الأرْبُعِ[4]

فرأيت الشيخ قد اختلط ، وجعل يجىء ويذهب ؛ ثم أفاق ، وقال : أعِدْ بحقِّ آبائك الكرام . فأعدتُ فأعاد ما كان فيه ، وجعل يردّد . فقلتله : لوعلمتُ أن هذا يحرّكك ما أنشدتُك إياه ، فقال : وهل حرّك منى إلا خيراً وعِظَةً ! يا بُنىَّ ؛ إن هذه القلوب المخلاة لله كالأوراق التى جفّت ، وهى مستعدّةٌ لهبوبِ الرياح ، فإن هبّ عليها أقلُّ ريح لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طوعه .

---

(١) مجن من باب قعد : هزل .

(٢) راجع هذا الشعر فى صفحة ١١٢ من الجزء الثانى من نفح الطيب ، وقد حذفناه لما فيه من المجون (٣) الأجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل (٤) الأربع ، جمع ربع : الدار بعينها .

فأعجبنى مَنْزِعه ، وتأنَّستُ به ، ولم أر عنده ما يُعْتَادُ من هؤلاء المتديِّنين من الانكماش ؛ بل ما زال يحدِّثنى بأخبارٍ فيها هَزْلٌ ، ويذكر لى من تاريخ بنى أميّة وملوكها ما أرتاحُ له ، ولا أعلم أكثرَه .

فلمّا كثر تَأنُّسى به ، أَهْوَيْتُ إلى يده كى أُقبّلَها ، فضمّها بسرعة ، وقال : ما شأنُك ؟ فقلت : أرغب فى أن تنشدنى شيئاً من نظمك ؛ فقال : أمّا نظمى فى زمان الصبا فكان له وقتٌ ذهب ، ويجب للنظم أن يذهبَ معه ، وأمّا نظمى فى هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ؛ وهو يثقل عليك ، فقلت له : إن أنصفَ سيّدى أنشدنى من نَظْمِ صباه ، ومن نظم شيخوخته ، فيأخذُ كلانا بحظّه . فضحك ،وقال: ما أَعْصِيك وأنت ضيفٌ ، ولك حرمة أدب ، ووسيلةُ قصد ، ثم أنشدَنى وقد بدا عليه الخشوع وخنقَتْهُ العَبْرَة :

ثق بالذى سوّاك من عدمٍ فإنّك من عدمْ
وانظر لنفسك قبل قَرْ عِ السن من فَرْطِ الندمْ
واحذر ـ وقيت ـ من الورى واصَحَّهم أعمى أصمْ
قد كنتُ فى تيهٍ إلى أن لاح لى أهدى عَلَمْ
فاقتدتُ نحو ضيائه حتى خرجتُ من الظُّلَمْ
لكن قناديلُ الهوى فى نور رشدى كالحُمَمْ[1]

فوالله لقد أدركنى فوق ما أدْرَكه ، وغلب على خاطرى بما سمعت من هذه الأبيات ، وفعلَتْ بى من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد حين ، فقال لى الشيخ : إن هذه يقظة يرجَى معها خيرك ، والله مرشدُك ومنقذك ، ثم قال لى :

---

(١) الحمم : الرماد والفحم ، وكل ما احترق من النار .

يابُنَيّ ؛ هـذا ما نحنُ بسبيله الآن ، فاسمعْ ما قلتهُ فيما مضى ، والله وليُّ المغفرةِ ، وأنشد :

أطَلّ عِذَارٌ على خَدِّهِ فظنوا سُلُوِّىَ عن مذهبى
وقالوا : غراب لوشْكِ النَّوَى فقلت:اكتسَى البدرُ بالغَيْهبِ (١)
وناديتُ قلبىَ : أينَ المسيرُ وبدرُ الدُّجى حلّ بالعقربِ (٢)
فقال : ولو رُمْتَ عن حبّه رحيلاً عصيت ولم أذهبِ

فسمعت منه ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدّم ، وقلت له : لم أر أحسنَ من نظمك فى جدٍّ ولا هزل . ثم قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم ؛ ما أرى فيه بأساً بعد اطلاع من يَعْلَمَ السرائرَ على ما فى الضمائر ، فقلت له : فإن أسبغتَ علىَّ النعمةَ بزيادة شىء من هذا الفنّ فعلت ما تملك به قلبى آخر الدهر . فقال يابنى ؛ لا مَلَكَ قلبك غيرُ حبّ الله تعالى ، ثم قال : ولا أجمع عليكَ رَدَّ قول ومنعاً ، ثم أنشد :

أيّهـا الشادِنُ الذى حُسْنُهُ فى الورى غريبْ
لحظُ ذاكَ الجمال يُطْ فِىءُ ما بى من اللهيبْ
وعليـه أحُومُ دَهْ رِى ولكننى أخيبْ
كلمـا رُمْتُ زَوْرَةً قيَّض الله لى رقيبْ

فما زَجَ قلبى من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجزُ عن التعبير عنه ، فقلت له : زدْنى زادك الله خيراً ، فأنشدَنى :

ما كان قلبىَ يدرى قدرَ حُبِّكمُ حتى بَعُدْتُم فلم يقـدر على الجَلَدِ

---

(١) الغيهب : الظلمة (٢) العقرب : برج فى السماء

وكنت أحسب أنى لا أضيق به ذَرْعاً فما حان حتى فتّ فى عضدى

ثم استمرتْ على كرهٍ مَرِيرَتُهُ [1] فكاد يفرق بين الروح الجسد

عساكم أن تلافوا باللقا رَمَقِى فليس لى مهجةٌ تَقْوَى على الكَمدِ

ثم قال : حسبك ، وإن كلفتنى زيادة ، فالله حسبك ، فقلت له : قد وَكَّلْتَنِى إلى كريم غفور ، فبالله إلا مازدتنى ؛ وأكْبَبْتُ لأُقَبِّلَ رجليه ، فضمهما وأنشدنى شعراً رقيقاً ؛ ملأ سمعى عجائب ، وبسط أنسى ، وكتبت كلّ ما أنشدنى ، ثم قلت له : لولا خوفى من التثقيل عليك لم أزل أستدعى منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشده . فقال : إن عدت إلى هنا تذكرت وأنشدتك ، فما عندى مما أضيفك به غير ما سمعته وما تراه .

ثم قام وجاء من بيتٍ آخر فى داره بصَحْفة فيها حَساً [2] من دقيق وكسورٌ باردة ، فجعل يَفُتُّ فيها ، ثم أشار إلىّ أن أشرب ، فشربت ، ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها ، ثم قال : هذا غَدَاءعمك نهارَه ، وإنه لنعمة من الله تعالى ، أستديم بشكرها اتصالها .

فقلت له : ياعم ؛ ومن أين عيشُك ؟ فقال : يابنى ؛ عيشتى بتلك الشبكةِ أصطادُ بها فى سواحل البحر ما أُقْتَاتُ به ، ولى زوجة وبنت يعود من غزْلها مع ذلك مانجد به معونة ؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير .

فتركته ، وفى نيتى أن أعودَ إلى زيارته بعد أيام خوفَ التثقيل ، فعدتُ إليه بعد ثلاثة أيام ، فنقرتُ الباب ، فكلمتنى المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت : إن الشيخ قد خرج إلى الغزْو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ، ناله كالجنون ،

---

(١) المريرة : القوة (٢) الحسا : المرق .

فقلت له : ما شأنُك ؟ فقال : إنى أريد أن أموت شهيداً وهؤلاء جيرانٌ لى قد عزموا على الغزو ، وأنا ماضٍ معهم ! ثم اختال فى سيف ورمح ، وتوجَّه معهم ، وقال : نفسى هى التى قتلتنى بهواها ، أفلا أقتصُّ منها فأقتلها ! فقلت لها : من خَلَّفَ للنظر فى شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ؛ فالذى خلفنا له لا نحتاج معه إلى غيره ، فأدركنى من جوابها رَوْعة ، وعلمتُ أنها مثلُه زهداً وصلاحاً .

فقلت : إنى قريبُه ، ويجب علىّ أن أنظرَ فى حالكم بعده ؛ فقالت : ياهذا ؛ إنك لستَ بذى مَحْرَم ، ولنا من العجائز من ينظرُ لنا ، ويبيع غَزْلنا ، ويتفقد أحوالنا ؛ فجزاك الله عنا خيراً . انصرف عنا مشكوراً !

فقلت لها : هذه دراهم خذوها لتستعينوا بها ، فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ من غير الله ، وما كان لنا أن نخلّ بالعادة .

فانصرفت نادماً على ما فاتنى من الاستكثار من شعر الشيخ . ثم عدت بعد ذلك لداره سائلا عنه ، فقالت لى المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ؛ فعلمت أنه قتل ؛ فقلت لها : أَقُتِل ؟ فقرأت : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

فانصرفتُ معتبراً من حاله .

١٤٣ — تشابه خاطرين*

قال ابنُ ظافر : صِرْنا فى بعض العَشَايا على البساتين ، فرأينا فيها بئراً عليها دولابان متحاذيان ، وهما يئنَّان أنينَ الأشواق ، ويفيضان ماء أغزر من دموع العُشَّاق ، والروضُ قد جلا للأعين زَبَرْجَده ، والأصيل قد راقه حسنه ، فنثر عليه عَسْجَده ، والزهرُ قد نظم جواهره فى أجياد الغصون ، والسواقى قد أزالت من سلاسل فِضَّتِها كلَّ مَصُون ، والنبات قد اخضرّ شاربُه وعارضُه ، وطرفُ النسيم قد ركضه فى ميادين الزهر راكضُه ، ورُضاب الغيث قد استقرّ من الطين فى لَمَى ، وحيّات المجارى حائرة تخاف من زمرد النبات أن يدركها العَمَى ، والبحر قد صقل النسيمُ دِرْعه ، وزَعْفَران العشى قد ألقى فى ذيل الجوِّ دِرْعه ؛ فأوسع ذلك المكان قلوبنا استحواذاً ، وملأ أبصارنا وأسماعنا مسرَّةً والتذاذاً ، وجلسنا نتذاكر ما فى تركيب الدواليب من الأعاجيب ، ونتناشد ما وُصفَتْ به من الأشعار الغالية الأسعار ، فأفضى بنا الحديث الذى هو ذو شجون إلى ذكر قول الأعمى[1] الطليطلى فى أسد نحاس يقذف الماء :

أسدٌ ولو أنّى أنا ... قشتُه الحساب لقلت: صَخْرَهْ

فكأنه أسدُ السما ... ءِ يمجُّ مِنْ فيه المجرَّهْ

* نفح الطيب : ٢ — ٢٩٢

(١) هو أبو جعفر الأعمى الطليطلى ، وقال عنه فى مطمح الأنفس : له ذهن يكشف الغامض الذى يخفى ، ويعرف رسم المشكل ، وإن كان قد عفا ، . . . ص ٢٨٥ من مطمح الأنفس .

فقال القاضى أبو الحسن على بن المؤيد : يتولّد من هـذا فى الدولاب معنى يأخـذ بمجامع المسامع ويُطربُ الرائى والسامع ؛ فتأمّلت ما قاله بعين بصيرتى البصيرة ، واستمددت مادةَ غريزتى الغزيرة ؛ فظهر لى معنًى ملأنى إطراباً ، وأوسعنى إعْجاباً ؛ وأطرق كلٌّ منا ينظِّم ماخاش به مدُّ بحره ، وأنبأه به شيطان فكره ، فلم يكن إلا كنقرة العصفور ، الخائف من النّاطور[1] ، حتى كمل ما أردْناه من غير أن يقف واحدٌ منا على ماصنعه الآخرُ ، فكان الذى قال :

حبّــذا ساعة العَشاء والدُّو لابُ يُهدِى إلى النفوسِ المسرَّهْ

أدْهَمٌ لا يزال يعـدو ولكن ليس يعـدُو مكانه قَدْر ذَرَّهْ

ذو عيونٍ من القوادِيس يبكى كلّ عين من فائضِ الدّمْعِ ثرّهْ

فَلَكٌ دائرٌ يُرينـا نجوماً كلُّ نجم يُبْـدِي لنـا المجرّهْ

وكانَ الذى قلت :

ودولابٍ يئنُّ أنينَ ثَكْلَى ولا فقـداً شكاه ولا مَضَرَّهْ

ترى الأزهارَ فى ضحكٍ إذا ما بكى بدموع عينٍ منـه ثرّهْ

حكَى فَلَكاً تدورُ به نجومٌ تؤثر فى سرائرنا المَسرّهْ

يظلُّ النّجمُ يُشرِقُ بعـد نجْمٍ ويضربُ بعـد ماتجرى المجرَّهْ

فعجبنا من اتفاقنا ، وقضى العجبَ منه سائرُ رفاقنا .

---

(١) الناطور : حافظ الكرم .

١٤٤ — إنما توجد فى قعرِ البحارِ الفصُوص *

ألّف أبو العلاء صاعدٌ كتابَ الفصوص ، واتفق أن أبا العلاء دفعه ـ حين كَمَل ـ لغلام له يحمله بين يديه ، وعبر النهر ـ نهرَ قرطبةَ ـ فخانت الغلامَ رجلُه ؛ فسقط فى النهر هو والكتاب !

فقال فى ذلك بعضُ الشعراء بيتاً بحضرة المنصور هو :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوصْ وهكذا كل ثقيــــــلٍ يغوصْ

فضحك المنصور والحاضرون .

فلم يَرُعْ ذلك صاعداً ، ولا هالَه ، وقال مرتجلاً مجيباً :

عاد إلى مَعْـــــدنه إنمـــا توجـد فى قَعْرِ البحارِ الفصوصْ !

---

* المجانى : ٣ ـ ١٥٢

الباب الرابع

في القصص التي تؤرِّخ مذكور أيامهم وتفصِّل مشهور وقائعهم، ومقتل كبرائهم، وتصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم أخذاً بالثار، أو حماية للذمار.

[اقتصرنا فى هـذا الباب على القصص الأدبى ، أما تفصيل الأيام وتاريخها فقد أفردنا لها كتابى « أيام العرب فى الجاهلية » و « أيام العرب فى الإسلام »]

١٤٥ — كأن لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصَّفا
أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سامِرُ*

حدّث بعضُ أهل العلم ، أن سيْلاً جاء فدخَلَ البيت فانْهَدَمَ ، فأعادته جُرْهم على بناء إبراهيم ، ثم استخفّت جرهم بحقِّ البيت ، وارتكبوا فيه أموراً عِظاماً ، وأحدثوا فيه أحداثاً قبيحة ، وكانت للبيت خِزَانة ، وهى بئر فى بطنه يلقى فيها المتاع الذي يُهدى له ، وهو يومئذ لا سَقْفَ عليه ، فتوَاعد خمسة من جُرهم أن يسرقوا كلَّ ما فيها ، فقام على كل زاوية من البيت رجلٌ منهم ، واقتحم الخامس ، فجعل الله عزّ وجلّ أعلاه أسفله ، وسقط منكَّساً فهلك ، وفرّ الأربعة الآخرون .

فلما كثر بغىُ جُرْهم بمكة قام فيهم مُضاض بن عمرو فقال : ياقوم ؛ احذروا البَغْىَ فإنه لا بقاء لأهله ، وقد رأيتم مَنْ كان قبلكم من العماليق اسْتَخَفُّوا بالحرَم ، ولم يعظِّموه ، وتنازعوا بينهم ، واختلفوا حتى سلَّطكم الله عليهم فاجتحتُموهم فتفرقوا فى البلاد ، فلا تستخفوا بحق الحرَم وحرمةِ بيت الله ، ولا تظلموا مَنْ دَخَله ، وجاءه معظِّماً لحرُماته ، أو خائفاً ورغب فى جواره ، فإنكم إن فَعَلْتُمْ ذلكم تخوفتُ أن تخرجوا منه خروج ذُلٍ وصَغار ، حتى لا يقدرُ أحدٌ منكم أن يصل إلى الحرم ، ولا إلى زيارة البيت الذى هو لكم حِرْزٌ وأمْن ، والطيرُ تأمَن فيه .

* الأغانى : ١٣ ـ ١٠٤

فقال قائل منهم : ومن الذى يُخرجنا منه ؟ ألسنا أعزّ العرب وا كثر مالاً وسلاحاً ! فقال مُضَاض : إذا جاء الأمر بطل ما تَذْكرون ، فقد رأيتم ماصنع الله بالعماليق ... بغَتْ فى الحرم فسلّط الله عليهم الذَّرَّ (١) فأخرجهم منه ، ثم رُمُوا بالجَدْب من خلفهم حتى ردّهم الله إلى مساقط رءوسهم . ثم أرسَلَ عليهم الطوفان .

فلما رأى مُضاض بن عمرو بَغْيَهم ومقامهم عليه عمِد إلى كنوز الكعبة وهى غزَالان من ذهب ، وأسياف قَلَعيّة (٢) لحفر لها ليلاً فى موضع زمزم ودفنها .

فبيناهُمْ على ذلك إذْ سارت القبائل من أهل مَأْرِب ، وعليهم مُزيقياء ، وهو عَمْرو بن عامر ، فلما انتَهوْا إلى مكة وأهلِها أرسل إليهم ابنَه ثعلبة فقال لهم : يا قوم ؛ إنا قد خرجنا من بلادنا ، فلم ننزل بلدة إلا أفسح أهلُها لنا ، فنقيم معهم حتى نرسل رُوّاداً فيرتادُوا لنا بلداً يحملنا . فأفسِحُوا لنا فى بلادكم حتى نقيمَ قَدْر ما نستريح ، ونُرسلَ رُوّاداً إلى الشام وإلى الشرق فحيثما بلغنا أنه أمْثل لَحِقْنا به ، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيراً .

فأبَتْ ذلك جُرْهم إباء شديداً ؛ واستكبروا فى أنفسهم ، وقالوا : لا والله ، ما نحبُّ أن ينزلوا فيضيّقوا علينا مرابِعَنا ومواردنا ، فارْحَلُوا عنا حيث أحببتم ، فلا حاجة لنا بجواركم .

فأرسل إليهم : أنه لا بد من المقام بهذا البلد حولاً حتى ترجعَ إلىّ رُسُلِى التى

---

(١) الذر : صغار النمل (٢) قلعية : نسبة إلى قلعة ، وهى بلد بالهند ، إليها ينسب الرصاص والسيوف .

أرسلت ، فإن أنزلتمونى طَوْعاً نزلت وحمدتُكم وآسَيْتُكم[١] فى الرَّعْى والماء ، وإن أبيتمُ أقمت على كُرْهِكم ، ثم لم ترتعوا معى إلا فضلًا ، ولا تشربوا إلا رَنقاً[٢] ، وإن قاتلتمونى قاتلتكم ، ثم إن ظهَرْتُ عليكم سبَيتُ النساء ، وقتلتُ الرجال ، ولم أترك منكم أَحَداً ينزل الحرَم أبداً .

فأَبَتْ جُرهم أن تُنزِله طوعاً ، وتهيَّأَتْ لقتاله ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أُفرغ عليهم فيها الصبر ، ومُنِعُوا النصر ، ثم انهزمت جُرْهم ، فلم يُفلت منهم إلا الشديد ، وكان مُضَاض بن عمرو قد اعتزل حربهم ، ولم يعنْهم فى ذلك وقال : قد كنت أحذِّركم هذا .

ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قَنَوْنى[٣] وما حوله .

فلما حازت خُزاعة أمر مكة ، وصاروا أهلها جاءهم بنو إسماعيل ـ وقد كانوا اعتزلوا حرب جُرْهم وخُزاعة ، فلم يدخلوا فى ذلك ـ فسألوهم السُّكْنى معهم وحولهم ، فأذِنوا لهم ، فلما رأى ذلك مُضَاض ـ وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة أمر عظيم ـ أرسل إلى خُزاعة يَستأْمِنها ، ومَتَّ إليهم برأيه وتَوْريعه[٤] قومَه عن القتال ، وسوء العِشْرة فى الحرم ، واعتزاله الحرب ، فأَبَتْ خُزاعة أن يُقِرُّوهم ونفَوْهم عن الحرم وقالوا : مَن دخله منهم فدمُه هَدر[٥] .

فنزعت بل لمضاض من قَنَوْنَى تريد مكة ، فخرج فى طلبها حتى وجدها قد دخلتْ مكة ، فمضى إلى الجبال نحو أَجْيَاد حتى ظهر على أبى قُبَيْس يتبصَّر

---

(١) آسيتكم : شاركتكم . (٢) الرنق : الكدر من الماء (٣) قنونى : واد يصب فى البحر فى أوائل أرض اليمن (٤) التوريع : الكف عن الشىء (٥) أى باطل ليس فيه قود .

الإبل فى بطن وادى مكة ، فأبصر الإبل تُنْحَر وتؤ كل لا سبيل له إليها ، فخاف إن هبط الوادى أن يُقتَل ، فولّى منصرفاً إلى أهله وأنشأ يقول :

كأنْ لم يكنْ بين الحجُون إلى الصّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمــكةَ سامرُ
ولم يتربّعْ واسطاً فجنــــوبَه ... إلى المنحنَى من ذى الأراكة حاضرُ
بلى نحنُ كنّا أهلَهــا فأبادَنا ... صروفُ الليالى والجدودُ[1] العواثرُ
وأبدلنــا ربِّى بهــا دارَ غُرْبةٍ ... بها الذئبُ يعوِى والعدوُّ المُخَامِرُ
أقول إذا نام الخــلِىُّ ولم أنَمْ ... أذَا العرشِ لايَبْعَد سهيلٌ وعامِرُ[2]
وبُدِّلتُ منهم أوْجهاً لا أريدها ... وحِــيرٌ قد بدّلتها واليُحابِرُ[3]

* * *

فهــل فرجٌ آتٍ بشىء تحبُّــه ... وهل جزع منجيك ممــا تحاذِرُ !

---

(١) الجدود : الحظوظ (٢) أذا العرش : أى ياذا العرش (٣) يحابر : اسم قبيلة .

١٤٦ — ألا من يشترى سَهراً بنوم *

تفرّقت حِمْيَر على ملكها حسّان ، وخالفتْ أمره ؛ لسوء سيرته فيهم ، ومالوا إلى أخيه عمرو ، وحملوه على قَتْل حسان ، وأشاروا عليه بذلك ، ورغبوه فى الملك ، ووعدوه حسنَ الطاعة والمؤازرة ، فنهاه ذُو رُعَيْن من بين حمير عن قتل أخيه ، وعلم أنه إن قَتَل أخاه ندِم ونفرَ عنه النوم ، وانْتَقَضَتْ عليه أُموره ، وأنه سيُعاقِب الذى أشار عليه بذلك ، و يعرف غِشَّهم له .

فلما رأى ذُو رُعَيْن أنه لا يقبل ذلك منه ، وخشى العواقب قال :

ألا من يشترى سَهَراً بنومٍ   سعيدٌ من يبيت قريرَ عيْن
فإمّا حميرٌ غدرت وخانَتْ   فمعذرةُ الإله لذى رُعيْنِ

ثم كتب البيتين فى صحيفة ، وختم عليها بخاتم عمرو ، وقال : هذه وديعةٌ لى عندك إلى أنْ أطلبها منك ؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خازِنه ، وأمره برفعها إلى الخزانة ، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها :

فلما قَتل أخاه ، وجلس مكانه فى الملك مُنِع منه النوم ، وسلِّط عليه السهر ؛ فلما اشتد ذلك عليه ، لم يَدَعْ باليمن طبيباً ولا كاهنا ، ولا مُنَجِّماً ، ولا عرّافاً ولا عائِفاً ، إلا جمعهم ، ثم أخبرهم بقصته ، وشكا إليهم مابه . فقالوا له : ما قتلَ رجلٌ أخاه أو ذَا رحم منه على نحو ما قَتَلْتَ أخاك إلا أصابه السهر ، ومُنِع منه النوم !

---

* الأمثال ١ — ٦٥

فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليـه من أقْيَال حِمْيرَ ، فقتلهم وأفْنَاهم .

فلما وصل إلى ذى رُعَين قال له : أيُّها الملك ؛ إنّ لى عندك براءة مما تريد أن تصنعَ بى . قال : وما براءتُك وأمانك ؟ قال : مُرْ خازِنك أن يُخرج الصحيفة التى استودعتكها يوم كذا وكذا .

فأمر خازِنَه فأخرجها ، فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضّها ، فإذا فيها البيتان :

* ألا من يشترى سهراً بنوم [(١)] *

ثم قال له : أيها الملك ؛ قد نهيتك عن قَتْل أخيك ، وعلمتُ أنك إن فعلتَ ذلك أصابك الذى قد أصابك ، فكتبتُ هذين البيتين براءةً لى عندك مما علمتُ أنك تصنع بمن أشار عليك بقتل أخيك !

فقبل ذلك منه وعفا عنه ، وأحْسَنَ جائزته .

---

(١) ذهبت مثلا ، ويضرب لمن غمط النعمة وكره العافية .

١٤٧ — غثُّكَ خيرٌ من سمين غيرك *

كانت بين مذحِج وحيٍّ من أحيـاء العرب حربٌ شديدة ، فرَّ مَعنُ بن عَطِيَّة المذْحِجىّ فى حَمْـلةٍ حملهـا برجل من أعدائهم صريعاً ؛ فاسْتغاثه وقال : امنُنْ علىَّ كُفِيتَ البـلاء ! فأقامه مَعْن ، وسار به حتى بلغ مَأْمَنـه ، ثم عطف أولئـك القوم على مَذْحِج فهزمُوهم وَأَسَرُوا مَعْناً وأخاً له يقال له : روق ، وكان يُضَعَّف ويُحَمَّق (١) .

فلمـا انصرفوا إذا صاحبُ مَعْن الذى نجَّاه أخو رئيس القوم ، فناداه معن وقال :

يا خـيرَ جازٍ بِيَدٍ أوليتها نجّ مُنْجِيكَ
هل من جزاء عندك اليـوم لمن ردّ عواديكَ

فعرفه صاحبُه ، فقال لأخيه : هذا المانُّ علىّ ، ومُنْقِذِى بعد ما أشرفتُ على الموت فهبْه لى . فوهبه له : فخلّى سبيله ، وقال : إنى أُحِبُّ أن أضاعف لك الجزاء ، فاخترْ أسيراً آخر ؛ فاختار مَعْنٌ أخاه رَوْقاً ، ولم يلتفتْ إلى سيِّدِ مَذْحِج وهو فى الأسارى .

ثم انطلق مَعْن وأخوه راجعَيْن ، فمرَّا بأسارى قومهما ، فسـألوا معناً عن حال

---

* مجمع الأمثال : ٢ — ٤ .

(١) حمقه : نسبه إلى الحمق . وضعفه : عده ضعيفا .

سيدهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا لمعن : قبحك الله تَدَعُ سيدَ قومك وشاعرَهم لا تفكّه ، وتفكّ أخاك هذا الأنوَك[١] الفَسْل[٢] الرَّذْل[٣] . فوالله ما نَكأ جُرْحاً ولا أعمل رمحاً ، ولا ذَعَر سَرْحاً[٤] ؛ وإنه لقبيحُ المنظر سَيِّئُ المخبر ، لئيم : فقال معن : « غثّك خيرٌ من سَمين غيرك[٥] » .

(١) الأنوك : الأحمق (٢) الفسل : الرذل الذى لا مروءة له (٣) الرذل : الدون الخسيس . (٤) السرح : المال السائم (٥) ذهبت مثلا .

١٤٨ — مقتل كليب *

كان كُلَيب (١) قد عزَّ وساد فى رَبيعة ؛ فبَغى بَغياً شديداً ، وكان هو الذى يُنزلهم منازلَهُمْ ويرحِّلُهم ، ولا ينزلون ولا يرحلُون إلّا بأمره ؛ فضرب به المثلُ فى العزِّ ؛ فقيل : أعَزُّ من كليبِ وائل ! وكان لا يُجير أحدٌ من بكر وتَغْلِب إلا بإذنه ، ولا يُحْمَى حمًى إلا بأمْره ، وكان إذا حَمَى حمًى لا يُقْرب .

وكان لمُرَّة بن ذُهْل بن شيبان عشرة بنين ، جسَّاس أصغرهم ، وكانت أختهم عند كليب .

وكان لجساس (٢) خالة تُعرف بالبَسُوس ؛ فجاءت فنزلت على ابن أختها جسّاس ، فكانت جارةً لبنى مرة ، ومعها ابنٌ لها ، ولها ناقة خَوَّارة (٣) ، ومعها فَصِيل ، فرأى كُلَيب الناقة فأنكرها ، فقال : لمن هذه ؟ قالوا : لخالَةِ جسّاس ، قال : أوَقَدْ بلَغَ من أمر ابن السَّعْدِية أن يُجِيرَ علىَّ بغير إذنى ارْمِ ضَرْعها ياغُلام ، فأخذ القوسَ فرمى ضَرْع الناقة ، فاختلط دَمها بلبنها .

وراحت الرُّعاة على جسَّاس فأخبروه بالأمر ، فقال : احلبوا لها مِكْيالَىْ لبن ، ولا تذكروا لها من هذا شيئاً .

---

* الأغانى : ٥ — ٣٤ ، الأمثال : ١ — ٣٤١ ، العقد الفريد : ٣ — ٣٤٨ ، نهاية الأرب : ٥ — ٢١٤ ، الكامل لابن الأثير : ١ — ٣١٢

(١) كليب بن ربيعة ، سيد الحيين : بكر وتغلب فى الجاهلية ، ومن الشجعان الأبطال وقتل نحو سنة ١٣٥ ق . هـ (٢) جساس بن مرة من بنى بكر بن وائل ، شجاع شاعر من أمراء العرب فى الجاهلية ، وقتل فى أواخر الحرب نحو ٨٥ ق . هـ (٣) ناقة خوارة : رقيقة حسنة.

وسكت جَسّاس ثم مَرَّت بَكْرٌ على نِهْيٍ[1] يقال له : شُبَيْث ، فنفاهم كليب عنه ، وقال : لا يذوقون منه قطرة . ثم مروا على نِهْىٍ آخر يقالَ له : الأحصُّ،فنفاهم عنه،ثم مروا على بَطْن الجُرَيب[2]فمنعهم إياه ، حتى نزلوا الذَّنائب[3]،وتبعهم كليبٌ وحيُّه حتى نزلوا عليه

ثم مرّ عليه جساس وهو واقف على غَدير الذَّنائب ، فقال : طردتَ أهلنا عن الميـاه حتى كِدْتَ تقتلُهم عَطَشاً ! فقال كليب : مامنعناهم من ماء إلّا ونحنُ له شاغلون . فقال له جسّاس : هـذا كفعلك بناقةِ خَالَتى ! فقال له : أَوَقَدْ ذكرتَها ! أما إنى لو وجدتُها فى غير إبلِ مُرّة لاستحللتُ تلك الإبلَ بها !

فعطف عليه جسّاسٌ فرسه ، فطعنه برُمْح فأنفذ حِضْنَيه[4] ، فلما تداءمه[5] الموتُ قال : ياجسّاسُ ؛ اسقِنى من الماء ، قال : ماعَقَلْتَ استسقاءك الماء منذ وَلَدَتْك أمُّك إلّا ساعتَك هذه ! ثم أمال يدَه بالفرس حتى انتهى إلى أهْله .

فقالت أختُه ـ حين رأَتْه ـ لأبيها : إن ذا جَسّاسٌ ؛ أتى خارجةً رُكْبتاه،قال: واللهِ ما خَرَجَتْ ركبتاه إلّا لأمرٍ عظيم .

فلما جاء قال : ماوراءك يابنى ؟ قال : ورائى أنّى قد طعنتُ طَعْنَةً لتُشْغَلَنَّ بها شيوخُ وائل زمناً ؟ قال : أقتلتَ كليباً ؟ قال : نعم ! قال : ودِدْتُ أنك وإخوتك كنتم مُتُّم قبل هذا ، مالى إلا أن تَتَشَاءَم بى أبناء وائل ! فقال جساس :

تأهّبْ عنك أُهْبَـــةَ ذى امتناعٍ ... فإنَّ الأَمْر جَلَّ عن التَّلاحِى[6]

---

(١) النهى : الغدير (٢) الجريب : واد عظيم (٣) الذنائب : موضع بنجد (٤) الحضن : مادون الإبط إلى الكشح (٥) تداءمه الأمر : تراكم عليه (٦) التلاحى : المنازعة .

فإنى قـد جنيتُ عليك حرباً   تُغِصّ الشيخ بالمـاء القَرَاح

فأجابه أبوه :

فإنْ تكُ قد جنيتَ علىّ حرباً   فلا وانٍ ولا رثّ السلاح
سألْبَسُ ثوبهـا وأذُبُّ عنّى   بها يوم المذلّة والفِضَاحِ (١)

وكان هَمَّام (٢) بن مُرّةَ آخى مهلهلاً (٣) وعاقدَه ألّا يـكتمَه شيئاً ، فجاءت أمَةٌ له فأسرّت إليه قتلَ جساس كليباً ، فقال له مهلهل : ماقالت ؟ فلم يخبره،فذكره العهد بينهما ، فقال : أخبرتنى أن جساساً قَتل كُليباً ، فلم يصدق مهلهل الخبر .

واجتمع نساء الحى للمأتم،فقلن لأخت كليب : رحِّلى جليلة ـ زوج كليب وأخت جساس ـ عن مأتمكِ؛ فإن قيامَها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب ، فقالت لها:ياهذه؛ اخرُجى عن مأتمنا ؛ فأنتِ أختُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا . فخرجت وهى تَجرُّ أعطافها، فلقيها أبوها مُرّة فقال : ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت ثُـكْلُ العدد وحزنُ الأبد ، وفقد خليل ، وقتل أخٍ عن قليل ، و بين ذَيْن غَرْسُ الأحقاد ، وتفتُّتُ الأكباد . فقال لهـا : أو يـكفُّ ذلك كرمُ الصفح و إغلاء الدِّيات ؟ فقالت جليلة : أُمنية مخدوعٍ ورب الـكعبة ! أبالبُدْنِ (٤) تَدَعُ لك تَغْلِبُ دمَ ربها ! .

ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رِحْلةُ المعتدى ، وفراق الشامت ! ويلٌ غداً لآل مرّة ، من الـكرَّة بعد الـكرّة . فبلغ قولها جليلة ، فقالت : وكيف تَشمَت الحرة بهَتْكِ سِتْرِها وترَقُّبِ وتْرِها ! أسعد الله جدَّ أختى ، أفلاقالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء ! ثم أنشأتْ تقول :

---

(١) فضحه : كشف مساوئه ، والاسم الفضاح ، وفى الاغانى : إن هـذا الشعر لأخيه نضلة
(٢) همام : أخو جساس   (٣) مهلهل : أخو كليب   (٤) المراد الإبل .

يا ابنـــةَ الأقوام إن شئتِ فَلَا ... تعجَـــلِي باللَّوْم حتى تَسأَلى
فإذا أنت تَبَيَّنْتِ الذى ... يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلُومِي واعـذُلى
إن تـكن أُختُ امْرِىءٍ لِيمَتْ عَلَى ... شَفَق مِنهـــا عَلَيْـهِ فافعلِى
جَلَّ عِنـــدِى فعلُ جَسَّاسٍ فيا ... حَسْرَتى عما انْجلَتْ أو تَنْجَلِى
فعــلُ جَسَّاسٍ على وَجْـــدِى بِهِ ... قَاطِعٌ ظَهْرى ومُـــدْنٍ أَجلِى
لو بعينٍ فُقِئَتْ عينى سوى ... أختِهـــا فانْفَقَأَتْ لم أَحْفل
تحمـــل العينُ قَذَى العين كما ... تحمـــل الأمُّ أَذَى ما تَفْتلِى [1]
يا قتيـــلاً قوّض الدَّهرُ به ... سَقْفَ بيتَىَّ جميعا من عَـــلِ
هـــدمَ البيتَ الذى استحدثتُه ... وانثنى فى هـــدم بيتى الأوّلِ
ورمانى قتـــلُه من كَثَبٍ [2] ... رميـةَ المُصْمى [3] به المُسْتَأْصِلِ
يا نسائى دونكنّ اليوم قـــدْ ... خَصَّنى الدهر بِرُزْءٍ مُعضـــلِ
خصَّنى قتـــلُ كليب بلظًى ... من ورائِى ولَظًى مُسْتَقبـــلِ
ليس مَنْ يبـكى ليومين كمن ... إنمـــا يبـكى ليومٍ يَنْجَلِى
يَشْتَفِى المـــدْرِكُ بالثَّأر وفى ... دَرَكى ثأرىَ ثُـكْلُ المُثْـكل [4]
ليتـــه كان دَمِى فاحتلبوا ... بَدَلاً منـــه دما من أَكْحَلى [5]
إننى قاتـــلة مقتولة ... ولعـــل الله أن يرتاحَ لى !

---

(١) تفتلى : تربى (٢) كثب : قرب (٣) أصماه : قتله فى مكانه (٤) المثـكل : التى لازمها الحزن (٥) الأكحل : عرق فى الذراع يفصد .

ثم قال بنو تَغلِب بعضهم لبعض : لا تَعْجَلوا على إخوتكم حتى تُعْذِروا (١) بَيْنَكم و بينهم ، فانطلق رَهْطٌ من أشرافهم وذوى أَسْنانهم حتى أتوا مُرّة بن ذُهْل ، فعظَّموا ما بينهم و بينه وقالوا : اخْتَرْ منَّا خِصالاً : إما أنْ تَدْفَع إلينا جَسَّاسَ فنقتله بصاحبنا ؛ فلم يَظْلِمْ من قتل قاتلَه ، و إما أن تَدْفع إلينا هَمَّاماً ، و إما أن تُقِيدَنا من نَفْسك .

فسكت وقد حضرتْه وجوهُ بنى بكر بن وائل ، فقالوا : تكلمْ غيرَ مَخْذول ، فقال : أمّا جساس فغلامٌ حديثُ السنّ ركب رأسه ، فهرب حين خاف ، فلا عِلْمَ لى به ؛ وأما هَمّامٌ فأبو عشرة ، وأخو عشرة ، ولو دفعتُه إليكم لصيّح (٢) بنوه فى وجهى ، وقالوا : دفعت أبانا للِقتل بجريرة غَيْره ؟ وأما أنا فلا أتعجّل الموتَ ، وهل تزيدُ الخيل على أن تجولَ جَوْلةً فأكون أولَ قتيل .

ولكن هل لكم فى غير ذلك ؟ هؤلاء بَنِيَّ ، فدونَكم أحدَهم فاقتلوه به ، و إن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل ، فغضبوا وقالوا : إنا لم نأتك لتُرْذِلَ (٣) لنا بنيك ، ولا لتسومَنا اللبن ؛ فتفرقوا ووقعت الحرب .

---

(١) تعذروا : أى تعملوا على ألايكون بينكم وبينهم ما يوجب الاعتذار (٢) صيح : صاح .
(٣) لترذل لنابنيك : أى تعطينا رذال بنيك .

١٤٩ — الهِجْرِس بن كليب يثأر لأبيه *

ولدت جليلة زوج كليب غلاماً فسمته الهِجْرِس ، وربّاه خاله جسّاس ، فكان لا يعرف أباً غيره ، وزوّجه ابنته . فوقع بين الهِجْرِس و بين رجل من بنى بكر بن وائل كلامٌ ؛ فقال له البكرىّ : ما أنت بمُنْتَهٍ حتى نُلْحِقَكَ بأبيك ! فأمسك عنه ودخل على أمه كئيباً ، فسألته عما به ، فأخْبَرَها الخبر .

فلما أَوَى إلى فراشه ، ونام إلى جَنْب امرأته وضعَ أنفه بين ثديها ، فتنفّسَ تَنفُّسةً تَنَفَّطَ[1] ما بين ثديها من حرارتها ، فقامت الجارية فَزِعةً ،قد أَقَلّتها رِعْدةٌ حتى دخلت على أبيها ، فقصت عليه قصَّةَ الهجْرِس ، فقال جسّاس : ثائرٌ وربِّ الكَعْبَة !

وبات جسّاسٌ على مثل الرَّضْف[2] حتى أصبح ، فأرسل إلى الهِجْرِس فأتاه فقال له : إنما أنت ولدى ومنّى بالمكان الذى قد علمتَ ، وقد زّوجتُك ابنتى ، وأنت معى ، وقد كانت الحربُ فى أبيك زماناً طويلا حتى كدنا نتناق ، وقد اصطلحنا وتحاجزْنا ، وقد رأيتُ أن تدخلَ فيما دخل الناس فيه من الصلح ، وأن تنطلق حتى نأخذَ عليك مثل ما أُخِذَ علينا وعلى قومنا .

فقال الهِجْرِس : أنا فاعل ؛ ولكنّ مثلى لا يأتى قومه إلا بلَأْمته وفرسه ، فحمله جسّاس على فرسه وأعطاه لَأْمَةً[3] ودِرْعاً ، فخرجا حتى أتَيَا جماعةً من

---

* الأغانى ٥ ـ ٦١

(1) تنفط : قرح

(2) الرضف : الحجارة التى حميت بالشمس أو النار يسخن بها اللبن ، واحدتها رضفة

(3) اللأمة : السلاح .

قومهما . فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من العافية ، ثم قال : وهذا الفتى ابن أختى قد جاء ليدخلَ فيما دخلتم فيه و يَعْقِدَ ما عقدتم . فلما قَرّبوا[١] الدمَ ، وقاموا إلى العَقْد أخذ الهجْرسُ بوسَط رُمحه ، ثم قال : وفرَسى وأُذُنَيْه ، ورمحى ونَصْلَيْه ، وسيفى وغَرّيْه[٢] ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه ، ثم طعن جسّاساً فقتله ، ولَحَق بقومه ، فكان آخر قتيل فى بكر بن وائل .

(١) كان من عادة العرب أن يحضروا فى جفنة طيباً أو دماً أو رماداً فيدخلوا فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم باشتراكهم فى شىء واحد . (٢) غر السيف : حده ، وكذلك غراره .

١٥٠ — قرِّبا مربط النعامة منى *

لمـا قتَلَ جساسُ البكرىّ كليباً التغلبىّ ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل – وهى حَرْبُ البسوس – اعتزلهما الحارث بن عُبَاد [١] وقال : هذا أمر لا ناقة لى فيه ولا جمل ؛ فقال سعد بن مالك معرِّضاً به :

يابُؤْسَ للحربِ التى وَضَعَتْ [٢] أراهطَ فاستراحوا
والحربُ لايبـقى لجا حِمِها [٣] التَّخَيُّلُ والمِرَاحُ
إلا الفتى الصَّبَّار فى النَّجَدَات والفرسُ الوقاحُ [٤]
بِئْسَ الخلائفُ بعدَنَا أولادُ يَشْكُرَ واللِّقَاحُ [٥]
مَنْ صدَّ عن نيرانهـا فأنا ابن قَيْسٍ لا بَرَاحُ [٦]
الموتُ غايتُنا فـلا قصْرٌ [٧] ولا عنه جِمَاحُ [٨]
وكأنمـا وِرْدُ المنيَّـة عنـدنا ماءٌ ورَاحُ

---

* الأمثال : ١ – ٣٤١ العقد : ٣ – ٣٤٨ ، خزانة الأدب : ١ – ٤٢٣ ، الكامل لابن الأثير : ١ – ٣٢٣

(١) الحارث بن عباد : من بكر ، حكيم جاهلى ، كان شجاعاً من السادات ، شاعراً ، وانتهت إليه إمرة بنى ضبيعة وهو شاب مات نحو سنة ٥٠ ق . هـ (٢) وضعت : حطت وأسقطت ، وأراهط : جمع أرهط الذى هو جمع رهط ، والرهط : عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة (٣) جاحمها : مثيرها وموقدها ، والتخيل : التكبر من الخيلاء ، والمراح : النشاط والبطر ، أى أن الحرب تكف حدة البطر النشيط ، وهو تعريض بالحارث (٤) الصبار : مبالغة صابر ، والنجدة : الشدة ، والوقاح : الفرس الذى حافره صلب شديد (٥) أى إذا ذهبنا وبقيت يشكر وحنيفة فبئس الخلائف هم منا ، لايحمون حريماً ، ولا يأبون ضيما ، وكانت بنوحنيفة تلقب : اللقاح لأنهم لم يدينوا لملك ، وهو يذم الحيين لقعودهما عن بكر فى حروبهم (٦) لا براح : لاريب . (٧) القصر : الحبس (٨) الجماح : الهروب .

ولـكن الحارثَ لم يحفل بذلك ، وتنحَّى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه ، ولم يزَل مُعْتزَلاً ، حتى إذا كان فى آخر وقائعهم خرج ابنُ أخيه بُجَيْر[1] بن عمرو ابن عُبَاد فى إثر إبلٍ له نَدَّتْ يَطْلُبُها ، فعرض له مُهَلْهِل فى جماعة يطالبون غِرَّةَ بكر بن وائل . فقال لمهلهل امرؤ القيس بنُ أبان — وكان من أشراف بنى تغلب ، وكان على مُقَدِّمَتهم زمانًا طويلا : لا تفعل ؛ فو الله لئن قتلته ليُقْتَلَن به منكم كَبْشٌ لا يُسْأَلُ عن خاله : من هو ! وإياك أن تحقِرِ البغْىَ ؛ فإنّ عاقبته وخيمة ، وقد اعتزلنا عمُّهُ وأبوه وأهلُ بيته وقومه . فأبى مهلْهل إلا قَتْلَه ، فطعنه بالرمح فقتله وقال : « بُؤْ بِشِسْعِ نعْل كليب[2] » .

فبلغ فعلُ مهلهل عمَّ بُجَير — وكان من أحلم أهل زمانه ، وأشدّهم بأسًا — فقال الحارث : نعم القتيل قتيل أصلحَ بين ابنى وائل ! فقيل له : إنما قتله بِشِسْع نعل كليب ، فلم يقبلْ ذلك ، وأرسل إلى مهلهل : إن كنتَ قتلت بجيرًا بكُلَيب ، وانقطعت الحربُ بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه مهلهل : إنما قتلته بِشِسْع نعل كليب ! فغضب الحارث ، ودعا بفرسه — وكانت تسمى النعامة — فجزَّ ناصيتها . وهَلَب[3] ذَنبَهَا ، وقال :

قرِّبا مِرْبط[4] النعامـة منى لقِحتْ[5] حربُ وائل عن حِيَالِ

---

(١) قيل هو ابن الحارث (٢) يقال : أبأت فلاناً بفلان فباء به : إذا قتلته به ، ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثانى كفء له ، والشسع : السير الذى يدخل بين الإصبعين (٣) هلب الذنب : نتف شعره ، ويقولون : إن الحارث هو أول من فعل ذلك (٤) المربط : ما ربطت به الدابة ، والنعامة : اسم فرس كانت للحارث بن عباد (٥) لقحت : حملت ، وعن بمعنى بعد ، والحيال : أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل ، وهذا مثل ضربه ، وإنما يعظم أمر الحرب لما تولد عنها من الأمور التى لم تكن تحتسب ، والمراد أن حرب وائل هاجت بعد سكون .

لا بجيرٌ أغنى قتيلا ولا رهـــطُ كليب تزاجَرُوا عن ضَلال

لم أكن من جُناتها علم اللّـــهُ وإنى بحرّها اليومَ صالِي

قرِّبا مِربَط النعامـــة منّى إنَّ قَتْلَ الغُلاَمِ بالشِّسْع غالى

ثم ارتحلَ الحارثُ مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل ، وعليهم يومئذ الحارثُ بن همام بن مرّة ، فقال الحارث بن عُباد له : إنّ القوم مستقلون قومك ، وذلك زادهم جراءة عليكم ، فقاتِلْهم بالنساء ، قال له الحارث بن همام : وكيف قتالُ النساء ! قال : قلِّد كل امرأة إدَاوةً من ماء ؛ وأعْطِها هِراوة ؛ واجعل جمعهنّ من ورائكم ؛ فإنّ ذلك يزيدكم اجتهاداً ؛ وعلِّموا أنفسكم بعلامات يَعْرِفْنها ؛ فإذا مرّت امرأة على صريع منكم عرفَتْه بعلامته ، فسقته من الماء ونَعَشَتْهُ ، وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهِرَاوة فقتلته ، وأتتْ عليه .

فأطاعوه ، وحلقت بنو بكر يومئذ رءوسها استِبْسَالا للموت ، وجعلوا ذلك علامةً بينهم وبين نسائهم ، واقتتل الفُرسان قتالا شديداً ، وانهزمت بنو تغلب ، ولحقت بالظُّعُن بقيةيومها وليلتها ، وأتْبَعهم سَرَعان [1] بكر بن وائل ، وتخلف الحارث بن عباد ، فقال لسعد بن مالك : أترانى ممن وَضَعَتْه [2] ؟ قال : لا ، ولكن لا مخبأ لِعِطْرٍ بعد عَرُوس [3] .

ثم إن الحارث بن عباد أسر مهلهلا ، وهو لا يعرفه ، فقال له : دُلّنى على

---

(١) سرعان الناس : أوائلهم المستبقون إلى الأمر (٢) يشير إلى قوله :

يابؤس للحرب التى وضعت أراهط فاستراحوا

(٣) يريد : إن لم تنصر قومك الآن ، فلمن تدخر نصرك ؟

المهلهل ؛ قال : ولي دَمى ؟ قال : ولك دمك ؛ قال : ولى ذمّتُك وذمةُ أبيك ؟ قال : نعم ذلك لك . قال : فأنا مهلهل . قال : دُلّنى على كُفْء لبُجير ، قال : لا أعلمه إلا امرأ القيس بن أبان ، هذاك عَلَمُه ؛ فجزّ ناصيته ، وقصد قَصْدَ امرىء القيس فشدّ عليه فقتله ، وقال الحارث فى ذلك :

لَهْفَ نفسى على عَدِىّ ولم أعْ — رفْ عديًّا إذْ أمكنتْنى اليدان
طُلَّ(١) من طُلَّ فى الحروب ولم أو — تِرْ بُجَيْراً أبَأْته(٢) ابنَ أبان
فارسٌ يضرب الكتيبة بالسّيـ — فِ وتسمو أمامَه العينان

(١) طل دمه : ذهب هدراً (٢) أباء القتيل بالقتيل : قتله به .

١٥١ — ضَيّعني صغيراً ، وحمّلني دمه كبيراً !*

كان حُجْر فى بنى أَسَد ، وكانت له عليهم إتاوة فى كل سنة مؤقّتة ، فَغَبَر [(١)] ذلك دهراً ، ثم بعث إليهم جابِيَه الذى كان يَجْبيهم ، فمنعوه ذلك ـ وحُجْرٌ يومئذ بتِهامة ـ وضربوا رسله ، وضَرَجُوهم [(٢)] ضَرْجاً شديداً قبيحاً .

فبلغ ذلك حُجْراً فسار إليهم بجنـد من ربيعة وقيس وكنانة ، فأتاهم وأخذ سَرَاتهم ، فجعـل يقتّلهم [(٣)] بالعَصَا ، وأباح الأموال ، وصيّرهم إلى تِهَامة ، وآلى بالله ألّا يُسَاكنوهم فى بلد أبداً ، وحبس منهم عمرو بن مسعود الأسدىّ ، وكان سيّداً وعبيد بن الأبرص الشاعر ، فسارت بنو أسد ثلاثاً .

ثم إن عبيد بن الأبرص قام فقال : أيّها الملك ؛ اسمع مقالتى :

يا عَيْنُ فابْـكِى ما بنى ... أسدٍ فهم أهلُ النَّدَامهْ

أهل القِبابِ الحمر والنَّـ ... ـعَمِ المؤبَّل [(٤)] والمُدَامُهْ

وذوى الجيادِ الجُرْدِ والْـ ... أَسَلِ المُثَقّفَةِ المُقَـامَه

حِلًّا [(٥)] أبيت اللعن حِلَّا ... إن فيما قلتَ آمَـهْ [(٦)]

فى كلِّ وادٍ بين يثْـ ... ـرِب فالقصور إلى اليمَامَهْ

تَطْريبُ عانٍ أو صيا ... حُ مُحَرَّقٍ أو صوتُ هامَهْ

---

* الأغانى : ٩ ـ ٨٧

(١) غبر : لبث وبقى (٢) ضرجه : أدماه (٣) سموا لذلك عبيد العصا (٤) المؤبل المقتنى (٥) حلا : أى تحلل من يمينك (٦) الآمة : العيب .

ومنعتَهم نجداً فقــد   حَلُّوا على وجَلٍ تِهامَه

بَرِمَتْ بنو أسدٍ كما   بَرِمَتْ ببيضتها الحمامَهْ

جعلَتْ لها عُودين مِنْ   نَشَمٍ وآخر من ثُمَامَهْ(١)

إما تركت تركت عَفْ   وًا أو قتلتَ فلا مَلَامَهْ

أنت المليكُ عليهمُ   وهم العبيدُ إلى القيامَهْ

ذَلّوا لسَوْطِكَ مثلَ ما   ذلّ الأشَيْقِرُ(٢) ذوالخِزامَهْ

فرقّ لهم حُجْرٌ حين سمع قوله ؛ فبعث فى أثَرهم فأقبلوا ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهِنُهم(٣) فقال لبنى أسد : مَنِ الملك الأَصْهب ، الغلّاب غير المُغَلّب ، فى الإبل كأنها الرّبْرَب(٤) ، لا يعلَق رأسه الصّخَب ! هذا دمُه ينثعب(٥) ، وهذا غداً أول من يُسْلب .

قالوا : مَنْ هو ؟ قال : لولا أن تجيشَ نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجْرٌ ضاحية .

فركبوا كل صَعب وذَلول ، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبّته ، وهزموا أصحابه وأسروه فحبسوه ، وتشاور القوم فى قتله ؛ فقال لهم كاهنٌ من كهنتهم بعد أن حَسوه ليرَوا رأيهم فيه : أى قوم ! لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أزجُر لكم .

فانصرف عن القوم لينظرَ لهم فى قتله ؛ فلما رأى ذلك عِلْباء بن الحارث

---

(١) النشم : شجر جبلى تتخذ منه القسى ، والثمامة : نبت بالبادية (٢) الأشيقر : تصغير الأشقر : الأحمر من الدواب ، والخزامة : حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير يشد بها الزمام (٣) هو عوف بن ربيعة (٤) الربرب : القطيع من بقر الوحش (٥) ينثعب : يجرى .

الكاهليّ خشى أن يتوَاكلوا فى قتله ، فدعا غلاماً من بنى كاهِل ـ وكان ابن أخته [(١)] ـ فقال : يا بنىّ ؛ أعندك خير فتثأر بأبيك ، وتنال شرف الدهر ، وإن قومك لن يقتلوك !

فلم يزل بالغلام حتى حرّبه [(٢)] ، ودفع إليه حديدة قد شحَذها ، وقال : ادخُلْ عليه مع قومك ، ثم اطعنْه فى مَقْتَله .

فعمَد الغلامُ إلى الحديدة فخبأها ، ثم دخل على حُجْر فى قبّته التى حُبِس فيها.

فلما رأى الغلام غَفْلةً وثب عليه فقتله ، فوثب القوم على الغلام فقالت بنو كاهل : ثأرنا وفى أيدينا !

فقال الغلام : إنما ثأرتُ بأبى ، فخلّوْا عنه .

وأقبل كاهِنُهم المزدَجِر فقال : أى قوم ! قتلتموه ! مُلْك شَهْر ، وذُلّ دهر ، أما والله لا تحظَوْن عند الملوك بعده أبدا .

ولما طعن الغلام حُجْراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له : انطلق إلى ابنى نافع ـ وكان أكبر ولده ـ فإن بكى وجَزِع فالْهُ عنه ، واستقْرِهم واحداً واحداً ، حتى تأتى امرأ القيس [(٣)] ـ وكان أصغرَهم ـ فأيُّهم لم يجزَع،فادفع إليه سلاحى وخَيْلى وقُدُورى ووصيّتى ، وبيّن فى وصيته مَنْ قتله ، وكيف كان خبرُه .

فانطلق الرجلُ بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، ثم

---

(١) كان حجر قد قتل أبا زوج أخت علباء ، وقيل بل كان حجر قتل أبا علباء نفسه .
(٢) حربه : حرشه (٣) أشهر شعراء العرب ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان ، وقال الشعر وهو غلام ، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب ، ومات سنة ٨٠ ق . هـ .

استقرأهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشربُ الخمرَ ويُلاعبه بالنَّرْد ؛ فقال له : قُتِل حُجْر ؛ فلم يلتفِتْ إلى قوله ، وأمْسَك نديمُه . فقال له امرؤ القيس : اضربْ فضرب ، حتى إذا فرغ قال : ما كنتُ لأفسد عليك دَسْتك .

ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : الخمرُ عليّ والنساء حرام ، حتى أقتلَ من بنى أسدٍ مائةً وأجُزّ [١] نواصى مائة .

وكان امرؤ القيس قد طرَده أبوه حُجْر ، وآلى ألّا يقيمَ معه أنفَةً من قوله الشِّعْرَ — وكانت الملوك تأنف من ذلك — فكان يسير فى أحْيـاء العرب ومعه أخْلَاطٌ من شُذَّاذ [٢] العرب ، من طيّئ وكلْب وبكر بن وائل ؛ فإذا صادفَ غَديراً أو رَوْضة أو موضعَ صَيْدٍ أقام فذبح لمن معه فى كلّ يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيّد فأكل وأكلوا معه ، وشربَ الخمر وسقاهم وغنّتْه قِيانُه .

ولا يزال كذلك حتى يَنْفَد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره . فأتاه خبرُ أبيه ومَقْتَله وهو بدَمُّون من أرض اليمن ، فقال :

تطاوَل الليلُ على دَمُّونْ   دمُّونُ إنا معشرٌ يمَانُونْ

٭ وإنّنا لأهلنا مُحِبُّونْ ٭

ثم قال : ضيّعنى صغيراً ، وحمّلنى دمَه كبيراً . لا صَحْوَ اليوم، ولا سُكْرَ غداً، اليوم خمر ، وغداً [٣] أمر . ثم قال :

خليليّ لا فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ   ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْربُ

---

(١) يريد حتى أقتل منهم مائة وآسر مائة

(٢) شذاذ العرب : الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم

(٣) ذهبت مثلا .

ثم شرب سَبْعاً ، فلما صَحَا آلى ألاَّ يأكلَ لحماً ، ولا يشربَ خمراً ، ولا يَدَّهِن بدُهن ، ولا يصيبَ امرأةً حتى يُدْرِكَ بثأره ؛ فلما جنه الليل رأى بَرْقاً ، فقال :

أرِقتُ لبرقٍ بليلٍ أَهَلْ يضيء سناهُ بأعلى الجَبلْ
أتانى حديثٌ فكذّبتُهُ بأمر تَزَعْزَعُ[1] منه القُلَلْ
بقتل بنى أسدٍ ربَّهُم ألا كلُّ شىء سِواه جَلَلْ[2]
فأين رَبيعةُ عن ربها وأين تميمٌ وأين الخَوَلْ[3]
ألا يَحْضُرون لدى بابه كما يحضرون إذا ما أَكَلْ

وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بَكْراً وتغلب ، فسألهم النصر ، وبعث العيون على بنى أسد ، فلما كان الليل قال لهم عِلْباء : يامعشرَ بنى أسد ، تعلمون والله أن عيون امرىء القيس قد أتتكم ، ورجعتْ إليه بخبركم ، فارْحَلُوا بليل ولا تُعلموا بنى كنانة . ففعلوا .

وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتَغلِب، حتى انتهى إلى بنى كِنَانة ، وهو يحسَبُهُم بنى أسد ، فوضع السِّلَاح فيهم ، وقال : يالثارات الملِك ! يالثارات الهُمَام ! فخرجت إليه عجوزٌ من بنى كنانة فقالت : أبيتَ اللَّعْنَ ! لسنا لك بثأْر ، نحن من كنانة ، فدونك ثأرَكَ فاطلبْهم ، فإن القوم ساروا بالأمس .

فتبِع بنى أسد ، ففاتوه ليلتهم تلك، فقال :

---

(١) أصله : تتزعزع (٢) جلل : هين (٣) الخول : جمع خولى : وهو الراعى الحسن القيام على المال

أَلَا يالَهفَ هِندٍ إثْرَ قَوْمٍ هُمُ كانوا الشفاءَ فلم يُصَابُوا
وقاهم جــــدُّهمْ ببنى أبيهم وبالأشقَيْن[1] ما كان العِقَابُ
وَأَفلتهُنَّ عِلبَاءٌ جَرِيضاً[2] ولوْ أدرَكْنهُ صَفِرَ الوِطابُ[3]

وأدركهم ظُهْراً ، وقد تقطعتْ خيلُه ، وقطع أعناقهم العطشُ ، وبنو أسدٍ جامّون[4] على المـاء ، فنهد إليهم فقاتَلَهُم ، حتى كثُرَت الجرحى والقتلى فيهم ، وحجزَ الليلُ بينهم ، وهربت بنو أسد .

فلما أصبحت بكر وتغلب أبَوْا أن يتبعوهم ، وقالوا له : قد أصبتَ ثأركَ . قال : والله ما فعلتُ ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أحداً . قالوا : بلى ، ولـكنك رجلٌ مشئوم ، وكرِهُوا قتالهم ، وانصرفوا عنه ، فَمضى هارباً لوجهه حتى لحق بحِمْيَر .

فاستأجر من قبائل العرب رجالا ، فسار بهم إلى بنى أسد ، ومرّ بِتَبَالَةَ[5] ، وبها صنم للعرب تُعظِّمه ، فاسْتَقسمَ[6] عنده بِقِدَاحه ، وهى ثلاثة : الآمر ، والناهى والمتربِّص . فأجالها فخرج الناهى ، ثم أجالها فخرج الناهى ، فجمعها فـكسرها وضرب بها وَجْه الصنم ، وقال : لو أبوكَ قُتل ما عُقْتَنِي ، ثم خرج فظفر ببنى أسد .

وألحّ المنذر[7] فى طلب امرئِ القيس ، ووجَّه الجيوشَ فى طلبــه من إياد

---

(١) الجد : الحظ ، والأشقين : جمع أشقى ، ويقصد بهم بنى كنانة (٢) أى بعد جهد ومشقة والضمير فى «أفلتهن» و «أدركنه» للخيل التى كروا بها عليهم (٣) صفر الوطاب ، أى لو أدركوه قتلوه وساقوا إبله فصفرت وطابه من اللبن (٤) أى مجتمعون مستريحون (٥) موضع بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة (٦) الاستقسام : طلب معرفة ما قسم للمرء مما لم يقسم
(٧) كانت فى نفس المنذر موجدة على آل امرئ القيس ؛ لأن الحارث جد أمرئ القيس زاحم المناذرة ملوك الحيرة عند كسرى فى النيابة عنه على ملك الحيرة ، وقت أن شجر الخلاف بين المناذرة وكسرى قباذ .

وبَهْراء وتنُوخ ، وأمدّه أنو شَرْوان بجيشٍ من الأساورة فسرّحهم فى طلبه ، فلم يكن لامرئ القيس بهم طاقةٌ ، وتفرّقتْ حمير ومَن كان معه عنه ، فنجَا فى عُصْبَةٍ من بنى آكل المُرَار ، ونزل ببعض رؤساء القبائل يستجيرُ بهم ، وصار يتحوّل عنهم إلى غيرهم ، حتى نزل برجل من بنى فَزَارة ، يقال له : عمرو بن جابر ابن مازن ، فطلب منه الجوار ، حتى يرى ذات عَيْبه[1] .

فقال له الفزَاريّ : يابنَ حُجرٍ ، إنى أَرَاكَ فى خَلَل من قومك ، وأنا أَنْفَسُ[2] بمثلك من أهل الشرف ، وقد كِدتَ بالأمس تُؤْكل فى دار طيئ ، وأهلُ البادية أهلُ وبر ، لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين أهل اليمن ذُؤْبانٌ من قيس ، أفلا أدلُّك على بلد ! فقد جئتُ قيصرَ ، وجئتُ النعمان؛ فلم أرَ لضيفٍ نازل ولا لمجتَدٍ[3] مثلَه ولا مثلَ صاحبه .

قال : من هو وأين منزله ؟ قال : السموءل بتَيْماء ، هو يمنع ضَعفك حتى ترى ذات عيبك ، وهو فى حصن حَصِين وحسبٍ كبير .

فقال له امرؤ القيس : وكيف لى به ؟ قال : أُوَصِّلُكَ إلى من يوصلك إليه .

فصحِبَه إلى رَجُل من بنى فَزَارَة يقال له : الرّبيع بن ضَبُع الفزاريّ ، ممن يأتى السموءل فيَحْمِلُه ويعطيه .

فلما صار إليه قال له الفزَاريّ : إن السموءل يُعْجِبهُ الشعر ، فتعالَ نتناشد له أشعاراً ؛ فقال امرؤ القيس : قل حتى أقول . فقال الربيع :

---

(١) أى ينظر فى أمره ، ويصلح من شأنه (٢) أنفس بك : أضن بك (٣) طالب عطاء .

قل للمنيـــة أىّ حينٍ نلتَقى … بفناء بَيْتِك فى الحضيض المَزلقِ (١)
ولقد أتيتُ بنى المصَاضِ مفاخِراً … وإلى السموءل زُرْته بالأبْلَقِ (٢)
فأتيتُ أفضلَ مَنْ تحمل حاجةً … إن جئتَه فى غارِمٍ أو مُرْهَق
عرفتْ له الأقوامُ كلَّ فضيـــلة … وحوى المكارم سابقاً لم يُسْبق

فقال امرؤ القيس :

طرقَتْكَ هندٌ بعـد طول تجنُّبٍ … وَهْناً ولم تكُ قبل ذلك تَطْرُق (٣)

ثم مضى القومُ حتى قدموا على السموءل ، فأنشده الشعر ، وعرف لهم حقهم ، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبى شمر الغسّانى ليوصّله إلى قيصر .

ومضى حتى انتهى إلى قيصر ، فقَبِلَهُ وأكرمه ، وكانت له عنده منزلة .

ثم إنّ قيصر ضمّ إليه جيشاً كثيفاً ، فيه جماعةٌ من أبناء الملوك ، فلما فَصَل (٤) قال لقيصر قومٌ من أصحابه : إن العرب قومُ غَدْر ، ولا تأمنُ أن يظفرَ بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثتَ معه .

فبعث إليه حينئذ بحُلّة وشيٍ مسمومةٍ منسوجة بالذهب ، وقال له : إنى أرسلتُ إليك بحُلّتى التى كنت ألبَسُها تكرِمةً لك ؛ فإذا وصلت إليك فالْبَسْها باليُمْن والبركة ، واكتب إلىّ بخبرك من منزلٍ منزل .

فلما وصلتْ إليه لبِسَها ، واشتدّ سروره بها ؛ فأسرع فيه السُّمّ وسقط جلدُه فقال :

---

(١) المزلق : الموضع الذى لا تثبت عليه قدم (٢) الأبلق : حصن السموءل (٣) يقول صاحب الأغانى : أظن أن هذه القصيدة منحولة (٤) فصل : رحل .

لقد طمَحَ الطمّاحُ من بُعْدِ أرضه ... لِيُلْبِسَنِي ممـــــا يلبّسُ أبْؤُسَا
فلو أنها نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ... ولـكنها نفسٌ تساقَط أنْفُسَا

فلما صار إلى بلدةٍ من بلاد الروم تدعى أنْقِرَة احتُضِرَ بها فقال :

ربّ جَفْنةٍ مُثْعَنْجِرَهْ[1] ... وطَعْنةٍ مُسْحَنْفِرَهْ[2]
تبقى غَداً بأنْقِرَهْ

ورأى قَبْرَ امرأةٍ من أبناء الملوك ماتت هناك ، فدُفِنَتْ فى سفح جبلٍ يقال له : عَسِيب ، فسأل عنها ، فأُخْبِرَ بقصتها ، فقال :

أجارتَنَا إنّ المَزارَ قريبُ ... وإنى مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ
أجارَتنا إنّا غريبان ها هنا ... وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

ثم مات فدُفن هناك .

---

(١) المثعنجرة من الجفان : التى يفيض ودكها (٢) مسحنفرة : متسعة .

١٥٢ — ما كان لولا غِرَّةُ الليل يُغْلَب *

ورد شأس بن زهير من عند النعمان بن المنذر ، وقد حَباه أفضل الحُبْوَة : مِسْكا وكُساً وقُطُفاً [(١)] وطَنَافس ؛ فأناخ ناقته فى يوم شَمالٍ [(٢)] وقُرٍّ [(٣)] على رَدْهَة [(٤)] فى جبل رياح بن الأَسَك الغَنَوى ، وليس على الرَّدْهة غيرُ بيته بالجبل ، فألقى ثيابه بفنائه ، ثم قعد يُهَرِيق [(٥)] عليه الماء ، وامرأةُ رياح قريبةٌ منه ، وإذا هو مثلُ الثور الأبيض ، فقال رياح لامرأته : أعْطينى قوْسى ، فمدَّت إليه قوسَه وسَهْماً ، وانتزعت المرأة نَصْلَه لئلا يقتله ، فأهوى عجلانَ إليه ، ووضع السهم فى مُسْتَدَقّ الصلب ، بين فَقَارتين [(٦)] ففصلهما ، وخرَّ سَاقِطاً ، وحفر له حفراً ، فهدمه عليه ، ونحر جمله وأكله ، وأدخل متاعه فى بيته .

وفُقِد شأس ، وقُصَّ أثره ونُشِد؛وركبوا إلى الملك ، فسألوه عن حاله ، فقال لهم: حَبَوْته وسرَّحته . فقالوا : وما مَتَّعتَ [(٧)] به ؟ قال : مسك ونُطُوع وقُطُف ، فأقبلوا يقصّون أثره ، فلم تتّضح لهم سبيلُه ، فمكثوا كذلك ما شاء الله ، حتى انقطع ذكره .

---

* الأغانى : ٨ — ١٠ ، ابن الأثير : ١ — ٣٣٧ ، مهذب الأغانى : ٢ — ٨

(١) القطيفة : دثار مخمل ، جمعه قطف (بضمتين) (٢) الشمال : الريح التى تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش ، ويكون اسما وصفة (٣) القر : البرد (٤) الردهة : النقرة يجتمع فيها ماء السماء (٥) هراق الماء : أراقه (٦) الفقرة والفقارة : ما انتضد من عظام الصلب (٧) متع الرجل : جاد .

قال الراوى : ثم إن النـاسَ أصابتهم جائحةٌ وجُوع ، فنحر زُهير[1] بن جذيمة ـ أبو شأس ـ ناقته ، فأعطى امرأةً من شحمها وسَنامها ، وقال : اشترى لى المدب والطِّيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رياح ، فقالت : إن معى شحماً أبيعهُ فى المدب والطِّيب ، فاشترت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيراً بذلك ، فعرف المدب ، وذهب إلى غنىّ ، فقالوا : نعم ، قتله رياح بن الأسكّ ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطمّاح .

ولما تبيَّن لزُهير أن رياحاً ثأرُه قال يرثى شاساً :

بكيتُ لِشأسٍ حين خُبِّرْتُ أنه ... بماء غنىٍّ آخِرَ الليـــل يُسلَب

لقـــد كان مَأْتَاه الرَّدَاةَ[2] لحتْفِهِ ... وما كان لولا غِرَّةُ الليـــلَ يُغلَبُ

قتيـــل غنىٍّ ليس شـكلٌ كشكلِهِ ... كذاك لعمرى الحَيْنُ[3] للمرء يُجْلبُ

سأبكى عليـــه إن بـكيت بعبْرةٍ ... وحقٌ لِشاسٍ عَبْرَةٌ حين تسكبُ

وحزنٌ عليـــه ماحييتُ وعَوْلة ... على مثـــل ضوءِ البدر أو هو أعجبُ

إذا سِيمَ ضيماً كان للضَّيْمِ مُنْكِراً ... وكان لدَى الهيجاءِ[4] يُخشى ويُرْهَبُ

وإنْ صوّت الداعى إلى الخـــير مرةً ... أجاب لما يدعُو له حين يـكْرَبُ

ففرَّج عنـــه ثم كان وليَّـــه ... فقلبى عليـــه لو بدا القلب مُلْهَبُ

ثم انصرف إلى قومِهِ من بنى عَبْس ، فـكان لا يقدر على غَنَوِىٍّ إلّا قتله .

---

(١) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب المعدودين فى الجاهلية ، قتله خالد بن جعفر العامرى نحو سنة ٥٠ ق . هـ (٢) الرداة : الصخرة (٣) الحين : الهلاك (٤) الهيجاء : الحرب .

وتجهَّز بنو عَبْس لغزْو غَنيّ قبل أن يطلبوا قَوَداً أو دِيَةً ،وتولّى رياستهم الحصينُ ابن زهير ، أخو شأس ، والحصينُ بن أسيد بن جذيمة ، ابن أخى زهير ، فقيل ذلك لغَنىّ ، فقالت لرياح : انجُ لعلّنا نُصالح على شىء أو نرضيهم بِدَيةٍ وفداء .

فخرج رياحٌ رديفاً (١) لرجل من بنى كلاب ، فبينما هُمَا سائران إذا هما بالقوم أدْنَى ظلام (٢) ، وقد كانا يظنان أنهما خَالَفاَ وِجْهـة القوم ، قال صاحب رياح : اذهب فإنى آتِى القوم أشاغلهم عنك ، وأحدّثهم حتى تُعْجزهم ، ثم أنا ماضٍ إنْ تركونى . فانْحَدر رياح عن عَجُز الجمل فأخذ أدْراجه ، وعدا إثْرَ الراحلة حتى أتى ضَفّة ، فاحتَفَر تحتها مثل مكان الأرنب ، فوَلَج فيه ، ثم أخذ نعليه ، فجعل إحداها على سرّته ، والأخرى على صَفَنِه (٣) ، ثم شدَّ عليهما العمامة ، ومضى صاحبه حتى لقى القوم ، فسألوه ، فحدّثهم ، وقال : هـذه غنىٌّ كاملة ، وقد دنوتُ منهم ، فصدّقوه وخلّوا سِرْبَه (٤) .

فلما ولى رأوا مركَب الرَّجل خلفه ، فقالوا : من هذا الذى كان خَلْفك ؟ قال : لا مكْذُبة ! ذلك رياح فى الأُوَل من السَّمُرات ، فقال الحُصَيْنَان لمن معهما : قِفُوا علينا حتى نَعْلَمَ علمه ، فقد أمكننا الله من ثأرنا ولم يريدا أن يشركهما فيه أحـد ، فمضيا ووقف القوم عنهما ، فلما رآهما رياح رمى الأول منهما فبترَ صلْبَه ، وطعنه الآخر قبـل أن يرميَه ، وأراد السُّرة فأصاب الرَّبْـلة(٥) ، ومرَّ الفرس يهوى به ، فاستدبره رياح بسهم رشق به صلبه فانفقر منحنى الأوصال ، ونَدَّت فرساهما فلحقتا بالقوم ، وانطلق رياح حتى ورد رَدْهة ، عليها بيت أنمار بن بغيض ، وفيه امرأة ، ولها ابنان

---

(١) الرديف : الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة (٢) أدنى ظلام : أدنى شىء (٣) الصفن : وعاء الخصية (٤) خلوا سربه : أى طريقه (٥) الربلة : أصل الفخذ .

قريبان منها ، وجملٌ لها راتعٌ فى الجبل،وقد مات رِياح عطشاً ، فلما رأته يستَدْمِي (١) طمِعَتْ فيه ، ورجتْ أن يأتيها ابناها ، فقالت له : استَأْسِر ، فقال لها : دعيني ـ وَيحَكِ ـ أشرب ! فأبتَ ، فأخذ حديدة فجَذَم بها رَوَاهِشها (٢) ، وعَبّ فى الماء حتى نهل ، ثم قال فيها وفى الحُصَيْنَيْن :

قالت لِيَ استأْسِرْ لتَكْنُفَنِي (٣) حيناً ويعلوَ قولُها قولى
ولأنت أَجْرَأُ من أُسامة أو مِنّى غَداةَ وقفتُ للخيل
إذ الحصين لدى الحصين كما عَدَل الرِّجازَةُ (٤) جانبَ المَيْلِ

---

(١) استدمى الرجل : طأطأ رأسه يقطر منه الدم (٢) جذم : قطع . الرواهش : عروق ظاهر الكف (٣) كنفه : أحاط به وآواه (٤) الرجازة : شيء يكون مع المرأة فى هودجها فإذا مال أحد الجانبين وضعته فى الناحية الأخرى ليعتدل .

١٥٣ — لَأَقتلنّه ولو كان فى حِجْر النعمان *

لما قتل خالدُ بن جعفر بن كلاب زهيرَ بن جذيمة العبسى ضاقت به الأرضُ ، وعلم أن غطفانَ غيرُ تاركيه ؛ فخرج حتى أتى النعمانَ فاستجار به فأجاره ، ومعه أخوه عُتْبَةُ بنُ جعفر .

ونهض قيس بن زهير فتهيَّأَ لمحاربة بنى عامر ، وهجَم الشتاء ؛ فقال الحارثُ ابن ظالم : ياقيسُ ؛ أنتم أعلم وحربكم ، وأنا راحلٌ إلى خالد حتى أقتلَه ، قال قيس : قد أجاره النعمان ، قال الحارث : لَأَقْتُلَنَّهُ ولو كان فى حِجْره !

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قُبَّةً ، وأمرهما بحضور طَعَامِه ومُدَامِه [1] .

فأقْبَلَ الحارثُ ومعه تابعٌ له من بنى محارب فأتى بابَ النعمان ، فاستأذَن فأذِن له النعمان وفرح به . فدخل الحارث ، وكان من أحسن الناس وَجْهاً وحديثاً ، وأعلم الناس بأيام العرب ؛ فأقبَل النعمانُ عليه بوجهه يحدِّثُه ، وبين أيديهم تَمْرٌ يأكلونه .

فلما رأى خالدٌ إقبالَ النعمانِ على الحارث غاظه ذلك ، فقال : يا أبا ليلى ؛ ألا تشكُرنى ! قال : عَلَامَ ؟ قال : قتلتُ زهيراً فَصِرْتَ بعده سيِّدَ غطفان ـ وفى يد الحارث تمراتٌ ؛ فاضْطَرَبت يده ، وجعل يُرْعِد ويقول : أنت قتلتَه !! والتمرُ يسقط من يده .

---

* الأمثال : ٢ ـ ٢٣٤ ، عيون الأخبار : ١ ـ ١٨٣

(١) المدام : الخمر .

ونظر النعمان إلى مابه من الزَّمَع[١] ، فنَخَس خالداً بعصاه ،وقال : هذا يقتلك! فقال : أبيْتَ اللعن ! فوالله لو كنت نائماً ما أيقظنى ! وافترق القوم ، وبقى الحارثُ عند النعمان ، وأشْرَج[٢] خالدٌ قُبّتَه عليه وعلى أخيه ونَاماَ .

وانصرف الحارثُ إلى رَحْلِه ، فلمَّا هدأتِ العيون خرج بسيفه حتى أتى قُبّة خالد فهَتَكَ شَرَجَها[٣] بسيفه ، فدخل فرأى خالداً نائماً وأخوه إلى جنبه ، فأيقظ خالداً فاستوى قائماً ، فقال له الحارث : يا خالد ؛ أظننتَ أن دم زهير كان سائغاً لك ! وعَلَاه بسيفه حتى قتله . وانْتَبَه عُتْبَة ، فقال له الحارث : لئن نَبَسْتَ[٤] لأُلحِقنَّكَ به !

وانصرفَ الحارثُ ، وركب فرسَه ومضى على وجهه ، وخرج عُتْبَةُ صارخاً حتى أتى باب النعمان ، فنادى : ياسوء جوَاراه ! فأُجيب : لارَوْع عليك ! فقال : دخل الحارثُ على خالد فقتله ، وأَخْفَرَ[٥] الملِكَ .

فوجّه النعمانُ فوارسَ فى طلبه فلحقوهِ سَحَراً ، فعَطَف[٦] عليهم ، فقتلَ جماعةً منهم وكَثُرُوا عليه ، فجعل لا يقصد لجماعة إلا فرّقَها ، ولا لفارس إلّا قَتَلَه .

فارتدع القوم عنه ، وانصرفوا إلى النعمان .

فقال عَمْرو بن الإطنابة :

عَلِّلَانى وعَلِّــلَا صاحبيَّا ۔۔۔ واسْقِيَانِى من المُرَوَّق رِيّا
إنَّ فينا القِيَانَ يَعزِفْنَ بالضَّرْ ۔۔۔ ب لِفِتْيَانِنَا وعَيْشاً رَضِيَّا
يتناهَيْنَ فى النعيمِ ويَضْرِبْـ ۔۔۔ نَ خِلَالَ القُرُون مِسْكاً ذَكِيّا

---

(١) الزمع : شبه الرعدة تأخذ الإنسان (٢) أشرج الخيمة : أدخل بعض عراها فى بعض بين أشراجها (٣) الشرج : عرا الخيمة (٤) نبس : أقل الكلام (٥) أخفر الملك : نقض عهده وغدره . (٦) عطف : مال .

أَبْلِغَا الحارثَ بن ظالمَ الرِّعْ[١] ـديدَ والناذِرَ النذُور عَلَيَّا :
إنما تَقْتُلُ النِّيامَ ولا تق ـتل يقظانَ ذا سلاحٍ كميًّا[٢]

وكان عَمْرو قد آلَى[٣] ألّا يدعوَه رجلٌ بليل إلا أجابه ، ولا يسأله عن اسمه . فأتاه الحارثُ ليلا فهتف به ، فخرج إليه ، فقال : ما تريد ؟ قال : أَعِنِّى على إبلٍ لبنى فلان ، وهى منك غيرُ بعيد ، فإنها غنيمة باردة !

فدعا عمرو بفرسه ، وأراد أن يركب حاسراً ، فقال له : البَسْ عليك سلاحك ، فإنى لا آمن امتناعَ القوم ، فاستلأَمَ[٤] وخرج معه ، حتى إذا بَرَزَا قال له الحارث : أنا أبو ليلى فخُذْ حِذْرَك يا عمرو ، فقال له : امْنُنْ علىَّ . فجزّ ناصِيَتَه ، وقال :

عَلَّلانى بلذّتى قَيْنَتَيَّا قبلَ أن تبكىَ العيونُ عليَّا
قبل أن تذكر العواذلُ أنى كنتُ قِدْماً لأمرهنَّ عَصِيّا
ما أبالى إذا اصطَبَحْتُ ثلاثاً أرشيداً دعوَننى أم غَوِيًّا
غيرَ ألا أُسِرَّ للهِ إثماً فى حياتى ولا أخونَ صَفِيًّا
بلغَتْنى مقالةُ المرء عمرو بلغَتْنى وكان ذاك بَدِيًّا
فخرجنا لموعدٍ فالتَقَيْنَا فوجدناه ذا سلاحٍ كَمِيًّا
غير ما نائمٍ يُرَوّع باللّيْلِ مُعِدًّا بكفّهِ مشرَفِيًّا
فرجعنا بالمنِّ مِنًّا عليه بعد ما كان منه منّا بديًّا

---

(١) الرعديد : الجبان (٢) الكمى : الشجاع (٣) آلى : حلف (٤) استلأم : لبس اللامة : الدرع .

١٥٤ — وفاء وغَدْر*

سار المنذر بنُ ماء السماء ملكُ العرب بالحيرة فى مَعَدٍّ كلِّها حتى نزل بعَيْنِ أُبَاغ، وأرسل إلى الحارث [١] بن أبى شمرٍ ملك العرب بالشام ، وقال له : إما أن تُعطيَنى الفِدْيَة فأنصرفَ عنك بجنودى ، وإما أن تَأْذَن بحَرْب .

فأرسل إليه الحارث : أَنْظِرْنا نَنْظُرْ فى أمرنا . وجمع عساكِرَه ، وسار نحو المنذر ، وأرسل إليه يقول له : إنا شيخان فلا تُهلِكْ جنودى وجنودَك ، ولكن يخرج ولدٌ من ولدى ورجل من ولدك فمن قُتِل خرجَ عِوَضَه آخرُ ، وإذا فَنِي أولادُنا خرجتُ أنا إليك ، فمَنْ قتلَ صاحبَه ذهب بالملك ، فتعاهدا على ذلك .

فعمَد المنذر إلى رجل من شُجْعان أصحابه ، فأمره أن يخرج فيقفَ بين الصفين ، ويُظْهِر أنه ابنُ المنذر ، فلما خرج أَخْرَج إليه الحارث ابنه أبا كَرِب ، فلما رآه رجع إلى أبيه ، وقال : إن هذا ليس بابنِ المنذر ، إنما هو عبدُه أو بعضُ شُجْعَان أصحابه ، فقال : يابنى ، أجَزِعت من الموت ! ما كان الشيخ ليَغْدرِ [٢] ! فعاد إليه وقاتلَه فقَتَله الفارس ، وألقى رأسَه بين يدى المنذر وعاد .

---

* الكامل لابن الأثير : ١ ـ ٣٢٦

(١) فى كتاب الأعلام للزركلى أن الحارث لقب عام لملوك الغسانيين ، كقيصر عند الروم، وكسرى عند الفرس ؛ وهو أشهر ملوك غسان ذكراً ، وكان جواداً كثير الهبات دام ملكه نحو ٣٠ عاماً، ومات نحو سنة ٤٠ ق . هـ (٢) يغدر: ينقض العهد .

فأمر الحارث ابناً له آخر بقتاله والطلبِ بثأر أخيه ، فخرج إليه ، فلما واقفه [١] رجع إلى أبيه ؛ وقال : يا أبت ؛ هذا والله عبدُ المنذر ، فقال : يا بنى ؛ ما كان الشيخ ليغدِر ! فعاد إليه ، فشدّ عليه فقتله .

فلما رأى ذلك شمر بن عمرو ، وكانت أمه غسَّانية وهو مع المنـذر ، قال : أيُّها الملك ؛ إن الغَدْرَ ليس من شِيَمَ الملوك ولا الـكرام ، وقد غدرتَ بابن عمك دفعتين ، فغضبَ المنذر ، وأمر بإخراجه ، فلحق بعسكر الحارث فأخبره ، فقال له : سَلْ حاجتك ، فقال له : حُلّتك وخُلّتك .

فلما كان الغد عبّى الحارث أصحابه وحرّضهم ، وكانوا فى أربعين ألفاً واصطفوا للقتال ، فاقتتلوا قتالًا شديداً ؛ فقُتِل المنذر وهُزِمت جيوشه ، فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحُمِلا على بعير بمنزلة العِدْلين ، وجُعِلَ المنـذر فوقهما فردا ، وقال : « يالِعِلَاوَةِ [٢] دُونَ العِدْلَيْنِ! » وسار إلى الحيرة فأنهبَها [٣] وأحرقها ، ودفن ابنيه بها، وفى ذلك يقول الشاعر :

كم تركْنَا بالعين عَيْنِ أُباغٍ ... من ملوك وسوقةٍ أكفاء
أمطرتهمْ سحائب الموت تَتْرَى ... إنّ فى الموت راحةَ الأشقياء
ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنما الميتُ ميّتُ الأحياء

---

(١) الموافقة : أن تقف منه ويقف معك فى حرب أو خصومة (٢) العلاوة : ما يحمل على البعير وغيره ، وهو ما وضع بين العدلين (٣) أنهبها : أباحها لمن شاء .

١٥٥ — يثأر لأبيه وجدّه *

كان من حديث قَيْس بن الخَطِيم (١) أن جدَّه عديَّ بنَ عمرو قتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر يقال له : مالك ، وقتل أباه الخطيمَ بنَ عدى رجل من عبد قيس ممن يسكن هَجَر ، وكان قيسٌ يوم قُتِل أبوه صبيًّا صغيراً ، وقُتل الخطيم قبل أن يَثأَرَ بأبيه عدىّ ، فخشيتْ أمُّ قيس على ابنها أن يخرجَ فيطلب بثَأْرِ أبيه وجدِّه فيَهْلِك .

فعمَدَت إلى كومة من تراب عند باب الدار ، فوضعت عليها أحجاراً وجعلت تقول لقيس : هذا قبرُ أبيك وجدِّك ، فكان قيس لا يشكُّ في ذلك .

ونشأ أيِّداً (٢) شديدَ الساعدين ؛ فنازع يوماً فتًى من فِتْيان بني ظفَر ؛ فقال له ذلك الفتى : والله لو جعلتَ شدةَ ساعديك على قاتل أبيك وجدِّك لكان خيراً لك من أن تُخْرجَها علىّ ؛ فقال : ومَنْ قاتلُ أبي وجدّى ؟ قال : سَلْ أمّك تخبرْك .

فأخذ السيف ووضع قائمَه على الأرض ، وذُبَابَه (٣) بين ثدييه ؛ وقال لأمّه : أخبريني مَنْ قتل أبي وجدى ؟ قالت : ماتا كما يموتُ الناس ، وهذان قبراهما بالفِناء . فقال : والله لتُخْبِرِينني مَنْ قتلهما ، أو لأتحامَلَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظَهْرى ! فقالت : أما جدُّك فقتله رجلٌ من بني عمرو بن عامر بن ربيعةَ يقال له : مالك ، وأما أبوك فقتله رجلٌ من عبد قيس ممّن يسكن هَجَر .

---

* الأغانى : ٣ ـ ٣

(١) قيس بن الخطيم : شاعر الأوس ، وأحد صناديدها فى الجاهلية ، أدرك الأسلام وتريث فى قبوله ، ثم قتل قبل أن يدخل فيه نحو سنة ٢ ق . هـ (٢) أيدا : شديدا قويا (٣) ذباب السيف : طرفه الذى يضرب به .

فقال : والله لا أنْتَهى حتى أَقتلَ قاتلَ أبى وجـدّى ؛ فقالت : يابنىّ ؛ إنّ مالـكاً قاتِلَ جَدِّك من قوم خِدَاش بنِ زُهير ، ولأبيك عنـد خِدَاش نعمةٌ هو لها شاكر ، فأْتِه فاستَشِرْه فى أمرك واستَعِنْه يُعِينُكَ .

فخرج قيسٌ من ساعته حتى أتى ناضِحه [1] وهو يَسْقِى نخلَه ، فضربَ الجرير [2] بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلوُ فى البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرَارتيْن [3] من تمر ، وقال : من يكفينى أمرَ هـذه العجوز ؟ يعنى أمّه ـ فإن متُّ أَنفقَ عليها من هـذا الحائط [4] حتى تموتَ ثم هُوَ لهُ ، وإن عشتُ فماَ لِى عائد إلىّ وله منه ماشاء أن يأ كل من ثمره ؟ فقال رجلٌ من قومه : أنا له ، فأعطاه الحائط .

ثم خرج يسأل عن خِداش بن زُهير حتى دُلّ عليـه بمَرِّ الظَّهْرَان [5] ، فسار إلى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافهُ ، ثم نادىامرأةَ خِداش: هل من طعام ؟ فأَطْلَعَتْ إليه ، فأعجبها جمالُهُ ، وكان من أحسن النـاس وجهاً ؛ فقالت : والله ماعندنا من نُزْلٍ [6] نرضاه لك إلا تمراً ؛ فقال : لا أبالى ، فأخرِجى ماعندكِ ؛ فأرسلتْ إليه ، بقُبَاع [7] فيه تمر ، فأخذ منه تمرة فأ كلِ شِقّها وردَّ شِقّها الباقىَ فى القُباع ، ثم أمَر بالقباع فأُدخل على امرأة خـداش بن زهير ، ثم ذهب لبعض حاجاته .

ورجع خِدَاش فأخبرته امرأتُه خبرَ قَيْس ، فقال : هـذا رجلٌ مُتَحَرِّم [8]

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه الماء (٢) الجرير : الحبل (٣) الغرارة : الـكيس .
(٤) الحائط : البستان (٥) الظهران : واد قرب مكة عندقرية يقال لها : « مر » تضاف إليه فيقال مر الظهران (٦) النزل : ما يهيأ للضيف من قرى (٧) القباع : المكيال الضخم
(٨) متحرم : له عندنا حرمة وذمة .

وأقبل قيس راجعاً . فلما رأى خِدَاش رِجْلهُ وهو على بعيره قال لامرأته : هذا ضيفُكِ؟ قالت : نعم ؛ قال : كأن قدمه قدم الخطيم صديقى اليَثْرِبىّ ؛ فلما دنا منه قرعَ طُنُبَ[1] البيت بسِنان رمحه ، واستأذن ، فأذن له خِداش ، فدخل إليه ، فنسبه[2] فانتسب ، وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يُعينه ، وأن يشيرَ عليه فى أمره ، فرحّب به خداش ، وذكر نعمة أبيه عنده ، وقال : إن هذا الأمر مازلتُ أتوقّعه منذ حين . فأما قاتلُ جدّك فهو ابن عمّ لى وأنا أُعينك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلستُ إلى جانبه وتحدّثت معه ، فإذا ضربتُ فخذَه فثِبْ إليه فاقتله .

قال قيس : فأقبلت معه نحوه حتى قمتُ على رأسه لمّا جالَسه خِداش ، فحين ضرب فخِذه ضربتُ رأسه بسيف يقال له : ذو الخِرْصَيْنِ ؛ فثار إلىّ القومُ ليقتلونى ، فحال خداشٌ بينهم و بينى ، وقال : دَعُوه فإنه والله ماقتلَ إلا قاتلَ جدّه .

ثم دعا خداش بجملٍ من إبله فركبه ، وانطلق مع قيس إلى العَبْدِىّ الذى قتل أباه ، حتى إذا كانا قريباً من هَجَر ، أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسألَ عن قاتل أَبيه ، فإذا دُلّ عليه قال له : إن لصًّا من لصوص قومك عارضنى فأخذ منى متاعاً لى . فسألت : مَن سيِّدُ قومه ؟ فدُلِلْتُ عليك ؛ فانطلقْ حتى تأخذ متاعى منه ، فإن اتّبعك وحده فستنال ماتريد منه ، وإن أخرج معك غيره فاضحك ، فإن سألك نِمَّ ضحكتَ ؟ فقل : إنّ الشريف عندنا لا يصنعُ كما صنعتَ إذا دُعى إلى اللص من قومه ، إنما يخرج وحده بسَوْطه دون سيفه ، فإذا رآه اللص أعطى كل شىء أخذه ، هيبةً له ، فإن أمر أصحابه بالرجوع فذلك خير لك ، وإن أبى إلا أن يمضوا معه فائتنى به ، فإنى أرجو أن تقتلَه وتقتلَ أصحابه .

---

(١) الطنب بضمتين وسكون الثانى لغة : الحبل تشد به الخيمة ونحوها ، والجمع أطناب .
(٢) نسبه : طلب إليه أن ينتسب .

ونزل خِدَاش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العَبْدِىّ ، فقال له : ما أمره خداش فأحْفَظَهُ (١) ؛ فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس ؛ فلما طلع على خِدَاش ، قال له : اخترْ ياقيس ؛ إما أن أُعِينَك وإما أن أكفيَك ، قال : لا أُرِيدُ واحدةً منهما ، ولكن إن قتلنى فلا يُفْلِتَنَّكَ ؛ ثم ثار إليه فطعَنه قيس بالحرْبة فى خاصِرَته فأنفذها من الجانب الآخر ؛ فمات مكانه .

فلما فرغ منه قال له خِداش : إنا إن فرَرْنا الآن طلبَنا قومُه ، ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً من مَقْتَلِه ، فإنّ قومه لا يظنّون أنك قتَلْتَه ، وأقمتَ قريباً منه ؛ ولكنهم إذا افتقدوه (٢) اقْتَفَوْا أثَرَه ، فإذا وجدوه قتيلا خرجوا فى طَلَبنا فى كل وجه ، فإذا يئسوا رجعوا .

قال : فدخلا فى دَاراتٍ من رمالٍ هناك ، وفقَدَ العبْدِىّ قومُه فاقْتَفَوْا أثره فوجدوه قتيلا ، فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعوا ، فكان من أمرهم ما قال خدَاش ، وأقاما مكانهما أياماً ثم خرجا ، حتى أتَيَا منزلَ خِداش ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله ، ففى ذلك يقول قيس :

تذكَّر ليلَى حسنها وصفاءها ... وبانَتْ فما إن يستطيع لِقَاءها

ومثلُكِ قد أصْبَيْتُ ليست بكَنَّةٍ (٣) ... ولا جارةٍ أفضَتْ إلىّ خِباءها

إذا ما اصطبحتُ أربعاً خط مِئْزَرِى (٤) ... وأتْبَعْتُ دَلْوِى فى السماح رشاءها (٥)

ثأرْتُ عديًّا والخطيمَ فلم أُضِعْ ... وصيَّةَ أشياخٍ جُعِلْتُ إزاءها

---

(١) أحفظه : أغضبه (٢) افتقدوه : طلبوه عند غيبته (٣) الكنة : امرأة الابن أو الأخ (٤) يريد أنه إذا شرب أربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء (٥) يريد أنه بلغ فى السماح منتهاه ، يقال : أتبع الدلو رشاءها ، وأتبع الفرس لجامها ، إذا بذل آخر مجهوده .

١٥٦ — بعد طعن عُمر بن الخطاب *

خرج عمرُ[(١)] بن الخطاب يوماً يطوفُ فى السُّوق ، فلقيَه أبو لُؤلُؤَةَ غلامُ المغيرة بن شعبة — وكان نَصْرَانيًّا — فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أعْدِنى[(٢)] على المُغيرة ابن شُعبَة ، فإنَّ علىَّ خرَاجاً كثيراً . قال : وكم خرَاجُك ؟ قال : دِرهمان فى كل يوم . قال : ماصِناعتك ؛ قال : نجّار ، نقّاش ، حدّاد ، قال : فما أرى خراجَك بكثير على ماتصنعُ من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول : لو أردتُ أن أعمل رحاً تطحن بالريح فعلت ، قال : نعم ، قال : فاعمل لى رحًا . قال : لئن سلمتُ لأعمَلَنَّ لك رحاً يتحدث بها مَن بالمَشرق والمغرب ، ثم انصرف عنه .

فقال عمر : لقد تَوَعَّدَنى العبد آنفاً ، ثم انصرف عمر إلى منزله ، فلما كان من الغد جاءه كعبُ الأحْبار فقال له : يا أميرَ المؤمنين ؛ اعْهَدْ ، فإنك ميِّتٌ فى ثلاثة أيام ، قال : وما يُدريك ؟ قال : أجدُه فى كتاب الله عز وجل ، التوراة . قال عمر : اللهَ ! إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! قال : اللهم لا ؛ ولكنى أجد صِفتَك وحِلْيَتك ، وأنه قد فَنِي أجلُك — وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً .

فلمّا كان من الغد جاء كعْب ، فقال : يا أمير المؤمنين : ذهبَ يوم ، وبقى يومان ، ثم جاءه من غد ، فقال : ذهب يومان ؛ وبقى يوم وليلة ، وهى لك إلى صبيحتها .

---

* تاريخ الطبرى : ٥ — ١٢ ، العقد الفريد : ٢ — ٢٥٦

(١) عمر بن الخطاب : ثانى الخلفاء الراشدين ، المضروب بعدله المثل ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبى بكر ، وقتل سنة ٢٣ هـ (٢) أعداه : أعانه .

فلما كان الصبحُ خرج عمر إلى الصلاة ، وكان يوكِّل بالصفوف رجالا ، فإذا استوَتْ جاء هو فكبّر ، ودخل أبو لؤلؤة فى الناس ، فى يده خنْجَر له رأسان ، نِصَابُهُ [١] فى وسطه ، فضرب عمرَ ستّ ضربات ؛ إحداهن تحت سُرّته ، وهى التى قتلته .

فلما وجَدَ عمر حرَّ السلاح سقط وقال : أفى الناس عبدُ الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ؛ هو ذا . قال : تقدَّم فصَلِّ بالناس . فصلَّى عبد الرحمن ابن عوف ، وعُمر طريح ، ثم احتُمِلَ ، فأدخِلَ دارَه .

ولما أحَسَّ الناسُ قربَ موته قالوا له : يا أمير المؤمنين ؛ لو استخلفت ! قال : إنْ تركتُكم فقد تركَكم مَن هو خيرٌ منى ، وإن استخلفتُ فقد استخلف عليكم مَنْ هو خيرٌ منى ، ولو كان أبو عُبيدة بن الجرّاح حيًّا لاستخلفتُه ، فإن سألنى ربى ، قلت : سمعتُ نبيّك يقول : « إنه أمينُ هذه الأمة » . ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًّا لاستَخْلَفْتُهُ ، فإن سألنى ربى قلت : سمعتُ نبيك يقول : إن سالما يحب الله حُبًّا ، لو لم يَخَفْهُ ماعصاه [٢] .

قيل له : فلو أنك عهدتَ إلى عبد الله بن عمر ؛ فإنّه لذلك أهل ؛ لدينه وفضله وقديم إسلامه ، فقال : بِحَسْبِ آل الخطاب أن يحاسَبَ منهم رجلٌ واحد عن أمةِ محمد ، ولوددت أنى نجوتُ من هذا الأمر كَفَافًا [٣] ، لَا لِى ولا عَلَىَّ .

---

(١) نصاب السكين : ما يقبض عليه (٢) هذه الجملة تدل على تقرير عدم العصيان على كل حال ، وعلى أن انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف أولى (المغنى ص ٢٠٢ ج ١) (٣) الكفاف : الذى لا يفضل عن الشىء ويكون بقدر الحاجة إليه ، وهو نصب على الحال ، وقيل : أراد مكفوفا عنى شرها .

ثم رَاحُوا فقالوا : ياأمير المؤمنين ؛ لوعهدت ! فقال : قد كنتُ أجمعتُ[1] بعد مَقَالتى لكم أن أُوَلِّى رجلًا أمرَكم أرجو أن يحمِلَكم على الحق — وأشار إلى على — ثم رأيتُ ألَّا أتحمَّلَها حيًّا وميتاً . فعليكم بهؤلاء الرَّهْط الذين تُوُفِّىَ رسول الله وهو عنهم رَاضٍ : سعدُ بن أبى وقاص ، وعبدُ الرحمن بن عوف ، وعلىُّ بن أبى طالب ؛ وعثمانُ بن عفان ، والزبيرُ بن العوّام ؛ وطلحةُ الخير .

وقال لعبد الرحمن ادْعُ عليًّا وعثمان والزبير وسعداً وقال : انتظروا أخاكم طلْحة ثلاثاً — وكان غائباً — فإن جاء وإلا فاقضُوا أمرَكم . أنشدُكَ الله يا علىّ إن وليتَ من أمور الناس شيئاً أن تحملَ بنى هاشم على رِقاب الناس ! أنشدُكَ الله يا عثمان إن وليتَ من أمور الناس شيئاً أن تحملَ بنى أبى مُعيط على رِقاب الناس ! أنشدك الله يا سعد إن وليتَ من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقارَبك على رقاب الناس ؛ قُوموا فتَشَاوَرُوا ، ثم اقْضُوا أمرَكم ، وليُصَلِّ بالناس صهيب .

ثم دعا أبا طلحة الأنصارىّ ، فقال : قمْ على بابهم فلا تدَعْ أحداً يدخلُ إليهم ، وأُوصى الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبوّءوا الدار والإيمان : أن يحسِنَ إلى مُحْسنهم ، وأن يعفُوَ عن مسيئهم ، وأُوصى الخليفة من بعدى بالعرب ؛ فإنهم مادَّةُ الإسلام ؛ أن يأخذ من صدقاتهم حقَّها فتوضع فى فقرائهم ، وأُوصى الخليفة من بعدى بذمَّة محمد رسول الله ؛ أن يُوفى لهم بعَهْدهم ، اللَّهُم هل بلّغت ! تركتُ الخليفة من بعدى على أنْقَى من الراحة .

يا عبد الله بن عمر ؛ اخرج فانظر مَنْ قتلنى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قتلك أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبة ، قال : الحمد الله الذى لم يجعل مَنِيَّتِى بيد رجل

---

(١) أجمعت : عزمت .

سجدَ لله سَجْدَةً واحدة ، يا عبد الله بن عمر ؛ اذهبِ إلى عائشة ، فسلْها أن تأذنَ لى أَنْ أُدفن مع رسول الله وأبى بكر ، يا عبد الله بن عمر ؛ إن اختلف القوم فكُنْ مع الأكثر ، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتَّبع الحزب الذى فيه عبد الرحمن ، ياعبدَ الله ؛ ائذن للناس .

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلّمون عليه ويقول : أَعَنْ ملأٍ (١) منكم كان هذا ؟ فيقولون : معاذ الله ! ودخل فى الناس كعب ، فلما نظر إليه عمر قال :

فأوعدنِى كعبٌ ثلاثاً أعدّها ولا شكّ أن القول ماقال لى كعبُ
وما بى حذارُ الموت إنّى لميّتٌ ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنبُ

ثم فاضت روحه ، رحمه الله .

(١) أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم .

١٥٧ — المؤتمرون بعلى ومعاوية وعمرو*

لما قتلَ عليٌّ أهلَ النّهرَوَان ، وكان بالكوفة زُهاء ألفين من الخوارج ممّنْ لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقومٌ ممن استَأْمَنَ (١) إلى أبي أيوب الأنصارى ؛ فتجمّعُوا وأمّرُوا عليهم رجلا من طيّئ ؛ فوجَّه إليهم عليٌّ رجلا وهم بالنُّخَيْلَةِ (٢) فدعاهم ورَفَق بهم فأَبَوْا ، فعاودهم فأبوْا ، فاقتتلوا جميعاً .

فخرجت طائفـةٌ منهم نحو مكّة ؛ فوجّه معاوية مَنْ يقيمُ للناس حجَّهم ؛ فناوَشَهُ هؤلاء الخوارج ؛ فبلغ ذلك معاوية ؛ فوجّه بُسْرَ بن أَرْطَاةَ أحدَ بنى عامر ابن لؤى فتوقفّوا وتراضَوْا بعد الحرب بأن يصلّيَ بالناس رجلٌ من بنى شيبة ؛ لئلا يفوتَ الناسَ الحجُّ .

فلمّا انقضى نظرت الخوارجُ فى أمرها فقـالوا : إن عليًّا ومعاويةَ قد أفسدا أمْرَ هذه الأمة ، فلو قتلناهما لعاد الأمرُ إلى حقه .

وقال رجلٌ من أَشْجَع : والله ما عمرو دونهما ؛ وإنه لأصْلُ هذا الفساد ! فقال عبد الرحمن بن مُلْجَم . أنا أقتل عليًّا ! فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغْتَاله !

فقال الحجاج بن عبد الله الصَّرِيمىٍّ : وأنا أقتلُ معاوية ! وقال زَاذَوَيْه مولى بنى العَنْبَرِ : وأنا أقتلُ عَمْراً !

---

* المسعودى : ٢ ـ ٤٠ ، ابن أبى الحديد : ٢ ـ ٤٢ ، ٢ ـ ١٤٤ ، الكامل : ٢ ـ ١٢٥ رغبة الآمل : ٧ ـ ١١٨

(١) رفع على راية الأمان مع أبى أيوب ، فنادى : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن فهو آمن (١) النخيلة : موضع قرب الكوفة .

فأجمع رأيُهُم على أن يكون قتلُهم فى ليلةٍ واحدة ؛ فجعلوا تلك الليلة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان .

فخرج كلّ واحد منهم إلى ناحية : فأتى ابنُ ملجَم الكوفةَ ، فأخفَى نفسه ، وأراد أن يتزوَّجَ من امرأةٍ يقال لها قَطَامِ بنت علقمة؛ وكانت ترى رأْىَ الخوارج [١] ؛ فقالت له : لا أقنعُ منك إلا بصدَاقٍ أُسمِّيه لك وهو ثلاثة آلاف درهم وعبدٌ وأَمَةٌ ، وأن تقتلَ عليًّا ! فقال لها : لكِ ما سألتِ ! فكيف لى به ؟ قالت : ترومُ ذلك غِيلة ؛ فإن سَلِمتَ أرحت الناس من شرّ وأقمتَ مع أهلك ، وإن أُصِبْتَ صِرْتَ إلى الجنة ونعيم لا يزول ! فأنعَمَ [٢] لها ، وخرج من عندها وهو يقول :

ولم أرَ مَهْراً ساقَهُ ذو سماحةٍ … كمَهْرِ قَطَام من فصيح وأعجَم

ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينةٌ … وضربُ علىّ بالحُسَام المصمِّمِ [٣].

فلا مَهْرَ أغْلى مِنْ علىّ وَإن غَلاَ … ولا فَتْكَ إلَّا دُونَ فتك ابنِ مُلْجَمِ

ثم أقام ابن مُلجَم ؛ فلامته امرأته ، وقالت : ألا تمضى لما قصَدْتَ ! لشدّ ما أحببْتَ أهلك ! قال : إنى قد وعدتُ صاحبىّ وقتاً بعينه .

ثم واطأ رجلاً من أشجع يقال له شَبيب بن بجيرة على ذلك .

فلما كانت ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن مُلْجَم وشبيبٌ الأشجعى فاعتوَرَا [٤] البابَ الذى يدخل منه علىّ رضى الله عنه مغلّساً [٥] و يوقظ

---

(١) كان على قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، وكانت أجمل أهل زمانها (٢) أنعم لها : قال لها : نعم (٣) المصمم من السيوف : الذى يمر فى العظام (٤) اعتوروا الشيء : تداولوه فيما بينهم (٥) التغليس : السير بغلس ،والغلس : ظلمة آخر الليل .

الناس للصلاة ؛ فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب فأخطأه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن مُلْجَم على صلعَتِهِ وهو يقول : لله الحكم لا لك يا علىّ . فقال علىّ : فُزْتُ[1] ورب الكعبة ! شأنكم بالرجل !

وحمل ابن مُلْجَم على الناس بسيفه ، فأفرجوا له ، وتلقّاه المغيرةُ بن نَوْفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة، فرمى بها عليه ، واحتمله فضرب به الأرض - وكان المغيرة أيِّداً[2] - فقعد على صدره .

وأما شبيب فانتزع السيفَ منه رجل من حَضْرَمَوْت ، وصرعه ، وقعد على صدره ؛ وكثر الناس ، فجعلوا يصيحون : عليكم صاحبَ السيف ؛ فخاف الحضرمى أن يُكِبُّوا عليه ، ولا يسمعوا عذره ؛ فرمى بالسيف ، وانسلّ شبيب بين الناس .

فدُخلَ على علىّ رضى الله عنه ، فأومر فيه فاختلف الناس فى جوابه ، فقال علىّ : إن أعِشْ فالأمرُ إلىّ ، و إن أُصَبْ فالأمر لكم ، فإن آثرتُمْ أن تقتصوا فضربةٌ بِضَرْبة ، وأن تعفوا أقرب للتقوى .

وأقام علىٌّ يومين ؛ فسمع ابن ملجم الرَّنَّة من الدار ، فقال له من حضره : أى عدوَّ اللهِ ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين ، فقال : أما والله لقد اشتريتُ سيفى بألف درهم ، وما زلت أعرِضه فما يعيبه أحدٌ إلا أصْلحتُ ذلك العيب ، ولقد سقيتُهُ السُّمَّ حتى لفظه ، ولقد ضربتُهُ ضربةً لو قُسِّمَتْ على مَنْ بالمشرق لأتَتْ عليهم .

ومات علىٌّ رضى الله عنه ، فى اليوم الثالث .

---

(١) فار الشئُ : قطعه من وسطه خرقا مستديراً (٢) الأيد : القوى .

فدعا به الحسنُ رضى الله عنــه فقال ابنُ مُلجم : إنّ لى عندك سرًّا ! فقال الحسن : أتدرون ما يريد منى ؟ يريد أن يقرب من وجهى فيعضّ أُذنى فيقطَعَها ! فقال : أما والله لو أمكنتنى منها لا قتلعتُها من أصلها ! فقال الحسن : كلا والله لأضربنَّك ضربة تؤدى بك إلى النار ! فقال: لو علمتُ أن هذا فى يديك ما اتخذت إلهًا غيرك ! فقال عبد الله بن جعفر : يا أبا محمد ؛ ادفعه إلىَّ أشفِ نفسى منه ؛ فأَحْمَى له مِيلين وكحله بهما فجعل يقول : إنك يابن أخى لتكحلُ عمك بملْمُولين[1] مضاضين[2] . ثم قتله .

وأما الحجاجُ بن عبد الله الصَّريمىّ فإنه ضرب معاوية مُصَلِّياً ، فأصاب مَأْكَمَتَه[3] ، وكان معاوية عظيمَ الأوْرَاكِ فقطع منه عِرْقاً ، فجاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة ، فقال : إن السيف مسموم ، فاخترْ إما أن أحمىَ لك حديدة فأجعلها فى الضربة ، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك ! فقال : أما النار فلا أطيقها ، وأما النسل ففى يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عينى ، وحسبى بهما . فسقاه الدواء ، فعُوفِى وعالج جرحه حتى التأم ، فلم يُولَدْ لمعاوية بعد ذلك ولد .

فلما أُخِذَ قال : الأمان والبشارة ؛ قُتِلَ علىّ فى هذه الصبيحة ، فاسْتَأْنَى[4] به حتى جاء الخبر ، فقطع معاوية يده ورجله ؛ فأقام بالبصرة ؛ فبلغ زياداً أنه قد ولد له ، فقال : أيولد له وأميرُ المؤمنين لا يولد له فقتله .

وأما زَاذَوَيه فإنه أرْصَدَ لعمرو ، واشتكى عمرو بطنه فلم يخْرُجْ للصلاة وخرج خارجة[5] ، فضربه زاذويه فقتله .

---

(١) الملمول : المكحال (٢) مض الكحل العين : آلمها (٣) المأكمة : لحمة على رأس الورك (٥) استأنى : تأنى وتثبت (٥) هو خارجة بن حذافة أحد بنى عامر ابن لؤى .

فلما دُخِلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة ، قال : أو ما قتلتُ عمراً ! قيل : لا ؛ إنما قتلت خارجةَ . قال : أردتُ عمراً . وأراد الله خارجة !

وأُوقِفَ الرجل بين يدى عمرو فسأله عن خبره ، فقصّ عليه القصّة، وأخبره أن عليًّا ومعاوية قُتِلا فى هذه الليلة ، فقال : لابد من قتلك ؛ فبكى ، فقيل له : أجزعاً من الموت مع هذا الإقدام ! فقال : لا والله ؛ ولكن غمًّا أن يفوزَ صاحبىّ بقتل على ومعاوية ، ولا أفوز أنا بقتلَ عمرو ! فضرب عنقه وصُلِب .

١٥٨ — بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد*

لما أرادَ عبدُ الملك بن مروان الخروجَ إلى العراق لقتال مُصعب [(١)] بن الزبير ، وأخذ في جِهَازه أقبلت عاتكةُ ابنة يزيد بن معاوية ، امرأته ، في جواريها ، وقد تزينتْ بالحُلِيّ ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ لو قعدتَ في ظلال مُلكك ، ووجّهت إليه كلْباً من كلابك لكفاك أمرَه ، فقال : هيهات ! أما سمعت قول الأول :

قومٌ إذا ما غزَوْا شَدُّوا مآزِرَهم دونَ النســاء ولو بَاتَتْ بأطْهَارِ

فلما أبى عليها وعزم ، بكت و بكى معها جواريها ، فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبى ربيعة ؛ كأنه ينظر إلينا حيث يقول :

إذا ما أراد الغــزوَ لم يَثْنِ همَّهُ حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرّ يَزِينُهــا
نَهتْهُ فلمّا لم ترَ النَّهْىَ عاقَهُ بكتْ فبكَى مما دهَاها قَطِينُها [(٢)]

ثم خرج يُرِيد مُصعب ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغْلَق عمْرُو بن سعيد دمشق ، وخالف عليه ، فقيل له : ما تصنع ؟ أتريدُ العراق وتَدَعُ دمشق ؟ أهلُ الشام أشدُّ عليك من أهل العراق . فرجع مكانه ، وحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ، وأن له مع كل عامل عاملًا ففتح له دمشق ، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد ، فأرسل إليه عبد الملك :

---

* العقد الفريد : ٣ ـ ١٥٣ ، الأمالى : ١ ـ ١٤

(١) انظر صفحة ١٦٨ (٢) الجهاز ـ بالفتح والكسر ـ للمسافر : مايحتاج إليه

(٢) القطين : الخدم .

أن أَخْرِج للحرس أرزاقهم . فقال : إذا كان لك حرس فإن لنا حرساً أيضاً ، فقال عبد الملك : أَخْرِج للحرس أرزاقهم .

فلمّا كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصفَ النهار . أن ائتنى أبا أُمَيَّة حتى أُدبِّرَ معك أموراً ، فقالت امرأته : يا أبا أُميّة ؛ لا تذهبْ إليه ، فإننى أَتخوّفُ عليك منه ، فقال : والله لو كنتُ نائماً ما أيقظنى ! قالت : والله ما آمَنُه عليك ، وإنّى لأجِدُ ريحَ دمٍ مَسْفُوح ؛ فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجّها .

فخرج وخرج معه أربعةُ آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقدر على مثلهم ، مسلَّحين ، فأحدقوا بخَضْرَاء دمشق ، وفيها عبدُ الملك ، فقالوا : يا أبا أمية ؛ إن رَابك ريبٌ فأسْمِعْنا صوتَك ، ثم دخل ، فجعلوا يصيحون : يا أبا أميّة ؛ أسْمِعْنا صوتك — وكان معه غلام أَسْحَمُ [1] شجاع — فقال له : اذهب إلى الناس فقل لهم : ليس عليه بأس ؛ فقال له عبد الملك : أمكراً عند الموت أبا أميّة ! خذوه ، فأخذوه ثم قال له عبد الملك : إنى أقسمتُ إن أمكنَتْنِى منك يد أن أجعل فى عنقك جَامِعة [2] ، وهذه جامعة من فضة ، أريدُ أن أبرَّ بها قسمى ، وطَرَح رقبتَه فى الجامعة ، ثم نَتَرَهُ [3] إلى الأرض بيده ، فانكسرتْ ثَنِيَّتُه [4] ، فجعل عبد الملك ينظر إليه ، فقال عمرو : ولا عليك يا أمير المؤمنين ، عظم انكسر .

وجاء المؤذّنون فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين — لصلاة الظهر — فقال لعبد العزيز ابن مروان : اقتُله حتى أرجعَ إليك من الصلاة ، فلما أراد عبد العزيز أن يضربَ

---

(١) الأسحم : الأسود (٢) الجامعة : الغل (٣) النتر : الجذب بجفاء (٤) الثنية من الأربع التى فى مقدم الفم ، ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل .

عنقه ، قال له عمرو : نَشدتك [١] الرَّحِم يا عبد العزيز ألّا تقتلنى من بينهم ، فجاء عبد الملك ، فرآه جالساً . فقال : مالك لم تقتله ؟ لعنك الله ، ولعن أمًّا ولدتك ! ثم قال : قدِّموه إلىّ ، فأخذ الحرْبَة بيده فقال : فعلتها يا بنَ الزرقاء ، فقال له عبد الملك : إنِّى لو علمت أنك تبقى و يصلحُ لى ملكى لفديتُك بدم الناظر، ولكن قلما اجتمع فحلان فى ذَوْد [٢] إلا عَدَا أحدُهما على الآخر ، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقَعَدَ يرْعَد ، ثم أمر به فأُدْرج فى بساط وأُدخل تحت السرير .

وأرْسل إليه قَبيصة [٣] بن ذؤيب الْخُزاعىّ فدخل عليه ، فقال : كيف رأيُك فى عمرو بن سعيد الأشدق ، فقال ـ وقد أبصر قبيصةُ رِجْلَ عمرو تحت السرير : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين ، واطرح رأسَه ، وانثُر على النّاس الدنانير يتشاغلون بها ، ففعل ، وافترق الناس .

---

(١) نشدتك : سألتك (٢) الذود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر (٣) صحابى من الفقهاء الوجوه ، كان على خاتم عبد الملك بن مروان بالشام ، وتوفى بدمشق سنة ٨٦هـ.

١٥٩ — الأخطل يفرَق من الجحّاف *

كان الجحّافُ بن حكيم السُّلَمىّ(١) من فُتَّاك العرب ، وكان من خبر ابن عمّه عُمير بن الُحباب السُّلَمىّ أنه نهض فى الفِتْنَة التى كانت بالشام بين قيس وكلب بسبب الزُّبيرية والمرْوانيّة ، فلقِى فى بعض تلك الُمغاوَرات(٢) خيلاً لبنى تَغلب ؛ فقتلوه ؛ فلما اجتمع الناس على عبد الملك بن مَرْوان ، ووضَعتْ تلك الحرب أوزارَها دخل الجحَّاف على عبد الملك والأخطلُ عنده ، فالتفت إليه الأخطل فقال :

ألا سائل الجحّاف هــل هو ثائرٌ لِقَتْلَى أُصِيبَتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ !

فقال الجحَّاف مجيباً له :

بلى ، سوفَ أبـكِيهمْ بكلّ مُهَنَّدٍ وأبـكى عميراً بالرِّماحِ الخوَاطِرِ(٣) .

ثم قال : يابنَ النصرانيّة ؛ ماظننتُك تجترىءُ علىّ بمثل هــذا ولو كنتُ مأسوراً ! فحُمّ الأخطل فَرَقاً(٤) من الجحّاف ، فقال عبد الملك : لا ترُع ،فإنّى جارُك منه . فقال الأخطل : يا أمير المؤمنين ؛ هَبْكَ تُجيرنى منه فى اليقظة ، فـكيف تجيرنى فى النوم !

ثم نهض الجحَّاف من عند عبد الملك يسحبُ كِسَاءه ، فقال عبد الملك : إن فى قفاه لَغَدْرَة ، ومرّ الجحَّافُ لِطيَّته(٥)، وجمع قومه وأتى الرّصَافَة ، ثم سار إلى بنى

* مجمع الأمثال : ٢ — ٢٤ ، معجم البلدان : ٢ — ١٨٦

(١) فاتك ، ثائر ، شاعر كان معاصراً لعبد الملك بن مروان ، توفى نحو سنة ٩٠ هـ (٢) غاورهم: أغار عليهم وأغاروا عليه ، والمغاورة مفاعلة (٣) المهند : السيف . خطر الرمح : اهتز .
(٤) فرقاً : خوفا (٥) يقال : مضى لطيته ، أى لوجهه الذى يريده ، ولنيته التى انتواها .

تَغْلِب فصادف فى طريقه أربعمائة منهم فقتلهم ، ومضى إلى البِشْر [1] فصادف عليه جَمْعاً من تغلب ، فقتل منهم خمسمائة رجل ، وتعدَّى الرجال إلى قَتْل النساء والوِلْدَان [2] ، فنادته عجوز منهم ، وقالت : ياجَحَّاف ؛ أتقتل النساء ! فانخذل ورجع .

فبلغ الخبرُ الأخطل ، فدخل على عبد الملك ، وقال :

لقــد أوقع الجحَّافُ بالبِشْر وقعَةً ... إلى الله منهــا المُشْتَــكَى والمعَوَّلُ

فأهدر [3] عبد الملك دَم الجحَّاف . فهرب إلى الروم ، فـكان بها سبع سنين ، ومات عبد الملك ، وقام الوليـد بن عبـد الملك ، فاستُؤمن للجحّاف ، فأمّنه ، فرجع .

---

(١) البشر . ماء لبنى تغلب . (٢) الوليد . المولود ، والصبي والعبد ؛ جمعه الولائد والولدان
(٣) أهدر دمه : أبطله ؛ أى أباح قتله .

١٦٠ — قد أُخِّرتُ الإذن عليه لتقتلوه فلم تَفعَلوا *

قال عُبَيْد الله بن قيس الرُّقَيَّات [١] : خرجتُ مع مُصْعَب بن الزبير حين بلغه شُخُوص عبدِ الملك بنِ مروان إليه . فلما نزل مُصْعَب بمَسْكِن [٢] ، ورأى معالمَ الغَدْرِ ممن معه، دعانى ودعا بمالٍ ومَنَاطِقَ [٣]، فملأْ المناطقَ من ذلك المال وأَلْبسنى منها ، وقال لى : انطلق حيث شئت فإنى مقتول ؛ فقلت له : والله لا أَرِيم [٤] حتى أرى سبيلَك ، فأقمتُ معه حتى قُتل .

ثم مضيتُ إلى الكوفة ، فأول بيت صرتُ إليه دخلتُه ، فإذا فيه امرأةٌ لها ظَبْيَتان ، فرَقِيتُ فى درجةٍ لها إلى مَشْربَة [٥] ، فقعدت فيها ، فأمرتْ لى المرأة بما أحتاجُ إليه من الطعام والشراب والفَرْشِ والماء للوُضوء ، فأقمتُ كذلك عندها أكثرَ من حَوْل ، تُقيمُ لى ما يصلحنى ، وتغدو علىّ فى كل صباح فتسألنى بالصباح والحاجة [٦] ، ولا تسألنى من أنا ، ولا أسألها من هى ! وأنا فى ذلك أسمعُ الصياح فىّ والجُعْل .

فلمّا طال بى المقام ، وفقدتُ الصِّياحَ فىّ ، وغَرِضْتُ [٧] بمكانى غدَتْ علىّ

---

* الأغانى : ٥ ــ ٧٦

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات: شاعر قريش فى الإسلام ،ولقب الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعاً رقية (٢) مسكن : موضع على نهر دجيل (شعب من دجلة) بالكوفة ، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ، ومصعب بن الزبير فى سنة ٧٢ هـ وبه قتل مصعب .

(٣) المنطقة : ما يشد على الوسط (٤) لا أبرح (٥) المشربة : الغرفة والعلية .

(٦) أى تقول : كيف أصبحت ؟ (٧) غرضت : مللت .

تسألنى بالصباح والحاجة ، فعرّفتها أنى قد غرِضتُ وأحببت الشخُوص إلى أهلى ؛ فقالت لى : نأتيك بما تحتاجُ إليه إن شاء الله تعالى .

فلمّا أمسيتُ ، وضرب الليل برواقِه رَقِيَتْ إلىّ وقالتْ : إذا شئت ، فنزلت وقد أعَدّتْ راحلتين عليهما ماأحتاجُ إليه ، ومعهما عبد ، وأعطت العبد نفقةَ الطريق ، وقالت : العَبْدُ والراحلتان لك .

فركبت وركب العبد معى حتى طرقتُ أهل مكة ، فدققت منزلى ؛ فقالوا لى : منْ هذا ؟ فقلت : عبيد الله بن قيس الرقيّات ، فوَلْوَلُوا و بَكَوْا ، وقالوا : مافارقَنا طلبُك إلا فى هذا الوقت ؛ فأقمت عندهم حتى أسْحَرْتُ[1] .

ثم نهضتُ ومعى العبد حتى قَدِمْتُ المدينة ، فجئتُ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عند المساء ، وهو يُعَشِّى أصحابه ، فجلستُ معهم ، وجعلت أتعاجم وأقول: يار يار[2] ابن طيّار[3] ! فلما خرج أصحابُه كشفتُ له عن وجهى ، فقال : ابن قيس ؟ فقلت : ابن قيس ، جئتُك عائذاً بك ؛ قال : ويحك ! ما أجدّهم فى طلبك ! وأحْرَصهم على الظَّفَر بك ! ولكنى سأكتبُ إلى أم البنين بنتِ عبد العزيز بن مروان فهى زوجةُ الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرقُّ شىء عليها . فكتب إليهايسألها أن تشفعَ له إلى عمها ، وكتبَ إلى أبيها يسأله أن يكتبَ إليها كتاباً يسألها الشفاعة .

فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعلُ وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم

---

(١) أسحر : دخل فى وقت السحر (٢) ريار : كلمة فارسية ، ومعناها : الصاحب والشفيق والمعين (٣) الطيار : لقب جعفر بن أبى طالب ، والد عبد الله هذا :

لى حاجة ؛ فقال : قد قضيتُ كلّ حاجة لك إلا ابن قيس الرقيّات ؛ فقالت : لا تَسْتَثْنِ علىّ شيئاً ! فنَفَح[1] بيده ، فأصاب خدّها ، فوضعتْ يدها على خدّها ؛ فقال لها : يابُنَيّة ؛ ارفعى يدك ، قد قضيتُ كلّ حاجة لك ، وإن كانت ابنَ قيس الرقيّات ؛ فقالت : إن حاجتى ابنُ قيس الرقيات تؤمّنه ، فقد كتب إلىّ أبى يسألنى أنْ أسألك ذلك ؛ قال : فهو آمِن فمُرِيه يحضر مجلسى العشية .

فحضر ابنُ قيس وحضر الناسُ حين بلغهم مجلسُ عبد الملك ، فأخّر الإذْنَ ، ثم أذِن للناس ، وأخّرَ إذنَ ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذِنَ له ؛ فلما دخل عليه قال عبد الملك : يَأهلَ الشام ؛ أتعرفون هـذا ؟ قالوا : لا ؛ فقال : هذا عبيد الله بن قيس الرقيَّات الذى يقول :

كيف نومى على الفراش ولمّا ... تشمـل الشامَ غارةٌ شَعْواء

تُذْهِلُ الشيخ عن بنيه وتُبْدِى ... عن خِدَام العقيلة العذراء[2]

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، اسْقِنا دمَ هذا المنافق ! قال : الآن وقد أمّنتُه وصار فى منزلى وعلى بِساطى ! قد أخرْتُ الإذن له لتقْتلوه فلم تفعلوا . فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه فأذِنَ لهَ ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

عادَ له من كُثيرَةَ[3] الطَّرَبُ[4] ... فعينـــه بالدموع تَنْسِكبُ

كوفيَّـــــةٌ نازحٌ مَحَلّتُهَا ... لا أَمَمٌ[5] دارها ولا صَقَبُ[6]

---

(١) نفح بيده : ضرب بها ضربة خفيفة (٢) الخدام : جمع خدمة (بالتحريك) وهى الخلخال : قال فى اللسان : أراد وتبدى عن خدام العقيلة ،وخدام هنا فى نية عن خدامها ، وعدى تبدى بعن لأن فيه معنى تكشف (٣) كثيرة هى التى نزل بدارها عبد الله بن قيس فآوته وأصبح بعد ذلك يذكرها كثيراً فى شعره (٤) الطرب هنا: الحزن (٥) لا أمم دارها : ليست قريبة (٦) الصقب : الملاصقة .

والله ما إن صَبَتْ إلىّ ولا يُعْرَفُ بينى و بينهـا سبَبُ
إلا الذى أوْرَثَتْ كَثِيرَةُ فى القـلب ، وللحبِّ سَوْرَةٌ[1] عَجَبُ

حتى قال فيها :

إن الأغرّ الذى أبوه أبو الـعاصى عليه الوقارُ والحُجُبُ
يعتـدِل التاجُ فوق مَفْرِقِه على جبـينٍ كأنه الذهبُ[2]

فقال له عبد الملك : يا بن قيس ؛ تمدحنى بالتّاج كأنى من العجم ، وتقول فى مُصعب :

إنمـا مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللـه تجلَّتْ عن وجهه الظلمـاء
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ ليسَ فيه جَبَرُوتٌ منـه ولا كبرياء

أمّا الأمان فقد سبق لك ؛ ولـكن لا تأخذْ مع المسلمين عطاء أبداً .

فذهب ابنُ قيس إلى عبد الله بن جعفر ، وقال له : ما نفعنى أمانى ، تُرِكت حيًّا كميّتٍ ، لا آخذ مع الناس عطاء أبداً !

فقال له عبد الله : كم بلغتَ من السن ؟ قال : ستين سنة . قال : فعمِّرْ[3] نفسك ، قال : عشرين سنة من ذى قَبَل[4] ، فذلك ثمانون سنة ، قال : كم عطاؤك ؟ قال : ألفا درهم ، فأمر له بأربعين ألف درهم ، وقال : ذلك لك علىَّ إلى أن تموتَ على تعميرِك نفْسك ، فعنـد ذلك قال عُبَيْد الله بن قيس الرقيّات يمدح عبد الله ابن جعفر :

---

(١) السورة : شدة الأمر (٢) وفى هذه القصيدة :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

(٣) عمر نفسه : قدر لها قدراً محدوداً (٤) يقال : أفعل ذلك من ذى قبل : أى أفعله فى المستقبل .

تَقَدَّتْ بى الشهباء نحو ابن جعفرٍ (١) سـواء عليها ليلُها ونهارُهـا
تزُورُ امرأً قد يعلم اللهُ أنه تجودُ له كفٌّ قليـلٌ غِرَارُها (٢)
أتيناك نُثْنِي بالذى أنت أهلُهُ عليك كما يُثْنِي على الرَّوْض جارُها
فو اللهِ لولا أن تزورَ ابنَ جعفـر لكان قليلاً فى دِمَشقَ قَرَارُهَا
إذا مُتَّ لم يوصَلْ صديق ولم تُقَمْ طريقٌ من المعروف أنتَ منارُها
ذكرتك إن فاضَ الفراتُ بأرضنا وفاض بأعلى الرَّقَّتَيْنِ (٣) بحارُها

(١) تقدت : أى سارت سيراً ليس بعجل ولا مبطىء ، ولزمت سنن الطريق (٢) قليل غرارها : أى أن منعها المعروف قليل ، وأصل الغرار أن تمنع الناقة درتها ، ثم يستعار فى كل ما أشبه ذلك ، أو الغرار : المثال (٣) الرقتان : يراد بهما الرقة والرافقة ، وهما مدينتان ، والتثنية من باب التغليب .

١٦١ — آبى الضَّيْم *

قال المفضل الضّبي:

كان إبراهيمُ بن عبد الله بن الحسن (١) متواريًا عنـدى بالبصرة ، وكنت أخرج وأتركه ، فقال لى : إذا خرجتَ ضاق صـدرى ، فأخرِج إلىّ شيئًا من كتبك أتفرّجُ به ، فأخرجتُ له كتبًا من الشعر ، فاختار منها القصائد التى صدّرتُ بها كتاب المفضليات ، ثم أتممتُ عليها باقى الكتاب .

فلما خرج خرجتُ معه ، فلما صار بالمِرْبد ، مربدِ سليمان بن علىّ ، وقف عليهم ، واستسقى ماء ، فأُتِىَ به ، فشرب ، فأُخرج إليه صبيان من صبيانهم ، فضمَّهم إليه ، وقال : هؤلاء والله منا ونحن منهم لحمنا ودمنا ، ولـكن آباءهم انتزَوْا (٢) على أمرنا ، وابتزُّوا حُقوقنا ، وسفـكوا دماءنا ، ثم تمثّل :

مهلاً بنى عمِّنا ظلامتنا إن بنا سورةً (٣) من الغلق (٤)

لمثلـكم (٥) نحمل السيوف ولا نغمز أحسابنا من الرَّقَق (٦)

إنى لأُنْمَى (٧) إذا انتميتُ إلى عِزٍّ عزيزٍ ومعشر صُدُق

بيض سِبَاطٍ (٨) كأنَّ أعينهمْ تـكحل يوم الهياج بالعَلق (٩)

---

* ابن أبى الحديد : ١ — ٣٢٤ ، الأغانى : ١٠ — ٥

(١) أحد الأشراف الشجعان ، خرج بالبصرة على المنصور العباسى ، وكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتل سنة ١٤٥ هـ (٢) انتزى إلى الشر : توثب (٣) السورة : الوثوب (٤) الغلق : الضجر (٥) المراد : أننا نحمل لـكم السيوف ، لأنـكم أكفاؤنا (٦) الرقق : الضعف (٧) أنسب (٨) السباط : جمع سبط ، وهو حسن القد والاستواء (٩) العلق : الدم ، يريد أن عيونهم حمر لشدة الغيظ والغضب ، فـكأنها كحلت بالدم .

فقلت له : ما أجود هذه الأبيات وأفحلَها ! فلمنْ هي ؟ فقال : هـذه يقولها ضِرار بن الخطاب الفهريّ يوم عَبَر الخَنْدق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، وتمثَّل بها على بن أبي طالب يوم صفِّين ، والحسين يوم الطَّفّ [١] ، وزيد بن على يوم السَّبَخَة [٢] ، ويحيى بن زيد يوم الجُوزجان [٣] ، فتطيّرتُ له مِنْ تمثّله بأبيات لم يتمثّل بها أحدٌ إلا قُتل .

ثم سرنا إلى بَاخْمَرَا [٤] ، فلمّا قرب منها أتاه نَعْيُ أخيه محمـد ، فتغيّر لونه ، وجرِض [٥] بريقه ، ثم أجهش باكياً ، وقال : اللهم إن كنتَ تعلم أنّ محمداً خرج يطلبُ مَرْضاتك ، ويُؤثِر أن تكون كلمتُك العليا ، وأمرُك المتَّبع المطاع، فاغفرله، وارحمه وارضَ عنه ، واجعلْ ما نقلته إليه من الآخرة خيراً مما نقلته عنه من الدنيا ، ثم انفجر باكياً ، ثم تمثل :

أبا المَنَازِل يا خيرَ الفوارسِ مَن ... يُفْجَعْ بمثلك فى الدنيا فقد فُجِعا
الله يعـــــلمُ أنّي لو خشيتهمُ ... أو آنسَ القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا
لم يقتـــلوك ولم أُسْلِم أَخِي لَهُمُ ... حتى نعيشَ جميعاً أو نموتَ معاَ

قال المفضّل : فجعلت أُعَزِّيه وأعاتبُه على ما ظهر من جَزَعه ، فقال : إني والله فى هذا كما قال دُرَيْد بن الصِّمة :

تقول : ألَا تبـكى أخاك وقد أرى ... مكانَ البُكا،لـكن بُنِيتُ [٦] على الصبرِ
لمقتل عبـــــدِ اللهِ والهالك الذى ... على الشرف الأعلى قتيلِ [٧] أبى بكر

---

(١) الطف : ضاحية الـكوفة ،وبها قتل الحسن (٢) السبخة : موضع بالبصرة (٣) جوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وبها قتل يحيى بن زيد (٤) باخمرا : موضع بين الـكوفة وواسط (٥) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على مضض (٦) بنيت : خلقت (٧) قتيل أبى بكر هو أخوه قيس ، قتله بنو أبى بكر بن كلاب يرأسهم عمرو بن سفيان الـكلابى .

وعبدِ يغوث [١] أو خَليلَى خالدٍ [٢] وجَلَّ مصاباً حَثْوُ قبرٍ على قبرِ !

فإمَّا تَرَيْناَ لا تزالُ دماؤُنا لدَى واترٍ يَشْقَى بها آخرَ الدهرِ

فإنّا لَلَحْمُ السيف غيرَ نَكِيرةٍ [٣] ونُلحِمُه [٤] طوراً وليس بذى نكرِ

يُغَارُ علينا واترين فيُشْتَفَى بنا إن أُصِبْناَ ، أو نُغيرعلى وتْرِ

بذاك قَسَمْناَ الدهر شَطْرين قِسْمةً فما ينقضى إلا ونحنُ على شطر

قال المفضّل : ثم ظهرت لنا جيوش أبى جعفر مثلُ الجراد ، فتمثّل إبراهيم :

إن يقتلونى [٥] لا تُصِبْ أرْماحُهم ثأرى ويسعى القوم سَعْياً جاهدا

نُبِّئتُ أن بنى جَذِيمة أجمعتْ أمرا تُدَبِّرُه لتَقْتُلَ خالدا

أرْمِي [٦] الطريقَ وإن رُصِدت بِضيقِه وأنازلُ البطل الكَمِيَّ الحارِدَا [٧]

قلت له : من يقول هذا الشعر يا بن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر ابن كِلاب يوم شِعْب جَبَلَة .

ثم أقبلت عساكر أبى جعفر المنصور ، فطعن رجلًا وطعنه آخر ، فقلت له : أتباشر القتال بنفسك ! وإنما العسكر منوط بك ، فقال : إليك يا أخا بنى ضبّة ، فإنى لكما قال عويف القوافى :

ألمّت سعاد ، وإلمامُها أحاديثُ نفسٍ وأحلامُها

محجّبةٌ من بنى مالكٍ تَطَاول فى المجد أعلاَمُها

---

(١) أخوه أيضاً قتله بنو مرة (٢) خالد أخوه أيضاً قتله بنوالحارث بن كعب (٣) التنكر: التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها ، والاسم النكيرة (٤) ألحمته سيفى : قتلته ، وأصل ألحمه : أطعمه اللحم (٥) المعنى : أنهم إن قتلونى ، ثم حاولوا أن يصيبوا رجلا آخر مثلى يصلح أن يكون لى نظيراً وسعوا فى ذلك سعياً جاهداً ، فإنهم لن يجدوا (٦) يقول : أسلك الطريق الضيق ، ولو جعل لى فيه الرصد لقتلى (٧) الحارد : المنفرد فى شجاعته ، الذى لا مثل له .

وإنَّ لنا أصلَ جُرثومةٍ تردّ الحوادثَ أيامُها
تردّ الكتيبةَ مفلولةً بها أَفْنُها وبها ذامُها[1]

والتحمت الحرب واشتدّت ، فقال يا مفضّل : احكني بشيء ، فذكرت أبياتاً لعُوَيف القوافى لما كان ذَكَرَه هو من شعره فأنشدته :

ألا أيُّها النّاهى فَزارةَ بعدَما أجدّت لسَيْرٍ ، إنّما أنت ظالمُ
أَبَى كلُّ حرٍّ أن يبيت بِوِتْره وتمنعَ منه النومَ إذ أنت نائمُ
أقول لفتيان كرامٍ تروّحوا على الجُرْدِ فى أفواههن الشكائمُ :
قِفوا وقفةً ، مَنْ يَحْيَ لا يُخْزَ بعدها ومَن يُخْتَرَمْ لا تتبَّعْه اللوائمُ
وهل أنت إنْ باعدتَ نفسك عنهمُ لتسلَمَ فيما بعد ذلك ، سالم !

فقال : أعد وتبيّنْتُ من وجهه أنه يستقتل ، فانتهيت وقلت : أو غير ذلك ! فقال : لا ، بل أَعِد الأبيات ، فأعدتها ، فتمطّى فى ركابَيْه فقطعهما ، وحمل فغاب عنى ، وأتاه سَهْمٌ عائرٌ[2] فقتله ، وكان آخر عهدى به .

---

(١) الأفن : النقص ، والذام : العيب (٢) العائر من السهام : مالا يعرف راميه .

١٦٢ — مصرَع الوليد بن طَرِيف *

كان الوليدُ بن طَرِيف الشيبانيّ[1] رأسَ الخوارج وأشدَّهم بأساً وصَوْلة ، واشتَدَّتْ شوْكته ، وطالتِ أيامُه ، فوجَّه إليه الرشيد يزيدَ بنَ مزيد الشيبانيّ[2] ، فجعل يخاتِله ويمـاكره ـ وكانت البرامكة منحرفةً عن يزيد ـ فأغرَوْا به أميرَ المؤمنين ، وقالوا : إنما يتجافى عنه للرَّحِم ، وإلا فشَوْكة الوليد يَسيرة .

فوجّه إليه الرشيد كتابَ مُغْضَب يقول فيه : ولو وجَّهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تَقُوم به ، ولكنك مُدَاهِن مُتَعَصِّب ؛ وأميرُ المؤمنين يُقسمُ بالله لئن أخرتَ مناجزة الوليد ليُوَجِّهَنَّ من يَحْمِلُ رأسَك إلى أمير المؤمنين ..

فلقِيَ الوليدَ عشيّة خميس فى شهر رمضان ، وقال لأصحابه : فِدَاكم أبى وأمى ! إنما هى الخوارج ولهم حَمْلَة ، فاحملوا فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا ، فكان كما قال : حملوا حَمْلَة وثبت يزيد ومن معه من عشيرته وأصحابه ؛ ثم حمل عليهم فانكشفوا واتبع يزيد الوليد بن طَرِيف فلحقه بعد مسافة وألْفَاه يقول :

أنا الوليدُ بن طَرِيف الشارى[3] قَسْوَرَة[4] لا يُصْطَلى بنارى
* جَوْركم أخْرَجنِي من دارى *

---

* الأغانى ١١ ـ ٩ ، معاهد التنصيص : ٥١ : ٢

(١) ثائر من الأبطال ، خرج فى خلافة الرشيد ، فأرسل إليه الرشيد جيشاً قائده يزيد بن مزيد الشيبانى فقتله بعد - ، شديدة سنة ١٧٩ هـ . (٢) أمير من القادة الشجعان ، توفى سنة ١٨٥هـ

(٣) الشارى : الخارجى ، وهم الشراة (٤) القسورة : العزيز يقتسر غيره ، أى يقهره .

فأخذ يزيد رأسه . ولما سمعتْ بهذا أختُه ليلى بنت طَرِيف صبَّحتهم مستعدة عليها الدِّرع والجَوْشن [١] ، فجعلت تحمل على الناس فعُرِفت ، فقال يزيد : دَعُوها ، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قَطَاة [٢] فرسها ، ثم قال : اغرُبى [٣] أغْرَبَ الله عينيك ، فقد فَضَحْتِ العشيرة ، فاستَحْيَتْ وانصرفتْ وهى تقول :

بِتَلِّ نُبَاثَى [٤] رسمُ قبرٍ كأنَّه ... على عَلَمٍ فوق الجبال مُنِيفِ

تضمَّن جوداً حاتميًّا ونائلًا ... وسَوْرَةَ مِقْدامٍ وقلبَ حصيفِ

فإنْ يَكُ أَرْدَاه يزيدُ بنُ مَزْيدٍ ... فيارُبَّ خَيلٍ فَضَّها وصُفُوفِ !

ألَا يا لقَومى للنوائب والرَّدى ... ودَهْرٍ مُلِحٍّ بالكرام عَنِيفِ !

وللبدر من بين الكواكب إذْ هَوى ... وللِشَّمس همَّت بعده بكسوفِ

ولَلَّيْثِ كلَّ الليث إذ يحملونه ... إلى حُفْرَة مَلْحَودة وسَقِيف [٥]

أيا شجَرَ الخابُورِ [٦] مالكَ مُورِقاً ... كأنك لم تجزَعْ على ابنِ طَرِيفِ !

فتًى لا يحبُّ الزادَ إلا من التُّقَى ... ولا المال إلا من قنًا وسيوفِ

فلا تجزَعا يابْنَى طَرِيفٍ فإنّنى ... أرى الموت نزّالا بكلِّ شريفِ

فقدناك فِقدَان الربيع ولَيْتَنَا ... فَدَيْنَاكَ من دَهْمَائِنا بألوف

***

ولما انصرف يزيد بالظَّفر حُجِب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخْطَ عليه؛ فقال : وحقّ أمير المؤمنين لأصيِّفنّ وأشْتُوَنّ على فرسى أوأدخل .

---

(١) الجوشن : الحديد الذى يلبس من السلاح، وقيل : زرد يلبسه الصدر (٢) القطاة : العجز
(٣) يقال : اغرب عنى أى تباعد ، ويقال غربت العين إذا ورم مأقها (٤) نباثى كسكارى : موضع بالبصرة (٥) السقيف : السقف (٦) نبت ، ونهر ، وواد .

فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ؛ فلما رآه أميرُ المؤمنين ضحك وسُرّ ، وأخذ يصيح : مَرْحباً بالأعرابى حتى دخل وأجلسه وأكرمه ، وعرف بلاءه ونقاء صَدْره [1] .

---

(١) ولما عفا عنه الرشيد مدحه الشعراء ، فكان ممن مدحه مسلم بن الوليد ، ومن أحسن ما ورد فى شعره قوله :

يفتر عند افترار الحرب مبتسما	إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج ، فى يوم ذى رهج	كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به	كالموت مستعجلا يأتى على مهل
يقرى المنية أرواح العداة كما	يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رءوس الناكثين به	ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه	مسالكُ الموت فى الأبدان والقلل

البَابُ الخَامِسُ

فى القصص التى تحكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث ، فى الغارات والغَزَوات والفتوح ، مصوِّرة نفسياتهم وأحوالهم ، واصفة تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفساح رُقعتها ، مفصلة عُدَدَهم وآلاتهم وأسلحتهم فى حياتهم الجديدة .

١٦٣ — كِلاَب بن أُميَّة وأَبَوَاه *

حدَّث عُرْوَة بن الزبير قال : هاجر كلابُ بنُ أميّـة بن الأسكر إلى المدينة في خلافةِ عمر بن الخطاب ، فأقام بها مدة ، ثم لَقِيَ ذات يوم طلحةَ بن عبد الله والزبير بن العوّام ، فسألهما : أيّ الأعمال أفضلُ في الإسلام ؟ فقالا : الجهاد . فسأل عمر فأغْزَاه في جيش ، وكان أبوه قد كبر وضعف ، وخرج معه أخٌ له آخر ؛ فانبَعَثَ أمية يقول :

يا أمَّ هيثمَ ؛ ماذا قلتِ أبـلانى ... رَيْبُ المَنُون وهذَانِ الجديدَانِ [1]

إمّا ترَى حَجَرِى قد رَكَّ [2] جانبهُ ... فقد يسرُّك صُلْباً غيرَ كذَّانِ [3]

إمّا ترَيْنِيَ لا أمْضِي إلى سَفرٍ ... إلّا معى واحـدٌ منكمْ أو اثْنان

يابنَيْ أميـةَ ، إنى عنكما غَانِى ... وما الغِنَى غـير أنّى مُرْعَشٌ فانِى

يابنَيْ أميـةَ ، إلّا تَشْهَدَا كِبَرِى ... فإنّ نَأيَكُما والثُّكل مِثْلاَنِ

إذ يَحْمِلُ الفرسُ الأحْوَى [4] ثلاثتَنَا ... وإذْ فِرَاقُكُما والموتُ سِيّانِ

أصبحتُ هُزْءاً لِرَاعى الضَّأنِ أعْجِبُهُ ... ماذا يَرِيبُكَ مِنّى رَاعِيَ الضَّان !

انعَقْ بضأنك في نَجْمٍ [5] تُحَفِّرُه ... من الأبَاطح واحْبِسْها بِجُمْدَان [6]

إنْ ترْعَ ضَأْناً فإنّى قـد رعَيْتُهُم ... بِيضَ الوُجوه بَنِى عمى وإخْوَانى

---

* المحاسن والمساوئ : ٥٨٨ ، (طبع ليزج) ، ذيل الأمالى : ١٠٨

(١) الجديدان : الليل والنهار (٢) رك : ضعف (٣) الكذان : الرخو

(٤) الأحوى : الأسود (٥) النجم : ما نجم من النبات على غير ساق (٦) جمدان : جبل بطريق مكة ، وواد .

فلما طالت غيبةُ كلاب عنه قال :

لمنْ شَيْخَانِ قد نَشَدَا كِلَابا[١] كِتاب الله إنْ رقَبَ الْكِتابا

نُنَفّضُ مَهْدَه شفقاً عليه ونَجْنُبُهُ أبَاعِرنا[٢] الصِّعابا

إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وادٍ على بَيْضاتِها دَعَوَا كلابا

تركْتَ أباكَ مُرْعَشَةً يداه وأمَّكَ ما تُسِيغ لها شرابا

أُنادِيه وولَّانِي قَفَاهُ فلا وأبى كلابٌ ما أصابَا

فإنْ مُهاجِرَيْنِ تكنَّفَاهُ ليتركَ شَيْخَهُ ؛ خطِئا وخابَا

وإنَّ أباكَ حين تركتَ شيخٌ يُطارِدُ أَيْنُقاً شُسُباً[٣] طِرابا

إذا بلغ الرَّسيم[٤] فكان شدًّا[٥] يَخِرُّ ؛ فخالط الذَّقَنُ التُّرابا

فبلغت أبياته عمر ، ولم يَرُدَّ كِلَابا ، فاهتز أمية واخْتَلَطَ[٦] جزَعاً عليه، وتغنّت الرُّكْبَان بشعر أبيه فبلغه ، فأنشأ يقول :

لعمركَ ما تركتُ أبا كلابٍ كبيرَ السنِّ مُكْتَئِباً مُصابَا

وأمّا لا يزالُ لها حنينٌ تنادِى بعد رَقدَتِها كِلَابَا

لِكَسْبِ المال أو طلبِ المعالِي ولكنِّى رجوتُ به الثّوابَا

ثم أتاه يوما وهو فى مسجد الرسول ، وحولَه المهاجرون والأنصار ، فوقف عليه ثم أنشأ يقول :

أعاذلُ قد عذلْتِ بغير عِلْمٍ ولا تَدْرِين عَاذِلُ ما أُلاقِى

---

(١) نشدا : طلبا (٢) الأباعر : جمع بعير (٣) الشسب : جمع شاسب وهو النحيف اليابس . (٤) الرسيم : سير للابل . (٥) الشد هنا : العدو
(٦) اختلط : فسد عقله .

فإمَّا كنتِ عاذلتى فردّى كلاباً إذ توجَّـه للعراقِ
ولم أقض اللُّبانة من كلابٍ غداة غدٍ وآذَن بالفراق
فتَى الفتيان فى عُسْرٍ ويسرٍ شديد الركْن فى يوم التَّلاق
فلا والله ما باليت وَجْدِى ولا شَفقى عليك ولا اشتياقى
سأسْتَعْدِى على الفاروق رَبًّا له حجّ الحجيج على اتِّساقِ
وأدعُو الله مجتهداً عليه ببطن الأخْشَبَين(١) إلى دُفاق(٢)

فلما أنشدها عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقّاص : أن رحّل كلاباً ، فرحّله .

فلما قدم دخل إليه فقال : ما بلغ من برّك بأبيك ؟ قال : كنتُ أبرّه وأكفيه أمرَه ، وكنت أعتمد ـ إذا أردت أن أحلب لبناً ـ أغْزَرَ ناقة فى إبله وأسمنَها فأسقيه لبنها .

فبعث عمر إلى أميّة مَنْ جاء به إليه . فأدخله يتهادى ، وقد ضَعُف بصره وانحنى . فقال له : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ قال : كما ترانى يا أمير المؤمنين ؛ قال: فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم، أَشتهى أن أرى كلاباً ، فأشمه شمّةً ، وأضمه ضمّة قبل أن أموت . فبكى عمر ثم قال : ستبلغ من هذا ما تحبّ إن شاء الله تعالى .

ثم أمر كلاباً أن يحتلبَ لأبيه ناقة كما كان يفعل ، ويبعث إليه بلبنها . ففعل، فناوله عمرُ وقال : دونك هذا يا أبا كلاب . فلما أخذه وأدناه إلى فمه ، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، إنى لأشَمّ رائحةَ كلاب من هذا الإناء . فبكى عمر وقال: هذا كلابٌ عندكَ حاضراً قد جئناك به . فوثب إلى ابنه وضمّه إليه وقبّله .

---

(١) الأخشبان : جبلا مكة : أبوقبيس والأحمر ، وجبلا منى (٢) دفاق : موضع أوواد.

وجعل عمر يبكى ومَنْ حضره ، وقال لكلاب : الزم أبويك فجاهِدْ فيهما ما بَقِيا ، ثم شأنك بنفسك بعدهما ؛ وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه .

ثم قُتل كلاب مع على بن أبى طالب بصِفِّين ، وعاش أبوه أُمَيَّة دهراً طويلا ، حتى خَرِف ، فمرّ به غلام له كان يرعى غنمه ، وأُمَيَّةُ جالس يَحْثُو على رأسه التراب ؛ فوقف ينظر إليه ، فلما أفاق بصر بالغلام ، فقال :

أصبحتُ لهواً لراعى الضَّأْنِ أُعْجِبُهُ ماذا يَرِيبكَ منى رَاعِيَ الضَّانِ !

انْعِقْ بضأنِك إنى قد فقدتُهُمُ بيضَ الوُجوهِ بنى عمِّى وإخْوانى

١٦٤ — فى يوم اليَرْموك*

شهد اليرموكَ ألفُ رجل من أصحاب رسول الله فيهم نحو مائة من أهل بَدْر ، وكان أبو سفيان يسير فيقفُ على الكَرَادِيس[١] فيقول : اللهَ اللهَ ؛ إنكم ذَادَةُ[٢] العرب وأنصارُ الإسلام ، وإنهم ذَادَةُ الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إنّ هذا يومٌ من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وأمر خالد عِكْرِمَة[٣] والقَعْقَاع[٤] ، فأَنْشَبَا القتال ، وارتجز القعقاعُ وقال :

يا ليتنى ألقاكَ فى الطِّرَاد ... قبل اعْتِرَام[٥] الجَحْفَلِ الورَّادِ

* وأنتَ فى حَلْبَتِكَ الورادِ[٦] *

وقال عكرمة :

قد علمتْ بَهْكَنَةُ[٧] الجوارِى ... أنِّى على مَكْرُمَةٍ أحامِى

فَنَشِبَ القتال ، والْتَحَمَ الناس ، وتطارد الفرسان ؛ فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول ، وسألوه الخبر ، فلم يخبرهم إلا بسلامة ، وأخبرهم عن إمداد ؛ وإنما جاء بموت أبى بكر رحمه الله ، وتأمير أبى عبيدة .

---

* الطبرى : ٤ ـ ٣٤

(١) الكردوسة : القطعة العظيمة من الخيل (٢) ذادة : جمع ذائد ، وهو المدافع

(٣) من صناديد قريش فى الإسلام ، كان هو وأبوه من أشد الناس على النبى ، وأسلم فى يوم الفتح فشهد الوقائع ، وولى الأعمال لأبى بكر واستشهد سنه ١٥ هـ (٤) أحد فرسان العرب وأبطالهم شهد اليرموك ، وكان شاعراً فحلا مات نحو ٤٠ هـ (٥) الاعترام : الاشتداد وفى حديث على « على حين فترة من الرسل واعترام من الفتن » (٦) الحلبة : جماعة الخيل ، والوراد جمع ورد ، وهو الفرس بين الكميت والأشقر (٧) البهكنة : الفتاة الغضة .

فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبى بكر أسرَّه إليه ، وأخبره بالذى أخبر به الجند ؛ فقال : أحسنت فقِفْ ؛ وأخذ الكتاب ، وجعله فى كِنانَتِه ؛ وخاف إنْ هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند ؛ فوقف مَحْمِيَة بن زُنَيْم — وهو الرسول — مع خالد وخرج جَرَجَة[1] حتى كان بين الصفين ، ونادى : لِيَخْرُجْ إلىّ خالد .

فخرج إليه خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقَفَهُ بين الصفَّيْنِ حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد أمّن أحدهما صاحبه ؛ فقال جَرَجَة : يا خالد ؛ اصدقنى ولا تكذبنى فإن الحُرّ لا يَكْذِبُ ، ولا تُخادِعنى فإن الكريم لا يُخَادِع ، هل أنزل الله على نبيّكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هَزَمْتَهم ؟ قال : لا ! قال : فيم سُمِّيتَ سيفَ الله ؟ قال : إن الله عزّ وجلّ بعث فينا نبيّه ، فدعانا فنَفَرْنا عنه ؛ ونَأَينا جميعاً ؛ ثم إن بعضَنا صدّقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فكنتُ فيمن كذّبه وباعده وقاتَله ؛ ثم إنّ الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابَعْناه ، فقال : أنت سيفٌ من سيوف الله سلّه اللهُ على المشركين ، ودعا لى بالنّصر ، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك ؛ فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين ، قال : صَدَقْتَنِي !

ثم أعاد عليه جَرَجَة : ياخالد ؛ أخبرنى إلامَ تدعونى ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسوله ، والإقرار بما جاء من عند الله ؛ قال : فمن لم يجبكم ؟ قال : فالجِزْيةُ ونمنعه ! قال : فإن لم يُعْطِها ؛ قال : نُؤْذِنه بحرب ثم نقاتله ! قال : فما منزلةُ من يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا .

ثم أعاد عليه جَرَجَة : هل لمن دَخَل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من

---

(١) جرجة : مقدم عسكر الروم يوم اليرموك .

الأجر والذّخر ؟ قال : نعم ، وأفضل ، قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ! قال : إنا دخلنا فى هذا الأمر ، وبايعنا نبيّنا وهو حىّ بين أظهرنا تأتيه أخبارُ السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ، وحُقّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسْلِمَ ويُبَايع ، وإنكم أنتم لم تَرَوْا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل فى هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال جرجة : بالله لقد صدقْتنى ولم تخادعنى ولم تَأَلَّفْنى . قال : بالله لقد صدقتُك وما بى إليك ولا إلى أحدٍ منكم وَحْشة ، وإن الله لولىُّ ما سألتَ عنه . فقال : صدقتنى ، وقلَب التُّرْسَ ومال مع خالد ، وقال : علِّمنى الإسلام ؛ فمال به خالدٌ إلى فُسْطَاطه[1] فشنّ عليه قِرْبَةً من ماء وصلّى ركعتين !

---

(١) الفسطاط : الخيمة .

١٦٥ — فى يوم القادسية *

كان أبو مِحْجَن الثَّقَفِىّ(١) من المُعاقرين للخمر ، المحدودين فى شُرْبها ، أقام عليه عمر بن الخطاب الحدّ مراراً ، وهو لا ينتهى ؛ فنفاه إلى جزيرةٍ فى البحر ، وبَعَثَ معه حَرَسيًّا (٢) ، فهرب منه ولحق بسعد بن أبى وقاص ، وهو فى حربه مع الفرس وكانت حربَ القادسية .

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بحَبْسِه، فحبسه فى القصر ، وتطلَّع أبو مِحْجَن إلى الحرب ، فرآها مُشْتَعِلةً ، فذهب إلى سَلْمى بنت أبى حفص - زوج سعد ، فقال لها: هل لكِ فى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تُخَلِّينَ عنى وتُعيرينى البَلْقاء (٣) ؛ فَلِلّهِ علىّ إن سلّمنى الله أن أرجع إليك حتى تَضَعِى رِجْلى فى قَيْدِى ؛ فقالت : وما أنا وذاك ؟ فرجع يرسُفُ فى قُيوده ، ويقول :

كفى حَزَناً أن تَرْدِىَ الخيلُ بالقنا ... وأُتْرَكَ مشدوداً علىّ وثاقيا

إذا قمتُ عنّانِى الحديد وغُلِّقَتْ ... مصاريعُ مِنْ دونى تُصِمُّ المُناديا

وقد كنتُ ذا مال كثيرٍ وإخوةٍ ... فقد تركونى واحداً لا أخا ليا

---

* مهذب الأغانى : ٢ ـ ٤٨ ، الخزانة : ٣ ـ ٥٥٣ ، الأغانى : ٢٠ ـ ١٣٨ ، الكامل لابن الأثير : ٢ ـ ٢٣٢ ، المسعودى : ١ ـ ٤٢٣

(١) أبو محجن اسمه وكنيته على المشهور ، أسلم سنة ٩ هـ ، وسمع من النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان جوادا كريما من الفرسان المشهورين فى الجاهلية والإسلام مات سنة ٣٠ هـ

(٢) الحرسى : واحد حرس السلطان (٣) البلقاء : فرس سعد بن أبى وقاص .

وقد شفّ جسمى أننى كلّ شارق[1] | أعالج كَبْلاً[2] مُصْمتاً قَدْ بَرَانيا
فللهِ دَرِّى يوم أُتْرَكُ مُوثقاً | وتَذْهَـــلُ عنى أسْرَتى ورِجاليا !
حَبِيساً عن الحرب العَوَان وقدبدَتْ | و إعمال غــيرى يومَ ذاكَ العَوَاليا
ولله عهــدٌ لا أخيسُ[3] بعهدِه | لئن فُرِّجت أَلّا أزورَ الحوَانيا[4]

فقالت له سَلْمَى : إنى استَخَرْتُ الله ورضيتُ بعهدك ، وأطلقَته .

فاقتاد أبو مِحْجَن الفرسَ ، وأخرجها ثم ركبهـا ، ودبّ عليها ، وفى ذلك اليوم أظهر من شجاعته عَجَباً . ولما تحاجزَ أهلُ العَسْكرَين أقبل أبو محجن حتى دخل القصر ، ووضع نفسه عن الدابة ، وأعاد رجليه فى القيد وقال :

لقد عَلِمَتْ ثقيف غــيرَ فخرٍ | بأنّا نحنُ أكرمُهُمْ سيوفاَ
وأكثرُهم دروعاً سابغات | وأصبرُهم إذا كَرِهوا الوقوفا
فإن أُحْبَس فقد عرفوا بلائِى | و إن أُطْلَق أجرِّعُهم حُتُوفا

فقالت له سَلْمى : ياأبا مِحْجَن ؛ فى أىّ شىء حبسك هـذا الرجل ؟ فقال : أما والله ماحبسنى بحرام أكلْته ولا شربتُه ، ولـكنى كنتُ صاحبَ شراب فى الجاهليّة ؛ وأنا امرؤ شاعر ، يدبّ الشعر على لسانى ، فينفِثُه أحياناً ، فحبسنى لأنى قلت :

إذا مِتّ فادفِنِّى إلى أصـلِ كَرْمةٍ | تروّى عِظامى بعـد موتى عروقُها
ولا تدفنَنِّى بالفَـــلاة[5] فإننى | أخافُ إذا ماِمتُّ ألّا أذُوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر أبى مِحْجن ، فدعا به وأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعلَه ؛ فقال : والله لا أجبت لسانى إلى قبيح أبداً.

---

(١) أصل الشارق : اليوم الذى فيه الشمس ، والمراد كل يوم . (٢) الكبل : القيد
(٣) خاس بالعهد : غدر ونكث (٤) الحانية : الدكان ، وهو يريد أمكنة بيع الخمر
(٥) الفلاة : الأرض المهلكة .

١٦٦ — فى فتح نِهاوَند *

بعث عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه السائبَ بن الأقْرع مولى ثَقِيف ، وكان رجلاً كاتباً حاسباً ، فقال : الحق بهذا الجيش — جيش المسلمين بنِهاوَند — فكن فيهم ، فإن فتح الله عليهم فاقسم على المسلمين فيئهم ، وخذ خمسَ الله وخمس رسوله ، وإنْ هذا الجيشُ أُصيب فاذهب فى سَوَادِ الأرض فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

قال السائب : فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائمَ عظاماً ، فوالله إنّى لأقْسِم بين الناس إذ جاءنى عِلْج من أهلها ، فقال : أتؤمّننى على نفسى وأهلى وأهل بيتى على أن أدلّك على كُنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك ولا يَشْرَكك فيها أحد ؟ قلت : نعم ! قال : فابعث معى من أدلّه عليها ، فبعثت معه ، فأتى بسَفَطَيْنِ عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزَّبَرْجَدُ والياقوت ،

فلمّا فرغت من قَسْمى بين الناس احتملتهما معى، ثم قدمتُ على عمر بن الخطاب فقال : ما وراءك ياسائب ؟ فقلت : خيرا يا أمير المؤمنين ؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستُشهِد النعمان[1] بن مُقَرّن رحمه الله ، فقال عمر : إنا لله و إنا إليه راجعون! ثم بكى فنَشَجَ[2] .

---

* الطبرى : ٤ — ٢٣٢

(١) صحابى فاتح من الأمراء القادة الشجعان ، فتح القادسية ، وولاه عمر إمرة الجيش فغزا أصبهان ففتحها ، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١ هـ . (٢) نشج الباكى : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

فلمّا رأيت ذلك قلت : والله يا أميرَ المؤمنين ما أصيب بعـده من رجل يُعْرَف وجهه !

ثم قام ليدخـل ، فقلت : إن معى مالاً عظيماً قد جئتُ به ، ثم أخبرتُه خبر السَّفَطَين ، فقال : أدخلهما بيت المـال حتى ننظر فى شأنهما ، والحق بجندك ، فأدخلتهما بيت المال ، وخرجت سريعاً إلى الـكوفة .

وبات تلك الليـلة التى خرجتُ فيها ، فلما أصبح بعثَ فى أثَرِى رسولا ، فوالله ما أدركنى حتى دخلتُ الـكوفة ، فأنَخْتُ بعيرى وأناخ بعيره على عُرْقُوبَىْ بعيرى ، فقال : الحق بأمير المؤمنين ؛ فقد بعثنى فى طلبك ، فلم أقدر عليك إلا الآن! قلت : ويلك ! ماذا ؟ ولماذا ؟ قال : لا أدرى والله .

فركبتُ معه حتى قدمتُ عليـه ؛ فلمـا رآنى قال : مالى ولابن أمّ السائب ؟ بل ما لابن أم السائب ومالى ؟ قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويحَك ! والله ما هو إلا نِمْتُ فى الليلة التى خرجتَ فيهـا فباتت ملائـكة ربى تسحبنى إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً ، يقولون : لنـكوينَّك بهما ، فأقول : إنى سأقسمهما بين المسلمين ، فخذهما عنى لا أبا لك ، والحق بهما فبعهما فى أعطيات المسلمين وأرزاقهم!

فخرجتُ بهما حتى وضعتهما فى مسجد الـكوفة ، فابتاعهما منى عمرو بن حُرَيْث المخزومىّ بألفى درهم ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف .

١٦٧ — عمرو بن العاص وأحد كفار العجم*

لما فتح عمرو بن العاص قَيْسَارِيَة[١] سار حتى نزل غزّة؛ فبعث إليه عِلْجُها[٢]: أن ابعثْ إلىّ رجلًا من أصحابك أكلِّمه؛ ففكّر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيرى.

فخرج حتى دخل على العِلْج فكلَّمه؛ فسمع كلامًا لم يسمعْ قطُّ مثله، فقال العِلْج: حدّثنى؛ هل فى أصحابك أحدٌ مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا! إنى هيّن عليهم؛ إذ بعثوا بى إليك، وعرّضونى لما عرضونى له، ولا يدرون ما تصنعُ بى.

فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذا مرَّ بك فاضربْ عنقه، وخذ ما مَعَه.

فخرج من عنده؛ فمر برجل من نصارى غسّان، فعرفه، فقال: يا عمرو: قد أحسنتَ الدخول فأحْسن الخروج! ففَطِن عمرو لما أراده، فرجع! فقال له الملك: ما ردّك إلينا؟ قال: نظرتُ فيما أعطيتنى، فلم أجدْ ذلك يَسَعُ بنى عمى، فأردت أن آتيكَ بعشرة منهم، تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفُك عند عشرة خيرًا

---

* العقد الفريد: ١ — ١٤٦

(١) بلدة بفلسطين.

(٢) العلج: الرجل من كفار العجم.

من أن يكونَ عند واحد ! فقال : صدقتَ ، اعْجلْ بهم ! و بعثَ إلى البواب : أنْ خلّ سبيله !

فخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أَمِن ، قال : لا عدتُ إلى مثلها أبداً !

فلما صالحهُ عمرو ودخل عليه العِلْج ، قال له : أنت هو ؟ قال : نعم ، على ما كان من غَدْرك !

١٦٨ — عمر بن الخطاب وغنائم المسلمين*

بعث عُمَرُ سلمة بن قيس الأشْجَعىّ إلى طائفةٍ من الأكراد كانوا على الشِّرْك؛ فخرج إليهم فى جيش أَرْسَلَهُ معه من المدينة.

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجِزْية، فأبَوْا، فقاتلهم فنصره اللهُ عليهم؛ فقتل المقاتلة؛ وسَبَى الذُّرِّية، ووجد حِلْيَةً وفصوصاً وجواهر، فقال لأصحابه: أتطيبُ أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين؛ فإنه غيرُ صالحٍ لكم، وإنَّ على أمير المؤمنين لمئونةً وأثقالا، قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا.

فجعل الجواهر فى سَفَط[1]، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سِرْ فإذا أتيتَ البَصْرَة فاشتر راحلتين فأوْقِرْهما[2] زاداً لك ولغلامك، وسِرْ إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت فأتيتُ عمر وهو يُغَدِّى الناس قائماً متكئاً على عصا كما يصنع الراعى، وهو يدور على القصاع؛ فيقول: يا يَرْفَأ[3]، زِدْ هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خُبْزاً، زد هؤلاء مَرَقة.

فجلستُ فى أدْنى الناس. فإذا طعامٌ فيه خُشُونة، طعامى الذى معى أطيبُ منه. فلما فرغ أَدْبَرَ فاتّبَعْتُهُ، فدخل داراً فاستأذنت، ولم أُعلِم حاجبه من أنا، فأذن لى، فوجدته فى صُفَّةٍ[4] جالساً على مِسْحٍ[5] متكئاً على وسادتين من

* ابن أبى الحديد: ٣: ١٥٧

(١) السفط: كالجوالق أو كالقفة، جمعه أسفاط (٢) أوقر الدابة: حملها (٣) يرفأ: مولى عمر بن الخطاب (٤) الصفة من البنيان: شبه البهو الواسع (٥) المسح: ثوب من الشعر غليظ.

أَدَم [١] محشوَّتين ليفاً ، وعليه سِتْر من صوف ، فنبذ إلىَّ إحدى الوسادتين ، فجلست عليهما .

فقال : يا أمَّ كلثوم ، ألا تُغدُّوننا ؟ فأخرجت إليه خُبْزَةً [٢] بزيت فى عَرْضها مِلْحٌ لم يُدَق ، فقال : يا أمَّ كلثوم ، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا ؟ فقالت : إنى أسمعُ عندك حِسَّ [٣] رجل ، قال : نعم ، ولا أراه من أهل هذا البلد . فقالت : لو أردتَ أن أخرجَ إلى الرجال لكسوتنى كما كسا الزبيرُ امرأته ، وكما كسا طلحةُ امرأته !

قال : أو ما يكفيك أنك أمُّ كلثوم ابنةُ علىّ بن أبى طالب ، وزوجةُ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب ؟ قالت : إن ذاك عندى لقليل الغناء ! ثم قال : كُلْ ، فلو كانت راضيةً لأطعَمَتْك أطيَبَ من هذا . فأكلتُ قليلاً ، وطعامى الذى معى أطيبُ منه . وأكل ، فما رأيت أحداً أحسنَ أكلا منه ، ما يتَلَبَّثُ [٤] طعامُه بيده ولا فمه .

ثم قال : اسْقونا ؛ فجاءوا بعُسٍّ [٥] من سُلْتٍ [٦] ، فقال : اشْرَبْ ، فشربتُ قليلا ، وإنَّ سَوِيقى الذى معى لأطيبُ منه ، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدحُ جبهتَه .

ثم قال : الحمدُ لله الذى أطعمنا فأشبعنا ، وسقانا فأرْوَانا ؛ إنّك يا هذا لضعيف الأكل ضعيفُ الشرب .

---

(١) الأدم : جمع للأديم : وهو الجلد (٢) الخبزة : عجين يوضع فى الملة حتى ينضج ، والملة : الرماد والتراب الذى أوقد فيه النار (٣) الحس : الصوت الخفى (٤) لايتوقف (٥) العس : القدح العظيم (٦) السلت : الشعير .

فقلت : يا أمير المؤمنين؛ إن لى حاجة ، قال : ماحاجتك ! قلت : أنا رسول سلمة ابن قيس قال : مرحباً بسلمة ورسولِه ، فكأنما خرجت من صُلْبِه ـ حدِّثْنى عن المهاجرين كيف هم ؟ قلت : كما تحبُّ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ من السلامة والظفَر والنَّصر على عدوهم . قال : كيف أسعارُهم ؟ قلت : أرخص أسعار ؛ قال : كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها ؟ قلت : البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا . ثم قلت : سِرْنا يا أمير المؤمنين حتى لقِينا عدوَّنا من المشركين ، فدعوناهم إلى الذى أمرتَ به من الإسلام فأبَوْا ، فدعوناهم إلى الخَرَاج فأبَوْا ؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم ، فقتَلْنا المقاتِلَة ، وسبينا الذُّرِّية ، وجمعنا الثروة ، فرأى سلمة فى الأموال حِلْيَةً ، فقال للناس : أتطيبُ أنفسكم أن أبعثَ بها إلى أمير المؤمنين ؟ قالوا : نعم ! ثم استخرجتُ سَفَطى ففتحتُه .

فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر ، وثب وجعل يده فى خاصرته يصيح صياحاً عالياً ويقول : لا أشبع اللهُ إذنْ بطنَ عمر ـ يُكَرِّرُها !

فظنَّ النساء أنى جئت لأغتاله ، فجئْنَ إلى الستر فكشفْنَه ، فسمعنه يقول : لفَّ ما جئتَ به ؛ يا يرْفأ ، جأْ عنقَه[1] ! فأنا أصلح سَفَطِى ، ويرفأ يَجَأُ عنقى !

ثم قال : النجاء النَّجاء ! قلت : يا أميرَ المؤمنين فاحملنى ! فقال : يا يرفأ ، أعْطِه راحلتين من إبلِ الصدقة ، فإذا لقيتَ أحداً أفقر إليهما منك فادفعهما إليه .

---

(١) وجأت عنقه : ضربته .

وقال : أظنك سَتُبْطِئُ ، أما والله لئن تفرّق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يُقَسَّمَ هذا فيهم لأفعلنّ بك وبصاحبك الفَاقِرَةَ[1] !

قال : فارتحلتُ حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس ، فقلت : لا بارك الله فيما اخْتَصَصْتَنِي به ! اقسم هذا فى الناس قبل أن تصيبنى وإيَّاكَ فَاقِرة ، فقسّمه فيهم ، فكان الفصُّ يُبَاعُ بخمسة دراهم وبستّة وهو خير من عشرين ألفا

---

(١) الفاقرة : الداهية .

١٦٩ — قد كاد أميركم يهلك *

لمّا تكاملَ للمسلمين فتوحُ الشام ؛ وأقاموا على دمشق شهراً ؛ جمع قائدُهم — أبو عبيدة — أمراءَ المسلمين واسْتَشَارَهُم فى المسير إلى قَيْسَارِيَةَ(١) أو إلى بيت المقدس، فقال مُعاذ بن جَبل : أيّها الأمير ؛ اكْتبْ إلى أمير المؤمنين عمر ؛ فحيثُ أمرك فامْتَثِلْهُ . فقال له : أصَبْتَ الرأىَ يامعاذ !

ثم كتب إلى أمير المؤمنين عُمَر يعلمه بذلك ، وأرسل الكتاب مع عَرْفَجَة ابن ناصح النَّخَعِىّ(٢) ، فسار حتى وصل إلى المدينة ؛ فسلّم الكتاب إلى عمر .

فقرأه على المسلمين واستشارهم ، فقال علىّ بن أبى طالب : ياأميرَ المؤمنين ، مُرْ صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس ، فإذا فتَح الله بيت المقدس صرفَ وجهه إلى قَيْسَارِيّة فإنها تُفْتَح بعدها إن شاء الله .

فدعا عمر بدواة وكَتَب : بسم الله الرحمن الرحيم . من عُمر إلى عامله بالشام أبى عبيدة .

« أما بعد ، فإنى أَحْمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى على نبيّه . وقد وصل إلىّ كتابُك تستشيرنى إلى أى ناحية تتوجَّه ؟ وقد أشار ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسيرِ إلى بيتِ المقدس ، فإنَّ الله يفتحها على يديك ، والسلام » .

---

* المستطرف : ٢ — ١٥

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام ، تعد من أعمال فلسطين (٢) النخعى : نسبة إلى نخع ، وهى قبيلة باليمن .

فلما وصل الكتابُ إلى أبى عبيدة قرأه على المسلمين ؛ ففرحوا بالمسير إلى بيتِ المقدس وتقدَّمه الجيشُ إليها ، وأقام المسلمون فى القتال عشرة أيام ، وأهلُ بيت المقدس يُظهرون الفَرَح وعدمَ الخوف .

فلما كان اليوم الحادى عشر أشرفت عليهم رايةُ أبى عبيدة ، وخالدٌ عن يمينه وعبدُ الرحمن بن أبى بكر عن يساره ؛ فضجَّ الناس بالتهليل والتكبير ، ووقع الرُّعْب فى أهل بيتِ المقدس فاجتمعوا بقُمامة ، وهى البِيعَةُ [1] المعظمة عندهم .

فلما وقفوا بين يدى البَطرَك [2] قال لهم : ماهذه الضَّجة التى أسْمَعُ ؟ قالوا : قد قَدِمَ أميرُ المؤمنين ببقيَّة المسلمين .

فلما سمع ذلكَ تربَّد [3] وجْهُه ، وقال : إنَّا وجدنا فى عِلْمِنَا الذى ورثناه : أن الذى يفتح الأرضَ هو الرجل الأحمر ، صاحبُ نبيهم محمد ؛ فإن كان قَدِم عليكم فلا سبيلَ إلى قِتَاله ، ولا بدّ أن أشْرِف عليه ، وأنظر إلى صفَته ؛ فإن كان هو أجَبْتُهُ إلى مايريد ، وإن كان غيره فلا بأس عليكم .

ثم وثبَ قائمًا والقُسس والرُّهبان من حوله ، وقد رفعوا الصّلبان على رأسه ؛ فصعدوا إلى السّور إلى أن ورد أبو عبيدة ، فناداهم رجل من الروم : يامعاشر المسلمين ؛ كفُّوا عن القتال حتى نَسْألكم !

فأمْسكَ المسلمون عنهم فناداهم بلسانٍ عربى : اعلموا أن الرجل الذى يفتحُ

---

(١) البيعة : متعبد النصارى ، وجمعها بيع ، وقمامة : كانت كنيسة للنصارى بدمشق ، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة ، ويروون أن المسيح قامت قيامته فيها (٢) البطرك : مقدم النصارى .
(٣) تربد . تغير .

بلدتنا هــذه صِفَتُه عنـدنا ؛ فإن كانت فى أميركم لم نقاتلـكم ؛ بل نسلِّمُ إليـكم وإن لم تـكن هذه صفته فلا نسلّم إليـكم أبداً .

فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك ؛ فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذَاهم ، فنظر إليــه البَطْرَكُ مَلِيًّا ، ثم قال : ليس هو الرجل ؛ فأبشرُوا وقاتلوا عن دينـكم وحَرِيمكم .

وكان نزولُ المسلمين على بيت المقدس فى فصل الشتاء والبردِ ، فأقاموا أربعة أشهر فى أشدّ قتال .

فلما نظر أهلُ بيتِ المقدس إلى شدَّةِ الحصار ، ورأَوْا ماحلّ بهم من المسلمين، وقفوا بين يدى البَطْرَك ، وقالوا : قد عَظُم الأمر ، ونريدُ منك أن تشرفَ على القوم وتسألَ : ما الذى يريدون ؟ فإن كان أمراً صَعْباً فتحنا الأبوابَ ، وخرجنا إليهم ، فإما أن نُقتل عن آخرنا أو نهزمهم عنا .

فأجابهم البَطْرَكُ إلى ذلك، وصعد فى السور ، واجتمع القسيسون والرّهبانُ حوله ونادى رجل : يامعشر الفُرْسان ، عُمْدَة دين النصرانية قد أقبل يخاطبـكم ، فَلْيَدْنُ منا أميرُكم .

فقام أبو عبيدة يمشى ، ومعه جماعة من أصحاب رسول الله ، فلما وقف بإزائهم قال : ما الذى تريدون ؟ قال البَطْرَك : إنـكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تَصِلوا إلى فتح بلدتنا ، وإنما يفتحها رجلٌ ليس معكم !

قال أبو عبيدة : وما صفةُ من يفتحُ بلدكم ؟ قالوا : لا نخبركم بصفته ! ولـكن

قرأنا أن هذا البلد يفتحه صاحبٌ لمحمد يعرف بالفاروق [١] لا تأخذه فى الله لومة لائم، ولسنا نرى صفتَه فيكم .

فلما سمع أبو عبيدة كلام البَطْرَك تبسّم وقال : فتحنا البلد وربِّ الكعبة ! ثم أقبل على البَطْرَك وقال : إن رأيتَ الرجلَ تعرفه ؟ قال : نعم ! وكيف لا أعرفه .

قال أبو عبيدة : هو والله خليفتُنا وصاحبُ نبينا . قال : فإذا كان الأمرُ على ما ذكرت فاحْقِن الدماء ، وابعثْ إلى صاحبك ، فإذا رأيناه وتَبَيَّنَّا نَعْتَه ، فتحنا له البلد ، وأعطيناه الجِزْية .

فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكفّ عن القتال ، وكتب إلى عمر يعلمه بالخبر .

فلمّا وصل إليه الكتاب قرأه على المسلمين ، وقال : ما تَرَوْن — رحمكم الله — فيما كتب إلينا أمينُ [٢] الأمة ؟ فكان أولَ من تكلم عثمانُ بن عفّان ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إن الله قد أذلّ الروم، فإن أنتَ أقمتَ ولم تسِرْ إليهم علموا أنك بأمرهم مُسْتَخِفّ ، فلا يثبتون إلا يسيراً .

فلمّا سمع عمرُ ذلك من عثمان جَزاه خيراً ، وقال : هل عند أحدٍ منكُم رأىٌ غيرُ هذا ؟ فقال على بن أبى طالب : نعم ، عندى غيرُ هذا الرأى ، وأنا أُبْدِيه إليك . فقال له عمر : وما هو ياأبا الحسن ؟ قال : إن القوم قد سألوك ، وفى سؤالهم ذلّ ، وهو على المسلمين فَتْح ، وقد أصابهم جَهْدٌ [٣] عظيم ، من البرد والقتال ، وطول المقام

---

(١) لقب عمر بن الخطاب (٢) هو أبو عبيدة (٣) الجهد : المشقة .

وإن سرتَ إليهم فتح الله على يديك هذه المدينة ، وكان لك فى مسيرك الأجرُ العظيم ، ولستُ آمَن منهم أنهم إذا يَئِسوا منك أن يأتيهم المَدَد من طاغيتهم ؛ فيحصل للمسلمين بذلك الضرر . فالرأىُ أن تسير إليهم .

فقال عمر : لقد أحسن عثمانُ النظر فى المَكيدَة للعدو ، وأحسن علىٌّ النظرَ للمسلمين ؛ جزاهما الله خيراً ، ولستُ آخذُ إلا بمشورة علىّ ؛ فما عرفْنَاه إلا محمودَ المشورة ، مَيمُونَ الطلْعة .

ثم إن عمر أمرَ الناس أن يأخذوا الأُهْبة للمسير معه ، واستخلف على المدينة علىّ بن أبى طالب ، وخرج على بعير له أحمر ، عليه غِرَارتان (١) ؛ فى إحداهما سَوِيق ، وفى الأخرى تَمْر ، وبين يديه قِرْبة ، وخلفه جَفْنَةٌ للزّاد .

وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس، فتلقّاه أبو عبيدة ؛ فلما رآه أناخ قَلوصه (٢) ، وأناخ عمر بعيره، وترجّلا ، ومدّ أبو عبيدة يده ، وصافح عمر ، وأقبل المسلمون يسلمون على عمر، ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا ، فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ، ثم خطبهم، فلما فرغ من خُطبته جلس وأبو عبيدة يحدِّثُه بما لَقِى من الروم إلى أن حضرت صلاة الظهر ، فأذّن بِلال فى ذلك اليوم ، فلما قال : الله أكبر ! خشعت جوارحهم ، واقشَعرّت أبدانهم ، وحينما قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » بكى الناس بكاء شديداً عند ذكر الله وذكرِ رسوله ، فلما فرغ من الأذان صلّى عمر ، وجلس ، ثم أمرهم بالركوب .

وركب هو ـ وكانت عليه مُرَقَّعة الصوف ـ فقال المسلمون : يا أمير المؤمنين ،

---

(١) الغرارة : الجوالق (٢) القلوص من الإبل : الشابة .

لو ركبتَ غيرَ بعيرك هذا جواداً ، ولبست ثياباً لـكان أعظمَ لهيْبَتِكَ فى قلوب أعدائك ! وأقبلوا يسألونه و يتلطفُونَ [١] إلى أن أجابهم إلى ذلك ، ونزع مرقعتَه ، ولبس ثيابا بيضا ، وطرح على كتفيه منديلا من الـكَتّان دفعه إليه أبو عبيدة ، وقدم له بِرْذَوْناً [٢] أشهب من بَرَاذِين الرّوم .

فلما صار عمر فوقه جعل البِرْذون يُهَمْلِـج [٣] به ؛ فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً ، وقال : أَقِيلونى؛أقال اللهُ عَثراتـكم يوم القيامة ! لقد كادأميركم يهلك مماداخله من الـكِبْر !

ثم إنه نزَع ثيابه وعاد إلى لبْس مُرَقّعته ، وركوب بعيره ، فَعلَتْ ضجّةالمسلمين، فقال البَطْرَك لقومه : انظروا : ماشأن العرب .

فأشرف رجلٌ منهم ، فقال : يا مَعْشر العرب ، ما شأنـكم ؟ قالو : إن عمر بن الخطاب قد قدم إلينا . فرجع هذا وأعلم البَطْرَك ، فأطرق ولم يتـكلّم .

فلما كان الغد صلّى عمرُ بالمسلمين ، ثم قال لأبى عبيدة : تقدّم وأَعْلمهم أنى قد أتيت .

فخرج أبو عبيدة وصاح بهم : إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى ، فما تصنعون ؟ قال البَطْرَك : قل له يدنو منا ، فإنا نعرفه بصفاته ونَعْتِه ؛ وأَفْرِدُوه من بينـكم حتى نراه .

فرجع أبو عبيدة إلى عمر ، فأخبره بما قال ، فهَمّ عمر بالقيام فقال له بعضُ أصحابه : يُخشَى عليك من الانفراد بلا عُدّة .

---

(١) تلطفوا وتلاطفوا : رفقوا (٢) البرذون : الدابة . والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب (٣) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة .

فقال عمر : لن يصيبنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا ، هوَ مَوْلانا وعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . ثم لبس مُرَقَّعته وركب بعيره ، وأبو عبيدة سائرٌ بين يديه إلى أن أتى بإزاء البَطْرَكِ قريبا من الحصن .

فقال أبو عبيدة : هذا أمير المؤمنين ! فمدّ البطرك عنقه ونظر إليه فزَعَق [1] ، وقال : هذا والله الذى صفتهُ فى كتُبنا !

ثم قال : يأهل بيت المقدس ، انزلوا إليه ، وخذوا منه الأمان والذِّمَّة ، فهذا والله صاحبُ محمد .

فنزلوا مسرعين ، وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدّة الحصار ، وفتحوا الباب، وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد .

فلما رآهم عمر على تلك الحالة خرَّ لله ساجداً على قَتَب [2] بعيره ، ثم أقبل عليهم وقال : ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد .

فرجع القوم إلى البلد ولم يُغلقوا الأبواب ، ورجع عمر .

فلما كان الغد دخل عمر إليها ، وخطّ بها محرابا [3] وأقرّ أهلها على عهدهم ، وأداء الجِزْية [4] .

(١) زعق : صاح (٢) القتب : البرذعة على قدر سنام البعير (٣) المحراب : مقام الإمام من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس (٤) الجزية : خراج الأرض، وما يؤخذ من الذمى .

١٧٠ — عند ملك الصين *

أَوْغَل قُتَيْبَةَ[١] بن مسلم حتى قَرُب من الصين . فـكتب إليه ملكُ الصين . أن ابعث إلينا رجلا من أَشرَف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ونُسَائله عن دينكم .

فانتخب قُتَيْبَةُ من عسكره اثنى عشر رجلا ، لهم جمال وأجسام وأَلْسُن وشعور وبأس ، فـكلّمهم قتيبة وفَاطَنهم[٢] ، فرأى عقولا وجمالا ؛ فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الوَشْى والرقيق والنعال والعطر ، وحملهم على خيول مُطَهّمة تقَادُ معهم ودوابَّ يركبونها .

وكان هُبيرة[٣] بن المُشَمْرَج الـكلابىّ مفوّهاً ، فقال له : يا هُبيرةُ ؛ ماذا أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير ! قلْ ما شئت أَقُلْهُ وآخـذ به ؛ قال : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أنى قد حلفت ألاّ أنصرف حتى أطأ بلادهم وأَجْبِى خراجهم .

فساروا وعليهم هبيرة بن المُشَمْرَج ، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمّام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاً تحتهـا الغَلائل ، ثم مسوا الغالية[٤] ، ولبسوا النِّعال والأردية ، ودخلوا عليه ، وعنده عظماء أهل مملـكته ، فجلسوا ، فلم يكلمهم هو ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا .

---

* تاريخ الطبرى : ٨ ــ ١٠٠

(١) أمير فاتح من رجال العرب ، اتصل بالوليد بن عبد الملك فولاه خراسان ، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية ، واستمرت ولايته ١٣ سنة وقتل سنة ٩٦هـ (٢) فاطنه فى الكلام : راجعه (٣) كان مع قتيبة حين غزا الصين وتوفى بفارس سنة ٩٦هـ (٤) الغاليه : الطيب .

فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا: رأينا قوما ما هم إلاّ نساء ، ما بقى منا أحدٌ حين رآهم إلا وجد رائحتهم .

فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوَشْىَ وعمائم الخزّ والمَطَارف [1] ، وغَدَوْا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبهُ بهيئة الرجال .

فلما كان اليومُ الثالث أرسل إليهم فشدّوا عليهم سلاحهم ، ولبسو البَيْضَ والمغَافِر [2] ، وتقلدوا السيوف ، وأخذوا الرماح ، وتنكّبُوا [3] القسىَّ ، وركبوا خيولهم وغدوا ! فنظر إليهم صاحبُ الصين ، فرأى أمثال الجبال مقبلةً ، فلما دنوْا رَكَزُوا رماحهم ، ثم أقبلوا مشمرين ، فقيل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا ، لما دخل قلوبهم من خوفهم .

فانصرفوا فركبوا خيولهم وَحملوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهمَ كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترَوْنهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط !

فلما أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلىّ زعيمكم وأفضلكم ، بعثوا إليه هبيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتُم عظيمَ ملكى ، وأنه ليس أحدٌ يمكنكم منى وأنتم فى بلادى ، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضَه فى كفى ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقنى قتلتكم . قال : سَلْ ، قال : لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزّى فى اليوم الأول والثانى والثالث ؟ قال : أما زيّنا الأول فلبَاسُنا فى أهالينا وريحنا عندهم ، وأما يومُنا الثانى فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدوّنا ، فإذا هاجنا هَيْجٌ

---

(١) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام ، وجمعه مطارف . (٢) البيضة : الخوزة ، وجمعه بيض ، والمغافر : جمع مغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح

(٣) تنكب قوسه : ألقاه على منكبه .

وفَزَعٌ كنا هكذا . قال : ما أحسن ما دَبَّرْتم دَهْرَكم ! فانصرفوا إلى صاحبكم ، فقولوا له ينصرف ؛ فإنى قد عرفتُ حِرْصَه وقِلَّةَ أصحابه ، وإلا بعثتُ عليكم مَنْ يهلككم ويهلكه .

قال له : كيف يكون قليلَ الأصحاب مَن أولُ خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلَّفِ الدنيا قادراً عليها وغزَاك ؟ وأمَّا تخويفُك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمُها القتل ، فلسنا نكرهُه ولا نخافُه .

قال : فما الذى يُرْضى صاحبك ؟ قال : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويُعطى الجِزْية . قال : فإنا نخرجه من يمينه ونبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فَيطؤُه ، ونبعث إليه بجِزْية يرضاها ؛ ثم دعا بِصِحَاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب ، ثم جزاهم فأحسن جوائزهم ؛ فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قُتَيْبَة الجِزْية وَوَطِئ التراب .

١٧١ — إنك ابني*

قال رجل من أهل الكوفة : كنا مع مَسْلمة (١) بن عبد الملك ببلاد الرّوم ، فسبي سَبْياً كثيراً ، وأقام ببعض المنازل ، فعرض السَّبْي على السيف ، فقتل خَلْقاً كثيراً ، حتى عرض عليه شيخٌ ضعيف ، فأمر بقتله .

فقال : ما حاجتك إلى قَتْلِ شيخ مِثْلي ؛ إن تركتني جئتُك بأسيرين من المسلمين شابين . فقال : ومَنْ لى بذلك ؟ قال : إني إذا وعدتُ أوفيتُ . قال : لستُ أَثِق بك . قال : فدَعْني أطوفُ في عسكرك ، لعلي أعرفُ من يكفلني إلى أن أمضى وأجِئ بالأسيرين . فوكلَ به من طاف معه في عسكره ، والاحتفاظ به .

فما زال الشيخ يطُوف و يتصفّحُ الوجوه ، حتى مرَّ بفتى من بنى كلاب قائماً يحسّن فرسه ، فقال : يافتى ، اضمنّي من الأمير ؛ وقصَّ عليه قصته . قال : أفعل . وجاء الفتى معه إلى مَسْلَمة فضمنه ، فأطلقه مسلمة . فلما مضى قال : أتعرفه ؟ قال : لا والله . قال : ولِمَ ضمنته ؟ قال : رأيته يتصفح الوجوه ، فاختارني من بينهم ، وكرهت أن أُخْلِفَ ظنه .

فلما كان من الغد عاد الشيخُ ، ومعه أسيران من المسلمين شابان ، دفعهما إلى

---

* الفرج بعد الشدة : ١ ـ ٨٢

(١) أمير قائد من أبطال عصره ، ولاه أخوه يزيد إمرة العراقين ، ثم أرمينية ، ومات بالشام سنة ١٣٠ هـ .

مسلمة وقال : يأذَنُ الأمير فى هذا الفتى أن يصيرَ معى إلى حِصْنى لأكافئه على فعله معى . قال مسلمة : إن شئتَ فامْض معه .

فلما مضى وصار معه إلى حِصْنِه ، قال له : تعلم والله يا فتى أَنك ابنى ؟ قال : وكيف أكونُ ابنك ، وأنا رجل من العرب مسلم ، وأنت من الروم نصرانى ؟ قال : أخبرنى عن أمك مَنْ هى ؟ قال : رومية . قال: فإنى أصفُها لك ، فبالله إن صدقتُ إلا صدقتنى . قال : أفعل .

فأقبل الرومىّ يصفُ أمه ما خرم من صفتها شيئاً . فقال : هى كذلك فكيف عرفت أنى ابنها ؟ قال : بالشبه وتَعَارُفِ الأرواح وصِدْق الفراسة . ثم أخرج إليه امرأة ، فلما رآها الفتى لم يشكّ فى أنها أمه لشدة شَبَهِها بها ، وخرجت معها عجوز كأنها هى ، فأقبلْنَ يُقَبِّلْنَ رأس الفتى ، فقال له الشيخ : هذه جدتك ، وهذه خالتك .

ثم خرج من حِصْنه ، فدعا بشباب فى الصحراء ، فأقبلوا فكلمهم بالرومية ، فجعلوا يقبّلون رأس الفتى و يديه ورجليه ، فقال : هؤلاء أخوالك و بنو خالتك ، و بنو عم والدتك ؛ ثم أخرج إليه جلباً[1] كثيراً وثياباً فاخرة ؛ فقال : هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيت ، فخذه معك ، فادفعه إليها ، فإنها ستعرفه ، ثم أعطاه لنفسه مالاً كثيراً ، وثياباً جليلة ، وحمله على عدة دواب و بغال وألحقَه بعسكر مسلمة وانصرف .

فأقبلَ الفتى قافلاً حتى دخل منزله ، فأقبل يخرج الشىء بعد الشىء مما عرّفه الشيخ أنه لأمّه ، فتراه فتبكى ، فيقول لها : قد وهبته لك !

(١) الجلب : كل ما جلب من خيل أو غيرها .

فلما أكثر هذا عليها ، قالت : يابنيّ ؛ أسألك بالله ؛ من أى بلد صارت إليك هذه الثياب ؟ وهل قتلتم أحداً من أهل هذا الحِصْن الذى كان هذا فيه ؟ فقال لها الفتى : صفةُ الحصن كذا وكذا ، وصفةُ البلد كذا وكذا ، ورأيت فيه قوماً من حالهم كذا وكذا ، ووصف لها أمها وأختها وأولادهما وهى تبكى ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : الشيخ والله أبى ، والعجوز أمى ، وتلك أختى ! فقصّ عليها الخبر ، وأخرج بقيةَ ما كان معه مما أنفذه أبوها إليه ، فدفعه لها .

١٧٢ — خدْعة*

لمّا ذهب الرشيد لغَزْوِ الروم أخذ يفتحُ المدن والحصون ويخربها ، حتى أناخ على هرِقْلَة(١) ، وهى أوثقُ حصن وأعزُّه جانباً ، وأمنعُه رُكْناً ، فتحصَّن أهْلُها ـ وكان بَابُها يُطِلُّ على وادٍ ، ولها خندق يُطيفُ بها ـ ولما ألحَّ عليهم بالمجَانِيق والسّهام والعرَّادات (٢) فُتِح الباب ، وإذا برَجل من أهلها كأكمل الرجال ، قد خرج فى أكمل السِّلاح فنادى : قد طالت مُوَاقَعَتكم إيَّانا ، فليَبْرُزْ إلىّ منكم رجلان . ثم لم يزل يزِيدُ حتى بلغ عشرين رجلا ، فلم يجبه أحد ؛ فدخل وأغلق باب الحِصْن .

وكان الرّشيدُ نائماً فلم يعلم بخبره إلا بعدَ انصرافه ؛ فغضب ولام خَدَمَهُ وغِلمانه على تَرْكهم إنباهه (٣) ، وتأسف لفَوْته . فقيل له : إن امتناع الناس منه سيُقَوِّيه ويطغيه ، وأحْرِ به أن يخرجَ فى غد ، فيطلبَ مثل ما طلبَ ؛ فطالت على الرشيد ليلتُه ، وأصبح كالمنتظر له ، ثم إذا هو بالباب قد فُتح ، وخرج طالباً للمبارزة ، وذلك فى يوم شديد الحر ، وجعل يدعو بأنه يثبت لعشرين منهم .

فقال الرشيد : مَنْ له ؟ فابتدره جملةُ القواد كهرْثمة ، ويزيد بن مزْيَد ، وعبد الله بن مالك وغيرهم ؛ فعزم على إخراج بعضهم ؛ فضجَّت المطَّوِّعة (٤) حتى

---

* الأغانى : ١٧ ـ ٤٦

(١) مدينة ببلاد الروم (٢) المنجنيق والعرادة : آلتان من آلات الحروب ترمى بها الحجارة
(٣) أنبهه : أيقظه من النوم (٤) المطوعة : الذين يتطوعون بالجهاد .

سَمِعَ ضجيجهم ، فأَذِنَ لعشرين منهم ، فاستأذنوا فى المشورة ، فأذِن لهم ، فقال قائلهم : يا أمير المؤمنين ؛ قوادُك مشهورون بالبَأْس والنَّجْدة وعلوِّ الصيت ومُدَارسة الحروب ، ومتى خرج واحد منهم فقَتلَ هذا العِلج (١) لم يكبر ذلك . وإن قتَلَهُ العِلْج كانت وضيعة على العسكر عجيبة ، وثُلْمة لا تسد . فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يخلِّينا نختارُ رجلا فنخرجُه إليه ! فإن ظفر عِلم أهلُ الحصن أن أميرَ المؤمنين قد ظفِر بأعزِّهم على يدِ رجلٍ من العامّة ومن أفْناء (٢) الناس ، ليس ممن يُوهِنُ قتله ولا يُؤَثِّر ، وإن قُتِلَ الرجلُ فإنما استشهد رجل ، ولم يؤثِّر ذهابُه فى العسكر ، ولم يَثْلِمْه ، وخرج إليه رجل بعده مثله حتى يمضىَ إليه ماشاء .

قال الرشيد : لقد استصوبتُ رأيكم هذا ؛ فاختاروا رجلا منهم يعرف بابن الجَزَرِى ، وكان معروفاً فى الثغرِ بالبَأْس والنَّجْدة ، فقال الرشيد : أتخرج ؟ قال : نعم ! وأستعينُ الله . فقال : أَعْطُوه فرساً ورُمْحاً وسيفاً وتُرْساً . فقال : ياأميرالمؤمنين : أنا بفرسى أوثقُ ، ورمحى بيدى أشدّ ؛ ولكنى قد قبلتُ السيفَ والتُّرس .

فلبِسَ سلاحَه ، واستدناهُ الرشيدُ فودَّعه واستَتْبَعَهُ الدعاء ، وخرج معه عشرون رجلا من المطَّوِّعة : فلما انقضَّ فى الوادى ، قال لهم العِلْج وهو يعدُّهم : إنما كان الشرْط عشرين وقد زدتُمْ رجلا . ولكن لا بأس ، فنادَوْه : ليس يخرج إليك منا إلا رجل واحد . فلما فَصَلَ منهم ابن الجزرى تأمّله الرُّومى ، وقد أشرف أكثرُ الروم من الحصن ، يتأمّلون صاحِبَهم والقِرْن ، حتى ظنوا أنه لم يبقَ فى الحصن أحدٌ إلا أشرف . ثم أخَذَا فى شأنهما فاطَّعَنَا (٣) حتى طال الأمرُ بينهما ، وليس يخدِشُ واحدٌ منهما صاحبه .

---

(١) العلج : الرجل من كفار العجم (٢) لا يعلم من هو (٣) تطاعنا .

ثم تحاجزا بشىء فزجَّ كل منهما برُمحِه ، وأصْلَتَ [1] سَيْفَه ، فتَجَالدا مَلِيًا ، واشتد الحرُّ عليهما وتبلَّدَ [2] الفرَسان ، وجعل ابن الجزرى يضرب الرومى الضرَبةَ التى يرى أنه قد بلغ فيها فيتّقيها الرومى ، وكان ترْسُه حديداً ، فيسمع لذلك صوتٌ مُنْكر .

فلما يئس كلٌّ واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابنُ الجزرى فدخلت المسلمين كآبةٌ لم يكتئبوا مثلها قط ، وعَطْعَطَ الروم [3] اختيالا وتطاولا ، وإنما كانت هزيمتُه حيلةً منه . فاتَّبَعَه العِلْج وتمكّن منه ابنُ الجزرىَ فرماه بوَهَق [4] ، فوقع فى عنقه وما أخطأه ، وركَضَ فألقاه عن فرسه ، ثم عطف عليه ، فما وصل إلى الأرض حيًّا حتى فارقه رأسه . فكبَّر المسلمون أعلى تكبير ، وانْخَذَلَ الروم ، وبادروا الباب يُغْلقونه ، واتَّصل الخبرُ بالرشيد فصاح بالقوّاد : اجعلوا النار فى المجَانيق ، وارمُوها فليس عند القوم دَفْع . ففعلوا وجعلوا الكتان والنِّفط على الحجارة وأضرموا فيها النار ، ورمَوْا بها السّور فكانت النار تلصق به ، وتأخذ الحجارة وقد تصدعت فتهافتت . فلما أحاطت بها النيران فتحوا الباب الباب مستأمنين ومستقبلين .

---

(١) أصلت السيف : جرده من غمده (٢) التبلد : ضد التجلد (٣) العطعطة : تتابع الأصوات واختلاطها فى الحرب وغيرها (٤) الوهق بفتح الهاء وإسكانها: الحبل يرمى أنشوطة، فتؤخذ به الدابة .

١٧٣ — وامعتصماه * !

وقف رجلٌ على المعتصم[١] فقال : ياأمير المؤمنين ؛ كنت بعمُّورِيَةَ[٢] وجاريةٌ من أحسنِ النساء سيرةً ، قد لطمها عِلْجٌ[٣] فى وجهها ، فنادتْ : وَامُعْتَصِماه ! فقال العِلْج : وما يقدرُ عليه المعتصمُ ! يجىء على أَبْلَق وينصرك ! وزاد ضَرْبها .

فقال المعتصم : وفى أى جهة عمّورية ؟ فقال له الرجل — وأشار إلى جهتها : هاهى ذى ؛ فردّ المعتصم وجْهَه إليها ، وقال : لَبَّيْكِ أيتها الجارية ، لَبَّيْكِ ؛ هذا المعتصم بالله أجابك ، ثم تجهّز إليها فى اثنى عشر ألف فرس أَبْلَق ، وحاصرها .

ولما طال مُقامه عليها جمع المنجِّمين فقالوا له : إنَّا نَرى أنك ما تَفْتحها إلا فى زمان نُضج العنب والتين ، فشقَّ عليه ذلك واغتمّ ، وخرج ليلةً مع بعض حَشَمِه متجسِّساً فى العسكر يسمع ما يقول الناس ، فمرَّ بخيمة حدّاد يضرب نِعَال الخيل ، وبين يديه غلام أقرعُ قبيحُ الصورة ، وهو يضرب على السَّندان ويقول : فى رأس المعتصم ! فقال له معلمه : اتركْنا من هذا ، مالك وللمعتصم ! فقال : ما عنده تَدْبير ، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة مع قُوَّته ولا يفتحها ! لَوْ أعطانى الأمر مابات غداً إلا فيها .

فتعجب المعتصمُ مما سمع ، وترك بعضَ رجاله موكَّلاً به ، وانصرف إلى خبائه ، فلما أصبح جاءوا به ، فقال : ما حملك ياهذا على ما بلغنى عنك ؟ فقال الرجل .

* محاضرات الأبرار : ٢ — ٦٣

(١) خليفة من أعاظم خلفاء الدولة العباسية وهو فاتح عمورية توفى سنة ٢٢٧ هـ (٢) عمورية : بلدة من بلاد الروم . (٣) العلج : الواحد من كفار العجم

الذى بلغك حقّ ، ولو ولَّيتَني الحرب فإنى أرجو أن يفتحَ الله عليك . فقال : قد ولَّيْتُك ، وخلع عليه وقدّمه على الحرب ، ففتح الله عليه ، ودخل المعتصم المدينةَ ، ولم يثبت قولُ المنجمين .

ثم دعا بالرجل الذى بلغه حديثَ الجارية ، فقال له : سِرْ بى إلى الموضع الذى رأيتَها فيه ، فسار به ، وأخرجها من موضعها ، وقال لها : ياجارية ، هل أجابَكِ المعتصم ؟ ثم ملّكها العِلْجَ الذى لَطمها ، والسَّيِّد الذى كان يملكها وجميع ماله[1].

---

(١) وفى هذه يقول أبو تمام قصيدته :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
وخوفوا الناس من دهياء داهية ... إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

عرض بتاريخ المنجمين فى التين والعنب فقال :

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب

فهرس القصص

البـــاب الأول

فى القصص التى تعرب عما يقع بين العامة والملوك ، والقوّاد والرؤساء والقضاة ومن إليهم ، من كل ذى صلة بالحكم والحكام ، مما يتناول حيلهم فى المنازعات والخصومات ، ويوضح طرائقهم فى رفع الظلامات ورجع الحقوق وما يجرى هذا المجرى :

الباب الثانى

فى القصص التى تصوِّر احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم ، وتمجيدهم للأسلاف ، وتعديدهم ما تركوا من مآثر ، وما أدَّى إليه ذلك من مفاخرات ومنافرات:

الباب الثالث

فى القصص التى تنقل ما كانوا يتفكّهون به من أسمار ومطايبات ، ومناقدات وأفاكيه ، مما نال به المحدِّثون والندماء سَنِيّ الجوائز والخِلَع من الخلفاء والوزراء ، وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجوه فى المجتمعات والمنتديات :

البـــاب الرابع

في القصص التي تؤرّخ مذكور أيامهم ، وتفصِّـل مشهور وقائعهم ، ومقتل كبرائهم ، وتصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم ، أخذاً بالثأر ، أو حماية للذمار :

البـــاب الخامس

فى القصص التى تحـكى ما كان للجند من أحداث وأحاديث فى الغارات والغزوات والفتوح ، مصورة نفسياتهم وأحوالهم ، واصفة تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربيـــة وانفساح رقعتها ، مفصلة عددهم وآلاتهم وأسلحتهم فى حياتهم الجديدة :

فهرس الأعلام

(ب)

(ى)

فهرس الأماكن

مراجع هـــــذا الجزء

الأغانى	: لأبى الفرج الأصفهانى
الأمالى	: للقــالى
الأمالى	: للمرتضى
بدائع البدائه	: لعلى بن ظافر الأزدى
بلوغ الأرب	: للألوسى
تاريخ الأمم والملوك	: لابن جرير الطبرى
تزيين الأسواق	: لداود الأنطاكى
ثمرات الأوراق	: للحموى
الحيوان	: للجاحظ
خزانة الأدب	: للبغدادى
ذيل الأمالى	: لأبى على القالى
ذيل زهر الآداب	: للحصرى
رغبة الآمل	: للمرصفى
زهر الآداب	: للحصرى

سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن عبد الحكم
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد
صبح الأعشى : للقلقشندى
عصر المأمون : للدكتور فريد رفاعى
العقد الفريد : لابن عبد ربه
العقد الفريد : للملك السعيد
عيون الأخبار : لابن قتيبة
غرر الخصائص الواضحة : لأبى إسحاق الوطواط
الفرج بعد الشدة : للتنوخى
الكامل فى الأدب : للمبرد
الكامل فى التاريخ : لابن الأثير
مجمع الأمثال : للميدانى
المحاسن والأضداد : للجاحظ
المحاسن والمساوئ : للبيهقى
محاضرات الأبرار : لابن عربى
المختار من نوادر الأخبار (مخطوط) : لمحمد بن أحمد الأنبارى
مروج الذهب : للمسعودى
المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشيهى

معجم الأدباء : لياقوت الحموى
معجم البلدان : لياقوت الحموى
معاهد التنصيص : لبدر الدين العباسى
مهذب الأغانى : للخضرى بك
نفخ الطيب : للمقرى
نهاية الأرب : للنويرى

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغه	: للزمخشرى
الأعلام	: للزركلى
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجى زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: للخضرى بك
جمهرة أمثال العرب	: لأبى هلال العسكرى
رغبة الآمل	: للمرصفى
شرح ديوان الحماسة	: للمرصفى
شرح الأمال	: للبكرى
طبقات الشعراء	: لابن سلام
طبقات الشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر فى الأمثال	: للضبى
فهرس خريطة المماليك الإسلامية	: لأمير بك واصف
القاموس المحيط	: للفيروز أباذى
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
مغنى اللبيب	: لابن هشام
وفيات الأعيان	: لابن خلكان